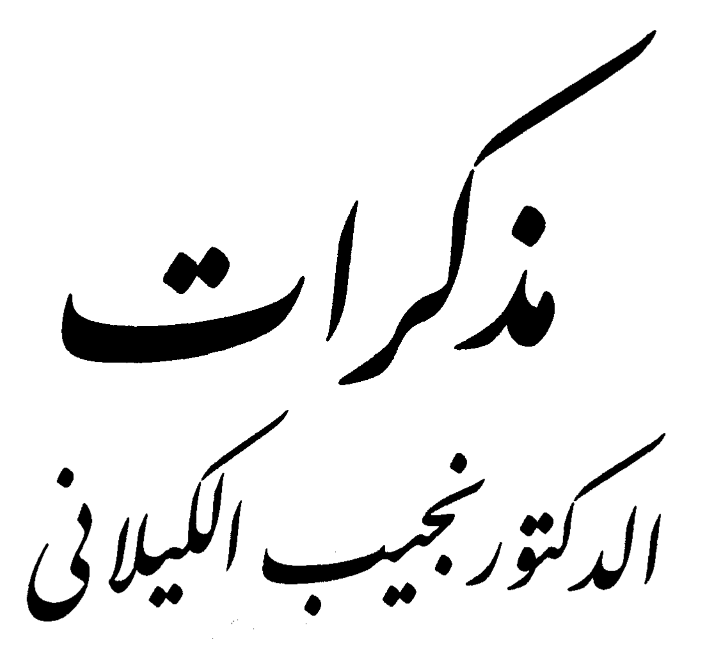
# مذكرات

# الدكتور نجيب الكيلانى

الجزء الثانى



كتاب المختار




الجزء الثاني



رقم الإيداع : ٢٤٨٣٧/ ٢٠٠٦

جديدة ، إضافة إلى العقوبة التى لم يصدرها المدير بعد ، ولم يكن أمامى سوى الانتظار حتى يحط الليل ، ويسود الظلام ، وبعد أن صليت العشاء ، أمسكت بعلبة « التونة »؛ وأخذت أحكّها بشدة فى أرض الزنزانة السوداء المحببة ، وطال بى الوقت وبذل الجهد حتى تفصد جبينى عرقًا ، وبعد ساعة أو أكثر تآكلت الحواف المعدنية لعلبة « التونا » ثم سقط غطاؤها ، ونفذت إلى خياشيمى رائحتها الشهية ، وسالت كمية من الزيت على الأرض وعلى يدى ، لكننى أسرعت وأفرغتها فى « القروانة » المصنوعة من الزنك أو الألومنيوم ، ولم يكن لدى خبز ، لهذا أخذت أتناولها كما هى بشهية لا مثيل لها... حلوى.. ثم « تونة » فى ليلة واحدة؟ وفى « التأديب »؟ إنه فضل كبير من الله.

شعرت بالدفء أكثر ، وأنا أجلس متلفعًا « بالبطانية » جالسًا فوق البرش الخشن ، وحمدت الله.. لكن السعال يشتد ، وأسمع « جرجس » يهتف بى ليلًا: « سلامتك يا دكتور » وأنا أرد قائلًا: « تسلم يا جرجس »؛ ويمتد ليل الشتاء البارد ، وأنا أجوب الماضى البعيد بخيالى وفكرى ، وأتذكر تفاصيل حياتى التى تبدو كشريط سينمائى طويل.. القرية.. الأهل.. سكان قريتنا الطيبين البسطاء ، ثم المدينة وأيام الغربة.. والصراعات السياسية والمعارك الطاحنة.. الثورة.. الإخوان.. السجن الحربى.. ونظرات الذئاب من رجال الأمن والسياط والدماء.. والموت.. والمحاكمات والمصير الذى لا يعلمه إلا الله.. وأشعر برغبة عارمة فى القراءة.. أجل القراءة ذلك العالم السحرى الرائع.. إن منعى من القراءة فى حد ذاته عقوبة قاسية.. ولو أنهم سمحوا لى بمصحف لكفانى ذلك.. أفكار كثيرة تدور فى رأسى ، وأبيات من الشعر تتزاحم.. وتريد أن تخرج إلى الوجود كائنات على الورق.. والسعال يهزنى هزًا عنيفًا ، وكأنه مديّ تمزق حنجرتى وصدرى والشعب الهوائية.. وأظل شاردًا فى دنيا الذكريات والأفكار والمشاريع المستقبلية والآمال ، رغم الظلام الدامس ، والدلائل السيئة التى لا تبشر بخير ، وبرغم سياسة السحق والتكميم والتكدير المستمر ، والإهانات البالغة التى نقاسى أهوالها ، وتذكرت حكمة قديمة لا أدرى أين قرأتها ، إنها تقول: « علمتنى الحياة أن أستخرج من المر حلاوة ».. نعم حلاوة.. ربما تذكرتها بسبب « الحلوى الطحينية » التى أتى بها الحاج « فرغلى ».. لكن لماذا الحاج فرغلى بالذات؟ لا أستطيع الإجابة ، علىّ أن آكل أولا.. وفى العمر - إن شاء الله - متسع لمعرفة ذلك فيما بعد..

جاء يوم الجمعة وأنا ما زلت فى التأديب ، وسمح لى السجان بالاختلاط ببعض السجناء من أبناء الصعيد لمدة ساعة ، كانوا كرماء معى ، فقد قدموا لى فى زنزانتهم كوبًا من الشاى الساخن ، وحاولوا مساعدتى فى حلق اللحية دون جدوى ، فقد كانت شفرة الحلاقة غير حادة بالمرة ، وبعد أن أتموا الحلاقة ، وجدت الشعر كما هو تقريبًا.. لكننى شعرت أن وجهى يلتهب..

قبيل المغرب ، بعد أن أغلق السجان نهائيًا باب الزنزانة ، سمعت صوت الأخ الضابط السابق السجين نجيب عطية ينادى من النافذة ، ولكى أستطيع أن أطل عليه ، أحضرت دلو الماء ، ووضعت قدمى على أطرافه حتى أستطيع الوصول إلى النافذة ورؤيته وقال لى: « لقد أحضرت لك قنينة دواء سعال « بنيلين » ، وبعض الطعام.. اعذرنا.. نحن لا نستطيع الاتصال بك باستمرار نظرًا لأن عنبرنا الآن موضوع تحت « التكدير » ، فقد حدث صدام بين إخوانك والضابط زكى ، واختطفوا منه المسدس.. وكادت تحدث كارثة لولا لطف الله.. إنه أخطأ بإحضاره المسدس معه ، وقد اقتنع المدير بذلك.. لكن كان لابد من اتخاذ بعض العقوبات والتكدير ضدنا.. وكان ما حدث لك أحد الأسباب التى أدت إلى سوء التفاهم بين الإخوان والإدارة ..»

وودعنى ومضى ، وأثناء نزولى من فوق « دلو الماء » اختل توازنى ، فتدحرج دلو الماء ، وانسكب

كله على أرض الزنزانة ، وأصبت بالذهول وأنا أرى تلك الكارثة ، وأسرعت بالتقاط « البرش » و« البطانية » قبل أن يطولهما البلل ، وإلا تعذر على النوم فى ذلك الليل القارس.. ووضعت تلك الأمتعة البسيطة فوق الدلو الفارغ ، ثم أخذت أغترف الماء المسكوب بيدى وأضعه فى دلو البول ، لا أدرى كم بقيت من الوقت أمارس هذا العمل فى سرعة وحماسة ، ثم انتزعت « طاقيتى الزرقاء » من فوق رأسى ، وأخذت أكمل تجفيف الأرض بها ، وأعصرها من آن لآخر ، كنت أسعل بشدة ، والعرق يندى جبينى وأشعر به يبلل جسدى ، وبعد فترة طويلة استطعت أن أفرش البرش ، وألتف بالبطانية ، وأستعد للنوم.. لكنى تذكرت الطعام ، فقد كانت معدتى - بعد ذلك الجهد المضنى - يعتصرها الجوع ، وقلما يشبع الإنسان فى السجن ، فالتهمته التهامًا.. وفى اليوم التالى أرسلت إلى إخوانى أطلب أن يبعثوا إلى بحذاء وجورب من الصوف مهما دفعوا مقابل ذلك من ثمن للسجان ، وقد نجحوا فى تحقيق هذه الرغبة ، ثم جاء اليوم الذى سيأخذوننى فيه إلى المدير لإصدار العقوبة.. كنت واقفًا أمام باب المدير ، ومعى سجان آخر من الإدارة غير سجان التأديب.

قال لى السجان: « اخلع نعليك ..»

قلت: - « لماذا؟ »

- « لأنه لا يدخل مسجون على المدير إلا حافى القدمين ».

كان حذائى من القماش الرخيص ، وأخذت أشرح للسجان قصة سيدنا موسى حينما قال له ربه ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ ، وقلت للسجان ليس المأمور إلهًا ، ولست أنا موسى ، ولسنا فى الوادى المقدس.. بل فى سجن لعين ، فقال السجان فى غضب: « لا نسمع منكم إلا الفلسفة.. وتَعْصُون الأوامر دائمًا ».

ومر بنا فى هذا الوقت الأخ اليوزباشى « مصطفى أبو دومة » مأمور السجن ، وهو كما قلت من الرعيل الأول من ضباط الإخوان فى الشرطة ، وأدرك على الفور أن هناك خلافًا على نحو ما بينى وبين السجان ، فسأل السجان عن الأمر فرد: « يا سعادة البك لا يريد أن يخلع حذاءه عند دخوله إلى المدير »

فقال مصطفى دون أن ينظر إلى ، وهو مستمر فى سيره إلى مكتبه: « وهل لائحة السجون تقول ذلك؟ »

وفهمت على الفور أن لى حقًا لابد أن أتمسك به ، ورفضت خلع الحذاء مهما كان الأمر..

ودخلت على المدير « اللواء عطوة حنفى » وكان ينظر فى أوراق أمامه ، كنت ثابت الخطى ، رغم شحوب وجهى ، وحشرجة صدرى الذى يسمع صوت أزيزه أثناء تنفسى بالنسبة للقريب منى ، وألقى علىّ نظرة عجلى ثم أصدر حكمه دون تحقيق أو حتى مناقشة وقال: « خمسة أيام فى التأديب .. امش »

فدفعنى السجان فى غلظة إلى الخارج كما هى العادة المتبعة فى وجود المسئولين الكبار.. كنت أحسب أن مدة العقوبة قد انتهت ، فقد قضيت خمسة أيام فى التأديب ، وهذا هو اليوم السادس ، لكن للأسف فإن العسكرى - عندما قلت له ذلك - أخبرنى بأن تنفيذ التأديب يبدأ بعد تقرير المدير ، وما قبل ذلك - مهما كانت المدة - لا يوضع فى الحسبان..

وعدت إلى الخندق الضيق وحدى مع الألم والضيق ، لكن النجدة كانت تأتينى دائمًا عندما ألوذ بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ ، وأحاول أثناء عبادتى أن أنسى الدنيا من حولى ، فتشرق روحى بلون من الفرح عجيب لا يمكن وصفه فى كلمات ، إنها تحلق فى سماء عالية شفافة فيها زرقة مريحة تهدئ من اللوعة والأشجان ، حتى لكأن ذكر الله معراج يصعد بالروح إلى آفاق طاهرة نقية

لا يشعر بها حزن ولا أسى ولا شجون.. حتى عندما كنت أناجي ربى ، والدموع تبلل أهدابى ، أشعر بتلك النشوة العجيبة.. فرح ودموع.. كيف يلتقيان؟ إنها سر من أسرار الخلق ، وكم فى النفس الإنسانية من أسرار!!

وفى نهاية أيام التأديب حملت فراشي البسيط ، ووليت وجهى شطر العنبر الشرقى الذى يقيم فيه الإخوان ، وفى الدور الثانى ، وجدت الأذرع المفتوحة ، والعيون الباسمة الفرحة ، والكلمات الحلوة ، وتجمع الأحباب من حولى ، وكأنى عائد من سفر طويل.. طويل.. أصبحوا هم أحبابى وأهلى وعشيرتى وكل دنياى.. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ..﴾ ها هو أخى أنور حسانين.. ومحمود هاشم « الشهير بحاتم » ، وحسين عاشور ، والحاج عبد العزيز عبد الجواد ، وفؤاد شاكر ، وحسين عبد المعطى ، ورجب الخميسى ، وأبو بكر عثمان ، ويحيى عبد الرحمن و.. و.. و.. وغيرهم كثيرون.. وقال لى بعضهم على طريقة السينما المصرية لمن يخرج من السجن: « كفّارة يا معلم.. تعيش وتاخد غيرها ..»

ويضحكون.. وأضحك.. وآثار دموع تتألف فى العيون الطيبة الصابرة.. جلست فى ركنى المعهود ، وشردت ببصرى إلى بعيد ، وقلت: « إلى متى هذا العناء؟ » قال الأخ أنور حسانين « رحمه الله »: « عندما ينتهى صراع الحق والباطل ، وينتصر الخير على الشر ..»

- « أيمكن أن يتحقق ذلك؟ »

- « لا يستطيع الإجابة على ذلك غيره ..» وأشار بسبابته إلى السماء.

حاول أحد الإخوة التحول إلى جو المرح ، وقال مقلدًا الممثل الشهير يوسف وهبى: « هيه.. ما الدنيا إلا مسرح كبير ..»

وأسكتونى بكوب ساخن من الشاى ، ومر السجان صاحب المشكلة ، والذى وشى بى إلى الضابط ، وأضاف إلى ما حدث الكثير من أكاذيبه وأباطيله ، وقال وهو يرمقنى بنظرات لا تعرف الحياء: « حمدًا لله على السلامة.. حقك يا دكتور.. النظام نظام ..»

لم أجد مبررًا أو جدوى من أن أرد عليه ، أو أبادله الحديث ، حقيقة لقد كرهته ، إن العسكر فى الحقيقة لا يخلون من أناس طيبين ، يقدرون ظروف السجين ، ويدركون أبعاد مأساته ، ويتصرفون مع السجناء كآدميين لهم حقوق ، ولا يضخمون الخلافات ، أو يختلقون أسبابًا للإيذاء ، لكن السجان « عبد اللاه » كان عنيفًا قاسيًا ، ميت العواطف والمشاعر على الأقل - حسبما نرى - فى تعامله مع المسجونين ، لقد كرهته ، لأنه يجعل الإدارة الظالمة فوق مبادئ الرحمة والمبادىء والسماحة التى أوصى بها رسول الله ﷺ ، وكنت متحمسًا للعمل على نقله من عنبرنا بأسلوب أو بآخر ، ولم يهدأ بالى إلا بعد أن تم ذلك.. وعلى الرغم من مشاكلنا ، وحساسية وضعنا ، إلا أن السجانين الذين يتناوبون فى عنبرنا يفرحون بذلك ، لأنهم يستفيدون منا ماديًا.. لشد ما كانت شهيتى للقراءة مفتوحة.. وللكتابة أيضًا.. إن « الحبس الانفرادى » شديد القسوة ، وخاصة إذا حرمت من كل وسائل قضاء الوقت ، لكنه بالنسبة لى كان فترة هامة ، تعلمت منها كيف أعتكف عند الضرورة ، وأتفرغ لعمل جاد ، أو إنجاز دراسة ما ، أو لمجرد الذكر والعبادة ، وخاصة فى عقد الأربعينيات والخمسينيات من عمرى.

إن الاعتكاف أو الخلوة تعتبر ضرورة فى كثير من الأوقات للعديد من الأسباب..

❁❁❁

# [٦] مع أصدقائى المذنبين



لم نكن نعيش فى السجن كإخوان مسلمين منعزلين عن باقى السجناء، فالعزلة فى هذا المجتمع الصغير غير ممكنة، وغير مفيدة فى نفس الوقت، فضلًا عن أنها تتنافى مع أبسط قواعد الدعوة التى ندعو الناس إليها، والواقع أن الاختلاط بالسجناء الآخرين له حدوده وتقاليده، كما إن له نظامه وترتيباته. ولقد تخبطت سياسة الحكومة إزاء هذا الموضوع ففى المعتقلات كنا معزولين دائمًا، فلا يسمح لنا بالاختلاط بأحد، كانت التعليمات للعسكر مشددة بألا يعقدوا معنا أية صلات أو صداقات حتى لا نجرهم إلى مساعدتنا فى نقل رسائل للأهل، أو نأخذ عنهم أخبارًا، أو نخفف من عدائهم لنا، وهم الذين يحملون السياط، وينفذون عمليات التعذيب أثناء التحقيق، وفى غير أوقات التحقيق أيضًا، فإذا أراد أحدنا الحديث مع أحد منهم تجهم وجهه وأسرع برفع سوطه، أو انصرف عنه دون أن ينطق.

ولقد بلور ذلك المعنى أحد العسكر - وكان من بلديات أحد الإخوة - هذا المعنى بقوله: «أنا لا أرى.. لا أسمع.. لا أتكلم»، لكننا بعد أن انتقلنا من المعتقلات إلى السجون المدنية، تغير الوضع، وأصبح السجانون والمسجونون - على حد سواء - يتعاملون معنا فى معظم الأحيان، ونستثنى من ذلك فترات «التكدير» والصدام..

فى هذه السجون المدنية تخبطت سياسة الحكومة، مرة تأمر بتسكيننا مع هؤلاء المساجين العاديين، ومرة أخرى تسمح لنا بدور مخصص، ثم تعود مرة أخرى فتأمر بتسكيننا معهم، والحقيقة أن هذه السياسة أو تلك لم تكن بمانعة من التعامل والتفاهم والتعاون مع هؤلاء السجناء؛ لكننا كنا نفضل أن يحدد لنا مكان معين نستطيع أن نطبق فيه القواعد والشروط الصحية، وأن نحافظ فيه على بعض خصوصياتنا، فنحن لنا برامج فى القراءة وتنظيم الأسر، ومساعدة بعضنا البعض عند الحاجة فى مجال المصروفات وإعداد الطعام والعبادات وغير ذلك من الأمور الأخرى التى لا يمكن أن تتم فى سكن مختلط، لقد دفعنا مثلا من جيوبنا الخاصة ثمن إدخال النور الكهربائى إلى الزنزانات الخاصة بنا، وبعدها بفترة أدخلت الحكومة النور فى زنازين الأخرين دون أن تكلفهم شيئًا، وكنا نطلب الفرق الصحية لتطهير العنبر بالمبيدات الحشرية، كما كنا نستخدم بعض المطهرات والستائر أثناء الاستحمام أو دخول دورة المياه، بينما السجناء الآخرون لا يهتمون بمثل هذه الأمور، رغم محاولة إقناعهم بها.

لقد كُلّف الإخوة بعمل اتصالات مع بعض العسكر والمساجين العاديين وذلك لشراء - أو بعبارة أدق - لتهريب بعض ما نحتاجه من الممنوعات كالشاى والسكر والزيت، وشفرات الحلاقة وبعض الملابس، وبعض الأطعمة التى لا يسمح بتواجدها فى المقصف، وهناك أيضًا تهريب الرسائل، لأن الرسائل التى سمح لنا بها فى الفترة الأخيرة كانت لا تتجاوز نصف صفحة، ولابد أن يقرأها الضابط

المختص ويعتمدها ، ولا يكتب في الرسالة سوى التحيات والتسليمات ، لكن الرسائل المهربة كانت شاملة ، بحيث نكتب فيها كل ما نريد عن إدارة الأمور المالية أو الاقتصادية ، وإبداء المشورة فى كثير من القضايا الأسرية ، كما يمكن أن نضمنها عند الضرورة أخبارنا ومدى ما نتعرض له من تكدير وعقاب ومظالم حتى يعلم أهلونا حقيقة أوضاعنا ، وقد نحرض الأهل على إرسال شكاوى بخصوص الإهمال فى علاج المرضى منا ، وغير ذلك من الأمور الحياتية المختلفة.

كما إن اتصالنا بالمسجونين أحيانًا ما كان ينقل إلينا بعض ما تنويه الإدارة من مضايقات لنا كالتفتيش المفاجىء ، أو تدبير بعض الفتن ، أو الإيقاع بنا فى مشاكل لاختلاق أسباب للإهانة والتكدير ، ومن الطبيعى أن تلعب الإدارة معنا نفس اللعبة كأن تدس بيننا بعض عملائها من المسجونين الذين تعتقد أننا نثق بهم ، كى ينقلوا إليها أخبارنا. لكن بمرور الزمن ، وطول مدة الحبس ، توطدت العلاقة بيننا وبين عدد كبير من المساجين ، وخاصة أولئك القدامى الذين يستطيعون تقديم الخدمات لنا ، وإن كان كل خدمة لها ثمنها ، كما توطدت العلاقة بين بعضنا وبين عدد من العسكر والضباط ، وكلما مرت الشهور تحسنت الأحوال ، لكن يا ويل من يُمسك به متلبسًا من المسجونين وهو يسلم لمندوبينا بعض الاحتياجات الضرورية الممنوعة ، إن أبسط عقوبة له هى الضرب والحجز فى التأديب ، ثم منعه منعًا باتًا من الاتصال المباشر بنا.

كان بسجن أسيوط سجين يبدو أبْلَهَ ، ويتصرف كما يتصرف الأطفال ، وقد قرر الأطباء أن يعامل برقة كما يعامل الطفل ، وكان هذا المسجون ولنسمه « س » يقلد الأطفال فى حركاته وكلامه وتعبيرات وجهه ونظرات عينيه ، ولهذا كان يسرح ويمرح فى فناء السجن كيفما يشاء ، والغريب أن هذا السجين الصعيدى كان من أهم الشخصيات التى تقوم بتهريب احتياجاتنا ، كنت أجلس معه أثناء التعامل ، فأراه رجلًا عاديًا ترتسم على وجهه سيما الجد والصرامة والرجولة ، ويقوم بإجراء العمليات الحسابية بدقة وذكاء ، لكن إذا ما رأى أحد الضباط قادمًا ظهرت على الفور أمارات البلاهة والغباء فى وجهه ، ولم يكن أمره مكشوفًا إلا لنا ، ولعدد محدود من العسكر الذين يتصل بهم لتسهيل مهمة الأشياء المهربة ، وإيصالها إليه ، ثم إلينا ، أو إلى مسجونين آخرين ، ولقد كنت شديد الإعجاب بذكاء هذا الرجل ، وتمثيله دور الأبله بمهارة وثقة وإتقان.. ومن الشخصيات الأخرى السجين العائد « ذو السوابق العديدة » محمود.. كان محمود لصًا محترفًا ، دخل السجن بسبب السرقة أكثر من عشرين مرة ، لقيته أول مرة وأنا واقف خلف الباب الحديدى للعنبر الذى نسكن فيه ، فى انتظار قدوم السجان كى يفتح لى وأخرج إلى فناء السجن.. وجدت محمود يقترب منى ويقول: « هل صحيح يا أستاذ كنتم تريدون الحكم بالشريعة؟ .»

بدا لى السؤال تحصيل حاصل ، ولم يغب عنى أنه يريد أن يتحدث معى لشىء فى نفسه ، ومع ذلك قلت فى اقتضاب: « نعم صحيح ..»

اقترب منى أكثر ، وقال بصوت واضح قوى: « يا سبحان الله ، وهل هناك أحسن من حكم الله؟ »

ثم أخذ يشرح لى كيف أن انحرافه إنما كان بسبب الظلم ، وأنه لم يلجأ للسرقة إلا بعد أن أعيته الحيل فى إيجاد عمل شريف ، أو الحصول على رزقه من طريق حلال ، مما جعله يفقد الثقة فى الناس.

« الناس وحوش يا أستاذ، لم أر فى قلوبهم رحمة ولا إيمان »

« أنت نفسك رأيت كيف عاملوكم لأنكم طالبتم بالشريعة.. بالعدل.. لو كان فيه عدل ما أكل الناس بعضهم البعض »

« السجانة يعاملوننا كحيوانات.. هؤلاء بقر فى صورة بشر يا أستاذ »

كل ذلك وأنا أنظر إلى وجهه الشاحب النحيل المغبر ، وإلى يديه المعروقتين اللتين تتشابكان بقضبان الباب ، وإلى إحدى عينيه المعتمة ، وعوده الضامر ، ووجدتنى أقاطعه قائلًا: « هل تعرف القراءة؟ » رد بسرعة:

- « طبعًا يا أستاذ.. ليس عندى شِهادة ، لكنى أجيد القراءة والكتابة.. وأحفظ عددًا من سور القرآن ..»

وأراد أن يثبت ما يقول ، فأخذ يقرأ عددًا من السور الصغيرة ، وأنا أستمع إليه ، ثم قلت: « وما تهمتك؟ »

- « سرقة.. سرقة بالإكراه.. كل من فى السجن يعرفنى.. أنا محمود ..»

- « وهل يسرق من يحفظ جزءًا من القرآن؟ »

- « الجوع كافر يا أستاذ.. السرقة أو الموت ، والله لا يرضى أن أموت جوعًا.. أنا فى رقبتى خمسة من البشر ..»

وفجأة أمسك بيدى فى ضراعة وقال: « أرجوك.. أريد مصحفًا أقرأ فيه ثم أعيده إليك.. من يدري؟ لعل الله يهدينى على يديك!! قل لى.. ما اسم حضرتك؟ »

واستطاع بذكائه وإلحاحه أن يجعلنى أعود إلى زنزانتى وأحضر له مصحفًا صغير الحجم ، وما إن سلمته المصحف حتى أشرق وجهه بالفرحة. ثم رفعه إلى فمه وأخذ يقبله فى حرارة ، وسرعان ما فتحه وأخذ يقرأ فى سورة « يس » ليثبت لى أنه يجيد القراءة.. وبعد قراءة بضع آيات ، أغلق المصحف وقال: « ألا أجد عندك « بصلة ».. واحدة فقط »

وضحكت ، لكنى عدت مرة أخرى إلى الزنزانة ، وأحضرت له ثلاث بصلات ، وقطعة من « الحلوى الطحينية » ، ثم اختفى.. بعد أن فتح السجان باب العنبر الذى أخذ المسجونون يتدافعون منه إلى الفناء ، وفى صباح اليوم التالى وجدت السجان يهتف باسمى عاليًا ، فأسرعت خارج الزنزانة لأتبين ما الأمر ، ونظرت إلى الدور الأرضى ، فوجدت السجان ممسكًا بملابس « محمود » من أعلى الكتف ، ويدفعه أمامه فى غلظة ، ويكيل له الصفعات ، وما إن رآنى السجان حتى أخذ يحتج ويعتب على فى عنف وغضب شديد ، وما إن نزلت إلى الدور الأرضى ، حتى بدأت فى تهدئة السجان الثائر ، فأفهمنى أنه من الخطأ أن أعطى « المصحف » لهذا المذنب اللص « النجس » - على حد تعبيره - لأنه استغل المصحف فى السرقة ، كيف؟ جلس محمود يقرأ فى المصحف بصوت منغم عالٍ بجوار المقصف ، وأثناء القراءة ، كان يغافل البائع ويمد يده ليسرق علبة سجائر ، أو علبة الطعام المحفوظ ، حتى تنبه البائع وأمسك به متلبسًا.. وأعطانى السجان المصحف مؤكدًا على ألا أقع فى هذا الخطأ مرة أخرى ، وألا أتعامل مع مثل هؤلاء اللصوص الأوباش ، ولم يترك محمود إلا بعد أن لقنه درسًا قاسيًا ، حتى احمرّ قفاه ووجهه من الصفع وأقسم أنه لو رآه فى عنبرنا مرة أخرى لجلده ، ثم جره جرًا إلى خارج العنبر.. وأخذت أتابعه بألم وعطف رغم خطئه ، ولكن محمود لم يجرؤ على الاقتراب من عنبرنا بعد ذلك ، غير أنه كان يلتقى بى أثناء « الفسحة » فى فناء السجن عصر كل يوم ، كان يفهم فى السياسة ، وله نظرات فى الظلم الاجتماعى والفساد والطمع الذى تفشى ، وكانت له تحليلاته وتبريراته التى تتفق ومنطقه ، لكنه كان يؤكد فى كل مرة - لا أدرى صدقًا أم كذبًا - أن الحكومة لو طبقت « الشريعة » لما كان هناك مجرم ولا لص ولا محتال.

وتعرضت ذات مرة للإصابة بإنفلونزا حادة والتهاب بالشعب الهوائية مما جعلنى ألزم فراشى - أعنى « برشى » فى زنزانتى لبضعة أيام ، لم أستطع خلالها النزول إلى فناء السجن ، وذات يوم فوجئت بمحمود يدخل عليّ الزنزانة وهو يتلفت فى خوف يمنة ويسرة ، ثم جثا إلى جوارى على ركبتيه ، وأمسك بيدى فى حنان ، والدموع تترقرق فى عينيه ، بل همّ بتقبيلها لولا أنى انتزعتها منه بسرعة.. كان يقول: « سلامتك ألف سلامة.. كان لابد أن أزورك وأطمئن عليك حتى ولو جلدونى ..»

لكنه مع ذلك كان قلقًا مضطربًا فى جلسته ، ومن آن لآخر يمد بصره عبر الباب مخافة أن يضبطه السجان ، ولهذا أردت أن أحميه من شر العقاب ، فشكرته وأشرت عليه بأن يمضى فى حذر وخفية كى يصل آمنًا إلى « عنبره » فى الناحية الأخرى ، ولم أنس أن أزوده ببعض الأطعمة وبرغيف وسيجارة.. وبصلة كبيرة.. وأخذ ما أعطيته وهو يقول بإخلاص: « والله ما أتيت إلا لأطمئن عليك ..»

وفر محمود هاربًا فى لمح البصر ، فتنهدت فى ارتياح ، لكنى علمت بعد ما يقرب من ربع ساعة أن السجان أمسك به ، وأشبعه ضربًا ، وأخذ منه الطعام ، ورماه فى المكان المخصص للنفايات.

إن أمثال محمود لا يزورهم أحد فى السجن ، وليست لديهم أية مبالغ من المال ليشتروا شيئًا من المقصف ، إنهم يعيشون على الغذاء المحدود الذى يصرفه لهم السجن ، لكن قد يجلس إلى جوارهم مساجين آخرون يستمتعون بأشهى وألذ الأطعمة المهربة ، ولا يفكر هؤلاء فى أن يجودوا على محمود وأمثاله بشىء منها ، فكل سجين غالبًا لا يفكر إلا فى نفسه..

واستمرت علاقتى بمحمود فترة طويلة رغم المنغصات ومضايقات السجان القاسى ، كنت أشعر نحوه بتعاطف حقيقى رغم جرائمه العديدة ، ولم يحاول مرة أن يسرق منى شيئًا ، أو يخدعنى ، كان يكاشفنى بما يدور فى نفسه ، وكان يطلب منى أن أساعده فى البحث عن عمل شريف عندما نخرج من السجن ، ويقسم أيمانًا مغلظة أنه لو تم ذلك فسوف يحيا حياة شريفة مستقيمة ، وسيصبح منا ، ويطالب بتطبيق الشريعة معنا ، حتى ولو سجنوه بسبب ذلك ، لأن السجن فى مثل هذا الحال - كما يقول - شرف أى شرف..

وذات يوم سمعت « محمود » يهتف باسمى وهو فى الدور الأرضى ، وأطللت عليه ، فوجدته حزينًا دامع العينين ، يحمل برشه وبطانيته تحت إبطه ، ورفع إلى وجهه الشاحب قائلًا:

- « مع السلامة ..»

- « ترحيل إلى سجن طرة.. لقد حكم على بالسجن ست سنوات أشغال شاقة.. فى الجبل.. وسأسافر غدًا ..»

كان السجان يقف إلى جواره هذه المرة.. إنها المرة الوحيدة التى يسمح له فيها بذلك ، لأنها رغبة أخيرة.. « من يدرى.. فقد تتلاقى الوجوه فى يوم من الأيام إن كانت بقية من عمر ..»

قالها والسجان يجذبه ناحية باب العنبر ، وأخذ محمود يتوارى بعيدًا ، ينقل خطاه الواهنة إلى المجهول.. كادت الدمعة تطفر من عينى.. ست سنوات أشغال شاقة؟ ومن أجل السرقة؟ وقال أحد الإخوة الخبراء:

- « إن اللص كلما كرر جريمة السرقة ، تزداد العقوبة كل مرة.. تبدأ بشهور.. وبعد « السوابق » الكثيرة.. تتحول عقوبة السجن إلى عقوبة أشغال شاقة فى الليمان.. إن أمثال هؤلاء الناس معتادى الإجرام يعيشون فى السجون أكثر مما يعيشون خارجها.. وهكذا تصبح الحياة فى السجن هى القاعدة ، والعيش خارج السجن هو الاستثناء وهل نسيت أن بعض السجناء كان يرفض الإفراج عنه ، ويتشبث

بالبقاء فى السجن، حتى ولو افتعل جريمة جديدة قبل أن يخرج كأن يتطوع بالإبلاغ عن نفسه بأنه يحوز بعض المخدرات؟ مثل هؤلاء لا يعرفون الاستقرار إلا فى السجن فالغذاء مكفول، وإن كان فى حده الأدنى، والمأوى متوفر وإن كان زنزانة ضيقة، والفراش موجود وإن كان « برشًا وبطانية » والملابس لا إشكال فيها فهى رخيصة وتافهمة ومتوفرة بالمجان.. ومجتمع السجن هو المجتمع الذى ألفه وعرفه.. أما الطموحات والآمال فلم يعد لها جدوى أو قيمة اللهم إلا فى حالات نادرة.. عند من يهيمون فى أحلام اليقظة ..»

---

كان لى طوال فترات السجن أصدقاء كثيرون متنوعون، منهم من تخصص فى النصب والاحتيال، أو التزوير وتزييف العملة، أو القتل، أو تجارة وحيازة المخدرات، أو الاختلاس، لكن جرائم القتل والثأر كانت تشكل نسبة كبيرة فى سجن أسيوط، أما فى سجن القاهرة فكانت الجرائم الغالبة من نوعية أخرى تتعلق بالسرقة والانحرافات المالية والأخلاقية وغيرها، وكانت هناك جرائم غامضة يجد الإنسان نفسه حائرًا حيالها، وأذكر من هذه الجرائم جريمة رجل يدعى « الشيخ عبد المجيد » وقد وردت شخصية مستوحاة منه فى روايتى « ليل وقضبان » التى أخرجت فيلمًا سينمائيًا..

كان الشيخ عبد المجيد محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وبعد أن قضى سنوات فى « ليمان طرة » يكسر الحجر فى الجبل، وتقدمت به السن، تم ترحيله إلى السجن المركزى فى محافظته وهو سجن أسيوط، حيث يعيش فى هذا السجن الأخير دون عمل، ويظل ينتظر انتهاء المدة كى يفرج عنه، ومن العجيب أن « عبد المجيد » كان يعرف الكثير من الأحكام الفقهية، وحفظ القرآن فى صغره، ويستطيع أن يجادل فى بعض الأحكام، ويدلى بالأسانيد والنصوص، لكنه كان يصاب من آن لآخر بنوبات من الخرف أو قل الجنون، فيخلط فى الكلام، ويخرج من موضوع إلى آخر، ويتحدث عن أشياء خرافية، ويحكى تفاصيل غريبة لا تُصدق، ففى بعض الأحيان تراه يتحدث بمنتهى الرزانة والمنطقية، وفى أحيان أخرى ينقلب الحال إلى النقيض، وفى حالاته الطبيعية كانت هناك عبارة تقلب حاله قلبًا فى لحظات، هذه العبارة هى « نبيهة بنت حسن عرفات » حاولت كثيرًا أن أتقصى أخبار « نبيهة » هذه، من تكون؟ وما علاقتها به؟ لكنى لم أجد الجواب الشافى، كان الشيخ عبد المجيد يحب الجلوس معنا أثناء « الفسحة » فى العصر، ونتبادل معًا شتى الأحاديث.. وكلما حاولت أن أسأله عن « نبيهة » سرعان ما يحتقن وجهه، وتجحظ عيناه، وينطلق فى حديث ثائر، يصحبه الزبد والرذاذ، فنندم على أننا قد نكأنا جراحه.. كان يقول: « نبيهة بنت حسن عرفات » وباء أصفر.. إنها جاسوسة يهودية.. إنها تزعجنى طول الليل، تبعث إلى موجات صوتية وإشعاعات.. أى والله إشعاعات فلا أستطيع النوم.. تريدنى أن أجن أو أموت.. الخيانة هى.. لا تستحق إلا الإعدام.. الحكومة جاهلة ولا تعرف عنها شيئًا.. انظروا كيف أسد أذنيّ حتى لا أسمع صوتها..

وننظر فنجد إنه قد وضع على أذنيه أغطية من الصفيح مبطنة بقطعة من القطن « غالبًا ما تكون أغطية لعلب الفرنيش أو الورنيش التى كانت تستعمل قديمًا لتلميع الأحذية » ثم يلف عليها شالا أبيض حول الرأس والأذنين.

كان عبد المجيد مسليًا ومحدثًا لبقًا، لديه الكثير من القصص والتجارب، ويعرف الكثير عن تقاليد وطباع أخوتنا فى الصعيد « الوجه القبلى »، وعلى الرغم من حيرتنا حيال جريمته إلا أن الحكم عليه

بالأشغال الشاقة يعنى أنه قاتل ، وقد قيل أنه قتل « نبيهة » زوجة أخيه ، وقيل أيضًا إنه لم يقتل نبيهة ولكنه قتل أخاه ، وأشياء أخرى قيلت ، لكن الحقيقة ظلت ضائعة ، ولعل ملف القضية هو الذى يكشف وجه الصدق ، وأين هو ملف القضية؟ لكن يبقى عبد المجيد الذكى والمحدث اللبق و.. المجنون فى كثير من الأحيان ، والمؤكد أن وضعه العقلى - رغم كل ذلك - ليس فى حالة طبيعية ، قد يكون ذلك بسبب ملابسات الجريمة التى اقترفها ، وظل شبحها يطارده ، وقد يكون بسبب المدة الطويلة التى قضاها فى ليمان طرة وفى سجن أسيوط الله وحده يعلم..

وهناك العم « عبد الرحيم » زميل الشيخ عبد المجيد فى زنزانته ، إنه أيضًا رجل متقدم فى السن ، قضى فترة الليمان ، ثم أحيل إلى سجنه المركزى ، وأعتقد إنه كان متهمًا بالقتل ، وهو فى أثناء وجودى بسجن أسيوط فى الستين من عمره تقريبًا ، وقد أفرج عنه بعد قضاء سنوات طويلة لأنه كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، لكن الغريب والمذهل أن عبد الرحيم عاد إلى السجن مرة أخرى بعد أربعة أو خمسة أشهر ، بتهمة قتل جديدة.. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

كان عبد الرحيم صديقنا هو الآخر ، لكنه يختلف كثيرًا عن الشيخ عبد المجيد المتوتر المضطرب أو المشوش الذهن عندما تنتابه الأزمة ، عبد الرحيم مبتسم دائمًا ، يجيد لعبة العصا ، ساخر من الحياة لا يعبأ بالسن ولا بالمرض ولا حتى الموت ، لا يتهيب المستقبل ، ولا يتبرم من الحاضر ، قلما تجده مهمومًا أو مكروبًا ، لكن رجل فى مثل سنه وتجربته المريرة كيف يجرؤ على القتل مرة أخري؟

كان عبد الرحيم سعيدًا عندما تقابلنا معه بعد إعادته إلى السجن ، لم تفارقه سخريته وابتسامته ، لكأن الجريمة التى ارتكبها أمر عادى لا يثير استغرابًا ، لقد تحجر قلبه ، من جراء الأحقاد وليالى السجن وأيامه القاسية كما هو واضح ، لكن ألم تردعه شيبته وشيخوخته؟ لقد قال فى معرض الدفاع عن تصرفه ذلك: « فى المرة الأولى اتهمونى ظلمًا ، كان أخى الأصغر هو القاتل ، لكنهم ألقوا بالتهمة على ، وأجمع الشهود على ذلك ، وكان بيننا وبين أسرة القتيل ثارات قديمة ، أتدرون لماذا اتهمونى أنا؟ ليضربوا عصفورين بحجر.. أدخل أنا الليمان.. ثم ينفردون بأخى الأصغر القاتل.. وقد قتلوه فعلًا وأنا سجين.. بل فى العام الأول من سجنى.. لقد ترملت زوجته وتيتم عياله.. وكذلك زوجتى وأولادى رغم أنى حى أرزق.. لكنى فى السجن.. عندما خرجت كان لابد أن آخذ بثأرى.. فهم حبسونى ظلمًا.. وآخذ بثأر أخى.. هذا هو قانوننا هنا.. وإذا لم أفعل ذلك فسيركبنى العار أبد الآبدين ..»

قلت له: « سيثأرون من أولادك »

- « فليفعلوا إن استطاعوا ..»

- « ولن تجف الدماء أبدا يا عم عبد الرحيم ..»

هز رأسه وهو ما زال يبتسم وقال فى سخرية: « أعرف.. وهى لم تجف أبدًا فى يوم من الأيام.. هذا قانون يا ولدى ..»

- « إن « قانون الله » أعظم »

وضع يده على كتفى وقال:

- « وقانون الله يقول ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ ويقول ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لكن الحكومة لا تعرف قانون الله.. تقتلُ إنسانًا فيحكم عليك بالسجن سنة.. خمس سنوات.. عشرة.. وربما براءة.. ثم تخرج ويراك أهل القتيل فتغلى الدماء فى عروقهم ..»

ثم قطع حديثه فجأة وقال:

- « انظر.. عينى محمرّة.. أليس عندك قطرة أو مرهم للعين ..»
- « القطرة موجودة.. لكن يؤلمنى أنك لا تخرج من السجن هذه المرة حيًا ..»

قهقه مرة أخرى فى سخرية وقال: « هيا واحضر القطرة.. عينى تدمع باستمرار ، والموت لابد قادم.. والأعمار بيد الله يا ولدى.. يكفى أن أهل بلدى كانوا ينظرون إلى باحترام وأنا عائد إلى السجن للمرة الثانية.. وزغردت النساء.. كانت زوجتى هى الأخرى تزغرد.. وبناتها كذلك.. لكن أقول لك الحق.. كانت الدموع تنسكب من عيونهن ..»

الحقيقة أن مشكلة « الثأر » فى الصعيد ما زالت مشكلة عويصة ، وعلى الرغم من أنها تؤرق ذلك المجتمع ، وتكبده أفدح الخسائر إلا أنها ما زالت متغلغلة فيه ، وأغلب المساجين - كما قلنا - فى الصعيد بسبب مصيبة الأخذ بالثأر ، رغم التوعية والأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية ورغم الدراسات الاجتماعية العديدة التى أجريت عنها ، إلا أن الشىء الهام والملفت للنظر أن الذين انضموا إلى « الإخوان المسلمين » من إخوتنا الصعايدة قد تأثروا بتعاليم الإسلام وأحكامه وآدابه ، وأمكنهم التخلص من هذه التقاليد وبذلوا جهودًا دائبة فى مكافحتها وحققوا قدرًا لا بأس به من النجاح ، وقد استطاع الإمام الشهيد حسن البنا فى الأربعينيات من القرن العشرين ، أن ينجح فى إتمام الصلح بين عدد من العائلات الكبيرة فى الصعيد أثناء جولاته العديدة لنشر دعوته ، وقد أشار عدد من المؤرخين المعاصرين لجهوده فى ذلك المجال حتى إن المؤرخين اليساريين أنفسهم أثبتوا شيئًا من هذا فى كتاباتهم ، أذكر منهم الأستاذ الدكتور مكى ، كما سجل ذلك أيضًا الأستاذ محمود عبد الحليم فى ثلاثيته عن تاريخ الإخوان ، والأستاذ أنس الحجاجى وهما من الإخوان وغيرهما كثيرون..

لا أستطيع أن أتناول بالتفصيل أصدقائى المذنبين ، فهم كثيرون ، وبعضهم كان يزورنى فى السجن بعد خروجه ، وإنما أردت أن أشير إلى بعض النماذج هنا ، كما أشرت إلى نماذج أخرى من أجزاء هذا الكتاب ، فضلًا عما ذكرته فى كتابى « المجتمع المريض » ، وما ورد فى بعض رواياتى وقصصى الكثيرة التى تعرضت للسجن أو السجناء فى مختلف الجوانب ، وما أكثر ما تعرضت للسجون والسجناء فى كتاباتى القصصية!

❋❋❋

# [٧] نساء مجاهدات



كانت المحنة التى عانى منها رجال الإخوان المسلمين فى السجون والمعتقلات محنة قاسية لم يسبق لها مثيل فى تاريخ مصر الحديثة ، ولقد كان لهذه المحنة مضاعفات وآثار عميقة لا يمكن محوها ، لكن الجانب الذى أهمله الكتاب والمؤرخون لتلك الفترة « ١٩٥٤-١٩٦٥ » هو الدور الذى أدته نساء الإخوان سواء أكن زوجات أو أمهات أو أخوات أو بنات ، وهو دور مشرف لم يكشف عنه النقاب بصورة تفصيلية حتى الآن ، ربما لزهد الإخوان فى تسليط الأضواء على هذا الجانب؛ أو بسبب أن ذلك أمر واجب ، وسلوك طبيعى لا يعتبر غريبًا بالنسبة للبيئة أو الأسرة المسلمة ، أو لأن معظم هؤلاء السيدات يعتبرن ذلك قربة لله ، ومشاركة للرجال فى صبرهم ومعاناتهم ، ولقد كان جهاد النساء مؤثرًا وعميقًا - كما قلت - لكنه بدأ منذ وقت مبكر ، أى قبل أن يحدث الصدام ، وتتعقد الأمور ، وتسيل الدماء على أرض السجون والمعتقلات فى الزنازين السوداء .

كانت النسوة لهن تنظيم خاص فى المركز العام للإخوان المسلمين ، وكانت لهن محاضراتهن ونشاطهن فى المؤسسات التعليمية وعلى المستوى الاجتماعى الشامل ، وكانت نسبة المصاهرة بين أسر الإخوان المسلمين نسبة عالية ، وغالبية هذه الزيجات اتسمت بالنجاح والتوفيق ، وانعكس ذلك على الأجيال الجديدة التى تسلمت الراية فى السنوات اللاحقة ، لكن صمود هؤلاء النسوة قد تجلى بصورة أقوى وأوضح إبان الأزمات والمحن ، لقد صبرن واحتسبن سنوات طويلة ، وعانين شظف العيش ، لقلة الموارد ، وانقطاع الرواتب الخاصة بالمحكوم عليهم من رجالهن ، أو انهيار المؤسسات التجارية والمالية للعاملين فى القطاع الخاص « غير الحكومى » منهم ، بالإضافة إلى أن الحكومة كانت تقف حجر عثرة فى طريق الأسر حتى تجعلهن بسبب « لقمة » العيش يخضعن أو يتمردن على رجالهن الذين حرموهم متعة الحياة وهناءها واستقرارها ، ولقد سبق وأشرنا إلى موقف الحكومة من أولئك المقطوعين الذين كانوا يجمعون الإعانات والمساعدات للأسر التى سُجن عائلها ، فقد اعتقلت هؤلاء المتبرعين بأعداد كبيرة ، وقدمتهم للمحاكمة تحت اسم « قضية الجهاز السرى التمويلى » ، وكان ذلك عام ١٩٥٥ ، كانت أسر المسجونين تعيش فى مأزق حقيقى ، لدرجة أن أحد الإخوة المسجونين فى سجن أسيوط عاد باكى العينين من إحدى زيارات أهله له ، ولم يفصح عن سبب بكائه إلا لإخوته فى الزنزانة ، وعلمنا أن أبناءه وبناته على وشك الانقطاع عن التعليم ، والبحث عن عمل يدر عليهم دخلًا يكفى لتحقيق الحد الأدنى للمعيشة ، وكانت هذه الأسرة تعيش فى منطقة منعزلة لا يعرف عنها الإخوان شيئًا فى الخارج ، وآلمنا هذا الوضع ، فاقترح أحد الإخوة المسجونين وأظنه المذيع التليفزيونى « فؤاد شاكر » أن نجمع تبرعات - مهما كانت ضئيلة - من داخل السجن ، وبصورة عاجلة ، ونرسلها إلى هذه الأسرة ، رغم ضعف الإمكانات المادية المتاحة لنا ، وقد أقبلنا على تنفيذ ذلك بحماس منقطع النظير ، ومن لم يكن لديه مال

تبرع ببعض قطع ملابسه الداخلية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أجرينا اتصالات سريعة ببعض الإخوة الأخيار المطلقى السراح كى يتدبروا هذا الأمر العاجل.

وهناك بعض السيدات من ربات البيوت واللائى لم يسبق لهن العمل فى وظيفة من الوظائف ، فقد كن يركزن على رسالتهن الأسرية فى تربية أولادهن ، ورعاية أزواجهن ، لكن إزاء هذه الظروف القاسية ، وبسبب محاصرة الحكومة لعملية جمع التبرعات ، ومراقبة الأسر والعائلات مراقبة صارمة ، ولم يكن هناك بد من أن تخرج الكثيرات لسوق العمل المناسب ، حتى يحصلن على الرزق الحلال بالأسلوب الحلال ، ويواصلن رسالة الأب السجين فى مجال تعليم الأولاد ورعايتهم بل وتزويجهم فى كثير من الأحيان ، وبعض هؤلاء النسوة المحتاجات اشتغلن فى التجارة البسيطة بيعًا وشراءً ، ومنهن من تكبدت المشاق فى الحصول على « ماكينة » خياطة ، لتخيط للغير ، وأخريات عملن فى مجالات متعددة ، صابرات محتسبات ، وقد يكون الأمر هينًا إذا كان لبضعة شهور ، أما إن يمتد أحيانًا لسنوات.. طويلة فهو أمر يبدو فوق الطاقة ، لكن هل كانت هناك حلول بديلة لهذه الحلول؟

ويجب ألا ننسى أن هناك أسرًا أخرى كانت لديها الإمكانات أو الرصيد الكافى للإنفاق على الأسرة دون حاجة إلى معونة من أحد ، ودون الاضطرار للبحث عن وظيفة ، فضلًا عن إخوة السجين وأهله كثيرًا ما كانوا يعولون زوجته وأبناءه ، قيامًا بالواجب ، وصلة للأرحام.

لكن تظل غيبة « الأب السجين » ، أو الأخ الأكبر العائل ، أمرًا ذا أبعاد اجتماعية ونفسية كبيرة لا يمكن التهوين من شأنها ، وقد رأيت أحد الإخوة من الآباء مكتئبًا حزينًا لأن ابنته وافقت على الزواج من شخص لا يناسبها ، وأنها اختصرت آمالها العريضة فى تلقى العلم ، واكتفت بالثانوية العامة ، وشغلت وظيفة صغيرة ولم تدخل كلية الطب كما كانت تحلم من قبل ، وكان واضحًا أن الفتاة المسكينة رأت بعينها ولمست مدى ما تعانيه أمها من ضيق ذات اليد ، فأرادت أن تخفف العبء وتلوذ بكنف رجل ، لعلها فى المستقبل تستطيع أن تستدرك ما فاتها من فرص.

ولقد عانت بعض الزوجات والأبناء من اضطرابات نفسية مرضية اقتضت مشورة الأطباء ، وأخذ علاجات لفترات ليست بالقصيرة ، والأبناء فى غيبة الأب قد يشعرون بما يشبه اليتم ، ويشعرون بأن هناك شيئًا ناقصًا فى حياتهم ، وخاصة عندما يعقدون المقارنات بينهم وبين زملائهم.

لقد أصيبت زوجة أخينا « غ » بمرض نفسى شديد قلب حياتها رأسًا على عقب ، بحيث لم تعد قادرة على متابعة رسالتها نحو منزلها وأبنائها ، وكان قرار الطبيب المختص المعالج أن وجود زوجها بالقرب منها أمر ضرورى لنجاح العلاج ، وأخذنا نتدارس الوضع الحرج ، وما المخرج الممكن؟ وأخيرًا – بعد تفكير وجهود مضنية – أمكننا تدبير ترحيل الأخ « غ » من سجن الصعيد إلى سجن القاهرة لعلاجه من انزلاق غضروفى فى الظهر ، وارتفاع فى ضغط العين « جلوكوما » ، وفى سجن القاهرة « قره ميدان » ، أشار الأخصائى بإحالته إلى المستشفى الجامعى « بالقصر العينى » ، وعندما يكون السجين بالقسم الداخلى يوضع عادة فى غرفة خاصة ، ويوضع على بابها حراسة مشددة ليلًا ونهارًا ، بالإضافة إلى المرور الدورى لرجال المباحث لمراقبة أحواله واتصالاته ، وبقى هذا الأخ فى القصر العينى ما يقرب من عام ، لقد استطاع أن « يروّض » الحراس بأسلوب أو بآخر ، وبالتالى أصبح من اليسير عليه أن يقضى فترات طويلة مع زوجه وأولاده ، وسرعان ما شفيت من مرضها النفسى ، وعادت إلى حالتها الطبيعية ، بل إنه خلال شهر رمضان كان يذهب إلى بيته فى وقت أذان المغرب متخفيًا ، ويعيش بين أسرته حياة طبيعية لساعتين أو ثلاثة ، بل إن بعض الحراس الطيبين كانوا يتركونه فى منزله حتى الفجر ، تكرمًا منهم

وعطفًا ، وتقديرًا لظروفه ، ومهما كانت قسوة الشرطة فى مثل هذه الظروف العصيبة ، والأوامر المشددة ، إلا أنك قد تجد بعض الأفراد من ذوى القلوب الرحيمة ، وخاصة بين أولئك العسكر الذين لم يعملوا فى السجون أو المعتقلات من قبل ، ولم يمارسوا التعذيب كغيرهم ، لكن الأمور لم تمض على هذا النحو الهين اللين ، فقد داهم رجال المباحث بيته ذات ليلة ، وأمسكوا به متلبسًا ، ولابد أن نفسًا حاقدة قد وشت به قال الضابط له: « أنت متهم بالهروب؟ »

قال « غ »: « ليس للحارس ذنب ، لقد غافلته .. »

- « سوف يلقى جزاءه.. وأنت أيضًا .. »

- « لا يهمنى نفسى.. لكن الحارس لم .. »

قاطعه الضابط قائلًا فى خشونة: « كفى.. نحن نعرف ما يجب عمله.. ستحاكم بتهمة الهروب ، وستعاد إلى سجنك الأصلى.. لقد أتيت إلى بيتك مرات عديدة.. ولقد عرفنا ذلك .. »

قال السجين: « وهذا يدل على أننى لم أنو الهرب أبدًا ، ولو كان فى نيتى ذلك لفعلته منذ البداية.. لقد كنت مضطرًا لعلاج زوجتى المسكينة التى لا ذنب لها .. »

جذبه الضابط من طوقه ، ووضع الأغلال فى يديه قائلًا: « وتنجب أطفالًا؟ يا لك من متبجح!! »

- « هذا حق شرعى.. وإنسانى .. »

- « سنرى.. هيا .. »

إن الحاجة تفتق الحل ، والظلم الفادح الذى يقع على الإنسان ، وما يتبعه من مضاعفات وكوارث ، قد يدفع الإنسان دفعًا للتصرف الذى يخفف من البلاء ، أو يحل بعض المشاكل ، ولهذا رضخت الحكومة - فى فترة من الفترات - للأمر الواقع ، وأفسحت المجال للقاء الأزواج والزوجات فى « سجن الواحات الخارجة فقط » ، أما باقى السجون فقد تعذر ذلك تمامًا ، وخاصة أن سجن الواحات كان يقع فى قلب الصحراء ، ويستغرق القطار وقتًا طويلًا للوصول إلى هناك ، وقد يتوقف القطار ليوم أو أكثر أثناء الطريق من أسيوط إلى الواحات ، بسبب العواصف الرملية ، التى تطمر القضبان الحديدية ، وكان على الزائرين أو الزائرات ، وبعضهم يأتى من غزة أو الإسكندرية أو القاهرة أن يقضوا أيضًا ليلة أو ليلتين حتى يحين موعد رجوع القطار إلى أسيوط ، وكان سجن الواحات الخارجة عبارة عن مخيم كبير ، يقيم السجناء فى خيام نصبوها بأنفسهم ، ويحيط بالسجن أسلاك شائكة ، وحراس مسلحون ، لكن هذا المجتمع الصغير كان بعيدًا عن توقع المنغصات ، ويستحيل فيه الهرب ، وإلى أين يذهب السجين إذا هرب؟ إنه يموت فى هذه الصحراء الشاسعة ظمأ أو بسبب ضربة الشمس أو الجوع ، ومن ثم أعدت خيام خاصة لاستضافة الزوار إذا قضوا ليلة أو ليلتين هناك ، لكن هذا السجن لم يستمر إلا حوالى أربع سنوات ، وأعيد السجناء بعدها إلى السجون المغلقة الكئيبة كسجن « قنا » أو أسيوط أو غيرهما من سجون الجمهورية.

وما أكثر ما عانت النساء فى هذه الأعوام المظلمة!!!

ومع هذه الظروف القاسية لم تسجل حالات طلاق إلا فى النادر جدًا جدًا ، ولظروف وأسباب قهرية ، وهذا أمر ملفت للنظر ، وخاصة أن عددًا من سجناء الإخوان قد قضى فى السجن ما يقرب من ثمانية عشر عامًا متصلة نذكر منهم الأستاذ المرحوم عمر التلمسانى والأستاذ محمد حامد أبو النصر والأستاذ صلاح شادى وغيرهم ، بل إن الأخ الشهيد كمال السنانيرى قد عقد قرانه على شقيقة الشهيد سيد قطب وهو سجين بالمان طرة ، وظلت تنتظره حتى خرج « زواج مع وقف التنفيذ »..

اقول إن هناك حالات طلاق نادرة جدًا حدثت ، ويجب أن يذكر ذلك من باب الأمانة ، والحقيقة التى يجب أن نسجلها بأمانة أيضًا ، أن الإخوان الذين حكم عليهم بالسجن بأحكام طويلة قد خيروا زوجاتهم بين البقاء فى عصمتهم أو حرية طلب الطلاق ، لكن النساء تمسكن بأزواجهن ، وقررن أن يتحملن عبء الجهاد والمسئولية مع الرجال سواء بسواء.

كان الأخ « م » قد عقد قرانه ، لكن الزفاف لم يتم ، فقد قبض عليه بعد عقد القران مباشرة ، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا ، وتم ترحيله إلى أحد سجون الصعيد لقضاء المدة المحكوم بها عليه ، وبعد ثلاث سنوات ونصف تقريبًا نقل إلى سجن القاهرة ، وكانت هناك معرفة سابقة بين أصهار « م » ومدير سجن القاهرة المرحوم اللواء محمود صاحب ، وذات يوم جاء المدير بنفسه ، ثم أخذ « م » معه إلى مكتبه ، وحينما عاد بعد حوالى نصف ساعة إلى زنزانته لاحظنا أنه يعانى من أزمة نفسية ظاهرة ، على الرغم من أنه التزم الصمت ، وعلمنا بعد فترة قصيرة أن المدير قد فاتحه فى أمر طلاق زوجته التى لم يدخل بها بعد ، كان الأمر مفاجأة بالنسبة لأخينا « م » ، فقد كان يعتقد أن الصلة الوثيقة القديمة كفيلة باستمرار الرباط بين الأسرتين ، فضلًا عن أن السجين السياسى قد يطلق سراحه فى أى وقت ، ومن جانب آخر قد يبقى فى السجن بعد انتهاء فترة الحكم ، بحجة صدور أمر جديد باعتقاله لخطورته على الأمن ، لكن الذى حدث هو أن أهل الزوجة يريدون الطلاق ، لم يمانع « م » من ناحية المبدأ ، لكنه طلب أن يسمع ذلك بنفسه من زوجه التى لم يدخل بها كما قلنا ، إننا كبشر لابد وأن نتألم من مثل هذا الموقف ، والألم النفسى لا يعنى الانهيار ، إنه ألم صامت مع التماسك والتصبر ، أليس ذلك ضربًا من ضروب الابتلاء؟

وتم الطلاق!!

العجيب فى الأمر أن « م » صدر له أمر بالإفراج بعد حوالى ثمانية أشهر من هذه الواقعة ، وما إن ترك السجن حتى بحث عن زوجة جديدة وخطبها على الفور ، وكم كانت دهشته عندما جاءته زوجه الأولى تسبقها عبراتها وندمها وأسفها ، وتتوسل إليه أن يعيدها إلى عصمته ، لكنه لم يجد رغبة لديه فقد فات الأوان ، وبعد أن تزوج « م » ، بقيت طليقته أعوامًا دون زواج ، ثم تزوجت من رجل متقدم فى السن ، لم يمهله الموت طويلًا ، وحينما التقيت مع « م » فى اعتقالنا الثانى عام ١٩٦٥ فيما عرف بقضية المرحوم « سيد قطب » ، أرانى صورة فوتوغرافية لأبنائه الثلاثة ، وقضى معنا هذه المرة فى المعتقل حوالى العام والنصف ثم أفرج عنه.

أعود مرة أخرى لأشير إلى الموقف الصامد المذهل لنساء الإخوان فى هذه الفترة العصيبة ، والذى يصعب أن نجد له مثيلًا فى أى مكان فى العالم الآن ، وخاصة ذلك العصر الذى سيطرت عليه الماديات والشهوات والمصالح ، وطفح بشتى أنواع الأنانية والأثرة ، وبالإضافة لهذا الدور البطولى للنساء فقد لعبن أدوارًا هامة - غير المهام الأسرية - فى الحركة الإسلامية واستمراريتها ، وخاصة أن الحكومة فى هذه الفترة كانت تتهيب اعتقالهن أو محاكمتهن ، لكن الأمر تغير فى أزمة ١٩٦٥ الطاحنة فيما بعد ، إذ تجرأت الحكومة الناصرية هذه المرة ، واعتقلت عددًا كبيرًا من النساء ، وقدمت البعض منهن - وليس كلهن - للمحاكمة ، من أمثال السيدة زينب الغزالى ومن آل قطب وغيرهما ، وكان ذلك التصرف فى عام ١٩٦٥ حدثًا غريبًا شاذًا بالنسبة للمجتمع المصرى المسلم ، لأنه يحدث لأول مرة ، وتعامل النسوة بقسوة وجرأة عجيبة ، ثم تكرر الأمر مرة أخرى. وإن كان بصورة أخف كثيرًا جدًا - فى عهد السادات ، حينما صدر أمر باعتقال « وليس محاكمة » عدد من النسوة منهن صحفيات وداعيات

وصاحبات وجهات نظر سياسية، فيهن صاحبات اتجاه إسلامى، وفيهن أيضًا من كن يعملن فى تنظيمات اليسار..

ولقد عمد بعض رجالات المباحث - للأسف الشديد - إلى أسلوب دنىء، فى محاولات مستميتة لتحطيم الكيان الأسرى فى بعض البيوتات الإخوانية، إذ حاولوا تحريض بعض الزوجات على طلب الطلاق، وحاولوا اختراع الأكاذيب والمفتريات كى يلصقوها بأزواجهم الأبرياء، كما حاولوا أن يعثوا اليأس فى نفوس زوجات أخريات، مؤكدين لهن أن أزواجهم لن يخرجوا من السجن مطلقًا، وأنهم سوف يبقون فيه إلى أن يموتوا، ثم ألم يقل جمال عبد الناصر نفسه فى إحدى خطبه «عام ١٩٦٥» وقد سمعناها من خلال الميكروفون بصوته هو، ونحن فى المعتقل «اللى يلعب بديله «بذيله» من الإخوان المسلمين لن نخرجه من المعتقل أبدًا»؟ ورغم بذاءة الكلمة - فالذيل للكلاب والحيوانات وليس للإنسان - إلا أن مدلولها كان خطيرًا، إذ يكفى أن يكتب مخبر تافه تقريرًا عن إنسان يشير إلى أنه «خطر على الأمن العام» دون ذكر أية أخطاء محددة، ومن ثم يلقى به فى المعتقل، ولا يخرج منه أبدًا..

فى هذا الجو العنيف المخيف كان يعيش أبناء الإخوان وزوجاتهم وذووهم، ومع كل تلك التهديدات والمؤامرات والحروب النفسية، والجو القاتم المرعب الذى يخيم على سماء البلاد، مع كل ذلك، فقد بقيت «الأسرة الإخوانية» صابرة متماسكة، لم يروعها تهديد، أو يحطمها يأس، أو ينلها وعد أو وعيد، وبقى الرباط المقدس الوثيق، والعواطف السامية الشريفة، والوفاء الفذ، بقيت هذه المعانى النبيلة، والقيم الرفيعة، تغذى القلوب والأرواح بالأمل، وتستعذب المعاناة المريرة، وترضى بالقليل من الزاد واللباس، إيمانًا واحتسابًا لوجه الله الكريم..

لقد كانت الخسائر المادية والصحية فادحة، وكانت دموع النساء المظلومات، والأطفال الأبرياء تبلل الوسائد، وتتألق فى ظلمات الليالى الطويلة، واستبد الحرمان ومرارة انتظار الفرج، لكن بقى الإيمان يغمر القلوب.. وبقى الحب ذلك الرصيد الهائل الذى لا تضارعه أعظم كنوز الأرض، ولا يضاهيه السلطان وما حوله من هالات وأضواء وهتافات وبريق.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

صدق الله العظيم.

اللهم لا شماتة فى أحد.

إن أحد أركان حكم عبد الناصر، عندما قبض عليه فيما سمى بثورة التصحيح، وصدر ضده حكم بالسجن، لم تكد تمر إلا فترة قصيرة حتى طلبت زوجته الطلاق، فقد أحبت حارسه الخاص الضابط الشاب، وتركت أولادها، وجرت وراء حبيبها الجديد..

مرة أخرى.. اللهم لا شماتة فى أحد..

لقد كان الله رحيمًا بالإخوان وأسرهم إبان الأزمات المتتالية المستعرة، وهذه فى حد ذاتها نعمة كبرى، وذلك فضل من الله ونعمة، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولقد تجرأ بعض النسوة فى عام ١٩٥٧، وسرن فى مظاهرة صامتة إلى قصر «القبة» لمقابلة عبد الناصر نفسه، وتقديم تظلم إليه بسبب بقاء ذويهم فى السجون، وكانت من بينهن والدة الأخ الأستاذ «عبد المحسن عبد الحى» حيث جاءت لزيارة ابنها فى سجن أسيوط، وشرحت له تفاصيل المقابلة، وقالت إن الرئيس قال لهن فى النهاية: «سنخرجهم من السجن.. لكن علموهم الأدب!!»

لكن هل أفرج عنا. ثم هل تعلمنا «الأدب» ؟!.

❁❁❁

# [٨] عودة إلى الجهاز السرى



موضوع «التنظيم الخاص» أو «الجهاز السرى» كما سماه البعض، موضوع هام شغل الأقلام والأذهان بين صفوف الإخوان خاصة، وبين المؤرخين والسياسيين ورجال الأمن، والمحللين الأجانب شرقًا وغربًا، أولئك الذين تخصصوا فى دراسة الحركة الإسلامية المعاصرة، وما صاحبها من أحداث وتحولات..

فلم يكن غريبًا أن يهتم الإخوان فى السجون بهذه النقطة اهتمامًا بارزًا، لأن هذه النقطة كانت بابًا للهجوم على الجماعة، وسببًا من أسباب اتهامها باللجوء إلى العنف، وأيًا كان الأمر، فإن هذه القضية - كما سبق وشرحت فى القسم الثانى من هذا الكتاب - لا يمكن النظر فيها، والحكم عليها بعيدًا عن ظروف العصر وأحداثه وملابساته، أو بعيدًا عن طرفى الصراع وأسلوب كل منهما فى التعامل والتحاور، وعن الأهداف العامة التى كان كل فريق يتطلع إليها.

ومن الأمور المعروفة أن الحكومات التى تصادمت مع الإخوان، وكذلك التجمعات والهيئات والأحزاب المضادة اتخذت من موضوع الجهاز السرى مطعنًا كبيرًا، ومدخلًا أساسيًا للهجوم المستمر المتكرر الشديد ضد الجماعة وتاريخها، ولقد ساهمت أجهزة الإعلام المعادية للإخوان مساهمة كبيرة وشاسعة، وأطلقت لخيالها وأكاذيبها وافتراءاتها العنان، حتى أوهموا الناس أن حركة الإخوان تعنى الإرهاب والعنف والدماء، ومن يرجع إلى الصحافة المصرية فى الفترة التى تمتد من أواخر أكتوبر عام ١٩٥٤ إلى الشهور الأولى من عام ١٩٥٥، ثم الفترة من أغسطس عام ١٩٦٥ إلى النصف الأول من عام ١٩٦٦ بالذات، يجد مساحات مهولة قد خصصت لهذا الموضوع، ولقد اشتركت فى هذه الحملة الضخمة أو المضخمة عشرات، بل مئات الأقلام ابتداءً من محمد حسنين هيكل إلى صغار الصحفيين من كتاب الأعمدة والتعليقات و«الريبورتاج» وجامعى الأخبار، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الإذاعة والتليفزيون قد ساهما إلى حد كبير فى هذه الحملة الشرسة دون هوادة، وكيف لا يفعلون ذلك ورئيس الدولة نفسه فى ذلك الحين، كان يتكلم باستفاضة وغضب فى خطبه الطويلة عن ذلك الموضوع، حتى قبل أن تصدر الأحكام فيه، وهو يعلم طبيعة الاعترافات التى انتزعت تحت التعذيب والإجراءات القمعية، والمحاكمات السرية التى لم يكفل للمتهم فيها أدنى حقوق الدفاع عن النفس، وتنأى عن المعقول فى إطار الواقع والمقبول، وليس هناك دليل على صدق ما نقول إلا العودة - كما قلنا - إلى صحف ومجلات مطبوعات تلك الفترة، فهى الشاهد الأكيد الذى سيبقى مسطورًا أبد الدهر، ومن العجيب أن «صلاح نصر» مدير المخابرات العامة فى ذلك العصر، كتب فى مذكراته، وبخط يده فيما بعد أن قضية الإخوان يجب أن يعاد فيها النظر، وقال إنه رفض أن يتولى قضية «الشهيد سيد قطب» حينما طلب منه عبد الناصر ذلك، وكانت حجته فى الرفض أنه لم يجد قضية

أو جريمة بالمعنى الصحيح ، وأن عبد الناصر رد عليه قائلًا: « هو احنا كل ما نكلفك بحاجة تقول لأ ! ».
كما إن الصحفى اللامع « محمد حسنين هيكل » الذى كال الاتهامات والافتراءات للإخوان إبان المحن القاسية ، عاد يقول فى كتابه عن حرب السويس إن أجهزة الأمن قد بالغت كثيرًا فى اتهاماتهم للإخوان ، واستشهد فى هذا المجال « فى إحدى وثائق الكتاب » بتقرير كتبته مباحث الإسكندرية وأشارت فيه إلى أن أجهزة الأمن كان فيها أناس مغرضون وكارهون للإخوان ، استطاعوا أن يعطوا صورة غير صحيحة للإخوان ، كى يوقعوا بينهم وبين السلطة ، وينتقموا منهم.

أيًا كان الأمر ، فقد كان « الجهاز الخاص » هو الفرصة الذهبية للذين أرادوا الكيد للإخوان والانتقام منهم ، على الرغم من أن أحداث العنف التى نسبت إليهم كانت محدودة للغاية ، بحيث لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة « طبقًا لما ذكره فهمى هويدى فى جريدة الأهرام » ، وأن ظروف هذه الأحداث وملابساتها لم تؤخذ فى الاعتبار أو الحسبان.

وفى البداية يجب أن نقرر أن أسلوب الدعوة إلى الله يجب أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهو ما درج عليه الإخوان ومرشدهم الأول الشهيد حسن البنا ، وهو مثبوت أيضًا فى رسائله وكتاباته العديدة التى بين أيدينا حتى اليوم ، وعندما قتل النقراشى باشا أصدر حسن البنا بيانًا فى الصحف استنكر فيه الحادث ، وكان فى البيان ما نصه « ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين » ، ولم يثبت فى التحقيقات التى أجريت أثناء وبعد ذلك أن له أدنى علاقة بالحادث ، ونفس المعنى أعلنه المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى ، وأكده فى التحقيقات والمحاكمة التى أجريت فى عام ١٩٥٤، ثم فى الكتاب الذى صدر عنه فى الستينات ، من القرن العشرين ، بعنوان « دعاة لا قضاة » ، ثم جاء المرحوم الأستاذ عمر التلمسانى المرشد الثالث للإخوان وأكد فى تصريحاته وخطبه وكتاباته على نفس المعنى ، وهو أن أسلوب الدعوة هو هو لم يتغير « بالحكمة والموعظة الحسنة » ، بل كان رحمه الله يطوف بالجامعات « وخاصة فى أسيوط والصعيد بصفة عامة » ويحاضر الشباب ويحذرهم من اللجوء إلى العنف ، ويوصيهم بنشر الدعوة بالأسلوب العلمى الصحيح ، ثم جاء المرشد العام الرابع الأستاذ محمد حامد أبو النصر ، والتزم نفس الخط فى بياناته الرسمية ، وحينما دخل الإسلاميون انتخابات مجلس الشعب فى مصر ، وطرحوا شعار « الإسلام هو الحل » أكدوا على أن أسلوب الدعوة هو تقديم النصيحة ، وإبداء الرأى الحر ، انطلاقًا من تعاليم الإسلام ، كما أكدوا رفضهم واستنكارهم لأساليب العنف والصدامات الدامية ، وأدانوا الأحداث الدامية التى حدثت فى الفترة الأخيرة دون مواربة أو غموض.

أعود مرة أخرى فأقول إن « الإخوان المسلمين » فى السجون إبان عهد عبد الناصر ، قد فتحوا ملف « الجهاز الخاص » وناقشوا الموضوع بصراحة ووضوح ، بل شكلوا لجنة لتقصى الحقائق ، ومساءلة أعضاء الجهاز المحكوم عليهم ، وكان من جراء ذلك أن حدثت خلافات عميقة ، فقد رأى البعض أن إنشاء مثل هذا الجهاز منذ البداية كان خطأ ، وأعطى فرصة للمسئول عنه كى يتصرف من تلقاء نفسه ، مما أوقعه وأوقع الجماعة فى مآزق شديدة ، وأعطى الفرصة لأعداء الحركة الإسلامية كى يثيروا غبار الشبهات حول تاريخها وجهادها وتأثيرها العميق فى المجتمع المصرى والعربى والإسلامى ، واتهامها بالخروج عن الأسلوب الأمثل للدعوة إلى الله ، هذا على الرغم من قلة عدد الأخطاء التى وقعت ، أما البعض الآخر ، فلم ينكر أن الدعوة إلى الله لابد وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكنهم أشاروا إلى أن عنف السلطة فى العهد الملكى ، وما تلاه من عهود ، كان - أى عنف السلطة - يؤدى إلى ردود أفعال وتصرفات مشابهة ، وخاصة عندما تغيب الحرية ، وتكمم الأفواه ، وتلقى التهم جزافًا ، ولا يعطى

للمتهم الفرصة كى يرد أو يوضح أو يدافع عن نفسه ، فضلًا عن أن ظروف إنشاء أو تشكيل « الجهاز الخاص » بدأ فى فترة العهدالملكى والاستعمار الانجليزى ، واجتياح الصهيونية لفلسطين ، وعبث الأحزاب والحكومات ، وتفشى الفساد والانحلال والانحراف ، وما زال العقلاء والمفكرون والعلماء فى مصر حتى اليوم يشيرون إلى أن عنف السلطة وإجراءاتها اللاقانونية ، وممارسات التعذيب هى التى أوجدت التطرف والعنف ، وقد أفسحت الصحف - حتى الحكومية منها - مجالًا لنشر هذه الآراء فى أكثر من مناسبة ، ولم يعد خافيًا على أحد مدى التهور والإجحاف والتعذيب الذى حاق بالموقوفين من الإخوان فى مختلف العهود.

ومعظم الأحداث العنيفة التى اتهم بها الإخوان كانت فى عهد ما قبل الثورة ، أما ما جرى بعد ذلك فإن أبرزها « حادث المنشية » بالإسكندرية الذى اتهم فيه « محمود عبد اللطيف » وآخرون ، وهو حادث حوله جدل كبير ، كما سبق وذكرت فى القسم الثانى ، وأما حادث اغتيال « السادات » ، ثم الحوادث الأخرى التى جرت فى عهد مبارك فلم يثبت أن للإخوان بها أدنى صلة ، وهو أمر معروف لا يحتاج لشرح.

والواضح - من خلال لجنة التقصى التى شكلها الإخوان - أن عبد الرحمن السندى ، غفر الله له ولنا ، كان رئيسًا للنظام الخاص ، وأن مسئولية ما جرى كانت تقع على عاتقه ، كما ثبت أنه تصرف - من تلقاء نفسه - فى المواقف التى ألصقت بالإخوان كجماعة كقضية الخازندار والنقراشى ، وهما أشهر قضيتين فى عهد فاروق ، ولقد عاش عبد الرحمن السندى حتى جاء الهضيبى ، وأراد تصفية « الجهاز الخاص » وكان أن عزل « السندى » ، وولى مكانه « المهندس المرحوم سيد فايز » ليقوم بمهمة تصفية هذا الجهاز ودمجه مع التنظيم العام ، وتجنبًا للأخطاء التى جرت ، وسد باب الفتنة والقرارات الفردية ، ودرءًا للشبهات والاتهامات التى استغلها الكتاب والمحللون والمؤرخون أسوأ استغلال ، ولم تكن تصفية هذا التنظيم بالأمر السهل فقد تمرد « عبد الرحمن السندى » ، وحاول عزل الهضيبى بأسلوب القوة والقهر ، وقد نشرت الصحف هذه الواقعة فى حينها ، وخاصة أن عبد الرحمن السندى بعد فصله من الجماعة ، وضع يده فى يد عبد الناصر ، ولم يصدر الأمر باعتقاله كباقى قيادات الإخوان بعد حادث المنشية ، وظل حرًا طليقًا حتى وافاه الأجل المحتوم ، وأنا شخصيًا لم أر عبد الرحمن السندى فى حياتى إلا مرة واحدة ، أثناء وجودى فى سجن القاهرة عام ١٩٥٨، حين أتى لزيارة الأخ الأستاذ على صديق ، فقد عملا معًا سنوات طويلة ، وكان على صديق محكومًا عليه مثلنا ، وكان عبد الرحمن يقف قبالة سجن القاهرة مستندًا إلى جدار ، ونحن نطل عليه من نافذة بمستشفى السجن ، ولم يدر بينه وبين « على صديق » إلا حوار مقتضب تبودلت فيه التحيات والتمنيات ، ثم نزل على ليستقبله فى زيارة خاصة.

خلاصة الأمر أن الغالبية العظمى من الإخوان المسجونين أدانوا العنف ، ولم يقروا أية تنظيمات سرية بعيدة عن أعين القيادة ورقابتها ، ورأوا أن مثل هذه التنظيمات أو الأجهزة تضر أكثر مما تنفع ، وأن القوة الحقيقية تكمن فى عظمة المبادئ ، ورسوخ العقيدة ، والقدرة على الإقناع بالكلمة والموقف والقدوة ، ولقد كانت تجربة الإخوان الفذة على الصعيد الاجتماعى ، وعلى أرض الجهاد فى فلسطين والقنال ، وفى التصدى لانحرافات السلطة ، وتبنى قضايا الجماهير وفق المقاييس الإسلامية ، والاهتمام بتربية الأجيال الجديدة على مثل الإسلام وأعلامه ، ونجاحهم الفردى والجماعى فى مختلف القطاعات وحقول العمل والإنتاج ، والالتزام الأخلاقى دينيًا ودنيويًا ، أقول كانت تجربة الإخوان تلك هى الإنجاز الكبير الذى ترك بصماته حتى اليوم على توجهات أجيالنا المعاصرة ، وكان من أهم أسباب الحفاظ على

شخصيتنا وانتمائنا الإسلامى، على الرغم من محاولات المسخ والهدم والتشويه التى تعرضت لها بلدان العالم العربى والإسلامى فى العقود الأخيرة من هذا القرن.

وقد يظن ظان أن المد الإسلامى قد انحسر من جراء ما تعرض له من هجمات، وبسبب الحملات الإعلامية المغرضة الشرسة، والممارسات القمعية من السلطة فى العهود المتتالية، لكن الواقع المعاش قد أثبت عكس ذلك، فما زال المد الإسلامى يتسع ويقوى، ويثبت وجوده وفعاليته وإيجابياته فى شتى المجالات، ولو أعطيت الفرصة العادلة لهذا التحرك لتغير وجه الحياة، وفى اعتقادى أن محاربة التيار الإسلامى المعتدل المتزن سياسة خاطئة، وإهدار للوقت والجهد، وتضييع للفائدة، لأن حاجتنا إلى ضمائر حية، وأخلاق فاضلة، وإيمان صادق، وعلم حديث، أكثر من حاجتنا إلى استيراد أنظمة وبرامج وقروض وتحالفات مع القوى الكبرى، فالاعتماد على الذات، ومشاركة الأمم فى تقرير مصائرها، والوعى بالعصر الذى نعيشه وبمتطلباته، هو الطريق الصحيح للخروج من الأزمة الخانقة التى تشل حركة التقدم والازدهار فى عالمنا الإسلامى..

أقول لقد تحدد موقف الإخوان بصورة واضحة قاطعة فى رفض أسلوب العنف والتطرف، واتخاذ أسلوب «الحكمة والموعظة الحسنة» لدعوة الناس إلى حياة أفضل وأطهر، ولعل ذلك كان السبب فى ظهور انشقاقات محدودة عن صفوف الجماعة، نذكر منها بالذات جماعة «شكرى مصطفى» الذى كان أحد المعتقلين الإخوان فى عام ١٩٦٥، ثم انشق وكوّن ما سمى بعد ذلك بجماعة «التكفير والهجرة».

ثم ظهرت بعد ذلك جماعات صغيرة محدودة العدد، رفضت الاعتدال، ورأت أن تجابه السلطة عنفًا بعنف، وأن تغير «المنكر» بيدها، ما دامت الآذان قد صمت، وما دامت السلطة قد فرضت القيود على حرية الرأى وتشكيل الأحزاب، ووضعت لذلك قوانين صارمة تتنافى مع الحرية الصحيحة، وصنعت قانونًا عجيبًا للانتخابات، بالإضافة إلى ما يصاحب ذلك عادة من تزييف وتزوير فى النتائج وتدخل فى مسار العمل السياسى والاجتماعى لجعله ينحرف إلى اتجاهات بعينها، وحتى بعد أن نجح عدد لا يستهان به – تحت تلك الظروف الصعبة – لم تزل السلطة ترفض السماح للإخوان بتشكيل جماعة تتولى مسئولياتها فى خدمة المجتمع فى النور، وفى ظل الالتزام بالقوانين المرعية، وما زالت السلطة تماطل وتسوف فى تطبيق «الشريعة الإسلامية» على الرغم من مطالبة الشعب الملحة بذلك، بل إن الصحافة التى تمثل التيار الإسلامى لم تزل تعانى من الرفض والعراقيل العديدة التى توضع فى طريقها، ولا شك أن هذه الأساليب الجائرة هى التى تمهد الطريق لظهور تيارات تتسم بالعنف والشدة، وهو ما لا يريده الإخوان، ولا يفكرون فيه، لا عن ضعف وخور، ولكن عن عقيدة وسلامة اعتقاد، وثقة بالمبدأ وبالنفس..

مما لا شك فيه أن قضية «التنظيم الخاص» أثارت العديد من التساؤلات والمناقشات، وكانت سببًا فى حدوث خلافات بين الإخوة فى السجون وخارج السجون، لكنها حسمت فى النهاية، ووضعت فى إطارها الصحيح، فكان ما كان من إعلان الجماعة على لسان قياداتها بالالتزام بالحكمة والموعظة الحسنة.

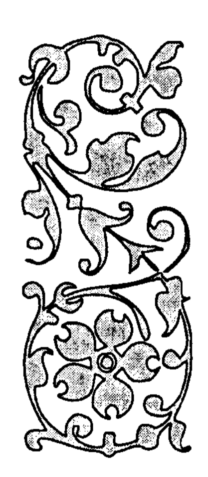
بقى أن أذكر القارىء بأن جمال عبد الناصر وثمانية من أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا – كما قلت فى مكان آخر – جزءًا من هذا «الجهاز الخاص» أو «التنظيم السرى» أو الجهاز السرى كما يحلو للبعض أن يسميه، وظل الجهاز السرى الخاص يعمل بعد ضربة الإخوان فى عام ١٩٤٨، وكان

عبد الناصر هو المسئول المباشر ، لكنه طور الجهاز وفتح بابه على مصراعيه لنوعيات مختلفة من الضباط ، لا صلة لها بالعمل الإسلامى ، وكان هو وحده الذى يمسك بخيوط هذا التنظيم والذى لم يبلغ المائة ، إلى أن قامت الثورة ، وبقية القصة معروفة ولا تحتاج إلى مزيد من التفصيل ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المرحوم حسن العشماوى «الإخوان والثورة» وقد كان عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين ، وإلى ما كتبه الأستاذ صلاح شادى المسئول عن الجناح العسكرى للإخوان ، ثم إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عادل كمال ، أحد قادة ذلك التنظيم وقد سجل تاريخه بأمانة وصدق ، وغير هؤلاء كثيرون ، فقد عاشوا التجربة بأنفسهم ، وشرحوا أهم ما يتعلق بجوانب هذه القضية الحساسة ، التى أخذت أكثر مما تستحق من اهتمام ، وسودت بسببها عشرات الآلاف من الصفحات ، على الرغم من محدودية عدد الحوادث التى جرت ، وعلى الرغم - من جانب آخر - مما قدمه الكثيرون من تضحيات وجهاد على أرض المعركة مع الصهيونية والاستعمار ، وعلى الرغم أيضا من مشاركة ضباط الثورة أنفسهم - وعلى رأسهم جمال عبد الناصر - فى تشكيل ذلك النظام ، والإفادة منه فى الحركة التاريخية التى تركت بصماتها وآثارها العميقة - إن سلبًا أو إيجابًا - على تاريخنا المعاصر.

إننى ما قصدت بالعودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى إلا لكى نأخذ العبرة ، ونفهم حقيقة الظروف والملابسات ، ونصدر أحكامنا فى روية واتزان ، بعيدًا عن الأهواء ، ثم ننظر بعد ذلك إلى الأمام ، حتى نستطيع أن نمضى على وعى وبصيرة فى مرحلتنا الجديدة ، وأمامنا الغايات النبيلة ، والأهداف السامية ، التى نتطلع إليها ، وحتى تصبح كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى.



# [٩] حادث خطير



إن طبيعة الحياة فى السجون متقلبة، يكتنفها الخوف، وتعصف بها المفاجآت، فمهما صفت السماء، وبدت الأمور مستقرة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون خدعة أو إجراء مؤقتًا، وسرعان ما يحدث التوتر، وتقع الواقعة، فيتعرض النزلاء لشتى أنواع العقوبات كالضرب، أو الحرمان من الخروج إلى الفناء، والحرمان من مختلف الأشياء التى سبق السماح بها، مثل الأكل الإضافى الذى نشتريه من المقصف، والكتب والأقلام والمراسلات والزيارات والملابس الداخلية والرياضة والهوايات.. كل هذه الأشياء تمنع، وتصبح فى مستوى الممنوعات الأخرى كالمخدرات وشفرات الحلاقة وحيازة العملة، يضاف إلى ذلك قطع الكهرباء عن الزنازين، لا يملكون غير السترة الزرقاء وسروالها، والبرش، وبطانية واحدة، وجردلًا لماء الشرب وآخر لقضاء الحاجة، ولا تمنح الفرصة لأحد كى يستحم فى الأسبوع مرة، ويصبح الغذاء قاصرًا على ثلاثة أرغفة وقطعة صغيرة من الجبن أو ملعقة من العسل الأسود، وكمية قليلة من العدس أو الفول المدمس، وبعض الخضار المطبوخ المجهول الهوية فى المساء، مع حلق شعر الرأس والشارب واللحية إن وجدت..

إن « التكدير » - كما يسمونه - أمر وثيق الصلة بحياة « السجين السياسى »، حتى ينشغل بالأمور الصغيرة من أكل وشرب ورياضة، ولكى يظل متوترًا مترقبًا لما سيجد من أحداث مرهقة نفسيًا وجسديًا.

لكننا بمرور الوقت تعودنا على هذه المنغصات والمضايقات، وأصبحنا نتوقعها فى أى وقت من الأوقات، ولم يكن أمامنا سوى الرضى بقضاء الله وقدره، والانكباب على القرآن حفظًا وقراءة ودراسة، والانشغال بالصلاة والصوم ومختلف أنواع الذكر والعبادة، حتى تنجلى الغمة وتعود الأمور إلى مجراها العادى مرة أخرى.

وكان من المعروف أن لكل تكدير سببًا لا يصعب علينا التوصل إليه، قد يكون هذا السبب هو الاحتكاك أو الاختلاف فى الرأى مع ضابط من ضباط السجن أو سجان عادى، إن لإدارة السجن دائمًا أسلوبها الجاف فى التعامل مع السجناء، وهذا الأسلوب كثيرًا ما يجر إلى الصدامات معنا، مع أنه يعتبر أمرًا مألوفًا مع السجناء العاديين « غير السياسيين »، لأنهم يتقبلون المعاملة الجافة أو اللا إنسانية دون تذمر يذكر، لكن الأمر يختلف عند السجناء السياسيين الذين يأنفون من الإهانات والمعاملات التى لا تليق.

ومع ذلك فقد حدث ذات يوم لنا تكدير « غير مبرر »، لم نفهم له أى سبب، لقد أغلقوا أبواب الزنازين فى الصباح، ولم يسمحوا لنا بالذهاب إلى دورة المياه، أو الخروج إلى الفناء فى طابور الصباح، بل انقضوا على الزنازين وجردوها من كل شىء حتى الطعام الإضافى والملابس الداخلية والكتب وغيرها، وكنا نتساءل: « لماذا؟ » لكننا لم نجد الجواب.. وبقينا نعانى آلام الحيرة والقلق إلى أن استطعنا

الاتصال بوكيل السجن النقيب مصطفى أبو دومة ، وهو من الإخوان السابقين فى تنظيم الشرطة قبل الحل الرسمى للجماعة كما سبق وقلت ، وصدمنا بأخبار مزعجة غاية الإزعاج جعلتنا نتوقف ونفكر ونعيد النظر فى مواقفنا كلها من جديد.

فماذا جري؟

قيل لنا أنه حدث صدام بين الإخوان المسلمين فى « ليمان طرة » وبين إدارة السجن ، ونتيجة لهذا الصدام الداخلى صدرت الأوامر لإدارة سجن طرة وللكتيبة التى تحرس السجن خارج الأسوار بإطلاق الرصاص على السجناء من الإخوان ، واستمرت المعركة بين المسلحين من الجنود والعزل من الإخوان بضع ساعات ، بقيادة وإشراف كبار مسئولى وزارة الداخلية والمباحث العامة « أمن الدولة » ، وكان زكريا محيى الدين هو وزير الداخلية فى تلك الفترة « يونيو ١٩٥٧ » ، وما إن انتهت المعركة حتى كان حصادها واحدًا وعشرين قتيلًا من الإخوان المسلمين وأكثر من عشرين جريحًا ، وبعدها أذاعت الحكومة بيانًا مقتضبًا نشر فى الصحف جاء فيه « أنه حدث احتكاك بين بعض المسجونين فى ليمان طرة وبين الحراس ، ونتج عنه بضع إصابات فى كلا الجانبين . » هذا كل ما نشر فى الصحف المصرية ، كما نقلت وكالة « تاس » السوفيتية نفس الخبر الرسمى الذى نشرته الحكومة المصرية ، لكن إذاعة بغداد فى تلك الفترة روت المأساة كاملة ، وكذلك بعض الصحف العربية الحرة أو المعادية لمصر ، كما صدرت فيما بعد كتب خارج مصر تروى القضية تفصيليًا ، وتسجل أسماء الشهداء وأعمارهم والوظائف التى كانوا يشغلونها ، ونلاحظ فى البيان الرسمى الذى أذاعته الحكومة المصرية آنذاك أنه:

أولًا: حاول إيهام الناس بأنه صدام بسيط بين السجناء دون تخصيص ، وبين الحراس.

ثانيًا: لم يذكر البيان أسباب ذلك الصدام.

ثالثًا: لم يذكر البيان أن هناك قتلى من طرف واحد وأنهم واحد وعشرون شهيدًا.

رابعًا: لم يشر البيان من قريب أو بعيد إلى الإخوان المسلمين أو أنهم هم الضحايا وبالتالى لم يذكر أسماء القتلى أو الجرحى.

وهذا يعطى فكرة عن مدى مصداقية البيانات الرسمية فى تلك الفترة ، كما يعطى صورة محزنة عن الصحافة القومية الخاضعة للسلطة ، والمؤتمرة بأمرها دون وازع من ضمير.

وقد قيل الكثير عن هذه المذبحة المروعة ، لكننى بعد شهر تقريبًا من حدوثها تم ترحيلى من سجن أسيوط إلى سجن القناطر الخيرية ، وفى القناطر الخيرية التقيت بسجناء ليمان طرة الذين نجوا من الحادث ، ونقلوا بعده مباشرة من طرة إلى القناطر ، وكان بينهم المصابون أيضًا الذين شفوا من أثر الجراح التى لحقت بهم نتيجة إطلاق الرصاص أو الضرب بالعصى الغليظة ، وكان من بين الناجين الأخ الأستاذ حسن دوح زعيم الطلبة وأحد قادة معركة القناة ضد الانجليز ومعركة فلسطين ، كما كان بينهم الأخ المهندس مجدى زهدى نجل المستشار إسماعيل زهدى ، والشيخ حسن أيوب الداعية الكبير والذى قضى سنوات فى الكويت والمملكة العربية السعودية بعد خروجه من السجن ، والأستاذ أحمد البس أحد قيادات الإخوان البارزين ، والشيخ عبد الرزاق أمان الدين ، والأستاذ عبد المنعم محمد سليم ، والأستاذ محيى الدين عطية محمد رئيس تحرير مجلة « المسلم المعاصر » حاليًا ، والأستاذ الدكتور سليمان حجر الأستاذ حاليًا بكلية التربية الرياضية بالقاهرة ، وضابط الجيش السابق عبد الكريم عطية وغيرهم كثيرون ، كما كان بينهم أربعة من الشيوعيين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة فى إحدى قضايا الإخوان ، لأنهم كانوا قد انضموا إلى الإخوان كى يتجسسوا عليهم ، فوقعوا فى كمين مع

الإخوان ، وسيقوا إلى المحاكمة حيث صدرت ضدهم أحكام باعتبارهم من التنظيم الإخوانى ، لكنهم كانوا يعيشون فى السجن منعزلين عن الإخوان ، ويعلنون تمسكهم بالمبادئ الشيوعية.

فى سجن القناطر علمت قصة ما جرى ، فقد بدأ الصدام عندما كان بضعة أفراد من الإخوان فى استقبال أهليهم الذين جاءوا لزيارتهم فى السجن ، وأثناء الزيارة تحرش بعض الضباط بالمسجونين الإخوان أمام ذويهم ، مما اضطر الإخوان للرد على كلماتهم البذيئة ، وتحول الكلام إلى اعتداء وضرب وتشابك بالأيدى وأنهيت الزيارة بصورة سيئة.

وفى هذه الأيام كان الإخوان المسجونون قد تقدموا بطلب لإدارة السجن جاء فيه أنهم قضوا فى الجبل يقطعون الصخر لسبعة وعشرين شهرًا ، والمسجون غير السياسى عندما يصل لهذا الحد يعفى من الخروج للجبل ، ويوكل إليه أعمال أخرى داخل السجن ، تكون أخف وطأة مثل العمل فى الخياطة أو المطبخ أو النجارة أو غيرها من الحرف الأخرى ، لكن إدارة السجن لم تهتم بالطلب؛ مما جعل الإخوان يهربون خطابات فردية إلى النائب العام يطلبون منه التحقيق فى الأمر ، ويشعرونه بأنهم فى خطر ، وأن الإدارة تتحرش بهم ، وتوشك أن تقضى عليهم ، وفعلًا وصلت هذه الخطابات للنيابة.. وقبل أن تتحرك النيابة حدثت مشكلة الزيارة وما تبعها من إهانات ، وفى اليوم التالى طلبت الإدارة من الإخوان الخروج إلى الجبل كالمعتاد ، وكان الجو متوترًا ولا يوحى بالثقة والأمان ، بل نما إلى علم الإخوان أن الحكومة قد بيتت أمرًا خطيرًا ، وأنه من المحتمل أن يطلق عليهم الرصاص أثناء تواجدهم بالعمل فى الجبل ، وسوف تدّعى الإدارة أنهم قد تمردوا.. والتمرد خارج السجن «فى الجبل» معناه إطلاق الرصاص فورًا ، وهنا تردد الإخوان فى الاستجابة للخروج إلى الجبل ، وطلبوا من إدارة السجن أن تحضر النيابة للتحقيق ، وهذا من حق أى سجين ، لكن الإدارة رفضت ، فاعتصم سجناء الإخوان بالزنازين ، وتم إغلاقها عليهم ، وبعد فترة جاءت فرقة من الضباط والسجانة ، وأخذوا يفتحون الزنازين واحدة واحدة ، وكلما فتحوا غرفة انهالوا على من فيها بالضرب والإهانة ، وقيدوهم بالسلاسل ، كى يخرجوهم إلى الجبل عنوة ، وتنبه أحد الإخوة إلى خيوط المؤامرة ، فاختطف مفتاح الزنازين من السجان ، وفتح أبواب جميع الزنازين بسرعة ، وساعده فى ذلك من خرج من الزنازين الأولى ، وتراص الإخوان أمام زنازينهم طالبين النيابة ، ورافضين للدخول بعد أن ثبت سوء نية الإدارة ، وحدث شيء من الهرج والمرج داخل العنبر الكبير ، فى الدور الذى يسكنه الإخوان ، وفى هذا الوقت طلب مدير الليمان عددًا من الإخوان للتفاهم ، وكان من بينهم الأستاذ حسن دوح ، كما كان الشهيد سيد قطب مقيمًا فى مستشفى السجن فى تلك الفترة ، بعيدًا عن عنبر الإخوان.. ونزل حسن وإخوانه للتفاهم مع الإدارة ، لكنهم فوجئوا بأن الضباط وضعوهم فى زنازين التأديب ، وقد كان هذا نافعًا لهم كما سيتضح فيما بعد.. وبعد دقائق ذهل الإخوان المتراصون أمام الزنازين ؛ إذ بدأ العسكر فى إطلاق الرصاص فجأة ، وأخذ المصابون يتساقطون وسط الدهشة والذهول ، ولم يجد سجناء الإخوان مناصًا من الدخول مرة أخرى إلى الزنازين للاحتماء فى داخلها من وابل الرصاص ، بل وأغلقوا أبواب الزنازين ، وهى أبواب قوية سميكة ، وزادوا من قوة إغلاقها بأجسادهم ، لكن الرصاص المنهمر لم يكف ، كان العسكر يوجهون رشاشاتهم من النوافذ ، ومن نظارات الأبواب السميكة ، بل أطلقوا الرصاص على الأبواب نفسها حينما اكتشفوا أن السجناء يحكمونها بأجسادهم.. حتى إن ظهور بعض الإخوة تلقت دفعات من الرصاص عبر الأبواب حتى أصبحت هذه الظهور كالغربال عند من عاش منهم بعد ذلك ، وانبعثت التأوهات والاستغاثات.. وانتصر العسكر.. ولفظ عدد من أبرياء الإخوان آخر أنفاسهم.. وجاءت

أرواحهم إلى الله الذى لا يظلم عنده أحد.. وسيق الذين امنوا فى أغلال السلطة إلى ساحات التعذيب مرة أخرى.. قالوا للعالم الكبير « قل أنا عائشة ..».. لم ينج الجرحى من التعذيب.. حضرت النيابة أخيرًا للتحقيق.. وليتها لم تحضر.. قال المستشار إسماعيل زهدى لابنه السجين الذى أصيب إصابة بالغة فى الحادث: « لقد أثبت التحقيق أن الحكومة مدانة تمامًا ، لكن صدر الأمر من الجهات العليا بحفظ التحقيق » وحفظ التحقيق.. واستمر التعذيب فى سجن القناطر أيضًا بواسطة « الشلقامى » - حضرة الصول - وعدد من العسكر الذين أصيب بعضهم بانهيار عصبى لهول ما رأوا..

عندما كان الرصاص يزغرد فى أروقة الليمان ، كان النسوة من أهالى المسجونين اللائى حضرن للزيارة يصرخن ويستغثن.. ولا مجيب.. ودفنت جثث الضحايا بإشراف الحكومة ، دون أن يسمح لأهليهم بإلقاء النظرة الأخيرة.. مات أحمد حامد قرقر صاحب الشجاعة والصمود المبهر أثناء المحاكمة.. ومات العزب صوان عامل بشركة المحلة الكبرى وبطل حمل الأثقال.. ومات خيرى عيطة بن العالم الفاضل ، وفهمى نصر.. وغيرهم.. مع ذلك نجد اليوم زبانية عبد الناصر الأحياء يتحدثون فى مذكراتهم وكتاباتهم عن طهارة الثورة التى لم تلوث يديها بالدماء ، وعن معاملتها الكريمة الرقيقة للثورة المضادة والمعارضة..

وقيل يومها فى تفسير هذا الحادث المروع الغريب ، أن جمال عبد الناصر أراد أن يلقن الإخوان درسًا جديدًا ، بسبب مشاركة إخوان المملكة الأردنية الهاشمية فى إفشال الانقلاب الذى قام به الضابط أبو نوار ضد الملك حسين.. وقيل أيضًا أن زكريا محيى الدين كان يشرف بنفسه على المعركة العجيبة داخل سجن طرة ، وما أكثر ما قيل من أشياء لم تتضمنها بالطبع وثائق الكاتب الهمام محمد حسنين هيكل الذى اكتفى بالإشارة إلى الظلم الذى حاق بالإخوان ونسبه إلى الجهات الأمنية ، ولم يقدم سوى وثيقة يتيمة كتبتها مباحث الإسكندرية ، وسجلها فى كتابه عن حرب السويس ، ونسى الكاتب الهمام مقالاته وتشهيره بالأبرياء المضطهدين من الإخوان على صفحات جريدة الأهرام الغراء فى تلك الحقبة السوداء من تاريخ مصر العزيزة..

نعود مرة أخرى إلى سجن أسيوط ، فقد بلغتنا أنباء مذبحة طرة ، ونصحنا الضابط مصطفى أبو دومة بالركون إلى الهدوء والروية داخل السجن ، لأن الظروف ليست فى صالحنا ، وأن الحكومة على استعداد لتكرار مأساة طرة فى أى وقت من الأوقات ، وفى أى مكان من الأمكنة التى يتواجد فيها الإخوان المسلمون ، ولقد كان وقع الحادث علينا أليمًا ، كما كان له أسوأ الصدى فى نفوس أهلينا ، وعلى الرغم من ذيوع الخبر ، وانتشاره فى كل الأنحاء إلا أن أحدًا لم يجرؤ على مناقشته علانية ، بل إن البعض كان يعبر بخلاف ما يعتمل فى داخله ، فيمتدح الحكومة ، وهو يلعنها بينه وبين نفسه ، وأهل القتلى انطووا على ذواتهم يجترون أحزانهم المريرة دون أن يفكر أحد فى رفع قضية ضد الحكومة ، لقد كانت الحكومة فى أوجها ، والقومية العربية تتألق ، ألم يهزم عبد الناصر جيوش العدوان الثلاثى منذ بضعة شهور ، ويسكت المعارضة - كما يبدو - إلى الأبد ، ويضرب بيد من حديد على كل من يفكر فى نقد أو حتى مجرد التعرض لنظامه بالنصيحة البريئة؟

لعل هذه الفترة كانت من أسوأ الفترات التى مرت بنا داخل السجون ، فقد كان واضحًا أن الأمور قد بلغت منتهاها من التبجح وعدم الاكتراث ، فماذا بعد أن يسمح الحاكم بقتل سجناء الرأى علانية وبالرصاص داخل السجون؟ إن هذا التصرف ذروة البطش والجبروت وسوء النية والحقد ، ولقد كان من المتوقع أن يحدث عكس ذلك ، فماذا تريد الحكومة بعد أن كسرت شوكة المعارضة فى الداخل ،

ونجحت - ولو مرحليًا - ضد الغزو الخارجي؟ كان يفترض أن تمنح الشعب مزيدًا من الحرية أو الديمقراطية ، وأن تلتزم بالقوانين الرسمية ، والشرائع الأخلاقية ، فى دولة إسلامية ، وإذا كانت الحكومة قد تجاوزت الحدود فى تعاملها مع الإخوان أثناء الصدام فى عام ١٩٥٤ ، فربما كان ذلك من جراء الحادث المريب ، والتوتر السائد ، ورغبة الحكم فى حماية نفسه ، وتدعيم أسسه ، أما اليوم وقد انتهت الجولة لصالح الحكم الشمولي المطلق ، فلا مبرر لمزيد من سفك الدماء ، وإزهاق الأرواح.. لكن ما قد حدث جاء بعكس المنطقي والمعقول ، ولعله ناجم عن الغرور الذى انبثق بعد انسحاب القوى الغازية ، أو نابع من الحقد القديم الذى يكنه عبد الناصر للرجال الذين بايعهم من قبل على المصحف..

كاذب.. كاذب من يزعم أن عبد الناصر لم يكن يدرى شيئًا عما يحدث ، لأن أمرًا خطيرًا كهذا الذى حدث فى ليمان طرة لا يمكن أن يتم على مستوى إدارة السجن ومديره ، والمعروف أن المساجين السياسيين يتبعون أساسًا مباحث أمن الدولة « المباحث العامة آنذاك » ، ولا يمكن أن يصدر أمر إطلاق الرصاص عليهم بدون المباحث العامة ، والمباحث لا تستطيع أن تبت وحدها فى أمر بالغ الخطورة كهذا الأمر ، بل إن وزير الداخلية زكريا محيى الدين لا يجرؤ على فعل ذلك إلا بأمر « سيادة الرئيس » ، فهل فى هذا التقرير شك أى شك؟ قد يحدث الأمر كحالة فردية طارئة.. أما إن يحدث بالنسبة لمئات من السجناء ، وفى داخل العنبر فلا يصدق أن يتم دون أمر من رئيس الجمهورية شخصيًا.. لقد قامت الدنيا وقعدت عندما قتل « شهدى عطية » أحد زعماء الشيوعيين فى السجن فى بداية الستينات ، من القرن العشرين ، واحتج الاتحاد السوفيتى وسكرتير عام الحزب ، وحدثت أزمة دبلوماسية ، لكن ضحايا الإخوان المسلمين سقطوا شهداء دون احتجاج رسمى أو غير رسمى من أحد ، ومر الأمر وكأنه لا يعدوا أن يكون حدثًا عابرًا لا قيمة له ، ولا يصح أن يخلف وراءه أية تساؤلات ، وهل كان فى مصر عندئذ من يجرؤ على الاحتجاج أو مجرد التساؤل؟ إن الدكتاتورية لا تحب أن تسمع كلمة « لماذا؟ » أو كلمة « لا » ، حتى مجلس الوزراء كما يقول العلامة الأستاذ فتحي رضوان زعيم الحزب الوطنى ، وأحد وزراء عبد الناصر ، يقول كان الوزراء يجلسون فى الاجتماع الأسبوعى ليسجلوا أوامر عبد الناصر لينفذوها دون نقاش.. كانوا مجموعة من السكرتارية.. ومر الحادث المؤسف.. حادث مذبحة طرة مرور الكرام.. ولم يترك غير الحسرة والدموع لعدد من الأسر الصغيرة المحدودة فى مصر الصبور..

أكاد أقول إن أحلام النجاة من قبضة الطغيان قد تبددت فى تلك الفترة العصيبة ، لكننا كنا نقاوم اليأس والإحباط بتوجهنا إلى الله ، ولجوئنا إلى رحابه ، كنت أقول لنفسى إن العمر قصير ، وإن نهاية الحياة لابد ستأتى إن عاجلًا أو آجلًا ، فلماذا نجزع أو نيأس؟ ستمر الأيام ، وينقضى العمر بالنسبة لنا جميعًا.. حكامًا ومحكومين.. سجناء وسجانين.. ظالمين ومظلومين.. وعند مالك الملك يشرق صبح العدالة الأبدى ، وينال كل ذى حق حقه ، وتشمل رحمة الله جراح المعذبين والمحرومين ، ويؤخذ بناصية كل جبار عنيد.. أليس ذلك اليوم هو يوم الجزاء؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ صدق الله العظيم..

أليس غريبًا أن تكون مصر ذات الملايين من السكان ، وعشرات ، بل مئات الآلاف من المفكرين والعلماء وأصحاب الماضى العريق ، أقول أليس غريبًا أن تصمت مصر هذا الصمت الرهيب طوال تلك السنوات الكئيبة؟

وركنت إلى زنزانتى أقرأ وأكتب.. لعلى أعبر عما يجيش فى صدرى ، وأخفف عما ألم بى من هم وكمد ، والقراءة بالذات عالم رحب فسيح يهيم فيها العاشق فينسى كل ما حوله ، ويجوب الآفاق ،

وينتقل من المشرق إلى المغرب ، ويخالط العديد من الأفكار والأجناس والشخصيات ، إنها رحمة من الله لمن يعيشون خلف القضبان ، والحرمان منها يعتبر أقصى عقوبة لمن يقرءون.. شيئان لا غنى لنا عنهما ذكر الله والقراءة.. أما متع الحياة الأخرى ، فقد حرمنا منها ولا حيلة لنا فى ذلك حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا..

يا لها من أيام!! كنا ونحن جياع - وما أكثر ما نجوع ! - نقبل على خبز السجن والملح والبصل وكأنما نقبل على الحمام المحشو ، وكنا نأكل بشهية غريبة تغمرنا السعادة.. وكانت أجسامنا النحيلة نشطة.. خفيفة الحركة.. وقلما نعانى من أى مرض من الأمراض.. والآن من ينجينا من أكداس الشحم ، وفقدان الشهية ، وتصلب الشرايين ، وعسر الهضم ، وعذاب الأرق؟

فى أحد الأيام جاءنى الأخ الكريم زينهم حسن على من إخوان « إمبابة » ، وقدم إلى مجلة أدبية مصورة وقال: « خذ يا عم.. اقرأ ..»

كانت مجلة « الرسالة الجديدة » ، ولعلها أول مجلة أتحصل عليها منذ سجنت حتى تلك اللحظة ، وتصفحتها فوجدت فيها العديد من القصص والقصائد والمقالات النقدية ، وأحاديث متنوعة مع بعض مشاهير الأدباء فى تلك الفترة.. لكن الذى لفت نظرى أكثر ، هو ذلك الإعلان الكبير المنشور داخل المجلة عن المسابقة الأدبية الكبرى التى تجريها وزارة التربية والتعليم كل عام ، وترصد لها جوائز ضخمة.. وكانت المسابقة تنقسم إلى أبواب عديدة منها القصة القصيرة والرواية والنقد والدراسات الاجتماعية وأدب الرحلات ، وعشرات الموضوعات الأخرى كالتراجم والسّير والشعر وتاريخ الأدب.. الخ.

شعرت بنشوة غريبة..

وأغمضت عينى.. كنت أحلم..

لم يكن أخى زينهم حسن على يعرف أن هذه المجلة التى أخذها من زواره القادمين من القاهرة ، سوف تنحو بحياتى منحى جديدًا ، وتضعنى على أعتاب مسيرة جديدة ، ورحلة طويلة.. إلى آخر العمر..

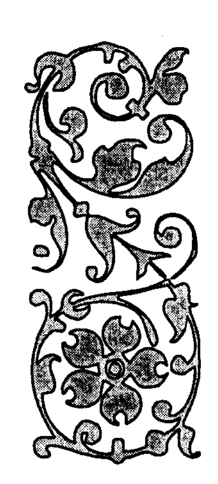
لم أنم جيدًا فى تلك الليلة ، وكنت فى نفس الوقت عازفًا عن الكلام مع الإخوة فى الزنزانة.. ليس فى رأسى بعد أن صليت وتعشيت وألقيت بجسدى على البرش سوى إعلان المسابقة وشروطها وآخر موعد لها ، هل أستطيع خلال شهر واحد أن أعد نفسى لهذه المسابقة؟ وهل فى الإمكان قبول اشتراكى فيها أصلًا؟ وكيف أخرج مواد المسابقة من السجن إلى وزارة التربية والتعليم؟

قلت فى نفسى المهم أن أبدأ خطوة خطوة

وعلى الله « التساهيل ..»

❀❀❀

# [١٠] شعاع من نور



كان لدى من الحماسة والطاقة ما يكفى لإنجاز هذه المهمة الطارئة بأسرع وأفضل ما يمكن ، قررت أن أتقدم للمسابقة الأدبية بكتابين ، الكتاب الأول جاهز بكامله ، وقد كتبته عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، فقد أعجبت بفلسفته أشد الإعجاب ، كما شدنى إليه شعره السلس العميق المترجم إلى اللغة العربية ، واقتنعت أن فكر هذا الرجل وآراءه تتفق تمامًا مع الصيغة العامة التى تتبناها جماعة الإخوان المسلمين ، أو بمعنى آخر كان فهمه للإسلام فهمًا مستنيرًا شاملًا موثقًا ، أما الكتاب الذى انتويت إعداده فهو رواية تحت عنوان « الطريق الطويل » تتعرض للأوضاع العامة فى مصر إبان الحرب العالمية الثانية ، وكان من الضرورى أن تمتد أحداث القصة حتى معركة السويس طبقًا لشروط المسابقة.

وفى اليوم التالى مباشرة ابتدأت فى كتابة الصفحات الأولى من الرواية التى تجرى أحداثها أساسًا فى قرية مصرية ، وقد استطعت بحمد الله إنجاز الرواية فى فترة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع ، وهو رقم قياسى فى تصورى ، ولعل ذلك كان راجعًا للاستعداد النفسى ووفرة الأحداث ، وعمق التجارب التى تتصل بهذا الموضوع ، وانتعاش الأمل بعد أن أظلمت الآفاق ، وكاد اليأس يستحكم.

وكان من الضرورى أن أعد نسختين من كل موضوع ، وأن أرسل المادة إلى وزارة التربية مسجلة قبل انتهاء الموعد ، ومن شروط المسابقة أن يكتب المتسابق على مؤلفاته اسمًا مستعارًا ورقمًا سريًا ، ثم يرفق بها خطاب مغلق به الاسم الحقيقى للمتسابق وعنوانه ، وقد تعاون معى بعض الإخوة فى نسخ الأصل وأذكر على رأسهم الأخ محمود الصواف العامل بشركة المحلة الكبرى للغزل والنسيج والمحكوم عليه معنا بالسجن عشر سنوات ، وكان محمود ذا خط جميل.

وساعدنا الزميل والضابط السابق بالجيش نجيب عطية ، عن طريق باشكاتب السجن الأستاذ محمود أبو الروس ، ولم يتكلف التسجيل أكثر من نصف جنيه ، وشعرت بعد ذلك بالارتياح الكبير ، ولم يعد أمامى سوى أن أنتظر النتيجة ، وهى فترة لا تقل عن بضعة شهور بالطبع ، وذلك لضخامة المسابقة وكثرة موضوعاتها المتنوعة.

لقد عشت فترة الكتابة وأنا متفرغ لها تمامًا ، حتى فى أوقات الراحة ، كنت أعيش فى جو الرواية ، وقد تخطر لى فكرة أو حدث أو حوار ، فأترك طعامى ، وأنسلُّ من بين إخوانى كى أسجلها على ورقة صغيرة قبل أن تهرب.. إن الفكرة بقوتها وحرارتها تظل متوهجة إذا سجلت فى حينها ، أما إذا أرجئت لوقت آخر ، فقد تفقد الكثير من عمقها وجمالها.. وفى حياتى الأدبية ضاعت منى أفكار كثيرة ؛ لأنى تكاسلت عن تسجيلها فى حينها ، وفى حالات كثيرة كانت المبادرة بتسجيل الأفكار بداية نجاح فى الإبداع ، وإنى لأذكر ، وأنا أكتب رواية « اليوم الموعود » بعد ذلك فى عام ١٩٦٠ ، كنت قد انتهيت من كتابة الفصل الثالث ، وتوقفت لأبحث عن حدث أو شخصية تكون لها القدرة على بث مزيد من

الحرارة والتشويق أو الإثارة فى الرواية.. وفى أثناء عودتى من كلية طب القصر العينى ذات يوم ، وثبت إلى ذهنى شخصية « ياقوتة » الغجرية ، وكانت رواية اليوم الموعود رواية تاريخية عن الحروب الصليبية ، وأسر الملك لويس الفرنسى فى « دار ابن لقمان » بالمنصورة ، وكنت ملتزمًا لحد كبير بالأحداث التاريخية ، لكن « ياقوتة » كانت شخصية « موضوعة » تمثل واحدة من بنات الشعب المصرى ، وفى « الترام » سارعت بتسجيل ما تخيلته عن هذه الشخصية المثيرة ، وما إن وصلت إلى البيت حتى أخذت فى الكتابة ، واكتشفت بعد الانتهاء من الرواية بعد فترة ، أن شخصية هذه الغجرية قد أعطت الرواية نكهة خاصة ، وكانت سببًا من أسباب نجاحها..

وبينما كنت أقرأ تفسير ابن كثير للقرآن الكريم ، جذبتنى قصة هاروت وماروت التى وردت فى سورة البقرة ، وخاصة عندما أغوتهما إمرأة من « بابل » القديمة تسمى « أناهيد » ، كانت القصة تحفل بطبيعة الإنسان وغرائزه ، وقضية العدالة وقداستها ، ومداخل الانحراف عند من يمسكون بأمن المجتمع واستقراره ، وفكرت فى أن أكتب مسرحية تدور أحداثها حول هذا الموضوع ، وفعلًا أتممت كتابة الفصول الثلاثة للمسرحية ، ووضعت لها عنوان « حسناء بابل » ، ومن سوء الحظ أن هذه المسرحية استولى عليها العسكر فى إحدى حملات التفتيش ولم أستطع العثور عليها بعد ذلك.

ولقد قمت بجمع شعرى فى تلك الفترة فى كراسة واحدة ، وأطلقت على هذه المجموعة من الشعر « أغانى الغرباء » ، وفى حملة أخرى من حملات التفتيش استولى عليها الضابط « زكى » ، وكأنه عثر على كنز ثمين ، وبعد أن قرأها أحالها إلى مدير السجن مطالبًا بتقديمى مرة ثانية للمحاكمة نظرا لما يتضمنه الديوان من هجوم على الحكومة وأسلوبها ، وكان من حسن الحظ هذه المرة أن مدير السجن الجديد « صدقى محمود » كان رجلًا مهذبًا ، وتعاطف مع موقفى ، وساعدنى فى ذلك أيضًا ضابط شاب آخر هو الملازم أول عبد المنعم ، وحلاً للإشكال تقرر إحراق الشعر ، والاكتفاء بذلك ، فأبديت اعتراضى الشديد ، وتم إبلاغه للمدير عن طريق عبد المنعم الذى جاءنى بعد يومين وقال: « هذا هو الشعر.. خذه.. ولا تطلع عليه أحدًا.. وأخرجه من السجن بأية وسيلة.. لأننا أخبرنا الضابط زكى أنه تم حرقه..»

كان موقفًا نبيلًا لا شك ، ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى جاء أحد الأقرباء لزيارتى من وراء الأسلاك ، فأخبرته بأنى سوف أرسل إليه كراسة الشعر بعد الزيارة ، وعليه أن يحتفظ بها حتى نخرج من هذا الجب.. ربما بعد عام أو أعوام.. الله أعلم.. وكان هذا القريب هو الأستاذ حلمى الشافعى الذى كان يعمل وقتها مدرسًا فى الصعيد.. لكن الضابط زكى ظل على اعتقاده بأن الشعر قد أحرق ، وكثيرًا ما كان يأتى إلى فى تشفٍ ويواسينى فى الشعر المحروق ، وهو لا يعلم حقيقة ما جرى. وقد شاء الله أن تصدر هذه المجموعة من الشعر فى بيروت بعد سنوات أى فى أوائل السبعينات ، من القرن العشرين ، كما أعيد طبعه فى مؤسسة الرسالة ببيروت أيضًا.

---

هذه الفترة كان السيد الوالد رحمه الله يبذل قصارى جهده فى نقلى من سجن أسيوط إلى سجن القاهرة حتى أكون على مقربة منهم ، بحيث تسهل الزيارة ومختلف المعاملات الأخرى ، وقد نجح الوالد فى ذلك أخيرًا بتوفيق الله ، لكن الخطاب الذى جاء بأمر ترحيلى أشار إلى أنى سأذهب إلى سجن القناطر الخيرية وليس سجن القاهرة ، وكنا نعلم أن إخواننا الذين كانوا فى « ليمان طرة » قد نقلوا بعد

الحادث إلى سجن القناطر الخيرية ، وأنهم يعيشون تحت ظروف عقابية وتكديرية شديدة ، فأشفقت من الذهاب إلى القناطر الخيرية لدرجة أننى فضلت البقاء فى سجن أسيوط ، لكن لم يكن لى فى الأمر حيلة ، لقد صدر القرار وانتهى الأمر ، ولابد من التنفيذ ، فأرسلت رسالة إلى الوالد أخبره فيها بمكانى الجديد ، وأصر إخوانى على إقامة حفل « وداع » لى بعد أن أخذوا إذنًا من الإدارة ، على أن يكون الحفل داخل العنبر ، فى مكان رحب لحد ما بالدور الثانى عند بسطة الدرج..

كان وداعًا حارًا أسال دموعى ، وكانت الكلمات تحتبس فى حلقى ، وكان بين المودعين الأستاذ أحمد شريت عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين ، الذى قدم من الواحات للعلاج فى أسيوط ، وكان رحمه الله رجلًا شهمًا من رجالات الصعيد المرموقين ، والدعاة المخلصين ، ومنهم أيضًا المرحوم الأستاذ الشاعر الداعية « أحمد نار » وقد حضر أيضًا للعلاج من الواحات لاشتباه وجود ورم خبيث بالأمعاء؛ وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات فى الرأى حيال بعض الموضوعات الفكرية والتنظيمية ، إلا أن الجميع جلسوا على صعيد واحد ، فى مودة صادقة ، وكانت الكلمات التى قيلت فى هذا الصباح معبرة عن صدق العزيمة ، والالتزام بالمبادئ ، والتواصى بالصبر ، وأخذ العبرة مما يجرى ، أما كلمتى الأخيرة فقد كانت تركز على الاعتصام بالرابطة العَقَدَية فى ظل الإخاء والحب والتفاهم ، على ألا يكون الخلاف فى الرأى مدعاة للقطيعة.. ودعوت أصحاب الآراء المتصادمة إلى التصالح فورًا والآن ، وكان مشهدًا رائعًا حينما تعانق الإخوة وتصافوا.. فكان ذلك إيذانًا ببداية جديدة..

وفى فجر يوم صيفى لعله فى شهر أغسطس عام ١٩٥٧، خرجت من سجن أسيوط والدموع تخنقنى ، كان الإخوان خلف أبواب الزنازين المغلقة يعثون بتحياتهم ، وأنا عاجز عن الرؤية أو النطق لشدة الانفعال ، وهبطت الدرج تسبقنى عبراتى ، وقال لى السجان وهو يضع الأغلال « الكلبشات » فى يدى: « هكذا الدنيا.. لقاء وفراق.. هنا سجن وهناك سجن.. لكن على الأقل سترى الدنيا ولو لساعات ..»

كانت حراستى مكونة من ضابط وصول واثنين من العسكر ، ومضى الضابط الشاب أمامنا حتى وصلنا إلى أحد صالونات الدرجة الأولى بالقطار ، إنها المرة الأولى فى حياتى التى أجلس فى الدرجة الأولى ، واستأذنت من الضابط أن أشترى الصحف والمجلات فوافق على الفور ، كنت جائعًا لمثل هذه الوجبة الثقافية ، وأخذ الضابط يسألنى عن عملى ، وقضيتى والحكم الصادر ضدى ، وأخيرًا نظر إلى الصول وأمره بأن يفك الأغلال ، فكانت لفتة طيبة منه..

وجاء أحد الركاب واستسمح الضابط فى أن يعطيه مكانًا بالصالون لعدم وجود أماكن أخرى شاغرة بالقطار ، فتردد الضابط قليلا فى البداية ، ثم سمح له ، وجلس الوافد الجديد صامتًا ، يتصفح الجريدة ، لكنه انتهز فرصة خروجهم وسألنى: « ما هى حكايتك »

– « سجين.. ألا ترى السترة الزرقاء؟ »

– « يبدو أنك متعلم ، فلماذا سجنت؟ »

قلت باقتضاب: « من الإخوان المسلمين ..»

وبدت عليه الدهشة وقال: « ألم يزل فى السجون إخوان؟ »

قلت له: « طبعًا.. ألا تعلم؟ »

فمط شفتيه وسكت..

هذا الحوار الموجز أصابنى بألم نفسى شديد ، حتى أمثال هذا الرجل من المثقفين لا يعرفون عنا

شيئًا؟ هل العيب فى الصحف التى لم تعد تشير إلى قضيتنا من قريب أو بعيد ، أم العيب فى الأخلاقيات الجديدة التى جعلت كل فرد ينطوى على خصوصياته ، ويبعد عما قد يجلب له المتاعب؟

كانت تنتظرنا فى محطة السكة الحديد بالقاهرة سيارة « جيب » تابعة لوزارة الداخلية ، ومن القطار إلى السيارة مباشرة ، ومضت « الجيب » في طريقها إلى سجن القناطر ، كنا فى وقت الغروب الحزين ، والسجن صامت صمت القبور ، واستقبلنا أحد ضباط السجن وبعد التسليم والتسلم وعمل التسجيلات الدفترية ، أخذت إلى الداخل بعد أن شكرت حراسى الكرام المرهقين من طول السفر..

كان الصول شلقامى يجلس خلف مكتب حقير ، ونظراته الجامدة مسددة نحوى ، وقال: « مرحبًا.. شعرك طويل.. لابد من حلاقته غدًا ..»

أعوذ بالله ، أهذه هى البداية؟ إن شعرى لا يزيد عن سنتيمترين ، لم يزعجنى ذلك كثيرًا ، فقد تعودت على مثل هذه التفاهات ، والأمر لله ما شاء يفعل.. وقال لى الشلقامى: « هنا سجناء طرة.. وهؤلاء لهم معاملة خاصة.. إنهم شياطين.. والاتصال بهم ممنوع منعًا باتًا.. طبعًا سمعت عن حادث « طرة ».. مفهوم؟ » لم أجب بشىء ، هذا هو أسلوبهم المقيت الذى قلما يتغير..

وسلمنى الشلقامى « برشًا » من السعف وبطانية ، ثم أخذنى إلى الزنزانة المجاورة لمكتبه ، وما إن فتحها حتى وجدت فيها إخوة لى أعرفهم من قديم: على محمد عبد المنعم ، وعبد الوهاب السقا ، وسمير الغندور.. كانوا معنا فى سجن أسيوط قبل ذلك ، ثم تم ترحيلهم إلى هنا منذ زمن ليس بالطويل.. وكان الترحيب والعناق.. وشعرت بالارتياح.. لأنى لن أكون وحدى فى حبس انفرادى..

وقال الشلقامى وهو يغلق علينا الزنزانة: « اشرحوا لأخيكم التعليمات ..»

وانفجرنا من الضحك ، والدموع تملأ عيوننا..

وأخذت استفسر عن إخوان طرة المتواجدين فى الزنازين المجاورة لنا بنفس الطابق ، وأخبرنى الإخوة أن الشلقامى يمنع الاتصال بهم ، وقال على عبد المنعم: « الشلقامى هذا كالوحش ، ونحن نحاول ترويضه بشتى الطرق ، ونقدم إليه الهدايا والمنح التى يأتى بها زوارنا ، ونشترى له السجائر والبولوبيف ، وذلك حتى يسمح لنا بإرسال بعض أقراص الأسبرين وأدوية المغص وغيرها إلى إخواننا القادمين من ليمان طرة عقب الحادث المؤلم.. والأمر يحتاج منا إلى الكثير من اللباقة والكياسة حتى نستطيع أن نقدم أية خدمة ممكنة لهم ، ونحاول جاهدين أن نجعل الشلقامى وعساكره يقللون من الإهانات والضرب بالنسبة لهم ..»

قلت: « هل معاملتنا تختلف عن معاملتهم؟ .»

قال على: « بالطبع.. لأننا لم نكن ممن حضروا الحادث.. ويبدو أن هناك أوامر بمعاملتنا بصورة طبيعية ..»

عندما فتحت الأبواب فى الصباح ، نبه علينا الشلقامى ألا نخرج أثناء خروج الآخرين ، ورأيت إخوان طرة يجرون فى طابور طويل ، حاملين جرادل الماء والبول ، متجهين إلى دورة المياه ، كانوا شاحبى الوجوه ، حليقى الرءوس ، متسخى الثياب ، يختلسون النظرات إلينا عبر بابنا المفتوح ، وسمعت بعضهم يقول بصوت هامس: « حمدًا لله على السلامة يا نجيب ..»

قلت: « كيف عرفوا بمجيئي؟ »

قال على: « كلهم يعرفون.. نحن ننتهز فرصة غياب الشلقامى ، ونتصل بهم خفية ، ونبعث إليهم بما تيسر من أخبار ودواء ..»

وانتشرت فى هذه الفترة « الانفلونزا الأسيوية » فى مصر ، فكان هذا سببًا وجيهًا لمنع الزيارات عن المسجونين ، وفى هذه الفترة لم نكن نعرف شيئًا عما يجرى فى الخارج ، حتى عنابر السجن الأخرى لم يكن يسمح لقاطنيها بالاقتراب منا ، والأعجب من ذلك أننا نشغل الطابق الثانى ، وهناك ثلاثة طوابق أخرى اثنان فوقنا ، وواحد تحتنا ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ أحد من سكان هذه الأدوار على الحديث أو التعامل معنا ، وكان الطابقان العلويان مخصصين لكبار السن والمرضى والعجزة أو أصحاب العاهات ، وكان الطابق الأسفل مخصصًا للعاملين فى النظافة. ولقد سمحت الإدارة لأفراد زنزانتنا بالخروج صباحًا حوالى الساعة التاسعة كل يوم للشمس فى فناء السجن لمدة ساعة تحت إشراف أحد السجانة ، والحقيقة أن الإدارة أخذت تخفف الضغط تدريجيًا على إخوان طرة ، فقل الضرب ، كما خفت حدته ، وسمح لهم بالاستحمام ، ونتيجة للإكراميات التى نغرق الشلقامى بها ، كان يسمح لنا باستضافة واحد أو اثنين منهم لربع ساعة مثلا ، ولم يعد يعارض مدهم بالأدوية..

فى أحد الأيام أرسلت الإدارة فى طلبى ، واستدعاء السجين للإدارة فى مثل هذه الأوقات العصيبة أمر مخيف كما سبق وأشرت ، هذه الأوضاع السائدة الفاسدة تجعلنا دائمًا نفكر فى الجوانب السوداء من المفاجآت ، ونظل دائمًا نشفق من المجهول..

قال الضابط سامى وهو يهم لمصافحتى على غير العادة: « مبروك يا نجيب ..»

- « خير يا سعادة البك؟ »

- « لقد فزت بالجائزة ..»

لم أكن أصدق ، دارت بى الأرض ، نظرت إلى الورقة التى قدمها لى كى أوقع عليها بالعلم ، إنها من مصلحة السجون بالقاهرة ، ومضمونها أننى فزت بالجائزة فى مسابقة التراجم والسير ، والتى تقدمت فيها بكتابى عن « إقبال » ، وفزت أيضًا بالجائزة عن روايتى « الطريق الطويل ».. لقد انهمر الخير على دفعة واحدة.. ومجموع الجائزتين مبلغ كبير من المال ، كيف تم الأمر بهذه الصورة التى لا تصدق؟ هل أنا فى حلم أم فى يقظة؟ شعرت أن شعاعًا من النور ينبثق فى حياتنا المظلمة.. كانت الكلمات والسطور تتداخل على الورقة وأنا أقرأ.. ترى ماذا سيقول أبى وأمى وأصدقائى وهم يقرءون الخبر فى الصحف.. إن فرحتهم ستكون ممزوجة بالأسى.. لا أستطيع أن أصف هذه اللحظات المثيرة العجيبة ، قد يبدو الأمر معقول التأثير فى الظروف العادية ، لكنه بالنسبة لسجين محكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، ويعيش فى جو رهيب من المعاناة والمكابدة ، وليس له ماض أدبى يذكر.. عندئذ فإن الأمر يختلف.. إن روحى تحلق إلى بعيد.. إلى آفاق أرحب وأوسع.. ولم لا؟ ألا نتحدى اليأس والألم والفناء؟ اعتذر الضابط عن إعطائى نسخة من الخطاب ، وقال أنه سيضعها فى ملفى بالسجن ، لكنه سألنى كيف تتسلم هذا المبلغ الكبير من المال؟

قلت: « أحيله إلى أهلى »

قال: « وإذا رفضت الإدارة؟ »

قلت: « فليوضع فى أماناتى بالسجن ..»

وطرت إلى إخوانى لأزف إليهم النبأ..

وانقضوا على عناقًا وتقبيلًا.. وضربًا أيضًا.. لحظة من العمر لا تنسى..

قال الأخ عبد الوهاب السقا وهو يضيق عينيه فى حصافة وعمق وتفكير: « قد يكون فوزك فاتحة خير كبير »

- « كيف؟ »
- « قد يفكرون فى الإفراج عنك .. »
- « لا أظن.. فى السجون العديد من المفكرين والأدباء.. يكفينى هذه المكافأة من الله ، والعجيب أن المباحث العامة قد سمحت بذلك الفوز.. إنه أمر ملفت للنظر ولا شك ، ويحتاج لمزيد من التفكير والتحليل ..»

لم يكن الفرح من أجل الجائزة المالية.. بل فرح من نوع آخر لا يقدر بثمن ولا مال ، إنه تأكيد الذات ، والقدرة على النجاح رغم العوائق والسدود ، والإصرار على الإيمان والأمل ، وفى الصحراء الجرداء قد تثب نبتة خضراء ، وفى الأرض الخراب قد تتجلى زهرة حلوة العبير ، لأن الإنسان لا يموت ما دام معتصمًا بالإيمان والأمل..

وفى اليوم التالى قابلنى الضابط سامى فى فناء السجن أثناء فترة الفسحة ، ودعانى لأن ألعب معه مباراة « راكت » فى ملعب صغير من أطراف الفناء ، إنه تصرف يدعو للعجب ، وأخذت ألعب معه بتحفظ رغم أنى أجيد اللعبة ، ومن آن لآخر أوجه الكرة بطريقة فنية يعجز عن ملاقاتها ، وكان يعلق باسمًا ، ممتاز فى الأدب وفى الرياضة أيضًا..

وفى نفس الأسبوع سمح لإخوان طرة لأول مرة بالنزول إلى طابور الفسحة كما سمح لنا بالاختلاط بهم ، وكان يومًا سعيدًا بالنسبة للجميع ، ولعبنا كرة السلة وجرينا وعرضنا أجسادنا لشمس أكتوبر ، وأصبحت الحياة فى سجن القناطر أكثر راحة وألفة..

وطلبت من الضابط سامى أن يستأذن الإدارة فى أن أكتب رسالة إلى الأديب الراحل الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، لعله يرشدنى إلى الطريقة التى أطبع بها قصتى وأنشرها ، ولم أجد ممانعة فى ذلك ، فكتبت الرسالة ، لكن الرد لم يكن إيجابيًا ، حيث أخبرنى أن دور النشر مؤسسات تجارية ويهمها الربح بالدرجة الأولى ، وإنهم ينشرون لكبار الكتاب ، ويترددون كثيرًا فى النشر للناشئين الأدباء ، لكننى لم أيأس ، وأخذت أفكر فى طريقة أخرى لنشر كتبى..

فى هذه الفترة جاءنى كاتب السجن خفية ، وأخبرنى أن الأخ الصديق دكتور عبد الأحد جمال الدين « رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة حاليًا » ، قد جاء على رأس مجموعة من طلبة حقوق عين شمس لزيارة السجن ، وكان عبد الأحد وقتها يعمل فى هيئة التدريس بالكلية ، وقد رتب هذه الزيارة ليرانى ، وخاصة أنه مسافر إلى إيطاليا فى بعثة دراسية قريبًا ، لكن الإدارة لم توافق على زيارته لى ، فأرسل إلى بطاقة صغيرة مع هذا الكاتب..

ولم تكد تمر فترة أسابيع قليلة على تغيير المعاملة إلى الأحسن ، حتى انفجرت الأمراض النفسية بين مسجونى ليمان طرة السابقين كالوباء.. نعم كالوباء.. إن الحادث الرهيب وما تركه من أثر ، وكذلك المعاملة القاسية التى تعرضوا لها عقب الحادث قد أفرزت حالات من الانهيار العصبى والهستيريا والاكتئاب وغيرها من الأمراض النفسية ، وقد تفاقمت حالات البعض ووصلت إلى درجة خطيرة تكاد تكون جنونًا.. كان عدد هؤلاء المرضى أربعة أو خمسة..

وكان الدكتور مصطفى النحاس طبيب السجن آنذاك ، وطبيب الرئيس عبد الناصر فيما بعد ، أقول كان رحمه الله طبيبًا على خلق كريم ، فقد تفهم الوضع وأوصى بأن يوضع المرضى النفسيون تحت الإشراف الطبى الدائم فى مستشفى سجن القناطر ، وتم اختيارى لكى أكون مرافقًا لهم بالمستشفى ، لكونى طالب طب سابق فى المرحلة النهائية من الدراسة ، والحقيقة أن هذه الفترة كانت عصيبة بالنسبة

لى ، كان هؤلاء المرضى يشكلون مأساة أخرى مجسدة لمظاهر القهر والعنف والوحشية التى تعرضوا لها ، فالسجين « معوض » مثلًا ، كان يجلس صامتًا طول اليوم ، قلما يأكل أو يشرب ، وفجأة يقف عند نافذة فى المستشفى ، ويؤذن للصلاة بصوت عالٍ ، وقد يكون الوقت منتصف الليل أو الساعة العاشرة صباحًا ، وبعد أن ينتهى من الأذان ، يصيح: « لن تمنعنى من الأذان يا عبد العال « وهو ضابط بالسجن » سأقوم بالأذان غصبًا عنك »

ولقد تعرض معوض لضرب مبرح لأنه أذن للصلاة أثناء التكدير وهو فى زنزانته ، ولقد أتت « زينب » زوجة معوض لزيارته لكنه لم يتعرف عليها ، ورفض التحدث معها ، ومن المؤسف أن معوض بعد ذلك أصيب بنزيف دموى فى المثانة دون أن يشعر به أحد ، وظل ينزف فى مستشفى آخر حتى مات رحمه الله.

لا أريد أن استطرد فى شرح مآسى هذه المجموعة من المرضى ، ويكفى أن نقول لن هذه الظاهرة المحزنة ، كانت دلالاتها خطيرة على ما يحدث خلف القضبان من مآسى تجل عن الوصف..

وفى أحد الأيام جاءنى لأول مرة مدير السجن اللواء « عباس قطب الغايش » ، حسبته فى البداية يقوم بمرور عابر فى نواحى السجن ، وأخذ العسكر يجرون هنا وهناك ويصدرون النداءات العالية « انتباه » ، وينفخون فى صفاراتهم بشدة تتناسب مع قدوم شخصية كبيرة ، وكانت التعليمات قد صدرت لنا كمسجونين أن ننظف الزنازين ، ونرتب فراشنا ، ونلبس الطواقى الزرقاء ، ونجلس فى هدوء ونظام ، فإذا ما دخل علينا المدير وقفنا « انتباه » ، وإذا تكرم المدير وسألنا عن أحوالنا قلنا: « كل شىء تمام يا افندم »

وإذا استفسر عن مطالبنا قلنا: « ليس لنا أى مطالب يا افندم »

لم يمر المدير كما توقعنا ، لكن قصد الزنزانة التى أقيم فيها ، فانتفضنا واقفين حسب الأوامر ، وأخذ يجوس خلالنا بنظراته الفاحصة ، وأشار الضابط نحوى ، عندئذ ابتسم سعادة المدير اللواء وقال لى: « سيأتى لزيارتك اليوم مندوب من مجلة « المصور » ليجرى حديثًا صحفيًا معك.. طبعًا ستعطيه الانطباع الطيب عن المعاملة فى السجون.. ولولا هذه المعاملة الكريمة لما اشتركت فى المسابقة وفزت بها.. إن الصحف فى الخارج تتحدث عنك باحترام.. ويبدو أنك رجل طيب.. مؤدب.. سننقلك الآن إلى المستشفى ، لأن المكان أنسب هناك »

- « متشكر يا افندم ..»

وانصرف المدير - كما جاء - محاطًا بكل مظاهر الاحترام الرسمى ، ثم أخذنى الضابط سامى إلى مكتبة السجن ، وطلب منى أن أختار مجموعة من الكتب لا تزيد عن عشرة من أمهات الكتب ، وصعدت إلى المستشفى ، فوجدتهم قد أخلوا الصالة الشرقية من المرضى تمامًا ، وهى تتسع لأكثر من خمسة عشر سريرًا ، واختاروا لى سريرًا بفرش جديد نظيف ، ووضعوا إلى جواره باقة من الزهور التى قطفت حديثًا من حديقة السجن ، ثم أشار الضابط بأن أضع صف الكتب على « الكوميدينو » المجاور للسرير ، ثم صعدت إلى السرير وجلست أنتظر..

وبعد ما يقرب من ربع ساعة ، جاء صحفى ومعه مصور ، يسبقهما الضابط سامى ، وأجال الصحفى العجوز بصره فى أنحاء المكان وابتسم ، كان قصيرًا تبدو على وجهه إمارات الطيبة والوقار ، وصافحنى فى ود بالغ ، وجذب أحد المقاعد وجلس ، وأخذ يسألنى عن صحتى وأحوالى ، وانتهز فرصة ذهاب الضابط لبعض الوقت وسألنى عن السبب فى الحكم على بالسجن ، ولما أخبرته هز رأسه وتنهد

وقال: « أدعوا الله أن يفرج كربتك » ، ثم أخذ يسألنى عن المسابقة وقصة فوزى بها ، وعن قراءاتى ، واهتماماتى الأدبية ، والموضوعات التى أنتوى الكتابة فيها مستقبلًا ، وغير ذلك من الأمور الأخرى المتعلقة بالفن والأدب بصفة عامة ، ثم أمر المصور بالتقاط بعض الصور لى من زوايا مختلفة ، وجاء الضابط سامى وهو يسألنى: « ماذا تكتب الآن؟ » فقلت له بأدب: « إننى أنتظر موافقة الإدارة بالسماح لى بالأوراق والأقلام حتى أبدأ » فنظر الصحفى وكان اسمه الأستاذ حسنى الحسينى « دار الهلال » إلى الضابط سامى متسائلًا: « لماذا لا تسمحون له بالأقلام والأوراق؟ » فأجاب بسرعة: « سوف نسمح له فى الحال » ، فأخرج الصحفى قلمًا ثمينًا من جيبه وقال لى: « هل تقبل هذا هدية مني؟ »

كانت مجاملة رقيقة منه ملأت قلبى بالامتنان ، ومددت يدى لأتناول القلم الهدية لكن يد الضابط سامى كانت أسبق منى ، إذ أخذ القلم وأكد للصحفى إنه سوف يسلمه لى فيما بعد عن طريق المدير ، حسب النظام واللوائح..

قضى معى الصحفى أكثر من نصف ساعة ، ثم صافحنى مودعًا ، وعلى وجهه تبدو علامات الانفعال الصادق ، والمشاركة العاطفية العميقة ، وبعد دقائق ، أعيدت الكتب إلى المكتبة ، وحملت باقة الزهور بعيدًا ، وأخذت أنا إلى العنبر فى زنزانتى المعهودة..

وبعدها بأيام زارنى الأستاذ « عبد الحميد العتريس » موظف العلاقات العامة بمصلحة السجون ، وأحد المشرفين على مجلة السجون ، وأجرى معى تحقيقًا صحفيًا رائعًا كان من أجمل ما كتب فى هذا الموضوع ، وقدم للتحقيق بعبارات قوية شيقة مؤثرة.

وصدرت بعد ذلك مجلة المصور ، وفيها صفحة عن حكايتى ، وكان العنوان الرئيسى: هل وجدت قصة أغرب من هذه القصة؟ لكنها كتبت عن قضيتى إننى حاولت إثارة طلبة الجامعة ضد الثورة فى عام ١٩٥٥ ، فكان أن قدمت للمحاكمة وصدر ضدى حكم بالسجن عشر سنوات مع الشغل ، مع أن التهمة لم تكن كذلك ، ويبدو أن الإدارة هى التى ألزمت المجلة بذلك ، وعلى كل فإن بعض وكالات الأنباء قد نقلت خبرًا صغيرًا عنى ، فتلقفته إذاعة إسرائيل ، وقدمت حديثًا إذاعيًا عنى ، أشارت فيه إلى أن عبد الناصر يلقى بالأدباء والمفكرين خلف الأسوار ، ويعاملهم أسوأ معاملة ، وضربت بى مثلًا لذلك ، وتحدثت باستفاضة ، وأذيع الحديث مرتين فى أسبوع واحد ، وسمعه الكثيرون حتى إن مدير سجن القاهرة اللواء محمود صاحب فاتحنى فى الأمر بعد أن انتقلت إلى سجن القاهرة ، فقلت له: « وما ذنبى فى ذلك؟ لو علمت إسرائيل أن قصة « الطريق الطويل » التى فزت فيها تتعرض للصهيونية ومخازيها وعنصريتها لما أعادوا هذا الحديث.. إنهم يستغلون كل خبر ويستثمرونه لصالحهم ، وهذا أمر معروف ...»

وتمر الأعوام تلو الأعوام ، وأنشر الجديد والمزيد من الكتب بعد خروجى من السجن ، وتضعنى إسرائيل ضمن « القائمة السوداء » التى يمنع كتب أصحابها من الدخول أو التداول فى إسرائيل ، وكنت فى هذه الفترة أعمل طبيبًا بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ومن أهم الكتب التى أغضبت إسرائيل كتاب « دم لفطير صهيون » وكتاب « عمر يظهر فى القدس » وكتاب « أرض الأنبياء » وغيرها من الكتب..

فى سجن القناطر تحسنت الأحوال كثيرًا ، وسمح لنا بالذهاب إلى المكتبة واستعارة الكتب ، كما سمح لنا بالأوراق والأقلام ، وبدأت أمارس حياتى الأدبية كالمعتاد قراءة وكتابة ، وكتبت عددًا من الصفحات فى رواية جديدة بعنوان « فى الظلام » ، ولقد كنت فى هذه الفترة أفكر فى أن أنسب مكان

لى حاليًا هو « سجن القاهرة » ، لأن على رأسه رجل مثقف ، وإنسان كبير القلب ، هو اللواء محمود صاحب ، فضلًا عن أن سجن القاهرة آنذاك ، كان يفسح الطريق أمام المواهب ، ويعامل السجناء بطريقة إنسانية ، ووسائل الاتصالات والزيارات متيسرة لحد كبير ، كما أنه لم يكن سجنًا للسياسيين تقريبًا ، ولهذا فكرت فى العمل جديًا للانتقال إلى سجن القاهرة بحجة العلاج ، وتكرم طبيب السجن بكتابة تقرير طبى أكد فيه على ضرورة نقلى إلى سجن القاهرة للعلاج ، ثم العودة بعد الشفاء مرة أخرى للقناطر ، وإن كان أمر العودة هذا لم يتحقق كما سنرى ، إذ بقيت فى سجن القاهرة حتى قرار الإفراج عنى..

كان معنا فى سجن القناطر مجموعات شتى من السجناء ، ومن ضمنهم مجموعة اتهمت بالتجسس بينهم « الخواجة وليم » وهو صحفى لبنانى متقدم فى السن ، كان يلتقى بنا كل يوم ليخفف من بؤسه وشقائه ، ويتحدث معنا فى شتى الموضوعات ، وكثيرًا ما كان يردد باللغة الإنجليزية « إنها حياة بائسة » ، وكان كلما مر « الخواجة وليم » أمام مشرحة السجن يصاب بالذعر ، ويقول: « لشد ما أخاف أن أموت فى السجن ويشرحون جثتى هنا ..» فكنت أقول له ضاحكًا: « يا خواجة.. وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟ » فيلوح بيده فى غضب ، ويستنكر ذلك ويهرول بعيدًا عن المشرحة.. ومن عجائب الصدف أن يموت وليم فى السجن ، وتنقل جثته كالمعتاد إلى المشرحة للتشريح..

كان الضابط « ع.س » من أخطر الضباط فى سجن القناطر ، فإلى جانب أنه شارك فى أحداث ليمان طرة ، فقد انتقل مع المسجونين بعد الحادث إلى سجن القناطر ، وكان هو المشرف الفعلى على التعامل مع السجناء ، كما لعب دورًا خطيرًا فى الدس والوقيعة بين الإخوان ، وإثارة الشكوك الكبيرة فى صفوفهم ، وظل يمارس هذا الدور فى سجن طرة والواحات والقناطر ، ثم فى عام ١٩٦٥، ١٩٦٦ فى سجن أبى زعبل ، ثم أصيب فجأة بداء عضال أودى بحياته ، لكنك إذا تعاملت معه تجده يبدو رقيقًا باسمًا مهذبًا ناعم الملمس.. وأخيرًا تم ترحيلى إلى سجن القاهرة ، فودعت سجن القناطر وسط حفاوة بالغة من الإخوان.. كانت الابتسامات تعلو الوجوه ، لكن قطرات الدموع تبلل الأهداب.. ويبدو أنهم فى سجن القاهرة كانوا على علم بحضورى إليهم ، فما إن دخلت السجن « وكان معى زميلان آخران » حتى قال الضابط المناوب بعد الظهر ، وهو يتفحصنا: « من فيكم نجيب الكيلاني؟ »

فهززت رأسى مبتسمًا ، فأقبل نحوى فرحًا ، وصافحنى بحرارة.. كان هذا الضابط هو مأمور السجن ، واسمه « سمير قلادة » ، رجل مسيحى نبيل.. وكان هذا اللقاء مع سمير قلادة بداية صداقة طويلة جدًا.. امتدت حتى يومنا هذا ، إنه الآن على التقاعد برتبة لواء ، ويعيش فى مدينة طنطا معنا ، ولقد ارتبط بوالدى وبأسرتنا ، بل بقرية « شرشابة » بلدنا ارتباطًا قويًا ، وكان يزورنا فيها كثيرًا هو وأسرته ، ولقد قدم لى هذا الرجل الكثير من الخدمات الجليلة ، بل إنه عرض نفسه لخطر كبير عندما سمح لى ذات مساء بالاتصال بأحد المعارف عن طريق تليفون السجن.

كانوا يطلقون على سجن القاهرة « اللوكاندة » أى الفندق ، لما فيه من تسهيلات ومعاملة حسنة ، وذلك راجع بالطبع إلى منهج المرحوم اللواء محمود صاحب فى الإدارة ، وهناك التقيت مرة أخرى بالأخ المهندس المرحوم « محمود عجوة » المتهم الأول فى قضية الجبهة الوطنية ، وقد أشرت إلى ذلك من قبل ، كما التقيت بعدد آخر من الإخوة الذين قدموا من سجون أخرى لإجراء عمليات جراحية ، وبعدد من ضباط المدفعية الذين سبق تقديمهم للمحاكمة بتهمة محاولة الانقلاب ضد عبد الناصر فهم المصرى والصاوى والدمنهورى وغيرهم كما سبق وأشرت.

واستدعانى اللواء صاحب فى اليوم التالى ، ورحب بى ، وطلب منى المساهمة فى تحرير مجلة « السجون » التى يتولى الإشراف عليها ، ولما سألنى إن كان لى أية طلبات كى يحققها لى ، فقلت فى إيجاز: أولًا: زنزانة خاصة بى ، ثانيًا: مكتب خشبى صغير ومقعد ، ثالثًا: أن أستقر فى سجن القاهرة ، ولا أذهب إلى سجن القناطر أو أى سجن آخر.. فوعدنى الرجل خيرًا.. وانصرفت..

وكنت أذهب إلى مكتبة السجن وقتما أشاء باستثناء فترة المساء من الخامسة عصرًا وحتى السابعة صباح اليوم التالى ، وفترة الظهيرة بين الواحدة والنصف ظهرًا حتى الرابعة ، وكان أخى محمود عجوة هو أمين المكتبة ، ووضع تحت تصرفى كل ما أريد من كتب وصحف ومجلات ، كما إن مدير السجن أصدر أمرًا بأن يسمح لى بزيارة فى يوم يحضر فيه أحد من أهلى ، وأن تكون الزيارة شخصية وليست « سلكية » أى بدون حواجز وقد تصادف وجاء والدى ووالدتى فى يوم عيد الأم لزيارتى ، وكان زحام الزيارة شديدًا ، مما جعل المدير يأمر بأن تكون زيارتى فى المستشفى ، وهناك استقبلت الوالدين ، ووجدتهما فى حالة أفضل كثيرًا من ذى قبل ، وفوجئت أثناء جلوسى معهما بصحفى من مجلة التحرير يحاول التقاط صورة لى ، فأصرت والدتى على أن تغطى وجهها بالشال الأسود الرقيق وكانت ، الصورة التى نشرت فى المجلة على هذا النحو من الذكريات الطريفة..

ألا شتان بين سجن القاهرة الآن ١٩٥٨ وسجن القاهرة عام ١٩٥٥ حينما نقلنا إليه من السجن الحربى المشئوم..

وشمرت عن ساعد الجد.. كان لابد أن أعمل أغلب الليل والنهار فى القراءة والكتابة ، وأن أسابق الزمن ، ومن خلال المعاملة الطيبة فى تلك الفترة ، كنت أعتبر نفسى بلا قيود ، أشعر أن نفسى حرة ، وأننى أنطلق بروحى أينما وكيفما أشاء ، ومن الأمور التى أثرت فى نفسى أننى وجدت أحد السجانة يضع صورة لى قصها من إحدى المجلات فى حافظة نقوده معتزًا بها ، كما إن بعض السجون وضعت صورتى على باب مكتبة السجن كما روى ذلك ضابط منقول من سجن « شبين الكوم » وزارنى فى السجن أيضًا « الأستاذ فهمى عمر » الإذاعى الشهير لتسجيل حديث فى برنامجه « مجلة الهواء » ، وأجرت صحفية من دار أخبار اليوم تحقيقًا صحفيًا معى ، كما تعرضت الأهرام والجمهورية والاكتواليتية التى تصدر بالفرنسية نبذة عن حياتى وأدبى.

شعرت أن المسئولية أصبحت ثقيلة ، وأخذت أستعد للمسابقة الجديدة التى تجريها سنويًا وزارة التربية والتعليم ، كما اشتركت فى مسابقة نادى القصة ومسابقة الشبان المسلمين وغيرها من المسابقات ، وكنت مهتمًا بمسابقة وزارة التربية بصفة خاصة ، وأعددت لها ثلاثة كتب:

- الأول عن أمير الشعراء شوقى.
- الثانى دراسة إجتماعية نفسية عن السجون تحت عنوان « المجتمع المريض » ، مدعمًا بالصور والإحصاءات والوقائع ، ومن أهم موضوعات هذا الكتاب فصل بعنوان « مجتمع له قيمه الخاصة » وفصل آخر بعنوان « الفنون فى السجون ».
- والثالث رواية سياسية بعنوان « فى الظلام » أخرجت مسلسلًا إذاعيًا فيما بعد.

---

لقد كانت فرحتى غامرة حينما فزت بجوائز الكتب الثلاثة فى وزارة التربية والتعليم لعام آخر كما فزت بجائزة مجلة الشبان المسلمين عن القصة القصيرة ، وإحدى جوائز نادى القصة ، لقد كان التوفيق

كبيرًا ، وخاصة أن كتاب « المجتمع المريض » قد استحق الفوز فى فرع دقيق اشترك فى مسابقته بعض الدكاترة من الأساتذة المتخصصين وعدد من الكتاب المرموقين فى مصر..

نعود مرة أخرى إلى مشكلة نشر الكتب الفائزة التى كانت تشغلنى كثيرًا ، والواقع أن هناك عددًا من الشخصيات التى أسهمت بجهد كبير فى هذا الموضوع ، على رأسهم شقيقة الشهيد الأستاذ سيد قطب التى تولت التنسيق والتعاقد مع مكتبة مصر بالفجالة « السحار وشركاه » كما ساهم فى ذلك المرحوم اللواء محمود صاحب والضابط سمير قلادة وغيرهم.

وأشار على بعض الإخوة بأن أحاول الخروج إلى القصر العينى لعلاج ركبتى التى أصيبت منذ فترة ، وحدث كسر فى شوكة عظمة الساق ، لكنه حدث ضمور فى عضلات الفخذ ، وما زالت آلام الركبة تزعجنى ، وفعلًا اتصلت بالدكتور إبراهيم زكى جراح مستشفى السجن ، فأبدى تعاطفًا كبيرًا ، وكتب تقريرًا لإدارة السجون المركزية يطلب فيه عرضى على أخصائى عظام بالقصر العينى ، وتمت الموافقة على التقرير..

عندما ذهبت إلى القصر العينى ، وقفت جياش العواطف ، ففيه كنت أتلقى دراساتى الطبية.. المبانى التى عشت فيها سنوات من عمرى ، الأساتذة الكبار الذين نسى أغلبهم اسمى ورسمى ، زملاء الدراسة وقد تخرجوا وأصبحوا أطباء امتياز ونوّابًا فى مختلف الأقسام ، إنهم يقابلوننى بالأحضان والقبلات ، وتبدو أمارات الألم الشديد على وجوههم وهم يرون يديّ فى الأغلال ، والملابس الزرقاء فوق جسدى ، وأنا أبتسم متكلفًا فى مرارة ، ويتسابقون لخدمتى ، رغم وجود رجال المباحث العامة فى أزياء مدنية يتابعون خطواتى ولقاءاتى ، ويسجلون بعض الأسماء وخاصة من يأتى من الأهل أو الأصدقاء لرؤيتى.

كان على أن أذهب للقصر العينى مرتين أسبوعيًا ، وكان ذلك فرصة لتدبير أمورى ، وإنجاز نشر الكتاب الأول « الطريق الطويل » ، وجاءت شقيقة الشهيد سيد قطب ووقفت على مقربة منى بزيها الشرعى المميز ، كنت خائفًا عليها من رجال الأمن ، وكان هناك رسول يذهب ويجىء بيننا وهى إحدى قريباتى وأرسلت إلى عقد « مكتبة مصر » فقمت بالتوقيع عليه ، وأخذت العقد وانصرفت بسرعة دون أن أتكلم معها شخصيًا كلمة واحدة ، إن أخاها الشهيد كان سجينًا آنذاك فى سجن طرة ، وكان رجال الأمن يكنون له – رحمه الله – أسوأ المشاعر..

وفى أحد الأيام استدعانى اللواء محمود صاحب مدير السجن ، وأخبرنى أن وزير الثقافة والإرشاد الأستاذ الكبير فتحى رضوان قد اتصل به تليفونيًا ، وأعلمه بأن وزارة الثقافة ستقوم بنشر كتاب « الطريق الطويل » على نفقتها ، مقابل مكافأة مجزية وسوف تطبع منه عشرة آلاف نسخة ، وهذا رقم كبير فى ذلك الوقت « ١٩٥٨ » ، وبدا الأمر مفاجأة سارة جدًا بالنسبة لى ، لكنى فكرت كيف أتصرف حيال العقد الذى وقعته منذ فترة مع مكتبة مصر.. وشرحت الأمر للمدير ، فوعد بأن يتفاهم معهم ، لكنى لم أطق صبرًا ، وتفاهمت مع صديقى الضابط سمير قلادة.. ففكر قليلًا ، ثم قال: « ما رأيك فى أن تتفاهم بنفسك مع مكتبة مصر؟ »

قلت: « كيف؟ »

قال: « بالتليفون؟ »

أدركت أنها مجازفة خطيرة قد تضره لو انكشف أمرها ، وخاصة أنى سجين سياسى ولست سجينًا عاديًا ، وأثناء القيلولة ، انفتح باب زنزانتى ، وأخذنى سمير إلى مكتبه ، واتصلت بالمكتبة ، وأبدى

الناشر « الأستاذ غريب » عدم ممانعته فى ذلك ، لكنه اشترط على أن تتولى مطبعته طبع الكتاب لحساب وزارة الثقافة والإرشاد ، حيث إن الوزارة لابد وأن تكلف إحدى المطابع وهم أولى بذلك ، عندئذ يلغى العقد الموقع منى.. وعندما أبديت تشككى فى قدرتى على فعل ذلك قال الناشر: « كيف وخالك الأستاذ عبد الرافع الشافعي هو مراقب عام الوزارة؟ »

نعم .. تذكرت... وأجريت اتصالاً سريعًا بالأهل ، ونجح مسعانا ، ولم يكد يمر شهران حتى صدر الكتاب فى طبعة أنيقة ، بمقدمة كتبها الوزير باسم وزارة الثقافة والإرشاد ، ويوم أن تسلمت النسخ الهدايا لأول مرة ، كنت هائمًا فى دنيا من السعادة لا مثيل لها ، وجاءنى مندوب من الوزارة يحمل عقدًا وشيكا بمائتى جنيه..

كان نشر الطريق الطويل خطوة هامة فى حياتى الأدبية.. كان بداية خير.. وسوف نرى فيما بعد مدى النجاح الكبير الذى حققه هذا الكتاب..

وذات مساء ، بعد ذلك بأيام ، قالوا لى فى السجن: « استعد سوف نأخذك الليلة إلى مقر نادى القصة لاستلام جائزتك من السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم ..»

لم أكن أصدق ما أسمع..

أيمكن أن تسمح الحكومة لى بهذا كله؟ إن الأمر غريب غاية الغرابة!!

وهل سأرى القاهرة فى المساء ، وأقف تحت الأضواء بعد غيبة عن الحياة دامت أكثر من ثلاث سنوات؟

وماذا ألبس وليس لى فى السجن ثياب مدنية؟ أم إنى سأذهب مرتديًا بدلة السجن الزرقاء..

قال لى الضابط سمير قلادة: « اطمئن.. سوف ندبر الأمر.. سعادة اللواء الباشا مهتم شخصيًا وسيحضرون لك بدلة.. وحلاقًا.. وستخضع لكشف الهيئة قبل ذهابك إلى نادى القصة وجمعية الأدباء.. سيكون هناك الوزير وصحفيون.. ونخبة من كبار الأدباء فيهم الحكيم وطه حسين وغيرهما ...»

شعرت بالارتباك والحيرة..

يا ألطاف الله ماذا يجري؟ إنه شيء كالحلم بالنسبة لفتى قروى مثلى..

❁❁❁

# [١١] اليقظة فى حلم جميل



كنت كمن يعيش حلمًا زاهيًا جميلًا ، لم يخطر ببالى قط أن تمضى الأمور على هذا النحو المذهل ، ولا تصورت أن تتوالى الأحداث بهذه السهولة واليسر ، لكنى كنت أرفع وجهى المندى بقطرات الدمع إلى السماء وأحمد الله ، وكل ذرة فى كيانى تسبح بحمده. لقد رأيت بنفسى كيف يولد الأمل من قلب اليأس ، وينبثق النور من بحر الظلمات الرهيب ، وتتجلى إرادة الحق لتملأ القلوب بالإيمان والثقة والرضى..

احضروا لى بدلة خواجة أجنبى متهم بتهريب العملة الصعبة ، وعندما لبستها بدت وكأنها أعدت خصيصًا لى ، واستعاروا لى حذاء ورباط عنق وقميصًا قيمًا ، وأخذونى إلى المدير الذى ابتسم وقاسنى بنظراته الودود وقال: « لا يبدو عليك أى أثر من آثار سنوات السجن.. لكن شعرك قصير.. لا بأس.. ضع منديلًا فى جيب الجاكتة بصورة هرمية.. ابتسم أفضل من ذلك.. أريد ابتسامة حقيقية.. إذهب عشرة على عشرة ..».

جاء المساء وقلبى يدق رهبة وإشفاقًا..

جلست أنتظر في زنزانتى.. إن الموعد فى الساعة الثامنة مساءً.. والدقائق تمر بطيئة.. أريد أن أنتهى من هذا الأمر المربك بأسرع ما يمكن.. لماذا القلق والتوجس؟ وحان الموعد..

وأخذونى من الزنزانة إلى مكاتب السجن ، كان فى انتظارى الصاغ « الرائد » صلاح طه مدير العلاقات العامة بمصلحة السجون آنذاك ، وكان هناك ضابط من المباحث العامة واثنان من المخبرين يتميزان بالقامة الطويلة والعضلات المفتولة ، وجمود الملامح ، وأنا بينهم كدمية شاحبة مضطربة..

ثلاث سيارات كنت فى واحدة منها مع المخبرين والصاغ صلاح طه ، أخذت أنظر إلى القاهرة فى المساء ، الأضواء تتلألأ بألوانها المختلفة الجذابة ، والرجال والنساء والأطفال فى الشوارع ، والحافلات والسيارات تنساب فى هدوء ويسر ، لم تكن حمى الزحام والضجيج قد غشيت المدينة فى ذلك الزمان.. الحياة تبدو ذات نكهة غريبة لم أتبينها فى سنوات العمر التى مضت.. لها حلاوتها وإغراؤها وسحرها..

قال لى الصاغ صلاح طه: « أنت رجل أديب.. وعاقل وتدرك أبعاد الأمور ، ولا يصح أن توقعنا فى أى حرج ».

قلت ببراءة: « مستحيل أن يحدث ذلك.. ماذا تعني؟ »

قال وهو يتنحنح: « لا تذكر لأحد أنك من مساجين الإخوان المسلمين.. لدينا تعليمات بذلك.. هل فهمت؟ »

- « بالطبع.. اطمئن ..»

واستطرد: « يكفى أن الحكومة سمحت لك بالكتابة ، والاشتراك فى المسابقات ، وطبعت لك بعض مؤلفاتك.. وها هى الليلة تفتح أبواب السجن ليلًا - وهذا لم يحدث قط من قبل - لتخرج وتشترك فى مهرجان أدبى لتتسلم الجوائز.. وتلتقى مع كبار المفكرين.. ومع وزير هام من أعضاء مجلس قيادة الثورة « كمال الدين حسين » ..»

- « إنى مدرك لكل ما تقول ، ولن يحدث إلا كل خير.. وليس من المعقول أن أفسد كل هذا بكلمة واحدة ...»

كنت أمعن التفكير فيما يقوله مرافقى الضابط الذى أصبح فيما بعد مديرًا عامًا لمصلحة السجون ، إن طبيعة الموقف أبعد ما تكون عن الصدام مع السجن ونظامه ، ومع منطق السلطة وتصوراتها ، وفى ظنى أن الأمر لا يحتاج إلى تحد أو إعلان ، فسيعرف الجميع الحقيقة بأسلوبهم الخاص ، وجميع الصحف والمجلات التى كتبت عنى تعرف هويتى العقائدية ، وإن كانوا لا يشيرون إليها فيما يكتبون ، وكذلك النقاد الذين كتبوا عن روايتى « الطريق الطويل » ركزوا على فنية القصة ومضمونها ، ولم يلتفتوا إلى الكاتب وظروفه الخاصة.. بل إن إحدى الصحف ذكرت - كذبًا - أننى دخلت السجن منذ سنوات ، ولم أكن أعرف القراءة والكتابة ، وتعلمتها فى السجن ، وأصبحت أديبًا ، لم أتضايق من مثل هذه الأخبار المضحكة ، فنحن نعرف أن بعض الصحف تحتفى بالطريف والغريب من الأخبار ، وإذا لم تجد أيًا منهما انتحلته انتحالًا.. لكن مثل هذه الترهات تذهب أدراج الرياح ، وتذوب تحت شمس الحقيقة التى لا تعرف الكذب أو المجاملة ، فسيان قيل أننى صاحب قضية ، أو إننى ارتكبت جريمة من الجرائم العادية ، لأن الناس دائمًا تعرف الحقيقة مهما استترت وراء الحجب.

دخلت نادى القصة بمقر نادى الأدباء « ٦٨ شارع القصر العينى » ، بجوارى المخبران ، وأمامى الضابط المكلف بحراستى من قبل مصلحة السجون ، فى زيه المدنى ، كان النادى غارقًا فى الأضواء ، مكتظًا بشباب الأدباء ، ويبدو أن بعض المخبرين الآخرين كانوا فى انتظارنا ، ولم يتركنى الضابط حرًا وسط هذه الجمهرة وإنما أخذنى إلى سكرتارية المرحوم الأستاذ يوسف السباعى ، حيث يجلس الأديب الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، والسكرتير « حسين رزق » ، كما استقبلنى الأستاذ يوسف السباعى بابتسامة حلوة وترحاب ، واقترب منى شاب لا أعرفه ، وقدم نفسه إلى قائلًا: « أنا صلاح المراكبى » صحفى ، وشد على يدى فى حب ، كما قرأت فى عينيه الكثير ، ولم يعترض مرافقى ، ولقد أصبح صلاح فيما بعد مديرًا لتحرير جريدة « الجمهورية » عندما كان الأستاذ حلمى سلام مسئولًا عنها ، وبعد سنوات ذهب صلاح إلى السعودية وأشرف على تحرير إحدى المجلات ، لكن هذا اللقاء كان بداية لصداقة وطيدة امتدت حتى اليوم.. وصلاح كان واحدًا من شباب الإخوان..

وحضر وزير التربية والتعليم السيد كمال الدين حسين وسط عاصفة من التصفيق ، ثم قام بتسليمنا الجوائز ، وقد أبدى اهتمامًا ملحوظًا بى عندما جاء دورى ، وسمعت منه بعض كلمات المجاملة الطيبة ، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال انتقلنا إلى صالة واسعة يجلس فيها كبار الأدباء رأيت منهم - على ما أذكر - الدكتور طه حسين ، والأستاذ توفيق الحكيم والأساتذة أنيس منصور وعباس خضر وغيرهم ، وجاءت جلستى إلى جوار الأستاذ أنيس منصور ، الذى أخذ يفيض على بعذب حديثه ، وينتقل من حكاية إلى أخرى ، ويسرد الطرائف والذكريات العديدة عن أسفاره دون تحفظ ، فلا بأس أن يروى عن مغامرة عاطفية لأحد أصدقائه فى إحدى العواصم الأوروبية ، وهكذا أشعرنى بإسقاط الكلفة بينى وبينه ، لدرجة أنه أنسانى مرارة السجن ، وخيل إلى أننى صديق يجلس معه فى مكتبه بأخبار اليوم ، وقطع علينا

الحديث قدوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله الروائى المعروف ، وطلب أن أصحبه لمصافحة الدكتور طه حسين ليتعرف على ، وذهبنا إليه ، وهمس الأستاذ عبد الحليم فى أذنه فهب واقفًا مادًا يده ، وبعد أن حيانى وهنأنى قال: « لماذا سجنت يا نجيب؟ »

وتلفت حولى ، كان ضابطى يقف إلى جوارى ، هذا هو المأزق ، لكنى اعتصمت بالصمت ، ويبدو أنه ظن أنى لم أسمع سؤاله ، فأعاده مرة أخرى ، فقلت فى شيء من الارتباك الواضح: « أبدًا.. أعنى.. حاجة بسيطة ..»

وأصر قائلًا: « ما هي؟ »

وأنقذنى الأستاذ عبد الحليم من ورطتى ، فمال على أذنه هامسًا ، وبعدها رأيته يهز رأسه ويهمس « هيه » ، ثم أردف ذلك بكلمات للتشجيع وأمل فى أن يحقق الله لى الفرج ، وعدت إلى مكانى لأشرب الشاى وأتناول بعض قطع الحلوى والفطائر ، ولكنى كنت فى عزوف تام عن أى طعام ، بسبب ما أعانيه فى هذه اللحظات من توتر شديد ، وتحدثت مع الأستاذ عباس خضر ، ومع الأستاذ يوسف السباعى ، الذى كتب فى اليوم التالى مقالة جيدة عن المسابقة ، عنى وعن الأستاذ صبحى الجيار الذى فاز معنا وبقى ملازمًا لفراشه بضعة وعشرين عامًا لعدم قدرته على الحركة ، وكانت المقالة بعنوان « السجين.. والمريض » ، وقد أعاد نشرها بعد ذلك فى أحد كتبه.

قبل أن ينتهى الاحتفال جاءت صحفية أعتقد أن اسمها « سلوى حبيب » وطلبت من الأستاذ عبد الحليم أن يسمح لى بالذهاب إلى الصحفيين فى غرفة خاصة احتشدوا فيها كى يجروا معى تحقيقًا صحفيًا مشتركًا ، ولم يعترض الضابط ، وذهبت إلى الحجرة ، كان فيها أكثر من عشرة صحفيين ، وتواترت أسئلتهم عن أفكارى الأدبية ، والقصص أو المؤلفات التى أنجزتها ، والمشاريع التى أعتزم تنفيذها فى المستقبل ، والمهنة التى أنتويها ، وبدت عليهم الدهشة عندما علموا أننى طالب فى المرحلة النهائية بكلية الطب ، وما إن انتهى هذا المؤتمر الصحفى الصغير حتى يممت وجهى شطر القاعة السابقة ، لكن الصحفية سلوى جرت خلفى وقالت: « سؤال أخير ..»

قال الأستاذ عبد الحليم وهو يمسك بيدى وكأنى أحد أبنائه: « ما هو؟ »

- « لماذا سجنوك؟ »

- « أظن أن هذا لا يهم ..»

قالت: - « بل مهم جدًا ..»

وبعد إلحاح منها ، ورفض منه ، قال لها فجأة ، ودون توقع: « إخوان مسلمين.. هل استرحت؟ »

ومضى بى مسرعًا ، والضابط يبتسم ، وقال رحمه الله: « لن تستطيعى أن تكتبى حرفًا واحدًا عن ذلك ..»

كان العرق يتقاطر على وجهى رغم أن الجو يميل إلى البرودة ، وكان قلبى يدق فى انفعال ، لم أزل أعيش فى حلم غريب ، والناس من حولى كأنهم أشباح تتحرك فى الضباب.. أقول الحق.. تمنيت أن ينتهى هذا المشهد بأسرع وقت ممكن ، فقد تعبت أعصابى ، وشعرت بالإرهاق ، وجاء صوت الضابط يقول بنبرات خفيضة: « يجب أن نعود الآن »

- « تحت أمرك ..»

وصافحتهم..

كان صلاح المراكبى على مقربة منى طوال الوقت..

وبقى معنا الأستاذ عبد الحليم عبد الله حتى الباب ، كما كان معى الأستاذ محمد حسن عبد الله الذى كان طالبًا آنذاك بكلية دار العلوم ، ونال جائزة القصة الأولى والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين ، وهي نفس الجائزة التى نلتها أنا فى العام التالى « ١٩٥٩ ».

وهنأنى الأستاذ عبد الحليم بصدور الطريق الطويل ، ودعا لى بحرارة أن يفك الله أسرى ، وأن تكون فترة السجن بالنسبة لى تجربة مفيدة..

وحينما ركبت السيارة متجهًا إلى السجن ، كان هناك عدد من رجال الأمن لا يقلون عن خمسة ، وعندما وقفت أمام السجن من جديد ، أطلت عينا السجان من خلال كوة صغيرة ، ثم فتح.. وتنهد الضابط فى ارتياح.. ثم جاء الضابط النوبتجى وتسلمنى ، وأخذنى إلى العنبر.. كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً.. وسمعت عشرات النداءات من الإخوان.. كانت الأبواب مغلقة ، لكنها عبارة عن قضبان ، تستطيع من خلالها أن ترى وتصافح وتتكلم ، وفى الدور أكثر من ستين زنزانة.. ومن الواجب أن أمر عليهم بسرعة.. إنهم متلهفون لسماع الأخبار.. وبعضهم يلمس البدلة التى ألبسها.. بدلة الخواجة.. ويقولون: « ربنا يجعلنا من بركاتك يا عم ..»

« كيف الدنيا هناك؟

حسبنا إنك ستنال الحرية الليلة..

ماذا يقول الناس عنا؟

هل ما زال أحد يذكرنا؟ »

وأنا كالأصم فى الزفة ، وكيف أستطيع أن أجيب على أسئلة كهذه؟ بل كيف أجيب على عشرات الأسئلة فى وقت واحد؟

جاء السجان وفتح باب الزنزانة ، وما إن دخلت حتى درت بنظراتى فى أنحاء هذا العالم الضيق.. لقد عدنا من جديد إلى المقر ، والمكتب الخشبى الكالح ، والمقعد المتهالك ، وأرغفة جافة ، وقطعة من الجبن « القريش » ، وجردل الماء والبول ، وأقلام وأوراق ، وخلعت البدلة الأنيقة ، ولبست سترة السجن الزرقاء.. ومن الغريب أننى شعرت بجوع شديد.. أقبلت على الخبز والجبنة بشهية عجيبة.. تذكرت أطباق الحلوى والفطائر.. أكانت حماقة منى حينما عزفت عنها؟ وشربت كأسين من ماء الجردل « الدلو » وحمدت الله.. وألقيت بجسدى المنهك على الفراش ، كنت فى حاجة ماسة إلى النوم ، ولكى أستطيع أن أستيقظ فى الفجر فلابد أن أنام فورًا ، لكنى كنت أشعر أن رأسى يلتهب ، والنوم يعاندنى ، فأخذت أتقلب على الفراش دون جدوى ، ولكنى فى النهاية استسلمت لنوم عميق لا أدرى متى..

وفى اليوم التالى نشرت الأهرام صورة كبيرة تظهرنى وأنا أتسلم الجائزة من السيد كمال الدين حسين ، فى الصفحة الأخيرة ، وتحتها كتبت الجريدة شيئًا عن المناسبة ، وأنهت تعليقها حسبما أتذكر « وغدًا يعود الكيلانى إلى المجتمع أديبًا لامعًا ...» ، كما نشرت الصحف والمجلات الأسبوعية شيئًا من هذا القبيل ، وتنبأ بعض الإخوة بأن هذه المظاهر كلها مقدمة للإفراج عنى ، لأن الحكومة إذا كانت لا تعتزم ذلك فعلًا ، لما سمحت بنشر أى تعليق أو صورة لى ، لكن الحقيقة المؤكدة هى أننى لم أزل فى السجن ، وإن تحسنت المعاملة لدرجة لا تصدق فى مثل هذه الظروف..

❁❁❁

# [١٢] الشيوعيون يكرموننى فى السجن ثم يقدمون شكوى فى حقى

أصبحت فى سجن القاهرة « قره ميدان » شخصية بارزة معروفة لدى الجميع ، فالضابط والسجانون يكنون لى الاحترام الوفير ، وزعماء المسجونين على اختلاف جرائمهم يتقربون إليّ ويقيمون معى علاقات وطيدة ، وإذ كنت من الشخصيات المرموقة فى السجن فإن ذلك يلزمك ببعض الواجبات التى لا فكاك منها ، فسوف يأتى الكثيرون إليك فى زنزانتك ليزوروك ، ولابد أن تقدم لهم الشاى وبعض المأكولات كتحية ، ومنهم من يطلب معونة مالية أو ملابس داخلية قديمة أو حذاء ، وبعضهم يطمع فى علبة سجائر ، وهذه الواجبات لا تؤدى للمسجونين فقط ولكن للسجانين أيضًا ، إن خفر الليل لا يحلو لهم السهر إلا أمام زنزانتى ، كى أقدم لهم البيض المسلوق أو « معلبة بولوبيف » وما إلى ذلك ، وكان على أن أرضخ لهذا الوضع وإلا ساءت سمعتى داخل السجن ، لأنهم يحصون على الجوائز التى أحصل عليها ، وليس فى السجن أسرار ، فكل شيء معروف.

وكان عدد من المسجونين الشيوعيين يقيمون فى عنبر آخر مجاور لنا ، وكنا على علاقة معتدلة أو شبه عادية معهم أثناء التقائنا فى الفسحة اليومية ، مع اتخاذ كافة الاحتياطات والحذر الواجب ، وذلك ناتج عن تلك الصراعات الناشبة بيننا وبينهم على الساحة السياسية منذ سنوات طويلة ، لكن المصائب يجمعن المصابين ، وليس هناك مانع من قيام علاقات إنسانية متوازنة مهما كان خلاف الرأى والمبادئ.

وذات يوم جاءنى أحدهم ، وأخبرنى بأنهم يدعوننى على مأدبة غذاء أقيمت على شرفى بمناسبة الجائزة وصدور كتاب الطريق الطويل ، والحقيقة أننى وافقت على ذلك لأول وهلة ، لكنى اشترطت أن يأخذوا إذنًا بذلك من الإدارة فى السجن حتى لا نقع فى حرج ، لكن بعض الإخوان – عندما طرحت عليهم الفكرة – رفضوها بشدة ، ودار حول الموضوع جدل تشعب ، لكن بعض الإخوة الذين نكن لهم الاحترام ، رأوا أنه لا مانع من ذلك..

وفى اليوم المحدد ذهبت إلى عنبر الشيوعيين بعد الظهر ، ودخلت إلى غرفة فسيحة نظيفة ، يبدو أنها رتبت بطريقة جيدة استعدادًا لهذه المناسبة ، كان الطعام مما يتوفر عادة فى مقصف السجن « الكانتين » ، علب من السمك المحفوظ والحلوى الطحينية والجبن والبيض وغيره ، وما إن انتهى الطعام ، حتى أقاموا ما يشبه الندوة حول رواية « الطريق الطويل » ، وكان من بينهم الدكتور شريف حتاتة ، وهو طبيب وشيوعى قديم محكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، وكان فيهم أحمد الزقم وهو شاعر درس فى كلية دار العلوم ، وكان يكتب بعض القصائد فى مجلة السجون ، ومحمود يوسف وهو طالب بكلية الحقوق ومهتم بالأدب وعدد آخر لا أذكر أسماءهم بعد مرور تلك السنوات الطويلة..

وكان مما لفت نظرى أنهم أثنوا ثناء عاطرًا على الرواية ، وأضفوا عليها الكثير من الصفات التى لم أكن أتوقعها منهم ، وكان مجمل قولهم أن الرواية قد احتفت بالقرية وأحوال الفلاحين التعساء فى فترة الحرب العالمية الثانية ، وأنها صرخة فى وجه الظلم الإقطاعى ، والفساد الاجتماعى ، ثم قال أحدهم: «إن هذه الرواية تمثل مذهب الواقعية الاشتراكية » ، واندهشت لهذا التعليق.. لقد كنا آنذاك فى عام ١٩٥٨ ، ولم تكن شعارات الاشتراكية التى نادى بها عبد الناصر قد رُفعت بعد ، وأنا فى الحقيقة لم يخطر ببالى قط وأنا أكتب هذه الرواية شيء من هذا التصور المذهبى الذى يشيرون إليه ، وهم يعلمون تمام العلم وجهة نظرى فى أشياء كثيرة ، نظرًا للمناقشات التى كانت تحتدم بينى وبينهم قبل ذلك داخل سجن القاهرة ، وبعد قليل قلت لهم: « لا تحاولوا أن تضعوا أدبى فى هذا القالب أو ذاك ، إننى أردت فقط أن أكون أمينًا فى التعبير عن حياة شعبنا فى هذه البيئة.. إن « عبد الدايم » ، « أحد شخصيات القصة » فلاح بسيط ، يجاهد فى حياته فى صبر وإيمان وصلابة ، ويضرع إلى الله.. ويلتزم بقيم الخير والدين والعدل.. إنه فلاح مؤمن فى قرية مصرية لا يعرف المذاهب الأدبية ولا الشعارات والمظاهرات ، على النقيض من رواية « الأم » لمكسيم جوركى الكاتب الروسى المعروف.. حينما جعل من امرأة من أعماق الريف تحمل علمًا ، وتقود مظاهرة ، وتتحدى السلطة.. إننى هنا أكتب عن فلاح آخر.. فى وطن آخر.. ذى طبيعة خاصة ».

وطال بنا الحديث وتشعب عن الأدب المعاصر ، والتيارات الصاخبة فيه ، وأعلام الأدب فى تلك الفترة ، وتقييم الأدباء ودورهم ، والثورة وعلاقاتها بالأدب والأدباء ، وأحلام المستقبل أو الصورة المتوقعة لأدب الغد.

وانتهت الزيارة وشكرتهم على هذه المبادرة الطيبة ، آملًا أن أدعوهم لوجبة عندى ، وإن كانت الظروف لم تسمح بذلك لأسباب عدة..

***

بعد أيام فوجئت بمدير مستشفى السجن يمنعنى من الذهاب إلى القصر العينى لتكملة علاجى فى قسم العظام ، وكان هذا التصرف غريبًا من وجهة نظرى ، فأنا لم أنته من العلاج الطبيعى الذى أخضع له ، ولم أرتكب مخالفة تغضب المباحث العامة ، فكتبت عريضة أتظلم فيها من هذا الإجراء الجائر ، ورفع الأمر للديوان العام لمصلحة السجون التى أمرت بتشكيل لجنة طبية من ثلاثة أطباء « أحدهم طبيب شرعى » لفحصى وتقرير ما يجب عمله..

عقد إجتماع لجنة « القومسيون » الطبى ، وقاموا بالفحص بدقة ، واطلعوا على « الأشعات السينية » ، ثم خرجت لأترك لهم فرصة المداولة ، وبعد نصف ساعة استدعونى للمناقشة ، وزعموا أن العلاج الذى سبق يكفى ، ولم أجد فى قولهم عدالة أو اقتناعًا ، وبعد نقاش حار مستفيض استقر الرأى على إحالتى مرة أخرى على القصر العينى لتحديد مدة العلاج المتبقية حسب تقرير أخصائى العظام ، وكتبوا رسالة بهذا المعنى أرفقوها بأوراقى ، وسلموها لضابط الحراسة الذى ينقلنا من السجن إلى القصر العينى ، وهناك نظر الطبيب المختص إلى الرسالة باحتقار وكتب بسرعة « سوف نخطركم عند انتهاء العلاج » ، وحاولت أن أشرح له أن مثل هذا الرد لن يرضيهم ، لكن رفض إجراء أى تعديل قائلًا: « هذا شغلنا ، ونحن لا نتلقى الأوامر من أحد » والحق أننى أكبرت هذا الرجل ، وأخذت أقارن ما فعله الآن ، وما كان يفعله زملاء أطباء منذ سنوات قليلة فى السجن الحربى ، حيث كانوا يشهدون المذابح المروعة ،

وصنوف التعذيب ، دون أن يجرؤا على الاعتراض ، أو حتى إثبات إصابات التعذيب فى ملف المعتقل.. أما كان يجب على نقابة الأطباء - على الأقل - أن تحقق معهم؟

وفشلت مؤامرة منعى من الذهاب إلى العلاج.. أما كيف عرفت أنها مؤامرة ، فقد همس الدكتور إبراهيم زكى - جراح السجن - فى أذنى قائلًا: « إن الشيوعيين هنا قد كتبوا شكوى ضدك ، ذكروا فيها أنك لست مريضًا ، وأنك تخرج للاتصال بالإخوان فى الخارج ، وتحمل معك بعض الرسائل ، وطالب الشيوعيون أيضًا بأن يسمح لهم بالكتابة فى الصحف والمجلات والاشتراك فى المسابقات » وعجبت لهذا السلوك الغريب ، فكيف يكرموننى بالأمس ، ثم يكيدون لى فى الخفاء ، ومن قال أن الحكومة سمحت لى بالكتابة فى الصحف والمجلات أو وافقت على اشتراكى فى المسابقات الأدبية الكبرى؟ إن ما حدث فى الحقيقة خلاف ذلك تمامًا ، فقد اشتركت فى المسابقات الأولى سرًا ، وهربت المادة الأدبية دون علم من الإدارة ، لأنى لو اتبعت الطريق الرسمى ، فسوف يأخذون ما أكتب إلى الإدارة العامة للسجون ، التى ستحيلها بدورها على إدارة المباحث العامة ، والتى لن تتصرف فى أمر هام كهذا إلا بعد أخذ رأى الوزير شخصيًا ، وبذلك يكون قد فات الموعد المضروب للمسابقة ، حيث إن تلك الإجراءات تحتاج لشهور طويلة ، وتنتهى فى الغالب بالرفض ، أما وإن اشتراكى فى المسابقة قد مضى خفية ، وأعلنت النتيجة ، فقد بدا واضحًا أن المسئولين نظروا إلى ذلك دون اكتراث ، بل أغمضوا الطرف عنه كلية ، وخاصة أن أمور الأمن العام أصبحت شبه مستقرة ، ولا شك أن اللواء صاحب مدير سجن القاهرة قد لعب دورًا فى إقناعهم بالسماح لى بالخروج لتسلم الجائزة ، وأكد لهم أكثر من مرة حسن سيرى وسلوكى ، وأنه يضمننى شخصيًا ، حيث لا أشكل - فيما أكتب - أية خطورة على الأمن..

واستمر ذهابى إلى القصر العينى رغم أنف الأصدقاء الأعداء الشيوعيين ، ولم أفكر فى عتابهم أو مؤاخذتهم ، فهم رجال سياسة ، ويعتقدون أن لهم الحق كل الحق فى أن يتخذوا أحط الوسائل وأقذرها للوصول إلى أهدافهم الشريرة ، وتسألنى: هل قاطعتهم بعد ذلك؟ فأقول لا.. لقد مضيت فى طريقى وكأن لم يحدث شىء ، أتبادل معهم الكتب ، وأدير معهم الحوار حول الأدب والنقد والسياسة ، وحول الإسلامية والماركسية دون حرج ، والغريب أن بعضهم ظل على علاقة محددة بى بعد الخروج من السجن ، وخاصة بعض العاملين منهم فى مؤسسات الدولة الصحفية والمؤلفين.

لكنهم كانوا ينتهزون الفرصة ، ليعطلوا أعمالى فى الصحف التى يعملون بها ، أو فى المؤسسات الحكومية التى يحتلون فيها بعض المناصب القيادية ، وكمثال لذلك ، فقد كانت مؤسسة السينما « مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى » تنتج بعض القصص الهامة كأفلام للعرض ، وحدث أن طلب الأستاذ الكبير نجيب محفوظ بعض رواياتى لإخراجها للسينما ، ولقد وقع الاختيار على رواية « اليوم الموعود » التى تتناول حقبة هامة من تاريخنا الإسلامى والعربى وهى فترة الحروب الصليبية ، وكانت هذه الرواية قد نالت جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، فى مسابقة كبرى أعلن عنها فى عيد المنصورة ، وقام عبد الناصر بنفسه بتسليم الجوائز فى عام ١٩٦٠ ، وكان من الفائزين أيضًا الأستاذ على أحمد باكثير عليه رحمة الله. المهم أن مؤسسة السينما قررت إنتاج هذه الرواية التاريخية فى أفلام الدرجة الأولى بالألوان ، وكانت ميزانية الإنتاج مليون جنيه حسب اقتراح الفنيين ، ومضى المشروع فى طريقه ، تم كتابة العقد والتوقيع عليه منى ومن المسئول عن المؤسسة.. وطال الانتظار.. وذات يوم كنت أمر بمسجد « الكخيا » الشهير بميدان « الأوبرا » بالقاهرة ، والتقيت بأحد الأصدقاء الشيوعيين الذى

أخبرنى بكل تشفٍ ، أنه أوقف العمل فى الإنتاج ، قلت: « لماذا؟ »

وضع يديه فى جيب معطفه الصوفى الثمين وقال: « لأن البطولة فى الرواية بطولة فردية ..»

– « هذا غير صحيح يا أستاذ « ب.ش » ، فالشعب كله يخوض معركته ضد الصليبيين ، ولست أدرى من أين أتيت بهذا الفهم؟ »

ثارت الدماء فى رأسى حينما سمعته يقول بعنجهية: « ذلك رأيى ، وأنا صاحب الكلمة ..»

قلت بهدوء ظاهرى: « لا يهم.. سواء تم إنتاجها أو لم يتم ..»

واستأذنت منصرفًا

وجاء بعضهم ومنع نشر تحقيق صحفى كبير عنى فى جريدة الجمهورية بعد خروجى من السجن ، وقد قام بإجراء هذا التحقيق المرحوم الأديب وحيد النقاش ، شقيق الناقد المعروف الصديق رجاء النقاش ، بل استصدر بعضهم قرارًا بعد خروجى من السجن ، بعدم استضافتى فى أى برنامج من برامج الإذاعة ، حيث تعمل شقيقة زوجتى السيدة نفسية شاهين مذيعة هناك ، وبعد ذلك بفترة أمكن التغلب تلقائيًا على بعض هذه الحواجز وليس كلها..

وفى ندوة نجيب محفوظ الأدبية ، ومقهى الأدباء فى ميدان الدقى ، كان يجتمع الأدباء ، وكنت أذهب إلى هذين المكانين وغيرهما بعد خروجى من السجن ، وكنت أجلس بين الكتاب الشيوعيين وأتسامر معهم دون حرج أو حساسية ، وعلى الرغم من حرصى الشديد إلا أننى كنت أتعامل معهم من خلال معتقداتى الإسلامية بوضوح تام ، وكانوا يعرفون ذلك جيدًا ، ويصرون على مناقشتى فى بعض الأمور العَقَدية ، وأشرح لهم بعض الحقائق حول تصوراتهم الخاطئة بالنسبة للإسلام ، ومن الملفت للنظر أن عددًا منهم كان يكثر من الاطلاع بعمق على بعض الفترات الحاسمة ، والمواقف المشهودة فى التاريخ الإسلامى ، ويفسرها بطريقتين ، متسلحًا بالكثير من النصوص وآراء بعض المستشرقين ، مثال ذلك موضوع « الناسخ والمنسوخ » وموضوع « الأحكام الشرعية » ، وعددًا من المسائل الاقتصادية فى المعاملات الإسلامية وغيرها ، وكانت جوانب الخطأ والخبث فى تحليلاتهم لا تخفى على ، حتى أصبحت خبيرًا فى محاوراتهم..

لقد سبقت الأحداث ، لكن ما الحيلة.. والشىء بالشىء يذكر؟

---

نعود مرة أخرى إلى السجن ، فقد التقيت فى سجن القاهرة بعديد من الشخصيات التى لا تنسى ، ومن بين هذه الشخصيات المنوم المغنطيسى الشهير « س » أو مستر « إكس » ، ولقد اشتهر هذا الرجل ، وأصبح مادة صحفية حتى إن إحدى كبريات الصحف الكبرى قد أفسحت له صدرها كى يكتب مذكراته ، وقد كان مستر « إكس » هذا صديقًا حميمًا لرئيس تحرير الجريدة ، وقد رأى فى صاحبنا المنوم المغنطيسى مادة للإثارة ، واستغلال العامة والبسطاء ، ومن ذاع صيته ، وأصبح معروفًا فى كل مكان ، كما أصبح يقصده أصحاب المشاكل والحاجات ليقدم لهم الحلول ، وكان لقب الدكتور يسبق اسمه دائمًا ، حتى ظن القراء أنه دكتور فعلًا ، ولست أعرف السر وراء انكشاف أمره فجأة ، وتقديمه للمحاكمة ، واتهامه بانتحال صفة طبيب ، وقيامه بعمليات نصب وتحايل وإغراء ، ويبدو أن موضوع التصدى له قد صدر من جهة لها وزنها فى السلطة والله أعلم..

المهم أن سيادة المنوم المغنطيسى قدم للمحاكم ، وأدين فى بعض التهم الموجهة إليه ، وحكم عليه

بالسجن عامين على ما أذكر ، وأتوا به إلى سجن القاهرة ، وكان اللواء مدير السجن يعطف عليه ، ولاحظت أن مستر « إكس » يتقرب منى يومًا بعد يوم ، ويحرص على مجالستى كلما ذهبت إلى مكتبة السجن ، وأخيرًا أفصح عن طلبه الذى ظل يخفيه.. لقد طلب شيئًا عجيبًا ، فأخبرنى أن لديه بعض القصص والوقائع التى عرضت له فى حياته « المغنطيسية » ، لكنه لا يستطيع أن يصوغها فى أسلوب أدبى راق ، وأنه يستحلفنى بالله أن أساعده فى ذلك من باب الإخوة الإنسانية والعطف على مأساته حيث إنه كان بالأمس يربح الآلاف من الجنيهات شهريًا ، وهو الآن فى حالة من الفقر يرثى لها.. كنت فى حيرة.. وجلست أستمع إليه ، وهو يروى خرافات غريبة لا تصدق ، فإذا ما استفسرت منه عن شيء أجاب بعبارات لا تقنع الأطفال.. فأخذت أشرح له طبيعة التنويم المغنطيسى ، والمجالات التى يمكن أن يتحرك فيها ، والفوائد التى يمكن أن نجنيها منه ، فرد فى ذكاء: « هل تستطيع أن تكتب لى هذه الأمور كلها حتى أستفيد منها؟ فعلًا هذا هو العلم الصحيح ..»

وحمدت الله على أن الله قد هداه على يدى ، وقدمت له فى اليوم التالى ما أراد ، وكم كانت دهشتى حينما قرأت بعد فترة نفس الأفكار بنصها منشورة باسمه فى إحدى المجلات ، وعندما قابلنى بعدها كان سعيدًا غاية السعادة ، أما أنا فقد كنت أشعر بالارتباك والخجل ، وكأنى أنا السارق لا هو..

ومرة أخرى أخذ يسألنى عن الإيحاء فى العلاج النفسى ، ودور التنويم المغنطيسى فى ذلك ، وأكد لى أنه لن يستغل ذلك مطلقًا فى النشر ، إنه فقط يريد أن يصل إلى الحقائق العلمية ، وتكررت المأساة مرة أخرى ، وعندما عاتبته على ذلك قال: « ألا تريد أن تتصدق على قلمك؟ »

قلت: - « ليس بهذه الطريقة »

قال: - « الرئيس نفسه لديه من يكتب له الخطب والتصريحات الصحفية.. وأنا أحق بالعطف من أى رئيس.. أنا الآن مسكين محتاج ..»

❀❀❀

# [١٣] ضباط وأطباء وطلبة... فى السجن



فى أحد الأيام من عام ١٩٥٨ أتى ضابط عنبر « ج » الذى نقيم به فى سجن القاهرة ، وأخبرنى أن شخصية مهمة سوف تقيم معنا ، أى فى الطابق الخاص بالإخوان المسلمين الذين قدموا من مختلف سجون الجمهورية للعلاج ، وفهمت منه أنه هذه الشخصية ضابط من ضباط الصف الثانى للثورة ، وأنه قد حكم عليه بالسجن لمدة عامين أو ثلاثة ، كما أخبرنى أن معه مهندس بدرجة مدير عام حكم عليه أيضًا فى نفس القضية ، كنت مندهشًا لما أسمع ، وسألت ضابط العنبر: « أهى محاولة لقلب نظام الحكم؟ »

قال دون إكتراث: « لا.. إنها قضية تبديد أو اختلاس أو نحو ذلك »

لقد رفض الضابط الكبير المحكوم عليه أن يعيش وسط المسجونين العاديين ، فقد قضى بينهم ليلة كانت أتعس ليلة فى حياته كما يقول ، لدرجة أنه كان يفضل الموت على البقاء وسطهم لما طبعوا عليه من إهمال واستهتار وقذارة وفوضى ، وأخيرًا تداولت فى الأمر مع إخوانى لأنها المرة الأولى أن يأتى سجين من غير الإخوان ليقيم معهم هنا ، ورأينا أنه - من وجهة النظر الإنسانية البحتة - لا مانع من ذلك ، ومن ثم أخلينا له زنزانة صغيرة ، وقدم الضابط السجين مع زميله المهندس المدير العام بعد نصف ساعة ، كان يخطو فى اعتداد وغضب ، ولم يكن شعره حليقًا كباقى السجناء ، واستقبلناه بابتسامات وترحيبات مجاملة لابد منها ، وقدمنا له قدحًا من الشاى ، كان يلتفت يمنة ويسرة ، ويراقب تحركات الإخوان وأحاديثهم فى اهتمام ، ثم قال: « من هؤلاء؟ إنهم يختلفون تمامًا عن باقى المسجونين » وبعد أن أجبنا على أسئلته قال وقد بدا الارتياح على وجهه: « إن الصورة تختلف تمامًا عما كنت أعرفه طوال السنوات السابقة ..». لم نعلق كثيرًا على قوله ، فعاد يقول: « هل بينكم محام من الإخوان؟ »

- « نعم معنا محامون.. وأطباء.. ومهندسون وعمال وطلبة.. من كل الأصناف ..».

ثم قدمت له أخانا المحامى الأستاذ حسن دوح ، فكان سعيدًا بذلك... وعرفنا فيما بعد أن الضابط السجين كان مسئولًا عن « لجنة الجرد » بالقصور الملكية ، وأنه اتهم بالاستيلاء على بعض الأشياء الثمينة لنفسه ، كما باع البعض الآخر بأثمان زهيدة أو رمزية ، فقد باع سجادة أعجمية فاخرة بمبلغ ستة وثلاثين جنيهًا فقط لإحدى الراقصات المعروفات..

قد عرض الضابط السجين الملف كاملًا على الأخ حسن دوح ، فوجد الملف متخمًا بالعديد من المخالفات ، وكان رأى حسن أنه لا أمل فى إعادة نظر القضية ، وظل هذا الضابط السجين فى عنبرنا ، لم يكن لديه أى عمل سوى الحديث عن ذكرياته فى الثورة ، وعن علاقاته بجمال عبد الناصر وعن قائد البوليس الحربى ، وعن المكيدة التى دبرت له ، كى يتخلصوا من شخصيته القوية ، وتحديه للمفاسد

والمهازل التى كانت تحدث ، وكيف طرد وكيل النيابة الذى جاء للتحقيق معه فى البداية ، وطلب قائد البوليس الحربى وكال له السباب عبر التليفون ، كما كان يؤكد دائمًا أنه برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، حتى إننا مللنا السماع لهذه القصة التى لا تتغير ، والتى يرويها بمنتهى الحماسة والقوة والثقة ، مع أن ملف القضية الذى يحمله معه يؤكد عكس ذلك تمامًا..

وعندما كنت أرى الدموع تترقرق فى عينيه أرق لحاله وأواسيه بشتى الطرق ، فأنا ضعيف أمام الدموع ، وما ظنك برجل كان ملء السمع والبصر ، وتنظر إليه أسرته كمثال ناجح ذى نفوذ ومكانة ، وفجأة يجد نفسه نزيل السجن مع العديد من المنحرفين والمجرمين ، ويرتدى تلك البدلة الزرقاء الكالحة ، ويأتمر بأمر السجان الذى لا يزيد عن كونه واحدًا من عشرات أو مئات الجنود الذين كانوا يلبون إشارته.. « ارحموا عزيز قوم ذل ».

وهناك ضابط سجين آخر برتبة نقيب ، كان يعمل بشرطة الآداب ، وقد عرف عنه العنف ، ومطاردة المنحرفين والبيوت السرية دون هوادة ، حتى إن رؤساءه كانوا يكنون لنشاطه كل تقدير واحترام ، ولم يكن يتورع عن مداهمة البيوت المشبوهة حتى ولو كان بها بعض الشخصيات المرموقة.. كما كانت أخبار غزواته الموفقة تنشر فى الصحف ، وشعر تجار « الرقيق الأبيض » بالحيرة حياله ، وأخذوا يدرسون وضعه بدقة ، ويعقدون معه الصلات ، ويدعونه – بحق الصداقة – إلى الحفلات ذات المستوى الرفيع ، وأدركوا بخبثهم أنه فقير ، وبدءوا فى مغازلته بالهدايا ، وتقرب بعض النسوة إلى زوجته دون أن تعرف حقيقتهم ، بدافع الجوار أحيانًا ، وبالصدفة أحيانًا أخرى ، واكتشفوا أن لعاب حضرة النقيب يسيل خاصة أمام بريق الذهب والساعات الأنيقة والبدل المستوردة..

وبعد أن تعمقت الصلة معهم ، اتخذت العلاقة مسارًا أوضح ، قالوا له أن العديد من المسئولين ينالون جعلًا أو راتبًا شهريًا كى يغمضوا أعينهم قليلًا ، فتجار المخدرات يدفعون ، وتجار الرقيق الأبيض يدفعون ، ومخازن التموين الغذائى أيضًا.. وهم على استعداد لدفع المبلغ الذى يريد ، ولن يحرموه من ضبط بعض القضايا التافهة الراتبة ، بحيث لا تكون الإدانة فيها ثابتة.. وهكذا أوقعوه فى قضية رشوة ليتخلصوا منه. عندما حكم على هذا النقيب المتهم بالسجن ثلاث سنوات ، كان منهارًا انهيارًا تامًا ، والدموع تتساقط من عينيه بغزارة ، ولا يستطيع تناول الطعام أو النوم قلت له: « وما نتيجة ذلك كله؟ »

أخذ يدق رأسه بقبضته فى عصبية ويقول: « أنا انتهيت ..»

فى مثل هذه الأحوال – مهما كانت الجريمة – لابد من المواساة والتخفيف ، قلت له: « تستطيع بعد خروجك أن تجد العمل المناسب فى الشركات أو الأعمال الحرة.. الوظيفة الحكومية قيد ، وليس فيها غير المظاهر الكاذبة والراتب الضئيل ، ولابد أن وزارة الداخلية سوف تساعدك ».

قال فى مرارة: « أنا لا أفكر فى ذلك »

– « فيم تفكر إذن؟ »

– « زوجتى.. زوجتى.. هل ستقبل الانتظار والعيش معى بعد ذلك؟ »

قلت فى دهشة: « إن كانت وفية مخلصة فستقف إلى جوارك حتى النهاية ، وهذا أمر يطمئن ، وإن كانت غير ذلك فلا تستحق البكاء عليها ..»

على الرغم من أن كلامى كان منطقيًا معقولًا ، إلا أنه كان فى حالة اضطراب نفسى شديد ، ويريد التشبث بزوجته مهما كان الأمر ، كان يحبها بجنون ، وعلمت أنها جميلة وغنية ومثقفة ، واستطعت بعد جهد جهيد أن أبعث فى نفسه قدرًا من الأمل.. وبمرور الأيام ألف الواقع المر ، وتكيف على الجو القائم فى السجن ، لكنه كان كثير الشرود ، يعود إلى الحديث معى عن زوجته كل يوم ، حتى جاء اليوم الذى كانت ترتعد فرائصه منه ، لقد طلبت زوجته الطلاق ، وهو حقها القانونى ، لكنه ثار وفار ، ورفض الموافقة على الطلاق ، فلجأت إلى القضاء كى تحرر نفسها من الحياة معه ، كان - وهو ضابط شرطة سابق - يعلم أن المحكمة ستحكم لصالحها ، لكنه كان يريد مضايقتها بتطويل الإجراءات ، ثم لجأ إلى الادعاء بأنها أخذت كذا وكذا ، وأنه يطلب استرداد هذه الأشياء ، وكثيرًا ما حاولت إقناعه بإسدال الستار على هذه القضية ، والموافقة على الطلاق ، لكن دون جدوى ، لقد تحول حبه العميق إلى كراهية بشعة ، لدرجة أنه كان يهدد بقتلها عندما يخرج من السجن ، وكنت أحاول بلباقة أن أشعره بأنه هو الذى أخطأ بقبوله الرشوة ، وأن القانون أعطاها الحق فى طلب الانفصال ، لكنه عمى عن إدراك الحقائق الجلية فى عنفوان غضبه وحقده ، وعدت أؤكد له: « ألم أقل لك أن امرأة كهذه لا تستحق الاستمساك بها؟ وكيف تصر على العيش مع إمرأة ترفضك على هذه الصورة ، وفى تلك المحنة؟ »

وكان يقول فى تعاسة: « الرشوة فى كل مكان.. لكن التعساء وسيئى الحظ هم الذين يقبض عليهم متلبسين.. الكبار والصغار يرتشون.. وأبوها من المرتشين الكبار.. وهى نفسها لم تكن تهتم بمصدر الأموال التى أشترى بها الهدايا لها ، هى تعلم أن مرتبى أصغر من ذلك بكثير.. كانت تعلم كل شىء.. إنها ملعونة.. لو كانت الرشوة سببًا للطلاق لكان فى البلد ملايين المطلقات الآن ..»

قلت له ذات صباح: « لماذا لا تؤدى الصلاة؟ .»

قال فى استهتار: « وما الفائدة؟ »

- « ستؤدى فرضًا ، وترضى ربك ، فقد يغفر لك ، وتشعر بالرضى والاطمئنان ..»

أدار وجهه بعيدًا عنى وقال: « لا أمل فى شىء.. العالم غابة.. والناس وحوش ..»

- « قد يكون الأمر كذلك.. لكن الاستمساك بحبل الله هو الأمل.. وبابه دائمًا مفتوح.. وهو الغفار والرحيم.. وأنت فى حاجة إلى الغفران وإلى الرحمة.. تلك هى الحقيقة.. وهى البداية الصحيحة لحياة جديدة.. ثم ماذا كنت فاعلًا لو أنك مكاني؟ تهمتى تافهة.. والادعاء تافه.. والحكم عشر سنوات سجنًا.. أتسمع؟ عشر سنوات سجنًا ..»

طأطأ رأسه وقال: « ليتنى مثلك!! »

- « كيف؟ »

- « أنت يمكنك أن تعتز وتفتخر بالتهمة الموجهة إليك.. أنت صاحب مبدأ.. أما أنا ..»

لم أجد ما أجيب به ، كان يدرك أبعاد الموقف جيدًا ، لكن عواطفه الثائرة ، تدفعه إلى العناد ، وكبرياءه العمياء ، تحرضه على التمادى فى الانتقام ، وكنت أدعو له بينى وبين نفسى أن يهديه الله إلى الصواب.. لكأن الله قد استجاب لدعائى ، إذ سمعته يقول وقد هدأت أعصابه: « حسنًا.. إن ما أريده

منك هو أن تعلمنى الوضوء والصلاة ..»

وشعرت بفرح غامر، لكنى تعجبت كيف لمسلم فى مثل هذه السن لا يعرف كيف يتوضأ أو يصلي؟ ألم يتعلم شيئًا من ذلك فى بيته أو فى المدرسة؟

ليس هذا فحسب، بل لاحظت أيضًا أنه لا يهتم بقراءة أى كتاب، ولا يفكر فى تصفح الجرائد اليومية أو المجلات، ولا يفهم فى الأمور العامة أو السياسة إلا الذى كان يلقن له من خلال رئاسته أثناء الخدمة، لكنى لا حظت أيضًا أنه «معلم» فى حبك الحيل والخداع والإغراء، وسبحان من جعل فى كل قلب ما يشغله، لقد تبين لى أن مثل هذا الصنف من الناس يعيش حياته الوظيفية من خلال التعليمات الرسمية الصادرة إليه، وليس لديه رصيد من الفكر كى يناقش أو يبدى رأيه، أو يطور العمل الحساس الذى يشارك فى أدائه..

أما الضابط الثالث فقد كانت حكايته طريفة، وجريمته أعجب، لقد كان ضابطًا فى الحرس الملكى، ومقربًا من الحاشية فى القصر، وعندما قامت الثورة صدر قرار بإحالته إلى التقاعد وهو برتبة صاغ «رائد»، لكنه قدم التماسات عديدة لمجلس قيادة الثورة، وأكد لهم أنه لم يشترك فى أى عمل يتنافى مع الكرامة والشرف أثناء خدمته فى القصر الملكى، وبعد أخذ ورد وافقوا على إلحاقه بوظيفة مرموقة فى إحدى المؤسسات الصحفية بمرتب مجزٍ، وبقى فيه حتى ارتكب جريمته.. وقصته كما رواها لى بنفسه هى أنه اشترى من شقيقته ثلاثة أفدنة ودفع لها الثمن، وعندما أراد استلام الأرض لزراعتها. اعترضه أخوه الأكبر – وهو من أعيان القرية – وأخبره أنه اشترى هذه الأرض نفسها قبله وسجلها فعلًا باسمه.. فجن جنون الضابط، وأنذر أخاه بأن هذا التلاعب والتزوير لن يؤدى إلا إلى الكوارث التى ستدمر الأسرة، وفى النهاية عرض الأمر على القضاء الذى حكم لصالح أخيه، فما كان من الضابط السابق إلا أن قام باختطاف ابن أخيه، وأخفاه فى مكان سرى، وقرر أنه لن يسلم الطفل لأخيه إلا إذا دفع ثمن الأرض أو سلمه الأفدنة الثلاثة، وبعد مفاوضات ووساطات وافق الأخ الأكبر على دفع مبلغ كبير من المال، وعند إتمام الاتفاق انقضت الشرطة وأمسكت بالضابط السابق متلبسًا.. ثم قدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن خمس سنوات تقريبًا..

كان يقول لى: «أنا لست قاطع طريق.. ولا زعيم عصابة.. لقد فشلت فى أخذ حقى بالحسنى، فاضطررت لأخذه بطريقة أخرى.. لم أكن أعلم أن أخى قد تواطأ مع النيابة والشرطة للإيقاع بى.. ويوم أن قبض على بكيت.. لكن أخى الأكبر لم يرحم صلة الرحم ولا الدموع.. هل كان من المعقول أن ألحق الأذى بابن أخي؟ إنه مثل ابنى تمامًا.. لكن العدالة كما يقولون معصوبة العينين.. أقسم لك أنى مظلوم.. مظلوم وجلال الله ..»

وفى السجن كل الناس «مظاليم»، ويصعب على أى إنسان أن يعرف الحقيقة، ولهذا فإن السجان لا يصدق أحدًا من المسجونين، ويرمى وراء ظهره بكل القصص والحكايات التى يسمعها، ولا يكترث للدموع التى يذرفها المظلومون.. فالسجن عالم من الشك والريبة والغموض.. وصدق الشاعر الذى يقول:

لا يدخل السجن إنسان فتسأله ... ما بال سجنك إلا قال مظلومُ

وهكذا يخيل للرائى أن السجن ليس فيه سوى المظلومين، وأن خارج السجن هو العالم الواسع الذى يعج بالظلمة من البشر..

أما القضية التى هزت مشاعرنا، فقد كانت قضية طالب الطب « ع »، وقد اهتمت بها الصحف فى تلك الفترة، ونشرتها بالتفصيل، وكنا نتابع مراحل هذه القضية جلسة بعد جلسة، فقد كان لطالب الطب « ع » صديق عزيز يدرس معه فى الكلية، وكثيرًا ما كان « ع » يذهب إليه فى منزله ليذاكر معه حيث يسكن هو وأمه وحيدين بعد أن مات والده، ولم يكن أحد يتصور أن « ع » يمكنه أن يقع فى حب أم صديقه، لكن هذا ما حدث بالفعل، وتسلل ذات يوم إلى بيت صديقه فى غيبته، وأخذ يطارح الأم الغرام، فصدته بعنف ووجهت إليه أشد اللوم، لكنه لم يرتدع، فهددته بالكشف عن نذالته أمام أهله وأمام ابنها، غير أنه استمر فى تذلله وإبداء حبه، وعدم القدرة على العيش بدونها، ولما يئس منها أخرج مسدسه وأفرغ فى السيدة المسكينة عددًا من الرصاصات القاتلة، وبالطبع قبض عليه وقدم للمحاكمة..

كان وقع الحادث أليمًا بالنسبة لأبيه الأستاذ الجامعى والذى يحظى بالاحترام والتقدير، كما كان أشد إيلامًا بالنسبة لأمه، التى ماتت بعد فترة وجيزة. وفى نهاية المطاف حكم على « ع » بالسجن خمسة عشر عامًا « أشغال شاقة »، عندئذ سقط مغشيًا عليه فى قفص الاتهام، وعندما حاول مصورو الصحف التقاط صورة له، تصدى لهم أحد أشقائه وكان يعمل ضابطًا بالمخابرات العامة، وانتزع منهم آلات التصوير وأتلف الأفلام على مرأى ومسمع من هيئة المحكمة والنظارة، واحتجت الصحف فى اليوم التالى، المهم أن المتهم نقل على الفور إلى مستشفى سجن القاهرة لعلاجه من أثر الصدمة قبل ترحيله إلى « ليمان طرة » ليقطع الصخر فى الجبل، ولم نستطع أن نمنع أنفسنا من الهرولة إلى المستشفى لنشاهد هذا الشاب العجيب التصرفات.. كان كما هو متوقع منهارًا يبكى، ولا يستطيع أن يتصور أن مستقبله قد دمر، وأنه سوف يقضى خمسة عشر عامًا بين القتلة والسفاحين فى محاجر ليمان طرة، وأخذ كالعادة يزعم أنه مظلوم وأنه لم يكن يقصد قتلها.. وأنها هى التى أغوته وحطمت حياته.. وأخيرًا اتهم القاضى بالظلم والتحيز، وكان متواجدًا معنا الأخ الصديق السجين عبد الوهاب السقا، فسدد إلى « ع » الراقد على السرير نظرات احتقار، وقال له فى حدة: « فعلًا القاضى قد يكون متحيزًا.. لكن لصالحك »

- « كيف؟ »

- « لأنك تستحق الإعدام ..»

فأسرعنا بإبعاد عبد الوهاب بعيدًا عنه وهو يزمجر ويتحدث عن بشاعة الجرم، ويستغرب تلك الأحكام المخففة التى تصدر فى مثل هذه القضايا الواضحة مع توفر الدليل والاعتراف والقصد الجنائى، والحقيقة أن القاضى يطبق القانون مستندًا - فى تكييف القضية - على ما يراه من أدلة ووقائع، وللمحامين حيل عديدة فى النيل من تصور الادعاء، وبيانات الشهود، وتلقين المتهم بعض الأقوال التى تخفف من الحكم المتوقع..

الحقيقة أننى التقيت ساعات طوالًا مع المسجون « ع »، وكنت أشفق عليه من الحديث والتلميح

عن القضية ، ولم أستطع أن أكتشف أمورًا تساعدنى على اكتشاف بواعث الجريمة ، لكنه بالتأكيد مندفع وعاطفى فى تصرفاته ، ويحاول دائمًا أن يعلق أو يدلى بوجهة نظر فى الموضوعات ، قبل أن تكتمل الصورة بأبعادها المختلفة في ذهنه... وبعد بضعة أسابيع رحل عنا إلى « ليمان طرة ».. ولم نعد نسمع عنه شيئًا ، وذات يوم بعد أن أفرج عنى من السجن ، كنت أتصفح جريدة الأهرام ، فقرأت فى صفحة داخلية خبرًا صغيرًا داخل مربع جاء فيه: أن طالب الطب السجين « ع » قد ألقى بنفسه من الدور الرابع فى أحد مبانى سجن طرة وأسلم الروح على الفور.

أما والده الأستاذ الدكتور الجامعى ، فقد علمت أنه بينما كان يلقى إحدى محاضراته فى المدرج الكبير ، سقط ميتًا إثر نوبة قلبية مباغتة.. وهكذا أسدل الستار على واحدة من المآسى العديدة التى تحدث فى مجتمعنا كل يوم ، ولا تخلف وراءها سوى الحسرة والألم..

وننتقل بالحديث من طالب الطب ، إلى اثنين من شباب الأطباء ، كانت لهما أيضًا قضية مثيرة ، تناولتها الصحف فى حينها ، فقد كانا على علاقة آثمة بإحدى الممرضات كانت تعمل معهما فى عيادتهما ، وعندما اكتشفت الحمل فكرًا فى إجراء « كحت وتفريغ » - « إجهاض » لها كى يتخلصا من الجنين ، لكنها أصيبت بالنزيف أثناء العملية الجراحية ، مما اقتضى إجراء نقل دم بأسرع ما يمكن ، واستعانا بأحد الأطباء المتخصصين ، لكن الممرضة أسلمت الروح بعد أن اتهمتهما ، فأبلغ الطبيب المختص عنهما وسيقا إلى المحاكمة التى حكمت عليهما بالسجن عامين لواحد وثلاثة أعوام للآخر ، مع فصلهما من الخدمة ، كما سحبت النقابة العامة للأطباء منهما تصريح مزاولة المهنة..

وأمام مكتبة السجن التقيت برجل وقور أشيب الشعر ، يلبس ملابسه المدنية الأنيقة ، ويضع الطربوش على رأسه ، وكنت أشعر بالعطف والألم لهذا الرجل المسن الوقور ، ولم أجرؤ على سؤاله عن الاتهام الموجه إليه ، والذى يحاكم بسببه آنذاك ، وذات مرة كنت أتصفح مجلة « البوليس » ووقعت عينى على صورة كبيرة بالألوان لنفس الرجل العجوز ، وتحتل الصورة نصف الصفحة طوليًا ، ومكتوب إلى جواره عنوان بارز يقول: « إمبراطور النصب فى الشرق » لم أصدق ما أرى.. أيمكن أن يكون هذا الوجه الطيب البرىء الذى يشبه وجه جدى فى طيبته وصلاحه أيمكن أن يكون وجه نصاب كبير؟ وأخذت ألتهم كلمات التحقيق الصحفى التهامًا.. وسائل غريبة.. لا من حيث النوع أو المبالغ الضخمة فحسب ، بل من حيث عدد الجرائم أيضًا..

وفى مرة أخرى أشار الأخ الصديق محمود عجوة إلى رجل يجلس فى الشمس مع زمرة من المسجونين المتقدمين فى السن وقال: « انظر إلى هذا الرجل.. وقل ماذا تلاحظ عليه »

نظرت ، وقلت: « لا شيء.. إنه مثل من يجلسون معه ، لا فرق بينه وبينهم ..»

قال: - « إنه مدير عام بإحدى الوزارات الهامة ، اختلس عشرين ألفًا من الجنيهات « وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت » ، وحكم عليه بالسجن أربع سنوات.. أكان هذا الرجل يومًا مديرًا عامًا ، يجلس على مكتب أنيق ، ويتحلق حوله الموظفون وطاقم السكرتارية والسعادة وكبار الزوار؟ أكاد لا أصدق.. لقد مسخه السجن مسخًا شديدًا ، وها هو يلبس رداء متسخًا كالحًا أزرق اللون ، يتفق تمامًا مع ذقنه غير الحليق ، ووجهه المتهدل ، وعينيه ذات الزوايا الحمراء الملتهبة ، ثم جاء السجان وأخذ يدفعهم باحتقار

وإهمال كى يذهبوا إلى «العنبر».. يا إلهى اللعنة على المال الحرام الذى يستعبد الإنسان، ويسقط هيبته، ويدمر مظهره ومخبره..». وأمام المكتبة أيضًا كان يعقد مؤتمر لكبار اللصوص المسجونين كل صباح، يناقشون فيه أهم القضايا الجديدة التى ضبطتها الشرطة، وأسباب فشل عملية السرقة أو السطو، ويستخلصون العبر من هذه الحوادث اليومية التى ترد إلى السجن، وكنت تشعر وأنت تستمع إلى أحاديثهم وأفكارهم أنك أمام مجموعة من المختصين والخبراء المحترفين حتى لكأن اللصوصية نشاط وطنى اجتماعى له أحكامه وتقاليده ومبرراته، ولا تسمع منهم كلمة حرام أو حلال، ويبدو أنهم ينظرون إلى اللصوصية كمهنة تحتاج إلى موهبة وفن، وليست انحرافًا خطيرًا يبعث على التقزز والتستر.

أما تجارة المخدرات داخل السجن فهى على أشدها، فأصحاب المزاج يجدون ألف حيلة وحيلة للحصول على الأفيون والحشيش، بل والخمر أيضًا، والتجار - أو المعلم الكبير - معروف لجميع المسجونين، بل وللسجانة أيضًا، والدليل على ذلك أنهم يفاجئون مروجى المخدرات داخل السجن من آن لآخر، وكثيرًا ما يكون المروّج على علم مسبق بالحملة، ولقد أشرت إلى هذه الظاهرة بشىء من التفصيل فى كتاب لى عن السجون بعنوان «المجتمع المريض»، وكان المتهمون فى قضايا المخدرات - كما سبق وأشرت - يلتقون بى كثيرًا، لأننى كنت أكتب بعض القصص عن هذه السموم فى مجلة السجون، وأتعرض لحياتهم وسلوكهم بشىء من الدقة، مما جعل أحد زعمائهم يقول عنى: «هذا المسجون يعرف الكثير عنا، ولو بحثنا وراءه لتبين لنا أنه «صاحب مزاج ...» وحاولوا دعوتى على مأدبة غداء فى يوم عيد، وبعد الأكل همس أحدهم فى أذنى قائلًا: «الصنف موجود»، وانفجرت ضاحكًا.. وأكدت لهم أننى لم أجرب هذه الأشياء طول حياتى، وأن ما أكتبه عنهم إنما أستمد حقائقه من الدراسات الطبية عن المخدرات فى علوم الفاركولوجيا والطب الشرعى.. وعلى الرغم من الأيمان المغلظة التى كنت أقسم بها على صدق كلامى، إلا أننى كنت أقرأ الشك فى عيونهم..»

❁❁❁

# [١٤] مهرجان الحرية المؤقتة:



لا أنسى ما حييت ذلك المفكر الهمام الكبير الأستاذ «أمين الخولى»، وهو واحد من الأساتذة المجددين فى الجامعة، وأصحاب الرأى الحر، والبحث العميق، ورئيس جمعية الأمناء، وكان يصدر فى هذه الفترة مجلة «الأدب»، وقد أفسح الرجل رحمه الله مكانًا لى فى هذه المجلة أكتب فيه الشعر أو القصة وأنا سجين، بل أرسل إلى خطابًا مؤثرًا ما زلت أحتفظ به، بدأه بقوله «تحية إليك فى معقلك»، وكلمة المعقل - وليس المعتقل - تحمل الكثير، ثم استطرد قائلًا: «إن الفلك دوّار، ولم يدق فيه مسمار».

الحقيقة أننى شعرت بالارتياح لرسالته العميقة الشجاعة، لأن من يغامر فى تلك الفترة ويتصل أو يراسل سجينًا يعرض نفسه فيها لمشاكل لا حصر لها، ولقد حرصت بعد خروجى من السجن على الاتصال بهذا المربى الأصيل، وبحرمه السيدة الدكتورة بنت الشاطئ، وما أكثر ما ذهبت إليه فى بيته بمصر الجديدة؛ كما كان حريصًا على أن يدعونى إلى الحفل السنوى الذى تقيمه مجلة «الأدب» كل عام.

ولقد تعرض الرجل لأزمة صحية شديدة، إذ أصيب بورم فى المصران الغليظ، وأجريت له عملية جراحية كبيرة، وأشهد أن الرجل فى محنته المرضية كان مؤمنًا قويًا باسمًا دائمًا، لا يرهب الموت، ولا ترتعد فرائصه أمام مرض خطير كهذا، وقد شفى بعد ذلك، لكنى أعتقد أن وفاته بعد ذلك ربما تكون بسبب هذا المرض نفسه.

وكان على فى تلك الفترة أن أخطط بصورة أدق وأوسع لحياتى فى السجن ما دام الأمل فى الإفراج لم يتحقق، ولهذا أعددت عددًا من المشروعات الأدبية منها ما يتعلق بالكتابة، ومنها ما يتعلق بدراسة بعض العلوم الإنسانية والموضوعات الإسلامية التى أرانى فى حاجة إلى الاستزادة منها، والمسئولية تكبر وتثقل كلما حققت خطوة فى طريق النجاح، وكلما ازدادت مؤلفاتك انتشارًا، وخاصة أن النقاد - وهم لا يرحمون - بدءوا النظر الدقيق فيما أكتب.. إن النجاح يؤدى إلى مزيد من القلق، والمضى قدمًا يحتاج إلى عرق وسهر وصبر وأناة..

كان الأخ السجين البكباشى حسين حمودة أحد ضباط الإخوان الذين ساهموا بجهد مشكور يوم قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، وقد شرح هو بنفسه دوره وعلاقاته وتاريخه مع الثورة فى كتاب صدر عن دار الزهراء بالقاهرة مؤخرًا، ونظرًا لاستمساكه بوجهة النظر الإخوانية فقد غضب ضباط القيادة منه، وأدخلوه فى زمرة المقدمين للمحاكمة من الإخوان المسلمين، وحكم عليه بالأشغال الشاقة هو والبكباشى فؤاد جاسر، والصاغ جمال ربيع وغيرهم، وعاش حسين حمودة فى سجن الواحات بالصحراء مع إخوانه بضع سنين، ثم نقل فى عام ١٩٥٨ إلى سجن القاهرة معنا، وذات يوم استدعى حسين حمودة وكان الوقت بعد العصر، ثم حان موعد التمام، وأغلقت الزنازين، وانصرف سجانة النهار، وجاء بعدهم خفر الليل.. لكن حسين حمودة لم يعد.. وأخذنا نضرب أخماسًا فى أسداس،

ترى أين ذهب؟ هل أخذوه إلى إحدى المستشفيات؟ لكنه والحمد لله لم يكن مريضًا ، هل رحلوه إلى سجن آخر؟ ليس هناك ما يدعو إلى ذلك ، الحقيقة أن ذهاب حسين هكذا فجأة أثار العديد من التساؤلات المقلقة.

وفى حوالى العاشرة والنصف صباحًا وجدنا حسين حمودة يدخل علينا عنبر « ج » مرتديًا أفخر ثيابه ، إذن قد خلع لباس السجن ، وارتدى بدلة مدنية ، فتجمهر الإخوان حوله وهم يتساءلون: « ماذا جرى؟ »

وأخذ يشرح كيف جاء أحد ضباط الداخلية الكبار مساء أمس ومعه عدد من الحرس ، وكيف ساروا به فى شوارع المدينة ، ثم أدخلوه أحد الأمكنة ، وهناك وجد وزير الداخلية زكريا محيى الدين جالسًا فى انتظاره ، وتعانق الإخوة الأعداء ، وأعادا ذكريات الصداقة القديمة والكفاح الطويل ، كان حسين مبهورًا لا يكاد يصدق ما يجرى ، وقال له زكريا محيى الدين حسب روايته: « لم يكن فى إمكاننا كثورة أن نواصل مسيرتنا وننفذ خططنا وأنتم تعارضوننا وتتصدون لنا ، ومن ثم لم يكن هناك مناص من حجزكم فى السجن فترة حتى لا ننشغل بمعارك ثانوية.. والآن قد استقرت الأمور ، وأستطيع أن أقول لك ، مبروك ، لقد أمر الرئيس بالإفراج عنك.. وتستطيع الآن أن تذهب إلى بيتك ..»

كنا نستمع إلى حسين فى ذهول ، لم يتركنا حسين لكى نناقش ونستنتج ونستقرأ الأحداث المفاجئة ، فاستطرد قائلًا: « وقد أخبرنى الوزير أن الإفراجات عنكم ستتوالى تباعًا ..»

الإفراج بالنسبة للسجين السياسى حلم ، وهو لا يأتى عادة إلا وسط دراما مثيرة ، فقد يخرج السجين السياسى غدًا ، وقد يبقى سنوات طوالًا ، وقد لا يخرج أبدًا ، إذ إن العبرة ليست بالحكم الصادر فى حقه ، ولكن الأمر يتوقف على الوضع السياسى العام ، وتطور الأحداث ومدى المعارضة وما فيها من لين أو شدة ، ولهذا فإن الإفراج عن حسين حمودة على هذا النحو قد هزنا هزًا من الأعماق.

ولم تكد تمر أيام قليلة حتى أفرج عن معظم ضباط البحرية الذين كانوا مسجونين معنا على ذمة قضيتنا ، وكذلك أطلق سراح عدد من الضباط الآخرين منهم جمال ربيع ونجيب عطية وفؤاد جاسر ، ثم توالت الإفراجات بأعداد قليلة فى سجن أسيوط ، وسجن بنى سويف ، ثم توقفت فجأة ، ولم تدم الفرحة طويلًا ، وأخذت الشكوك تراودنا من جديد ، إن ما جرى من إفراجات ليست له صفة الإفراج العام ، أو العفو الشامل ، لكنها جاءت كعينات منتخبة محدودة..

فى هذا الأثناء استدعانى الصديق الضابط سمير قلادة لأتسلم من المكاتب طردًا من الكتب كنت قد أوصيت أهلى بشرائها ، وحينما كنت جالسًا فى مكتب الإدارة كان يتواجد به حوالى أربعة ضباط ، وفجأة سمعت أحدهم يقول لى: « ما رأيك فى الثورة؟ »

ارتج الأمر على ، ولم أدر بماذا أجيب ، فابتسمت فى اضطراب وقلت: « أهو تحقيق يا « زايد » بك؟ »

قال: « لا والله.. وإنما أردت أن أستمع إلى رأى مفكر مثلك ..»

كان من الصعب أن أراوغ أو أصمت ، كما كان من غير اللائق أن أثنى على الثورة على طول الخط ، فسوف يدركون أنى أخدعهم ، وكان من الخطر أيضًا أن أشن على الثورة هجومًا يورطنى فيما هو أكبر وأنا ما زلت سجينًا ، عندئذ فكرت وتمالكت أعصابى وقلت بمنتهى الوضوح: « من الخطأ أن أصدر رأيًا واحدًا شاملًا على الثورة ..»

قال : والضباط من حولنا يتابعون الحوار – وهو يبتسم: « كيف ذلك؟ »

قلت: « إن الحكم الصحيح على الثورة لابد وأن يكون مجزءًا.. أو يتناول كل قضية على حدة.. ودعنى أشرح لك الأمر بضرب الأمثلة.. إخراج الإنجليز من مصر عمل عظيم.. وكذلك تأميم قناة السويس، وخطوات التصنيع، أما موضوع الحريات العامة والمحاكم الاستثنائية، وبقاؤنا فى السجن، والمعاملة التى عوملنا بها.. فهذه أمور سيئة لا يقرها عدل.. ذلك هو حكمى على تقييم الثورة.. أشياء طيبة، وأشياء أخرى على النقيض.. ولا أستطيع أن أقول غير ذلك.. ولا مجال للتفصيل.. وكل لبيب بالإشارة يفهم ». وتبادل السادة الضباط النظرات، وعلق الضابط زايد قائلًا: « كلام منطقى معقول، ولا خلاف عليه ..»، قال ضابط آخر: « لقد كنا نتوقع أنك ستكون من أوائل المفرج عنهم ..»

فقلت وأنا أهم بالخروج: « الأمر لله ما شاء يفعل ..»

والواقع أن خروج البعض منا فتح شهيتنا للرغبة فى الحرية، وكثرت الأقاويل والتحليلات السياسية، فهناك من قال أن الثورة تحاول إرضاء الضباط المحبوسين فى البداية، وتجعل لهم الأسبقية فى الإفراج، وهناك من قال أن المجموعة التى خرجت لم تصطدم بالإدارة أو توجه انتقادات جارحة للحكومة أثناء فترة السجن، وهناك من أشار أيضًا إلى احتمال وجود « واسطة » من شخصيات كبيرة بالنسبة للبعض، وتعبنا من كثرة الكلام والتحليلات.. فآثرنا العودة إلى ما كنا فيه قبل حركة الإفراج المحدودة التى مرت بسرعة..

وجاء أبى متلهفًا لزيارتى وليسألنى عن مصيرى، قلت باسمًا: ما المسئول بأعلم من السائل، وقد وعد خالى اللواء منذ شهور بأننى سأكون من أوائل المفرج عنهم بإذن الله، ولكن وعده لم يتحقق، وبان الضيق والغضب على وجه أبى الذى ازدادت تجاعيد وجهه عمقًا وعددًا، ولم يعلق بكلمة، كنت أقرأ كل ما يريد قوله على وجهه الطيب وعينيه الحائرتين.

وخرجت ذات يوم إلى القصر العينى لمتابعة العلاج بقسم العظام، وفى هذا اليوم جاء لأول مرة جدى محمود وهو عم والدتى، وكان رجلًا متقدمًا فى السن، كما جاء أبى أيضًا للزيارة ومعه أخى الصديق الأستاذ مصطفى عبد الحافظ. وكان طالبًا آنذاك فى كلية اللغة العربية، ويرتدى زيه الأزهرى المميز، وأثناء جلسة العلاج، وكانوا جميعًا يجلسون إلى جوارى قدم ضابط الحراسة وسألنى: « هل أنت فلان؟ ». قلت: « نعم »

قال: « أنت مطلوب للسجن حالًا »

ودق قلبى.. آه يا قلبى المعنّى!! دائمًا تعيش بين الخوف والرجاء، واليأس والأمل، مضطربًا هائمًا كطائر يعلو ويعلو حتى يعانق السحاب، ويهبط ويهبط حتى يصطدم بصلابة الأرض وقسوتها..

قال لى الضابط مسرعًا: « هيا حتى أوصلك ثم أعود لباقى إخوانك المسجونين ..»

وحينما أراد الضابط أن يعلق الأغلال « الكلبشات » على يدى كما هو متبع، انحشرت فيها قطعة من جلدى فانسكبت قطرات من دماء، تأوهت دون وعى، فقال الضابط فى ارتباك: « آسف.. يبدو أننى تعجلت.. هل تحتاج إلى ضماد؟ »

قلت: « لا داعى فالإصابة سطحية ..»

كنت شاردًا طوال الطريق، لم يكن يعلق ببصرى شىء من المشاهد العديدة التى تتوالى على مع أنى كنت أركب سيارة مكشوفة ويجلس إلى جوارى شرطى حراسة واحد، يبدو على وجهه أن الأمر لا يعنيه فى شىء.

تطلعت إلى باب السجن من بعيد، كان يقف أمامه ضابط طويل القامة، كبير المقام، وما إن

اقتربت حتى تبينت أنه القائمقام إبراهيم عزت ، وعندما رآنى ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة ، فوثبت من فوق السيارة ، فإذا به يستقبلنى فاتحًا ذراعيه ويقول: « مبروك يا بنى.. لقد صدر أمر بالإفراج عنك ..» احتضننى الرجل الطيب ، ذو الوجه الأبيض ، والابتسامة الحلوة ، والشيب الوقور ، وطبع قبلته الأبوية على جبينى ، لقد امتلأت عيناى بالدموع ، وعجزت تمامًا عن النطق ، كنت أتحرك كالآلة ، أخذنى نائب المدير إلى مكتب المدير ، حيث يتواجد معظم الضباط ، وتسابقوا فى تقديم التحية إلى ، وكان المدير يقف على مقربة من مكتبه ، ولاحظت وجود رجل غريب يرتدى الزى المدنى يجلس مكان المدير ، وكان يشهد الترحيب والتهانى بكثير من الاهتمام ، قلت فى نفسى لعله ضيف طارئ ، ولم أركز كثيرًا على ملامح وجهه ، ودهشت إذ سمعت هذا الضيف يقول مبتسمًا: « ما دمتم تحبونه هذا الحب الشديد ، فسوف نبقيه معكم ولا داعى إذن للإفراج عنه ..»... وضحكوا.. وشاركتهم الضحك.. ونظرت إلى وجه الرجل الضيف.. من هو؟ لقد رأيت هذا الوجه من قبل.. أين؟ أين؟ ولم تطل حيرتى فقد قال المدير: « أحمد بك صالح داود ...»

وانتبهت تمامًا.. إنه هو.. الرجل الذى كان له دور كبير فى عنف التحقيقات التى جرت فى السجن الحربى ، كان اسمه يبعث الرعب فى النفوس ، ها هو يجلس أمامى مبتسمًا هادئًا وكأن لم يحدث شىء.. وتمالكت أعصابى قال: « هل تعرفني؟ »

– « بالطبع ...»

– « لم تنس بعد ..»

لم تكن حالتى النفسية تسمح بالبحث وراء الكلمات التى يتفوه بها ، ولا النظرات الثاقبة التى يسددها إلى ، وعاد يقول وهو يعبث بشىء فى يده لا أذكر ما هو: « البلد ليست بلد جمال عبد الناصر وحده.. ولكنها بلدكم أيضًا ..»

كنت أقف « انتباه » كأحد العساكر الجدد فى معسكر للتدريب ، ورددت باقتضاب: « نعم ..»

فاستطرد: « والرئيس لا يحب أن يحبس أو يعتقل الكفاءات الممتازة ..»

– « نعم »

– « ولهذا أمر بالإفراج عنك ..»

– « متشكر يا فندم ..»

– « ويجب أن تنسى ما مضى ، وتبدأ حياة جديدة.. أنت لم تخسر الكثير ، بل استفدت خبرات ودروسًا ..» . وأضاف وهو يبتسم: « وجوائز أدبية ضخمة.. وأصبح لك اسم معروف فى عالم الأدب.. ولقد كان ملفك بين يدى خلال الأيام الماضية.. وكل السجون التى عشت فيها تشهد لك بحسن الخلق ..»

واختتم حديثه بقوله: « وأنا مكلف بأن أحل لك أى مشكلة تعترضك فى الخارج.. لكن لا تنس أنك ستخرج إفراجًا صحيًا.. أتعرف معنى الإفراج الصحي؟ معناه أن نعيدك إلى السجن إذا ما صدر منك أى تصرف خاطىء ، بحجة أن صحتك قد تحسنت.. وهكذا ستظل معلقًا بكلمة منا.. تذكر أنه ليس عفوًا شاملًا ، ولكنه إفراج صحى ..». وأعطونى إذنًا بالانصراف..

خرجت من مكتب المدير ، وخطواتى مرتبكة ، والعرق يسيل على وجهى رغم أننا فى الثلث الأخير من شهر نوفمبر ، وفى فناء السجن لحق بى الضابط سمير قلادة الصديق المخلص وقال: « أنا كنت أول من قدم البشرى لوالدك.. إنه – وعدد من أهلك – بباب السجن ، وقد سألنى عما يجرى ،

وأخبرته أنه سيتم الإفراج عنك فى خلال يومين أو ثلاثة ، وأخبرته أن يحضر لك بدلة وحذاء والذى منه ..». كان سعيدًا جدًا لنبأ الإفراج عنى ، وأخذ على عهدًا أن أقبل دعوته لتناول الغداء فى منزل أسرته بمصر الجديدة بعد خروجى ، فرحبت على الفور ، وصحبنى حتى باب العنبر ، كان السجناء غير السياسيين يلتقون فى الطريق ، ويقدمون التهانى ، وعندما صعدت إلى الطابق الثانى بعنبر « ج » تزاحم الإخوان من حولى مهنيئن ، ولم أستطع كبح مشاعرى فانهمرت من عينى الدموع..

قال أحد الإخوة: « لماذا البكاء؟ »

- « كنت أتمنى أن نخرج جميعًا ..»

- « أنت اليوم.. وغدًا غيرك.. كلها آجال ..»

جلست فى غرفتى صامتًا استعيد ما تشتت من مشاعرى وأفكارى ، وأطل السجان الأسمر بوجهه الباسم على من الباب قائلا: « لا تنس الحلاوة.. نحن حلاوتنا كبيرة جدًا.. أكلنا معك عيش السجن.. أم أنك لن تهتم بنا عندما تلبس الملابس المدنية وتصير دكتورًا؟ »

- « من عينى يا شاويش محمد »

وعلمت أن أربعة من الإخوة سيخرجون معى فى نفس اللحظة وهم سمير فهمى الغندور طالب الطب البيطرى ابن الأميرالاى فهمى الغندور المفتش العام بوزارة الداخلية ، وعبد الرحمن شفيق الطالب بكلية العلوم ابن العلامة المتخصص فى اللغة والأدب وشارح بعض الدواوين الشعرية الهامة ، والأخ عبد الوهاب السقا ، وأخ رابع لا أتذكره الآن...

فى اليوم التالى قدمت إلى السجن « لجنة طبية » مشكلة من عدد من الأطباء لفحصنا طبيًا ، وتقرير الإفراج الصحى ، وكان الموضوع مجرد إجراء شكلى ليس إلا ، وجلست أمام اللجنة ، وأخذوا يوجهون إلى بعض الأسئلة وهم يكتبون دون أن ينتظروا إجاباتى ، أخبرتهم أنى مصاب بالتهاب عظمى مفصلى فى الركبتين ، وبواسير نازفة ، وضعف فى كفاءة الكبد وغير ذلك من الأعراض أو العلامات التى كنت أعانى منها فعلًا... وفى نفس اليوم جاء أبى لزيارتى ، ومعه بدلة جديدة وملابس داخلية وحذاء ، وكانت السعادة تغمر وجهه الطيب ، وقال جدى العجوز محمود: « لقد تصادف الإفراج عنك فى أول زيارة أزورك فيها.. وهذا من فضل الله ..»

وفى اليوم الثالث بقى أبى منذ الصباح أمام السجن ، كان يصلى ويأكل وهو جالس على مقهى شعبى صغير مقابل السجن العتيد ، وكان سمير قلادة يذهب من وقت لآخر إليه ليجامله ببعض القهوة أو الشاى.

حانت لحظة الخروج مساءً بعد صلاة العشاء ، وودعت أعز الأحباب داخل السجن وأنا أبكى من جديد ، كنت أشعر أن فرحتى ناقصة ، وأننى لن أستطيع مهما فعلت أن أمحو صورة هؤلاء الأحباب - بأرديتهم الزرقاء ووجوههم النحيلة الشاحبة داخل الزنازين- من ذاكرتى ، لقد ترسخت مشاهد السجن فى روحى وعقلى ، حتى إننى بعد ذلك لا أكاد أكتب رواية إلا وفيها شىء من ذلك إلا النادر. عندما خطوت إلى الخارج ، كان هناك حشد كبير من الرجال والنسوة والأطفال ، وانطلقت الزغاريد ، وامتدت الأيدى ، واختلطت الكلمات ، لم أكن أستطيع أن أفرق بين أهلى وغيرهم من أهالى الإخوان الآخرين.. وبحثت عن أبى ، وأشاروا إلى مكان قريب.. كان يفترش عباءته الصوفية ، ويصلى لله شكرًا.. كانت عمامته البيضاء تشع فى الضوء الخافت ، وجبهته ساجدة على أرض الله ، وانتظرنا لحظات حتى انتهى أبى من صلاته ، ثم قدم نحوى ، واحتضننى بيدين واهنتين ، وكان التعبير عن فرحته

بالدموع التى تسيل صامتة على وجهه المغضن.. إننى أبكى الآن وأنا أسجل هذه الكلمات.... و...

واقتضت الرسميات أن توضع الأغلال فى أيدينا ، لكى ننتقل إلى وزارة الداخلية ، ودخل موكب السيارات إلى الساحة الكبيرة ، وصحبنا الضابط إلى المكاتب الداخلية ، كان أحمد بك صالح داود يجلس فى مكتبه الصامد وأمامه عدد من التعهدات التى يجب أن أوقع عليها ، وهذه التعهدات تشمل عدم الاشتغال بالسياسة حيث إننا معزولون سياسيًا ، وعدم الاتصال بأعضاء الإخوان المسلمين الذى سبق اعتقالهم أو سجنهم أو قيامهم بأنشطة قديمة ، وضرورة إبلاغ المباحث العامة عن أى سفر من مقر الإقامة أو إليها قبل أن يبدأ السفر بوقت كاف ، وعدم تغيير السكن أو عنوان العمل إلا بعد الاتصال بمكتب المباحث المختص.. وخرجنا من المباحث العامة بميدان « لاظوغلى ».. شعرت أننى أتنفس هواء جديدًا لأول مرة.. الهواء هو الهواء.. لكن هكذا خيل إلى.. وذهبنا إلى بيت خالى الأستاذ عبد الرافع الشافعى بمصر الجديدة حيث احتشد الأهل والأقارب والمعارف الموجودين فى القاهرة والقادمون من القرية.. وبعد التهانى والتبريكات وقف خالى ، رحمه الله ، وسمى بسم الله ، وأثنى على ثم قال: « نحن لا نحتفل بخروجك من السجن ، ولكننا نحتفل بتخرجك من جامعة.. وسوف تكون السنوات التى قضيتها داخل الأسوار وأنت تعانى وتتألم ستكون مصدرًا لعطاء وفير ، وخبرات فذة ، وستؤثر على أفكارك ومسيرتك فى الحياة أعمق تأثير.. وسيكون ذلك كله خيرًا إن شاء الله.. وأنت ضربت أروع المثل فى صبرك ، وفى محاولاتك العديدة للتغلب على الصعاب والعقبات ..»

هذا بعض ما تذكرته من كلماته المؤثرة ، ثم مدت الموائد ، وتناولنا طعام العشاء ، وبعد انقضاء السهرة كان على أن أذهب لأنام ، فغدا أمامنا سفر ليس بالقصير على قريتنا التى تبعد عن القاهرة أكثر من تسعين كيلو مترًا.. لكننى تسللت فى نفس الليلة مع أحد أقربائى وزرت العالم الوقور الجليل الشيخ محمود شاهين والد زوجتى فيما بعد.

فى اليوم التالى وصلنا إلى القرية بعد العصر أو قبيل المغرب بقليل ، وعند القنطرة الغربية التى تؤدى إلى داخل قريتنا شرشابه رأيت حشدًا هائلًا من أهل البلدة.. كانت السيارات تشق طريقها بصعوبة.. إنه مشهد لم أره طول حياتى بعد ذلك.. لم أكن زعيمًا من الزعماء ، ولا عضوًا فى البرلمان ، ولا حتى موظفًا ذا شأن.. مجرد طالب فى كلية الطب.. وابن رجل فقير يشتغل بالزراعة.. وتلك هى القرية.. حب.. وتلاحم ، إخلاص ووفاء ، فطرة صادقة ترفض الظلم ، وعندما يدخل الفرح بيتًا تفرح القرية كلها ، وعندما يلامس الحزن قلوب أسرة من الأسر ، تحزن القرية كلها.. الهتافات تشق عنان السماء.. وزغاريد النسوة تملأ سماء القرية.. عندها عاهدت الله بينى وبين نفسى أن أعيش خادمًا لهذه القرية الأمينة الآمنة ، وعندما تخرجت طبيبًا فيما بعد قررت أن يكون عملى فى هذه القرية ، وأن أقدم خدماتى دون مقابل ليلًا ونهارًا.. مما أرهقنى وأرهق الذين أتوا للعمل كأطباء بعدى ، وقد سجلت بعضًا من ذلك فى رواية « الذين يحترقون ». وقد أعدّت الوالدة رحمها الله مجموعة من الأغانى الشعبية بهذه المناسبة ، وكانت الفلاحات يرددنها وهن يطفن شوارع القرية فى تلك الليلة المشهودة ، على الرغم من وجود عدد كبير من الشرطة السرية فيها..

كان خروجى بالنسبة لأهل القرية يعتبر أمرًا غريبًا غاية الغرابة ، فلم يحدث فى تاريخها قط أن خرج سجين دون أن يكمل المدة القانونية للسجن ، وهم فى تلك الأيام لا يعرفون الفرق بين السجين السياسى وغير السياسى ، ولهذا نظروا إلى خروجى نظرتهم إلى شىء غير مألوف.. وأرجعوه فى النهاية إلى لطف الله وقدرته وعظمته..

وبقيت حتى منتصف الليل واقفًا على قدمى أستقبل الفلاحين فى « الدوار الكبير » وكل واحد يصر على معانقتى وتقبيلى حتى تسلخت أجزاء من بشرة وجهى ، لكننى كنت سعيدًا بهذا الحب الذى لا يقدر بذهب الدنيا كلها ، وفى اليوم التالى قدم أهالى القرى المجاورة كفر السنادية ، كفر حسين ، ميت المخلص ، كفر الجزيرة ، ميت ميمون ، شنراق ، السنطة ، سنباط وكفر العرب.. وبقيت على هذا الحال أسبوعًا. وبعد عشرة أيام تقريبًا أخبرت أبى بأنى لابد أن أعود للقاهرة كى أستكمل دراستى فى كلية الطب القصر العينى ، وأواصل المسيرة من جديد ، فدعا لى بالتوفيق ، وأشار على بأن أذهب إلى عمى عبد الفتاح كى يدبر لى مسكنًا ، لأن المدينة الجامعية لن تقبلنى مقيمًا بها بعد ما حدث ، وأوصانى - رحمه الله - بأن أتفرغ للدراسة تفرغًا تامًا ، حتى أعوض السنوات التى قضيتها داخل السجن ، وهكذا عدت إلى القاهرة ، بعد أن أبلغت « مباحث طنطا » بأننى سأسافر حسب التعهد المأخوذ علينا..

حينما وصلت إلى مبنى الكلية ، تدفق الحنين القديم إلى قلبى ، لقد أصبحت جزءًا من كيانى وحياتى وتاريخى ، وتذكرت المؤامرات السياسية الصاخبة ، وأيام النضال ضد الملك والإنجليز ، ثم الصراع مع الثورة من أجل الحريات ، وصحف الحائط التى كانت تلتهب بالمقالات العنيفة ، والشعر الثائر.. لكن الكلية تبدو اليوم هادئة كالشيخ الوقور الذى يحمل على كاهله عبء السنين الثقال..

ودخلت مكتب المسجل « كامل افندى » ، نظر إلى طويلا وقال: « أنت ... »

- « نعم أنا هو... وهذه هى وثائق الإفراج الصحى ... »

أشرق وجهه بالفرحة ونهض من فوق مقعده ، وصافحنى بحرارة قائلًا: « ألف مبروك ». وقدم لى الشاى ، ثم أخرج سجلاته القديمة ، وأطال فيها النظر ، وظل صامتًا بعض الوقت ، فمددت رأسى بالقرب من السجل.. كان اسمى مكتوبًا ، لكن مشطوب بالقلم الأحمر ، وفى خانة الملاحظات قرأت: « فُصل لأسباب سياسية »

قال الرجل بألم: « تعرف أنها أوامر ... »

- « والحل يا كامل أفندي؟ . »

- « الحل فى وزارة الداخلية .. »

قابلنى المرحوم الأستاذ إبراهيم نوار رئيس تحرير جريدة الجمهورية وعرض على وظيفة كبيرة بدار التحرير مقابل مرتب مجزٍ ، فقلت دون تردد: « أنا لا أفكر إلا فى شىء واحد وهو العودة إلى الكلية ... »

ذهبت إلى خالى ضابط الشرطة الكبير وعرضت عليه الأمر ، وبعد بضعة أيام أخبرنى أن إعادة قيدى أمر مقرر ، لكنه يستغرق بعض الوقت ، وسوف يصدر أمر للكلية بالسماح لك بالحضور حتى تنتهى الإجراءات..

دخلت أحد أقسام الجراحة كالغريب.. لم أجد أحدًا من الوجوه القديمة ، لقد تخرجوا وأصبحوا أطباء ، وتحلق الطلبة حول أحد المرضى ، ثم جاء الأستاذ ليناقش الحالة.. الكلمات التى أسمعها من الأستاذ تبدو كطلاسم.. لقد أنستنى هموم السجن ولياليه الطويلة معظم ما تعلمته.. لا بأس.. فلأعتصم بالصبر.. وبالإرادة.. ولأبدأ من جديد.. وعلى بركة الله.

دبى فى ٢٩ ربيع الأول ١٤٠٧هـ

١١-١٢-١٩٨٧م

الدكتور نجيب الكيلانى

❁❁❁

# الجزء الرابع



## [١] حياة جديدة

كنت بعد أن صدر أمر الإفراج عنى كالمبهور ، فحياة السجن شديدة الاختلاف عن خارجه رغم ما فى الحياة من منغصات وأعباء ومسئوليات ، وكان يسيطر على ذهنى وأنا أخطو خطواتى الأولى فى حياتى الجديدة عدة أمور هامة منها العودة إلى كلية الطب جامعة القاهرة (القصر العيني) بعد أن فصلونى منها ، وهناك أيضًا المضى قدمًا فى مجال الأدب وخاصة القصة والشعر والدراسات التى تبلور أفكارى وآرائى فى الحياة ، ثم هناك قضية الزواج التى يجب أن تحسم فى أسرع وقت ، فقد بلغت مرحلة من العمر تقتضى أن أكوّن أسرة تحقق لى ما أصبو إليه من استقرار وسعادة على الرغم من أنى لم أتخرج من الكلية بعد ، هذا ولا أستطيع أن أنسى القيود السياسية المفروضة على ولباقة التعامل معها بشىء من الحكمة والكياسة وإلا تعرضت لمتاعب كثيرة . أهمها أن يعيدونى إلى السجن مرة أخرى . كما كان على أن أدبر حياتى المعيشية واعتمد على الله وعلى جهودى الخاصة فى توفير الدخل الذى يكفل لى حياة مناسبة ، ويكفى ما تكبده أبى - رحمه الله - من نفقات وآلام نفسية طوال فترة سجنى ، فضلًا عن أنه يتحمل مسئولية باقى أفراد الأسرة .

أشاروا عليّ أن أذهب إلى الإسكندرية ، ونحن فى بداية فصل الشتاء . لقضاء فترة استجمام لدى خالى الأستاذ عبد المالك الشافعي ، ولم أمانع ، كانت الإسكندرية فى هذا الوقت هادئة جيدة الطقس الذى يميل إلى البرودة ، وكان الأقارب يذهبون إلى أعمالهم فى الصباح ويتركوننى ، فأخرج إلى شوارع المدينة وشواطئها وحدى ، مستخدمًا الترام فى تنقلاتى ، أتطلع صامتًا إلى المبانى والناس فى الشوارع ، وكأنى استطلع عالمًا جديدًا غريبًا عنى ، يشدنى إليه ما فيه من بساطة وسلاسة ، كما كنت حريصًا على قراءة الصحف والمجلات التى حرمت منها طويلًا بشغف وتعمق ، وتبين لى من خلال قراءاتى ومشاهداتى أن الدنيا تغيرت كثيرًا خلال الأعوام القليلة التى قضيتها سجينًا ، كما لاحظت أن الإسكندرية على الرغم من جمالها قد أصبحت أقل مستوى ونظافة وجمالًا بالمقارنة إلى حالها قبيل الثورة المصرية ، كما بدا الناس أكثر عزوفًا عن الحديث فى السياسة وأحوالها اللهم إلا فى المؤسسات الحكومية التى تتبع التنظيم السياسى للحكومة وهو التنظيم الوحيد المسموح به ، لكن الإنسان لا يعدم أن يجد هنا أو هناك فردًا أو أفرادًا يبكون جمال الزمان الغابر ، وينحون باللائمة على الثورة وأيامها القائمة فى صوت خافت ، وتوجس بيّن ، وأصبحت الشعارات تملأ الشوارع والصحف وأجهزة الإعلام ، وبدا أن الفن والأدب أصبحا يخضعان للسلطة وتوجيهاتها ، وغدت خطب الرئيس مادة رئيسية فى برامج

الإذاعة التى تعيد إذاعتها مرارًا وتكرارًا ، ولم يعد لرجل الشارع المصرى مجال للتنفيس عن آرائه الحقيقية سوى « النكتة » حتى جاء اليوم الذى أصبح جهاز الأمن فيه يتابع ما يتردد من « نكت » ، وكثيرًا ما يسوق قائليها إلى التحقيق والحبس ، وكانت النكتة بمضمونها تضارع مقالًا كاملًا يحتل مساحة كبيرة من الصحيفة أو المجلة ، أما « النكت » الرسمية فى صحافة الحكومة فكثيرًا ما كانت تتضمن هجومًا على أعداء الثورة والرجعية والاستعمار ، أو تروج لسياسة الحكومة ومشاريعها ، وكان على أن أكون حذرًا جدًا إزاء هذه الصور الخفية للمعارضة .

وقبل سفرى إلى الإسكندرية كان على أن أذهب إلى أحد رجال الأمن المسئولين لأستأذن منه فى السفر ، وأسجل العنوان الذى سوف أذهب إليه ، كما كان على أن أذهب عقب وصولى إلى الإسكندرية . إلى المباحث العامة هناك لأخطرهم بمجيئى والفترة التى سأقضيها فى الاستجمام . وفعلًا ذهبت فى اليوم التالى إلى مقر المباحث بناءً على موعد حددوه لى ، وقضيت بعض الوقت فى أمور روتينية ، وأسئلة عن شعورى بعد الإفراج ، وخطواتى المقبلة ، والمدة التى سأقضيها فى الإسكندرية وما إلى ذلك .

وقد لاحظ عليّ الأقرباء أننى أطيل الصمت ، وأكثر من الشرود ، ولا أشارك فى المناقشات العادية أثناء السهر بالقدر الكافى ، بل إنى علمت فيما بعد أنهم لهذا السبب كانوا معتقدين أن السجن قد أثر فى تفكيرى وسلوكى وعقلى ، ويبدو حقيقة أننى كنت أعانى من قيود ومحاذير وهمية ، ترسبت فى أعماقى أثناء السجن ، ولم أستطع أن أتخلص منها بسرعة ، وخاصة أننى قضيت عامى الأخير فى السجن - كما سبق وقلت - فى الحبس الانفرادى ، مستغرقًا فى كتاباتى وقراءاتى ، ولم يكن معى بالزنزانة من يشغلنى عن ذلك ، فضلًا عن الحرص المبالغ فيه الذى التزمت به بعد الأهوال التى رأيناها .

وأخيرًا عدت إلى قريتى (شرشابة » وقضيت بضعة أيام مع الأهل ، ثم عزمت على الرحيل إلى القاهرة لاستئناف دراستى وأعمالى هناك . وكانت أمى رحمها الله متشبثة بى ، وتقول : « لم أشبع منك بعد » ، كما كانت زوجة جدى العجوز التى أصيبت بالشلل متمسكة ببقائى بحجة أنها قد تلقى الله فى أى وقت ، وقد لا ترانى مرة أخرى ، أما أبى فقد قال : « مصلحتك أهم ، سافر على بركة الله » كانت القاهرة . رغم ما عانيته من أهوال . لها مذاقها الشهى ، القاهرة بكل ما فيها من علم وثقافة وأجواء روحية خلابة وذكريات حلوة ، وآمال كبيرة ، ولم أكن أستطيع العيش وحدى فى هذه الفترة ، ولهذا آثرت أن أسكن مع شقيقتى وزوجها المرحوم محمد السعدنى الذى كان يعمل مدربًا فى الحرس الوطنى ، واتخذنا مسكنًا مشتركًا فى حى شبرا شارع « كنيسة الراهبات » ، وقد قاما على خدمتى خير قيام ، ولم أشعر معها بآلام الوحدة أو الغربة ، وعدت إلى الكلية طالبًا منتظمًا ، وبدأت فى مجموعة تدرس أمراض العيون على يد الأستاذ الشهير الدكتور « عبد المنعم لبيب » ، كان أستاذًا دقيقًا فى عمله ، ماهرًا فى علمه ، وكان يسجل الحاضرين بدقة ، ويشرك الطلبة فى الفحص والدراسة ، لكنى بقيت ملتزمًا الصمت فى الأسابيع الأولى ، لأن علومى القديمة . بمرور الزمن فى السجن لم يبق منها إلا القليل ، فكان عليّ أولًا أن أراجع ما مضى من تعليم فى المراحل السابقة ، ويبدو أن الأستاذ أدرك ذلك ، فقال لى ذات يوم وهو يسجل اسمى فى الحضور « إنك تعيش معنا كضيف ، لماذا لا تشارك فى المناقشة » وابتسمت دون أن أجيب ، فلم يكن المجال يسمح بشرح ظروفى ، لكنى حرصت فى قابل الأيام أن أقرأ الدرس قبل أن أذهب فى الصباح إلى الحلقة العلمية ، وهكذا بدأت فى الاشتراك فى المناقشات العلمية ، وذات يوم نشرت الأهرام فى صفحتها الأخيرة خبرًا عنى وصورة تحت عنوان

« طالب طب يكتب بحثًا عن فيلسوف » . وفى هذا اليوم كان الأستاذ يسجل أسماءنا كالعادة ، وعندما جاء دورى قال : « أهو أنت ؟ » ونظر نحوى بشىء من المودّة والتقدير ، وفى فترة دراسة العيون أيضًا ، كنت أهرول ذات مرة إلى الحلقة الدراسية . ووجدت زميلى السابق فى السجن الأستاذ يوسف هارون يعترض طريقى قائلًا : « هل قرأت الأهرام اليوم ؟ لقد أعلنت نتيجة مسابقة القصة القصيرة ونلت أنت الجائزة الأولى والميدالية الذهبية ، وستتسلم الجائزة من الرئيس » وكان يوسف هارون ما يزال على ذمة السجن ، وتحت العلاج ، وحوله الحراس .

والواقع أن هذه الأخبار السارة قد فتحت شهيتى لمزيد من الكتابة ، وأدخلت السرور إلى نفسى ، وجعلتنى أمضى فى طريقى بثقة وأمل ، كما جعلتنى معروفًا فى أوساط الطلبة وهم جيل غير جيلى الذى سبق وتخرج قبلى بأكثر من ثلاث سنوات .

ورعانى عدد من الأدباء وكبار الصحفيين للكتابة معهم ، وهذا شىء هام ، فما أقل ما يحدث ذلك عبر التزاحم الشديد لناشئة الأدباء فى ذلك الوقت على أبواب الصحف والمجلات والإذاعة ، الحقيقة أنى وجدت الطريق ممهدًا ، فوجدت الفرصة سانحة لاتخذ مكانى وسط شباب الأدباء حتى أصبحت أكثر شهرة من كثير من قدامى الكتّاب الذين هم فى سن أبى والحمد لله . ويبدو أن العناية الإلهية شاءت أن تعوضنى عما فاتنى من فرص أثناء سجنى ، كما كانت أُدعى لبعض الندوات فى الإذاعة ، ولبعض التحقيقات الصحفية ، بل إن الاستفتاء الذى أجرته مجلة آخر ساعة فى أواخر عام ١٩٥٨ على ما أذكر عن أشهر أدباء العام أسفر عن فوز الأستاذ توفيق الحكيم بالأغلبية العظمى ، لكن المجلة ذكرت فى عددها الصادر بهذا الخصوص أن بعض من اشتركوا فى الاستفتاء ذكروا اسمى .

لقد تركت العمل بالسياسة فى هذه الفترة ، لكن هل تركتها فعلًا ؟

لقد كنت « معزولًا سياسيًا بأمر السلطة ، أى لا يحق لى الاشتراك فى أى عمل سياسى أو الانضمام حتى لحزب الحكومة ، وقد كنت مرتاحًا جدًا لذلك ، إذ يصعب على نفسى أن أصفق وأهلل لأولئك الذين أذاقونى وأذاقوا إخوانى الأهوال ، ومع ذلك فقد كنت فى قرارة نفسى أجدنى مقتنعًا وملتزمًا بالنهج الإسلامى ، ولم يقف الأمر عند هذا الاقتناع الداخلى ، بل تعداه إلى كتاباتى المتنوعة ، فلم يكن غريبًا فى ذلك الوقت أن أفكر فى خط حديث لأدبنا المعاصر ، وهو « الأدب الإسلامى » وأصدرت فى ذلك الموضوع أول دراسة لى بهذا الخصوص تحت عنوان « الإسلامية والمذاهب الأدبية » ونشرته فى دار النور بطرابلس ليبيا لدى الصديق الأخ محمد نشنوش ، ثم فكرت أيضًا فى الوحدة الإسلامية ، فى وقت كان الجميع يتحدثون فيه عن القومية العربية وأصدرت فى نفس دار النشر المذكورة كتابًا تحت عنوان « الطريق إلى اتحاد إسلامى » ، وقد صودر هذا الكتاب فى القاهرة ولم يسمح بتداوله ، وسبب لى العديد من المشاكل ، هذا بالإضافة إلى بعض القصص والمقالات فى الداخل والخارج ، وكنت أسأل نفسى من وقت لآخر : لماذا أجر نفسى إلى المشاكل التى لا يعلم إلا الله عواقبها؟ » ولكنى أدركت أننى أقدم على الموضوعات الإسلامية بحماسة بالغة ، ودون تقدير للعواقب ، وكأن هناك قوة خفية تدفعنى دفعًا إلى ذلك .. فأقول إنها إرادة الله .. وأقول قد يثاب المؤمن رغم أنفه ، وكثيرًا ما كنت ألجأ إلى كتابة القصة التاريخية (قصيرة أو طويلة) وأودعها ما أؤمن به من أفكار وآراء ، وكان أحد أصدقائى يقول لى : « لن تتغيروا .. يموت الزمّار وأصبعه يلعب » كناية عن التشبث بالمبادئ التى تربينا عليها .

ولقد كان من الأمور المحرمة علينا أن نلتقى بأحد من الإخوان المسلمين القدامى أو نجالسهم

أو نتزاور معهم ، وهذه من الناحية العملية قضية شاقة وشائكة ، لأن معظم صداقاتى كانت معهم ، وتعاملى فى شتى أنحاء الحياة كان معهم ، وخاصة ما يتعلق بالمصالح والبيع والشراء ، انطلاقًا من الثقة والمحبة التى تجمع بيننا ، لم يكن الأمر سهلًا فى الحقيقة بالنسبة لى ، فأنا أريد ناشرًا لكتبى الجديدة ممن تتحقق فيهم صفة « الإسلامية » فهم أحرص على حقوقى ، وأسرع فى تنفيذ رغباتى ، ولقد نشرت كتابى الأول « الطريق الطويل » لدى مكتبة مصر (السحار) وهى دار محايدة ، وكان للمرحوم سيد قطب ولنجيب محفوظ علاقات وطيدة بهم ، ونشرت كتابى الثانى فى الشركة العربية للطباعة والنشر ، وصاحبها لبنانى اسمه حسن إيرانى وكتابًا ثالث فى دار القلم لصاحبها محمد المعلم ، ولم أتوجه إلى دار إسلامية إلا فى وقت متأخر نوعًا ، فنشرت فى دار العروبة (التراث حاليًا) وصاحبها إسماعيل عبيد ، ومكتبة وهبة وصاحبها الحاج وهبة ، ثم نشرت فى دار النور (ليبيا) كما سبق وأشرت ، وكان المكان الأثير الذى أجلس فيه كثيرًا فى أيام الخميس هو مكتبة العروبة (التراث) فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقًا) وبمحض الصدفة علمت أن أحد رجال الأمن السريين يتابعنى فيها ، فقد سقطت مفكرة ذلك الرجل (المخبر) فى منزل أخى وصديقى الفنان الرسام على عثمان ، فالتقطها خفية ، وأخذ يقرأ ما فيها ، فعثر على تقارير عنى ، وعن تحركاتى من بينها زياراتى المتكررة للمكتبة ، ولقد كان لذلك علاقة فى حادثة وقعت بعد ذلك ، فقد أمسكت الحكومة بمنشور يوزع سرًا بعنوان « فرعون مصر الصغير » ، وكان المنشور يهاجم عبد الناصر وسياسته ، وينحى باللائمة عليه فى تعامله الجائر وقوته البالغة على جماعة الإخوان المسلمين ، وظن رجال الأمن أن الذى يروج لهذا المنشور هو صديقى المرحوم أسعد سيد أحمد الذى يعمل بمكتبة دار العروبة ، كما توهموا أن كاتب المنشور هو أنا .. لكنهم لم يكونوا متأكدين من هذه المعلومات ، ومع ذلك فقد قبض على الأخ أسعد سيد أحمد وأرسل إلى معتقل القناطر الخيرية للتحقيق ، أما أنا فظل رجال الأمن يطاردوننى فى مقر عملى حيث كنت حينذاك « طبيب امتياز » بمستشفى « أم المصريين » بالجيزة (١٩٦١) ، وكانوا يجالسوننى ويناقشوننى فى سكن الأطباء ، حتى إنى هرعت إلى خالى اللواء محمود الشافعى وهو ضابط كبير بالداخلية ، فشرحت له شكواى من المخبرين . فطمأننى ، ثم جاءنى أحد زملائى فى العمل وهو الدكتور إبراهيم عبد الله ، وقال لى أنه قدم شهادة طيبة لصالحى حيث إن أحد المخبرين من أقربائه ، ونصحنى بالحيطة والحذر ، وعدم الالتقاء بالإخوان القدامى لأنى تحت المراقبة الدائمة ، وكانت الدهشة تبدو على وجهى . وأنا أستمع إليه ، فإن آخر ما كنت أفكر فيه أن يستغلوا زملائى المحترمين فى جمع المعلومات عنى ، وأحد المخبرين قال لى : « أنصحك أن تبعد عن ابن ال .. الملعون أحمد سيد أحمد ، لأنه سيسبب لك المشاكل » ولم أستطع أن أجيب إلا بكلمات قليلة مؤداها أننى لا ألتقى به إلا فى إطار المصالح فهو يشارك فى نشر بعض كتبى ، ويقوم بالترويج لها وتوزيعها ، ثم آخذ حسابى وأنصرف ، وليس فى علاقتى به غير ذلك ..

واستطاع أسعد سيد أحمد أن يقنع المحققين بأن هذا المنشور لم يطبع فى مصر . وأنه مهرب من الخارج ، من لبنان على الأرجح ، واستشهد فى ذلك بطريقة الطباعة ووضع نقطتين تحت الياء فى كلمة « فى » ومثيلاتها ، وغير ذلك من الأمور الفنية الأخرى ، كما أكد لهم بالتالى ألّا صلة لى بهذا المنشور وأننى لم أكتب حرفًا واحدًا منه ، ومع ذلك لم يفرج عن أسعد سيد أحمد إلا بعد ثلاثة أشهر .

وقبل ذلك بفترة كنت أقطع الجسر الذى يفصل بين ميدان باب الحديد وشارع شبرا بالقاهرة ، متجهًا إلى منزلى سيرًا على الأقدام ، فلاحظت وجود شاب أسمر اللون يلاحقنى أينما ذهبت ، ويتوقف

إذا توقفت عند أحد المتاجر . وظل يقترب منى حيث واجهته قائلًا : « ماذا تريد ؟ » .

- « ألا تعرفنى ؟ » .

قالها فى شىء من السخرية ، ولما أخبرته أننى لم يسبق لى التعرف عليه أفصح عن هويته قائلًا : « أنا من المباحث العامة ، فى مكتب محيى الدين بك شفيق » أصابنى شىء من الضيق ، لكنى تماسكت ، ومضيت فى طريقى وهو يسير إلى جوارى .

قال لى : « تعلم أن كل حركاتك وسكناتك محسوبة » .

قلت : « أنا لا أفعل ما يمكن أن تؤاخذونى عليه » .

نظر إلى نظرة ذات معنى وقال : « إنّك خرجت من السجن بدون ثمن » .

لم أفهم ، وأدرك هو ذلك فقال : « المفروض أن ترشد عن أية تحركات مشبوهة للإخوان » .

قلت على الفور : « لقد أخذتم عليّ إقرارًا ألا أتصل بأحد منهم » .

عاد ينظر إليّ بخبث ويقول : « نستطيع أن نعيدك إلى السجن فى أى وقت ، هل نسيت أننا أفرجنا عنك إفراجًا صحيًا ، وفى الإمكان إلغاء الإفراج بحجة أنك شفيت من المرض ، ثم تعود إلى السجن لتكمل باقى السنوات العشر المحكوم بها عليك ؟ » .

لم يكن هناك جدوى من الحوار معه فى هذا الموضوع ، فهو يعلم جيدًا من ملفى لديه أننى لم ولن أكون أداة طيعة لخدمة أهدافهم الخبيثة ، ربما يكون لى بعض الأفكار الخاصة بى فى هذه القضية أو تلك ، لكنها لا تتداول إلا مع إخوانى ، فاختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، وهو درس تعلمناه من رسولنا الكريم ﷺ ، ومن صحابته الأجلاء ، لكن لا دخل للحكومة فى مثل هذه الأمور ، والغريب أن بعض إخواننا كانوا ينظرون إلى الاختلاف فى الرأى على أنه مروق وخروج على النظام .. المهم أن رجل الأمن أخذ يلقى بالتهديد تلو التهديد وأنا فى حيرة من أمرى ، ولا أدرى ماذا أفعل له ، وعدت إلى بيتى مكتئبًا ضائق النفس ، إذ أدركت أن الحرية التى خيل إلى أنى حصلت عليها يشوبها الكثير من النقص والمنغصات ، وأن الحياة على هذا النحو ستكون شقية مقلقة ، وفى العادة كنت أبث همومى لخالى ضابط الشرطة الكبير ، فكان يطمئننى برقته المعهودة دون أن يفصح لى عما سيفعل ولم تكد تمضى على هذه المقابلة الحافلة بالتهديد ثلاثة أيام حتى استدعيت إلى المباحث العامة بوزارة الداخلية لمقابلة محيى بك شفيق الضابط المعروف هناك . ولم أكد أجلس أمام مكتبه على المقعد حتى انبعث صوت من خلفى يقول : « دكتور نجيب .. لقد رأيتك فى مسجد السيدة زينب » .

التفتت إليه فوجدته يقف أمام خزانة الملفات ، إنه الصول « سليمان » على ما أذكر ، وكان يرتدى زيًا مدنيًا ، فقلت : « وماذا فى ذلك ؟ » .

فرد فى صوت يتصنع الحنكة والدهاء والمعرفة : « فيها الكثير » ! لقد كنت تجتمع مع بعض الإخوان المسلمين المعروفين بمشاغباتهم » وفاجأنى صوت محيى بك وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه وقال : « دعه يا سليمان يفعل ما يشاء .. يبدو أنه نسى أنه على ذمة إفراج صحى وأننا نستطيع أن نعيده إلى زنزانة السجن فى أية لحظة » .

استبد بى الغضب والضيق ، لكنى كبتُّ مشاعرى ، إنهم يحاولون استدراجى لكى أقع فى الفخ بأسلوبهم الساذج ، وقلت لسليمان : « متى رأيتنى فى مسجد السيدة زينب ؟ » .

- « منذ أسبوعين » .

- « ماذا تقول إذا علمت أننى لم أدخل هذا المسجد منذ أكثر من ستة شهور » ثم التفت إلى

الضابط الكبير وقلت بثقة : « يا محيى بك ، أنا لست جاهلًا ولا ساذجًا ، وهذا الأسلوب لا يليق بى ، وليس فى حياتى شىء يعاب أو أحاسب عليه سياسيًا ..» .

فابتسم محيى بك وقال : « هل تضايقت ؟ لا .. لا .. نحن نمزح يا رجل .. احضر له الشاى يا سليمان » .

وذات يوم كنت فى مسكنى بشبرا ، وفوجئت بعدد من إخوانى جاءوا لزيارتى ، كان فيهم الأستاذ محمود هاشم (وشهرته حاتم) والأخ محمد نصار والأخ حسين عاشور (رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامى حاليًا) والأستاذ فوزى عبد المنعم وغيرهم ، وجلسنا نحتسى الشاى وقت العصر ، وانزلق بنا الحديث إلى الأحداث السياسية ، وفى هذا الوقت الدقيق دق جرس الباب ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت المخبر (رجل الأمن) يقف أمامى بلحمه ودمه .. يا للمصيبة ! ! ماذا أفعل الآن ؟ إن إخوانى لا يعرفونه ، وسوف يدخل ويستمع إليهم ، وبالطبع سيعتقدون أنه أحد أقربائى ، ووقعت فى حيرة قاتلة ، فأنا لا أستطيع أن أتركه هكذا واقفًا بالباب ، ولم يكن أمامى سوى حل واحد غامرت بالإقدام عليه ، لقد أدخلته عليهم فهبوا مصافحين ، وقبل أن ينزلقوا إلى ما كانوا فيه من أحاديث فى السياسة قلت بصوت عالٍ : « سوف أعرفكم ببعض .. هذا فلان .. وهذا فلان ..» وأخيرًا قلت : « وهذا فلان من المباحث العامة » ألقيت العبارة الأخيرة كالقنبلة .. المخبر أخذ يتصفح الوجوه بنظراته العميقة الكريهة ، أما الإخوة . وكانوا فى حدود ثمانية أفراد . ساد وجوههم القلق والشحوب ، فهذا المخبر يستطيع أن يسوقنا جميعًا إلى التحقيق ، ويفتح علينا بابًا من أبواب الكوارث التى تلاحقنا .

قال الأخ حاتم أبو بكر موسى (محمود هاشم) وهو يدعى الجهل : « ما معنى المباحث العامة » .

قاسه المخبر بنظراته النارية وقال : « صحيح ؟ ألا تعرف المباحث العامة ؟ والنبى إيه « يا رجل ..» وساد الصمت العاصف ، وحاولت جاهدًا أن أتقمص شخصية الرجل الذى يتصرف بتلقائية لا تثير أدنى شك ، وأخذت أفتح الحديث فى موضوعات شتى لا تمت إلى السياسة بصلة ، وطوال الجلسة كنت أرزح تحت عبء ثقيل ، وأنفاسى تتلاحق ، وبعد ساعة انصرف الجميع ، وجلست وحدى أجفف عرقى ، واستعيد هدوئى ، وأدعو الله ألا يكون لهذه الجلسة عاقبة سيئة .

ألم تكن الحياة على هذا النحو مريرة ؟ ألم يكن من الضرورى أن أفكر فى الأمر بطريقة أخرى ؟

❁❁❁

# [٢] دنيا الأدب والأدباء



قلت من قبل أننى ولجت باب الأدب عن طريق المسابقات والجوائز، وأصبح لى مكان فى هذا العالم العجيب الملىء بالشخصيات والأفكار والأحداث والتقلبات، ولقد ظهر كتابان لى وأنا سجين؛ الأول رواية «الطريق الطويل» والثانى «عذراء القرية»، وكانت الخطوة التالية أن أعايش هذه المجتمعات، واندمج فيها، لأن المؤلفات وحدها لا تكفى لربط الأديب بالمجتمع الأدبى، ثم إن المؤلفين لا يكتبون فى كتبهم ومقالاتهم كل شىء، فالكتابة مهما كان الأمر عمل له طقوس ومواصفات وآداب فنية واجتماعية وسياسية أيضًا، لكن حديث الأدباء فى المقاهى والمجالس له طبيعة خاصة، إذ يتخفف الكتاب من رسمياتهم ويبدون لحد ما على صورتهم الطبيعية وهم يتحدثون ويأكلون ويشربون ويتفكهون. ويلعبون الشطرنج أو النرد، ويوجهون النقد لهذا أو ذاك، فضلًا عن وجود عدد من الكتاب لم يكتب لهم الشيوع أو الذيوع بعد على الرغم من كفاءتهم ومستواهم الفنى الجيد ومجتمعات الأدباء ليست حرة أو سوية بصفة تامة، إذ لاحظت فيها بعض الأمور:

**أولًا**: نظام «الشّلل» أو التحزب، وأعنى به مجموعة مترابطة من الأدباء يجمعهم مذهب سياسى معين، قد يظهرونه وقد يخفونه، لكنه غالبًا ما يكون واضحًا بكثرة الحوار والمجالسة، هذه «الشلة» أو تلك لها أدباؤها ونقادها، وهم يشايعون كتابهم ويروجون لهم بالحق أو بالباطل، ويهاجمون من يخالفهم فى الرأى أو الفكر، وعلى الرغم من أن الكتاب من حزب الحكومة الناصرية كانوا أكثر من غيرهم إلا أنهم لم يكونوا فصيلًا واحدًا، فقد كان فيهم الماركسيون والوجوديون والكلاسيكيون، ولن تعدم أن تلمح تيارًا إسلاميًا خفيًا بين الحكوميين لكنهم يبذلون قدر ما يستطيعون من جهد لإخفاء هويتهم.

**ثانيًا**: الكتاب فى تلك الفترة يحذرون البوح بآرائهم السياسية مخافة القمع سواء فى أحاديثهم أو كتاباتهم، ونادرًا ما تسمع همسة نقد، أو نكتة جارحة لاذعة تتناول النظام، بل إن بين هؤلاء الكتاب بضعة أفراد مجندين لدى المباحث والمخابرات ينقلون إليهم أخطر الأحاديث فى تقارير دورية.

**ثالثًا**: ارتبطت أفكار معظم الكتاب وإبداعاتهم بسياسة الحكومة وشعاراتها، حتى أولئك الذين يكتبون إبداعات تاريخية، كانوا يوظفونها فيما يعنى التأكيد والتأييد لمبادئ الثورة وزعيمها، ومن وقت لآخر كنا نسمع عن أديب من هذا الاتجاه أو ذاك اختفى فجأة، ثم نعلم أنه قد سيق إلى المعتقل أو السجن بسبب مادة كتبها، أو بسبب انتمائه لإحدى التنظيمات السياسية الممنوعة كما يقال، وقد يطول اختفاؤه، وقد يظهر مرة أخرى دون أن يتحدث عما جرى له، وعند ظهوره نجده أكثر حرصًا، وأهدأ شخصية، يفضل الصمت على الكلام، ويهجر الكتابة، لكنه قد يعود إليها على هيئة كتابات رمزية قد يستعصى علينا حل رموزها.

**رابعًا** : أصبح الهجوم على الإسلام أسلوبًا سائدًا ، من خلال ربطه بالرجعية والجمود ، أو من خلال نسبة الإرهابيين والمتطرفين إليه ، وتراجع دور الأزهر وعلمائه ، ولم يبق على الساحة فى الغالب إلا نسبة ضئيلة من العلماء التزمت الحياد ، وتجنبت الموضوعات الحساسة ، لكن العلماء الأعلى صوتًا هم من كانوا يدافعون عن سياسة الحكومة ويبررون مواقفها وأفعالها .

**خامسًا** : استولى النقاد الماركسيون (الذين شاركوا فى إصدار بيان تأييد ومبايعة للثورة والتخلى عن شيوعيتهم) على الساحة الأدبية ، وعلى مناصب هامة فى الصحف والمجلات والمسرح والسينما والنقابات الفنية ، ولم ينج من شرهم إلا اتحاد الكتاب فى معظم انتخاباته .

**سادسًا** : كان الوجه الثقافى للوطن مشوهًا لكثرة ما وضع فوقه من « مكياج » أو مساحيق وعمليات تجميل (أو تقبيح إن صح التعبير) ، وانعكس ذلك كله على الجيل الجديد الذى أنشأت له الثورة منظمات خاصة ، تسقيه فيها مبادئها وشعاراتها . وأصبحت النماذج والمثل العالمية المستوردة تملأ الساحة ، فتقرأ الكثير عن « تشى جيفارا » و « هوشى منه » و « فيدال كسترو » ، و « ماوتس تونج » و« الشهيد لوممبا » ! ! ، ونادرًا ما تقرأ شيئًا عن قادة الفتح الإسلامى ، أو زعماء التنوير المسلمين ، بل إن حملات ضاربة شنت على كتاب معاصرين لهم وزنهم مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين وغيرهم . ومع ذلك فقد ظلت الآثار الأدبية التى سبقت الثورة المصرية زادًا للكثير من القراء ، كما كثر عدد طباعاتها ، بينما ركدت مطبوعات الحكومة فى مخازنها حتى أصبح عدم توزيعها مشكلة من المشاكل ، ولم يجد نفعًا عمليات الدعم والترويج التى دفعت الحكومة الكثير فى سبيلها لتوزيع تلك المطبوعات الرسمية .

**سابعًا** : كانت أدبيات تلك الأيام مكتظة بالتعبيرات الحاقدة ضد الماضى ورموزه وفكره وطبقاته الاجتماعية ، وكان هناك تسابق مجنون بين الكتاب لإدانة كل ما مضى لصالح العهد الثورى الجديد ، فتشوهت فى النفوس وحدة الوطن وأبنائه ، واتصال حاضره بماضيه ، وزادت مشاعر البغضاء والتفرقة .

**ثامنًا** : لم يصاحب هذه المفارقات الفكرية والمضمونية تجديدًا فى الأشكال الفنية أو الأساليب ، بل إن الأساليب الأدبية قد انحطت لغتها ، وكثرت الكتابة بالعامية فى حوارات القصص القصيرة والروايات والمسرحيات ، وكان للأدب الروسى عامة ، ولمذهب « الواقعية الاشتراكية » خاصة تأثير كبير فى قولبة الأشكال الفنية ، أو دمغها بالتقليد للنماذج المستوردة ، أذكر فى تلك الفترة أن أحد شباب الكتاب قد ترجم مجموعة من القصص البلغارية إلى اللغة العربية ، وألح على أن أكتب لها مقدمة بقلمى ، وقرأت المجموعة فوجدت أن قصصها لا ترقى إلى المستوى الفنى المناسب الذى يدفع إلى ترجمتها ، بل وجدت بعض القصص لا تصلح بالمرة لأن تندرج تحت « فن القصة القصيرة » فماذا أفعل فى هذا المأزق ؟ لقد كتبت المقدمة عن فن الترجمة ، وما يجب ترجمته وما لا يجب ، وضوابط الترجمة والهدف منها ، وأشرت إلى أن بعض قصص المجموعة التى تدور أحداثها فى مزرعة جماعية لا تخرج عن كونها « ريبورتاج صحفى » عن تلك المزارع ، وبعد أن صدرت المجموعة فى كتاب لاحظت أن المترجم قد حذف من المقدمة المقطع الخاص بالمزارع الجماعية ، لكن الأهم من ذلك أننا ونحن نناقش هذه المجموعة فى ندوة « الأستاذ نجيب محفوظ » فى ميدان الأوبرا كازينو بديعة) قال الأستاذ الأديب الناقد المرحوم عباس خضر بالحرف الواحد : « أهم ما فى هذه المجموعة القصصية المترجمة مقدمتها ...» .

**تاسعًا** : الكثرة الغالبة من الكتابات فى هذه الحقبة اتسمت « بالقلق الفكرى » وعدم وضوح الانتماء ، مضمون الحكومة العالى يروج لدعوى القومية العربية (حرية وحدة اشتراكية) ، ،هناك فئة أقل

تؤمن بالوطنية المصرية وتروج لها على استحياء ، أما أصحاب الاتجاه الإسلامى فكانوا يعيشون تحت حصار قاتل ، ورجالات الأحزاب القديمة لا يقلون حصارًا عن الإسلاميين ، والشيوعيون يلعبون على الحبلين ، فهم عقائديًا ضد القوميات ، لكنهم يسلكون سلوكًا غير ما يعتقدونه لتجنب شر الحكومة ، أو لأنهم آمنوا بفكرها ، أو لمجرد تكتيك مرحلى ، سرعان ما يغيرون جلودهم بعده عندما تحين الفرصة ، ولقد لوحظ فى خلال تلك الفترة العدوان على التاريخ حتى القريب منه ، وأخذ مؤرخو الثورة يكتبون التاريخ وفق مقتضيات الظروف الراهنة ، فيضيفون ويحللون ويحذفون ، ولا حسيب ولا رقيب ..

**عاشرًا** : انعدم المرجع الدائم ، وأصبحت المراجع التى يلجأ إليها المفكرون والأدباء مراجع متغيرة متناقضة ، وهكذا انطمست هوية الناس أو كادت ، ولم يبق سوى فئة قليلة من الكتاب والمفكرين حافظت على توازنها ، والتزمت بمنهجها ، فكان مصيرها الإهمال أو الطرد أو الملاحقة البوليسية .

لكن أى منتدى أو ندوة أو جمعية أدبية يمكننى أن أذهب إليها ؟ ! لم أقف طويلًا عند هذا التساؤل ، وقلت لنفسى لماذا لا أذهب إلى أكبر عدد ممكن من هذه التجمعات الأدبية لأعرفها عن كثب ، وأستفيد من إيجابياتها إن وجدت ، وأتحاشى سلبياتها عندما أدركها ؟

فى أحد أيام الجمع ، توكلت على الله ، وقلت لنفسى : « لأذهب إلى ندوة نجيب محفوظ التى يطلقون عليها « الحرافيش » » ، والحرافيش كلمة وردت فى تاريخ « الجبرتى » خير من أرخ للحملة الفرنسية على مصر ، والكلمة تعنى الطبقة الدنيا من الناس كالحرفيين والعمال وعامة الفقراء.

كانت الندوة تنعقد كل يوم جمعة ابتداءً من الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا ، فى مكان يطل على ميدان الأوبرا (ميدان إبراهيم باشا) وسط القاهرة ، وتقع الساحة التى نجلس فيها فى الدور الثالث ، وجدرانها من زجاج ، ولا يجلس فيها أحد غير أعضاء الندوة ، وكان هذا المكان يستغل فى المساء « لسمار الليالى » وأصحاب المزاج ، أما فى صباح الجمعة فيخلى المكان تمامًا ، ويكون أول الحاضرين إلى الندوة هو الأستاذ نجيب محفوظ وصديق له هو الأستاذ « هارفى » وهو محام مهذب لا أعرف له إنتاجًا أدبيًا ، وكثيرًا ما كان الأستاذُ على أحمد باكثير هو الآخر يأتى مبكرًا ، وهو ممن كانوا يواظبون على حضور هذه الندوة ، وهناك صداقة قديمة وطيدة تربط بينه وبين الأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ عبد الحميد جودة السحار والأستاذ المرحوم سيد قطب والأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، حيث كانوا يلتقون فى لجنة النشر للجامعيين وفى مكتبة مصر التى يمتلكها آل السحار بشارع الفجالة، والتى نشرت العديد من مؤلفات هؤلاء الكتاب ، وكان الأستاذ عبد الحميد السحار يأتى إلى الندوة هو الآخر ولكن بصورة غير منتظمة ، ومن الأدباء والصحافيين الذين رأيتهم فى هذه الندوة أيضًا : الأستاذ عباس خضر ، الأستاذ أحمد عباس صالح ، الأستاذ عبد الله الطوخى ، الأستاذ صالح مرسى ، الأستاذ فاروق منيب ، الأستاذة سناء جميل « الممثلة » ، الأستاذ صوفى عبد الله ، الأستاذ نظمى لوقا ، الأستاذ توفيق حنا وغيرهم ، كما كان يأتى إلى الندوة عدد من الكتاب العرب اللاجئين إلى مصر فى بعض الأوقات ، وبعض الزوار الأجانب من أوربا أو روسيا .

دخلت عليهم لأول مرة كانوا يتراصون حول طاولة مستطيلة طويلة ، على يسار الداخل تجد الأستاذ نجيب محفوظ جالسًا فى الطرف المجاور للنافذة ، ووجهه إليك ، وقبالته الأستاذ على أحمد باكثير الذى لا ترى سوى ظهره ، الحقيقة أننى دخلت وهم منهمكون فى المناقشة فلم أشأ أن أقطع عليهم الحديث ، فاخترت طاولة صغيرة مستديرة على مقربة منهم وجلست .. كنت أشعر بالخجل ، وأخذت أستمع إليهم ، وبعدما يقرب من نصف ساعة سمعت أحدهم يشير نحوى ويقول : « لماذا

لا يأتى الأخ ويجلس معنا ؟ » . ابتسمت فى ارتباك ونهضت مسرعًا ، ثم حييتهم وجلست إلى جوار المرحوم باكثير وأنا أعرف نفسى بهم ، وسرعان . حسبما أدركت . ما تذكروا حكايتى عن الجوائز والسجن وما إلى ذلك ، وضحك الأستاذ نجيب محفوظ ضحكته المشهورة وهو يقول « حمدًا لله على السلامة » ، وفهمت أنه يشير إلى خروجى من السجن ، وانتهزت الفرصة وقدمت إليه كتابين من مؤلفاتى هما « الطريق الطويل » ، و « إقبال الشاعر الثائر » فقبل الهدية شاكرًا ، ثم أخذ يبادلنى الحديث عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، ويبدو أنه كان مهتمًا به جدًا ، أما الأستاذ على باكثير فقد وضع يده على كتفى وشد عليه بحرارة تغنى عن أى بيان .

وابتسم لى الأستاذ السحار ابتسامة أبوية حانية ثم قال موجهًا الحديث للأستاذ نجيب محفوظ « نحن الذين قررنا طبع روايته « الطريق الطويل » قبل أن تتولاها وزارة الثقافة والإرشاد القومى وهو لم يزل فى السجن .. تصور هربنا له العقد إلى هناك ليوقع عليه، كانت هذه الجلسة الأولى جلسة ودية فيها رقة ومواساة ، وكان الزملاء الشيوعيون ينظرون إلى دون أن يعلقوا ، لكننى عمومًا شعرت بالارتياح ..

كان « مسجد الكخيا » الشهير على مقربة منا . وسمعنا صوت المؤذن يدعو إلى صلاة الجمعة ، فتلفت حولى ، كنت أريد أن أقوم للصلاة ، ولما لم يتحرك أحد ، وقفت فجأة وقلت : « بإذنكم » وكان سبب استئذانى واضحًا ، وعقب قيامى رأيت عددًا قليلًا من الجالسين يتبعنى إلى الخارج .

وبعد أن أديت الصلاة فكرت فى العودة إلى الندوة مرة أخرى ، وعندما دلفت إلى المجلس ابتسم الأستاذ نجيب محفوظ وقال « حرمًا » وابتسم البعض ولم يعلق البعض الآخر بشىء .

أصبحت هذه الندوة عادة أسبوعية أحرص عليها كل جمعة ، كانت ندوة حرة ، تطرح فيها شتى القضايا الفنية والأدبية والفكرية ، ونسمع فيها عن آخر الانتاجات العالمية فى الأدب والمشاهير من الكتاب والنقاد ، لم تكن هناك قيود على الحوار ، كل واحد يعبر عما يريد ، بالأسلوب الذى يريد ، قد يكون التعليق جادًا عميقًا ، وقد يكون ساخرًا ضاحكًا ، وقد يكون تأييدًا أو هجومًا ، وقد يشتبك المتحاورون ويختلفون ، ونجيب محفوظ يستمع أكثر مما يتكلم بحيث لا يلحظ أحد أنه رئيس الجلسة ، إنه يعلق كبقية الحاضرين دون أن يظهر أستاذيته أو تفوقه ، متواضع، رقيق الحاشية ، لكن إذا كان الكلام غير منطقى علق بنكتة ظريفة لا تجرح .. وما أكثر المشاغبين والمتحمسين والمتشنجين فى الندوات الأدبية .. والحقيقة أننى معجب بشخصية الرجل ، وكنت أتابع ما يقول بدقة ، وأقرأ ما يصدره من كتب ، أو ما تنشره له الصحف من قصص وآراء وأفكار .

لم أكن لأتغيب عن الندوة إلا لعذر شديد ، وإذا غبت . وهو نادر الحدوث . أتعرض لسين وجيم ، وأصبحت جلستى فى ماجهة الأستاذ نجيب محفوظ مباشرة ، لماذا ؟ لأنه بمرور الوقت كلفنى الأستاذ نجيب محفوظ بقراءة الكتب التى ترد إليه وإلى الندوة من المؤلفين ، كى نناقش واحدًا منها فى الجلسة القادمة .. فكنت أقرأ الكتاب المختار قصصًا أو رواية أو غيرها ، ثم أطرح موجزًا عن الكتاب فى الجلسة ، وأجيب على الاستفسارات التى توجه إلى ، ثم بعد ذلك يبدءون فى مناقشة الكتاب والمؤلف .. بمعنى آخر .. أصبحت « سكرتير الندوة » .. وكان كلما أتى أديب وأهدى كتابه إلى نجيب محفوظ ، أخذه شاكرًا ، ثم سلمه لى كى أعده للحوار .. وبتكرار ذلك فقد أصبح الكتاب يأتون لى أنا الآخر بنسخة هدية .

كانت هذه الندوة تنفسًا لى ، وكنت أجلها جدًا ، وأصطحب بعض أصدقائى معى ، لكنى كنت فى نفس الوقت أذهب إلى ندوات أخرى أهمها نادى القصة واتحاد الكتاب بشارع القصر العينى

(عمارة سيف الدين) المقابلة لشارع المبتديان بالقاهرة ، كما كنت أذهب إلى مقهى الأدباء بالدقى . ورابطة الأدب الحديث ، والجمعية الأدبية المصرية وغيرها ، وإلى دار الأمناء لدى الأستاذ الكبير أمين الخولى وحرمه الأستاذة الدكتورة بنت الشاطئ ، ومع ذلك فقد بقيت ندوة نجيب محفوظ عميقة الأثر فى نفسى رغم ما كان فيها من تيارات متصارعة ، وآذان خبيثة ، وأقلام مستأجرة ، شغفت بكتابة التقارير عن خلق الله المساكين ، والحق أن تقديرى لنجيب محفوظ . رغم اختلاف التوجهات فى بعض الأمور تقدير لا يمحى ، فهو كإنسان حلو المعشر ، رقيق الحاشية ، خفيف الظل ، لا يسىء إلى أحد ، ويحاول ألا يكره أحدًا ..

***

# [٣] رجال الأمن يعصفون بالندوة



كانت ندوة « نجيب محفوظ » متنفسًا حقيقًا للأدباء والمفكرين، كما كانت غنية بالجديد من الآراء حول الاتجاهات الأدبية المعاصرة، وكثيرًا ما تشعب الحوار حول أدباء فى مختلف أنحاء العالم لهم شهرتهم وآثارهم الهامة، ولم تغفل الندوة ما يجرى من أحداث أدبية وفنية فى مصر وفى العالم العربى، ولم يكن فى استطاعة مجلة من المجلات. مهما كبرت. أن تغطى الموضوعات الكثيرة المتنوعة التى يطرحها المتحاورون فى حرية وشمول، وكثيرًا ما كان يطرح اسم من الأسماء الجديدة ليس لغالبية الحاضرين علم به، فينبرى أحد المتخصصين من ذوى الدراية، فيعطى فكرة كاملة عنه، ويكون هناك مجال للدراسات المقارنة.

فى أحد أيام الجمع اتفقت مع صديقى المدرس الأستاذ لطفى صقر لنذهب معًا إلى الندوة، وكان يحضرها لأول مرة، وقصدنا إلى المكان المعهود، وما إن عبرنا الميدان ووصلنا إلى باب « الكازينو » حتى برز إلينا رجل غريب، أتى من الشرفة المطلة على الميدان وقال: « إلى أين ؟ ».

قلت: « إلى ندوة نجيب محفوظ ».

فأشار إلينا أن نتبعه، لم أكن أفهم السبب، ولم استطرد فى التفكير طويلًا، إذ وجدت نفسى. ومعى صديقى. أمام رجل يضع نظارة سوداء على عينيه، ويجلس خلف طاولة صغيرة عليها فنجان من القهوة، وبيده سيجارة مشتعلة، وإلى جوار الفنجان قداحة ذهبية اللون، وعلبة سجائر، ونظر إلينا فى تمعن وقال: « البطاقة الشخصية »... أخرجت بطاقتى الشخصية، وقدمتها إليه، وقد أدركت أنه بلا شك واحد من رجال الأمن، وكذلك فعل صديقى، وأخذ يتصفح بطاقتى، ثم أمسك بقلم وبدأ ينقل البيانات المدونة عنى.

المعروف أن رجال الأمن فى المباحث العامة بوزارة الداخلية أقسام متخصصة، قسم يتولى السياسيين من الإخوان المسلمين، وقسم آخر للشيوعيين وفصائلهم المختلفة، وقسم للأحزاب القديمة، ورابع لحزب البعث، وخامس لتنظيم « الأمة القبطية » وسادس يتقصى النشاط اليهودى أو الصهيونى، وسابع للفلسطينيين ومنظماتهم وهكذا... أدركت للوهلة الأولى أن رجل الأمن هذا ليس من الضباط المختصين بالإخوان المسلمين، وتبادر إلى ذهنى أنه من القطاع الذى يتولى متابعة الشيوعيين وملاحقتهم، ولقد علمت أن ندوة نجيب محفوظ متهمة بأن أغلبها من الشيوعيين، ومعنى ذلك أن هذا الضابط سوف يضع اسمى بين أسماء الشيوعيين، وهذه كارثة.. لأنهم عندما يفكرون فى اعتقال الإخوان المسلمين فسوف يعتقلوننى على أساس إنى واحد من تنظيماتهم القديمة، وصدر ضدى حكم بالسجن لذلك فى عام ١٩٥٥، وعندما يفكرون فى اعتقال الشيوعيين مستقبلًا فمن المحتمل جدًا أن يعتقلونى معهم أيضًا، وأدركت أن الأمر لا يمكن السكوت عليه فقلت لضابط الأمن: « اسمح لى أن أوضح بعض الأمور... إننى فى الواقع ممن انتموا إلى جماعة الإخوان.. ولم أكن فى أى يوم من الأيام مع أى

تنظيم آخر .. وضباط الأمن عندكم بالداخلية المختصون بالإخوان يعرفوننى جيدًا .. أذكر منهم أحمد بك صالح داود ويحيى بك شفيق والغمراوى بك وغيرهم .. واعتقد أنك فى قسم آخر ، وأظن أن من حقى أن أوضح الأمر لك ، حتى لا تضعنى بين أسماء الشيوعيين وأنا منهم برىء . وإلا فسأكون مطاردًا هنا وهناك ..» ... وضحك الضابط فى سعادة ، ويبدو أنه أعجب بتحليلى للموقف ، وإدراكى ما ينطوى عليه من مفارقات ، ثم استدركت قائلًا : « أما صديقى هذا فلا صلة له على الإطلاق بالسياسة أو التنظيمات ، وهو يحضر اليوم الندوة لأول مرة ..» .

وبعد إتمام الإجراءات ، وتوجيه بعض الأسئلة والإجابة منى عليها ، سمح لنا بالانصراف ، واستفسرت منه عما إذا كنت أستطيع الصعود إلى الندوة ، فرد وهو يتفحصنى بنظراته المنذرة : « عد إلى بيتك ، ليس هناك ندوة بعد اليوم » .

وأثناء انصرافنا تطلعت إلى أعلى ، رأيت وجه الأستاذ نجيب محفوظ يطل من النافذة فى الدور الثالث والأخير من المبنى ، وإلى جواره المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير ولوحت بيدى مودعًا .

وكان موضوع إغلاق ندوة نجيب محفوظ فى الأيام التالية حديث المحافل الأدبية ، وخاصة على مقهى الدقى الذى يجتمع فيه بعض الأدباء ، وفى نادى القصة بشارع القصر العينى ، وقيل يومها أن ندوة نجيب محفوظ تضم مجموعة من الشيوعيين القدامى الذين سبق لبعضهم الاعتقال ، والواقع كما سلف وأوضحت أن الندوة كانت تضم أشخاصًا من اتجاهات مختلفة بينهم كتاب وصحفيون وممثلون وفنانون تشكيليون ، وكان بينهم الإسلاميون والشيوعيون والمستقلون والناصريون ، وكان هناك أعضاء طارئون فى الندوة ، يأتون إليها لمامًا ولا تعرف هويتهم ، بل هناك من الأعضاء من كان من ضباط الشرطة العادية ، ومن ثم فإن الحكم على الندوة بأنها ذات صفة شيوعية حكم يجانبه الصواب .

وهكذا أغلق باب هذا المتنفس الذى كان ملاذًا لنا فى النصف الأول من عقد الستينيات ، والذى تميز عطاؤه بالفائدة والجدية وسعة الأفق ، وخاصة أن « عمدة » الجلسة كان نجيب محفوظ النجم اللامع فى عالم الرواية ، وصاحب الإطلاع الواسع على الآداب العالمية والعربية ، وصاحب الرأى المتزن البعيد عن الهوى ، بصرف النظر عن اختلاف الناس حول صواب هذه الآراء أو خطئها[1] .

ولقد شعرت بإحباط شديد من جديد ، لأن دولة ليس فيها أحزاب أو معارضة رسمية مثل مصر ، كان المفكرون والكتاب يجدون ظلًا يلجئون إليه للترفيه والترويح فى ذلك المناخ العصيب الذى يفتقر إلى الحرية والتعبير الصادق عن وجهات النظر لقد كان الحديث عن الحرية فى تلك الأيام أكذوبة كبرى ، رغم كل ما يدعيه أيضًا ذلك العهد ، فلم يكن هناك سبب إنسانى جدى يحرم الناس من حقهم فى الحرية ، ولا معنى للحرية إذا كانت فى إطار التعليمات والسياسات والنظم الذى يضعها الحزب الحاكم ، وأية حرية تلك إذا كان الناس يساقون إلى المعتقلات من أجل « نكتة » ناقدة أو ساخرة ، أو رأى يعبرون به عن ذواتهم ، أو مجرد رواية أحداث حقيقية يتهم قائلها بنشر الإشاعات الكاذبة ؟ كان العنف الثورى الحكومى طاغيًا بصورة مخيفة ، ألجمت الأفواه ، وحطمت الأقلام الحرة ، فآوى الناس إلى الصمت والعزلة ، حتى لا تتعرض كرامتهم للخطر ، وحتى لا يتهموا بالرجعية والخيانة ، وهذه ليست افتراءات نلصقها بهذا العهد ، ولكنها حقائق أكدها رجالات عبد الناصر فيما بعد ، كما أشار

---

(١) كتبنا هذا الكلام قبل أن ينال نجيب محفوظ جائزة نوبل .

إليها مؤرخه الشهير محمد حسنين هيكل فى أكثر من موقع فى كتبه ، بل واستغلها الأستاذ نجيب محفوظ نفسه فى كثير من قصصه القصيرة ورواياته بطريقة رمزية فيها الكثير من الوضوح ، حتى إن نجيب محفوظ نفسه تعرض للاعتقال ، وكان أن تطوع الدكتور ثروت عكاشة بإنقاذه ، وإقناع عبد الناصر بخطأ حبسه ، (ولقد روى نجيب محفوظ نفسه هذه الوقائع فى تصريحاته بعد فوزه بجائزة نوبل) ومما رواه نجيب محفوظ تلك الواقعة الخاصة باعتقاله ، وكذلك ذكر أن عبد الناصر عند زيارته لجريدة الأهرام ومصافحته لنجيب محفوظ ، قال هيكل للرئيس : « إن كتابات نجيب محفوظ تودى فى داهية » . فرد عبد الناصر ضاحكًا : « إلّلى يروح فى داهية رئيس التحرير » .

وتضاحك الجميع ، ومعروف أن رئيس التحرير للأهرام هو « هيكل » ، وهناك عشرات الأحداث تؤكد إلمام عبد الناصر بالانتهاكات الإنسانية التى تعرض لها أصحاب الرأى والفكر من مختلف الاتجاهات ، ولقد كان معنا فى السجون والمعتقلات الكثير من هؤلاء ، وإن كان العنف الأكبر كان موجهًا لجماعة الإخوان المسلمين بالذات . وإنى أقول بأمانة تامة ، بأنى استفدت كثيرًا من ندوة نجيب محفوظ ، وخاصة أننى فى فترة ما قبل اعتقالى كنت بعيدًا عن الأجواء الأدبية ، وكانت كل علاقاتى بالأدب هو الكتب التى أقرؤها ، ولم تتح لى فرصة اللقاءات المباشرة بالأدباء إلا بعد حصولى على الجوائز الأدبية فى المعتقل . والحكمة ضالة المؤمن ، يستفيد منها أنّى وجدها ، ولقد أعجبنى فى نجيب محفوظ الحزم الذى أخذ به نفسه ، والانضباط الذى فرضه على حياته ، وإطلاعه الواسع وخاصة ما يتعلق بفن القصة وباللغة العربية ونحوها وصرفها ، وقراءاته المتنوعة فى التراث وفى بعض اللغات الأجنبية ، كما كان دقيقًا فى عمله الفنى ، فهو يحكم صنعته ، ويجيد الإعداد للموضوع الذى يكتب فيه ، ويعمل « أرشيفًا » لأبطال قصصه ، ثم يراجع ما يكتب ، ويحتفى بالأسلوب ، ويحرص على الفصحى حتى فى الحوار ، وكان نجاحه رادًا مفعمًا لدعاة الكتابة بالعامية ، كما أنه أحسن الاستفادة من حياته فى الطفولة والصبا والشباب ، ومن البيئة الاجتماعية والسياسية التى عاش فى ظلها ، وسجل أهم أحداث البلاد فى رواياته ، ففى ثلاثيته مثلًا (وقد كتبها قبل الثورة) يعرض للتيارات السياسية فى مصر وتطورها ، ولا يغفل الأحزاب المصرية التقليدية ولا الشيوعيين ، ولا الإخوان المسلمين وغيرهم ، كما أشار إلى الأمراض الفتاكة التى تهدد أمن وسلامة المجتمع على مختلف المستويات ، وعرّى النفاق والرياء والوصولية والجشع وإن كان لى بعض التحفظات على بعض أفكاره المتضمنة فى قصصه .

ولقد أتيح لى مناقشة مجموعة قصصى القصيرة فى الندوة ، وكذلك رواية اليوم الموعود ، كما قرأ لى نجيب محفوظ عددًا من الروايات الأخرى التى أعجبته ، واختار واحدة منها للسينما وهى رواية ليل وقضبان ، وكان له فضل إخراجها إلى مشاهدى السينما عن طريق مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى (شبه حكومية) ، والتى أعد لها السيناريو والحوار الأستاذ مصطفى محرم ، وأخرجها الفنان أشرف فهمى ، ومثل فيها من النجوم سميرة أحمد ومحمود ياسين ومحمود مرسى ومجدى وهبة وتوفيق الدقن وغيرهم ، وقد فاز الفيلم بالجائزة الأولى فى مهرجان طشقند الدولى فى أوائل السبعينيات من القرن العشرين ، ولأن الفيلم كان ذا رمز سياسى ، فقد اعترضت عليه الرقابة بشدة ، ولكاتب السيناريو الأستاذ مصطفى محرم حديث حول الرقابة وفيلم « ليل وقضبان » نشر فى جريدة الخليج ، أوضح تفاصيل اعتراض الرقابة .

بعد انفضاض ندوة نجيب محفوظ سمعت أنه يجلس فى مقهى « ريش » بالقاهرة ، وفكرت أن أذهب إليه ، وكنت مترددًا ، ولكننى حزمت أمرى وذهبت إلى هناك ، وخيل إلى أن هناك عيونًا ترصد

حركاتنا ، وآذاننا تتابع أحاديثنا رغم خلوها مما يضايق الحكومة ، ولهذا آثرت فى النهاية الانقطاع عن الحضور وأنا حزين .. لم يكن نجيب محفوظ بقادر على أن يترك المقاهى الأدبية ، لأنه لم يكن يستقبل أدباء فى بيته ، ولم تكن له هوايات أخرى سوى الجلوس مع أصدقائه خارج المنزل . وذلك يشكل جانبًا أساسيًا فى حياته ، إنه يشرب القهوة ، ويقرأ الصحف ، ويتحدث مع أصدقائه فى الأدب والفن خاصة ، ويجد فى ذلك متعة كبيرة ، ثم ينصرف إلى بيته للعمل قراءةً أو كتابة ، لقد أخلص لفنه وأعطاه الكثير من الوقت والجهد والإعداد ، ولهذا تجد مستوى متميزًا مقبولًا فى مختلف قصصه ورواياته ، على عكس الكثيرين من الكتاب الذين تتفاوت إجادتهم من عمل لآخر ، كما كان متفرغًا تقريبًا لفنه لا يشغله عنه شاغل ، وأعتقد أن هذا التفرغ لم يتح إلا لعدد قليل من أدبائنا ومفكرينا نذكر منهم الأساتذة توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد ومحمود تيمور والدكتور طه حسين .

ولم تنقطع صلتى بنجيب محفوظ إلا بعد أن سافرت للعمل بدولة الإمارات العربية المتحدة فى عام ١٩٦٨ ، وإن بقيت على إطلاع دائم بمؤلفاته وخاصة مسلسلاته التى ينشرها فى الأهرام، وفى أثناء وجودى بإمارة دبى قرأت له فى مجلة المصور القاهرية تصريحًا يتحدثون فيه عن أجيال القصة المصرية ، فذكر الجيل الأول ومنهم طه حسين والعقاد وتيمور .. إلخ ، ثم الجيل الثانى وذكر منهم نفسه وعبد الحليم عبد الله والسباعى وغيرهم ، ثم الجيل الثالث وأورد أسماء ، ثروت أباظة ويوسف إدريس ومصطفى محمود ، وذكر اسمى بينهم ، ثم الجيل الرابع وهم جيل الشباب الجدد وطرح بعض الأسماء . وعندما حصل على جائزة نوبل كتبت عنه مقالة فى مجلة « المنتدى » التى تصدر فى دبى ، وفى تصريح صحفى له حول أهم الكتابات التى أعجبته عن أدبه ، أشار إلى مقالتى بحماس، وأكد أنها من أحسن ما كتب عنه ، ثم أردف قائلًا : « إن نجيب الكيلانى من التيار الإسلامى ، وهو منظر الأدب الإسلامى الآن » (مجلة المصور ١٣ أكتوبر ١٩٨٩) .

وفى خلال فترة وجودى بالإمارات كتبت عددًا من المقالات النقدية عن بعض رواياته .

والحقيقة أن نجيب محفوظ . دون شك . القمة الباذخة للقصة العربية المعاصرة ، وهو التطور الطبيعى المزدهر لهذا الفن ، بعد أن تلقاه على أيدى من سبقوه ، وبعد أن استطاع أن يستفيد من التراث العالمى القصصى العظيم ، وليس هناك من استطاع مطاولته فى فنه ذاك إبان هذا العصر ، ولقد استطاع نجيب محفوظ بحنكته وذكائه ألا يقع فى إغراء الحداثة المفرطة فى الغموض والرموز والكوابيس والهلوسات غير الهادفة ، وظل متماسكا ومتمسكا فى فنه ، ولم ينس قط أن يحمّل عمله القصصى فكرة من الأفكار ، أو يحرص على موقف من المواقف ، أو بمعنى آخر كان صاحب رسالة وإن اختلفنا أحيانًا فى مضمون الرسالة ، وطبيعة الخطاب ، ولقد تعلمت من نجيب محفوظ فى هذا المضمار أنه فعلًا « وراء كل فن عظيم فكر عظيم » ، وأن الفن لابد وأن يؤدى دورًا إيجابيًا فى الحياة غير الاستمتاع والتذوق الجمالى ، ومن غريب الصدف أن نجيب محفوظ عندما سألوه عن « الأدب الإسلامى » بعد فوزه بجائزة نوبل ، ذكر آراء وأفكارًا تتفق تمامًا مع وجهة نظرى فى ذلك ، تلك التى حرصت على ترديدها وكتاباتها فى مؤلفاتى ومحاضراتى طوال الثلاثين عامًا الماضية ، مع اختلاف طفيف فى بعض الجزئيات والتقويمات[1] .

---

(١) أضيفت إلى هذا الفصل فقرات خاصة بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل .

# [ ٤ ] اتحاد الكتّاب ونادي القصة



كان اتحاد الكتاب ، وبه نادى القصة ، فى البناية المقابلة لشارع المبتديان (٦٨ شارع قصر العيني) ، وكان يؤمه العديد من شباب الكتاب . شعراء وقصاصين ونقادًا . وموعد اللقاء فيه يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكان النجم اللامع فيه دون شك هو الأستاذ القاص محمد عبد الحليم عبد الله ، والذى يتواجد مساء كل ثلاثاء فى النادى ، وهو الذى يقوم بافتتاح الأمسية أيًا كان موضوعها ، ويقدم المتحدثين ، وكثيرًا ما يقوم بالتعليق ، وهو الذى يختتم الأمسية فى النهاية ، ففى إحدى الأمسيات مثلًا يختار ثلاثة من كتاب القصة ، يقرأ كل واحد منهم قصة جديدة ، ويعلق عليها أحد الفقهاء المتخصصين ، ويشترك فى المناقشة جمهور الحاضرين كل حسب توجهاته ورأيه .

وقد تكون الأمسية شعرية ، فيتتابع الشعراء لإلقاء قصائدهم ، ويتناوب المعلقون بعدهم للتحليل والنقد ، وقد يكون الشعر عموديًا ، وقد يكون من شعر التفعيلة الحديث ، وقد تركز الأمسية على شخصية من الشخصيات على كتاب من الكتب الأدبية الهامة ، وكمثال على ذلك فقد أقيمت أمسية خاصة بالشاعر أحمد رامى ، وأمسية أخرى عن أدب الرافعى ، وثالثة عن كتاب « فن القصة » للدكتور رشاد رشدى ، ورابعة عن الأدب أو الفن الشعبى ، وقد تجد فى اتحاد الكتاب أفرادًا ممن يداومون على ندوة نجيب محفوظ أو رابطة الأدب الحديث ، أو الكتاب المصريين وغيرهم ، ونظرًا لأن الأستاذ المرحوم يوسف السباعى هو سكرتير عام الاتحاد ونادى القصة ، والدكتور طه حسين هو رئيس الشرف ، فإن الاتحاد . وهو مؤسسة شبه رسمية . كان يحظى بالدعم والحماية من الدولة ، وكان أعضاؤه المسجلون يدفعون اشتراكًا شهريًا ، كما كان للانضمام إلى الاتحاد (أو نادى القصة) أسلوب محدد؛ إذ لابد أن يكون للعضو إنتاج أدبى مقبول ، وأن يزكيه ثلاثة من كبار الأدباء حتى يصبح عضوًا عاملًا ، وهناك من يفوزون بالجائزة الأولى فى مسابقة نادى القصة ، فهؤلاء يقبلون أعضاء فى النادى ، وكان نادى القصة يجرى مسابقات كل عام من أبرزها مسابقة القصة القصيرة ، ومسابقة الرواية ، وتوضع لهذه المسابقات الشروط الخاصة بها ، والمواعيد المحددة لها ، وتمر الأيام وأصبح بعد سنوات قليلة عضوًا فى التحكيم بهذه المسابقات (القصة القصيرة والرواية) .

وهناك قصة طريفة قد يكون من المفيد تسجيلها ، فقد رأيت فيما يرى النائم ذات مرة أننى أجلس فى مدرج مكتظ بالناس ، وكنت أجلس على ما أتذكر فى الصف الثالث ، وأمام الجمهور وضعت منصة كبيرة يجلس عليها أشخاص ذوو حيثية لكن لم أعرف شخصية أحد منهم ، وفجأة صدر أمر من الجالسين فى المنصة أن انتقل من الصف الثالث إلى الصف الأول الذى وجدت نفسى وحيدًا فيه .. وأفقت من نومى وأنا أتذكر الرؤيا جيدًا ، لكن فشلت فى إيجاد تفسير لها فتناسيتها آيسًا من تأويلها .. وذات يوم قرأت فى الأهرام نبأ فوزى بالجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة لعام ١٩٥٩ ، وبالميدالية

الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين .. وأسرعت بالذهاب إلى النادى مساء ، فاستقبلونى بالتهانى والترحاب ، وكان فراش النادى « عم حسين » رحمه الله ، من أشدهم سعادة ، والتف حولى الأصدقاء ، وإن كان بعضهم أبدى سخطه على الفائزين العشرة وخاصة الأول ، لا أدرى لماذا ؟ جلست مع الأستاذ حسين فؤاد سكرتير المرحوم يوسف السباعى فى مكتبه ، وسألته عن تفاصيل النتيجة ، فقام وأحضر نسخ القصة الفائزة ، كان عدد واضعى الدرجات فى اللغة الفرعية واللجنة النهائية ستة من كبار الكتاب بعضهم كتب عشرة على عشرة ممتازة ممتازة ممتازة وآخر كتب تسعة على عشرة ، أما الأستاذ الصديق الأستاذ عبد الحليم عبد الله للأسف فقد كتب : خمسة على عشرة لا بأس ، لكن الثلاثة الأعضاء فى اللجنة النهائية فقد أعطى كل منهم النهاية الكبرى (عشرة على عشرة) ، وبذلك فزت بالجائزة الأولى .. ومن خلال إطلاعى على أوراق المسابقة أدركت أن اللجنة الفرعية كان مجموع درجاتها ٢٤ درجة من ٣٠ أما اللجنة النهائية فقد كانت ٣٠ درجة من ٣٠ درجة معنى ذلك أننى تحولت من الراتبة الثالثة فى اللجنة الفرعية ، إلى الراتبة الأولى فى اللجنة النهائية ، وحكمها هو الفيصل فى المسابقة ، وكان على رأسها الأديب الكبير الأستاذ يحيى حقى . وهنا تذكرت تلك الرؤيا الغامضة الغريبة التى لم أستطع تأويلها منذ أيام ، لقد أصبحت فى غاية الوضوح .. كانت رؤيا صادقة مهما قال علماء النفس ، فإن التجربة أقوى برهان ، وكيف تشك فى ذلك وفى القرآن الكريم الدليل الحاسم الصادق على مختلف أنواع الرؤيا ؟

وتسابقت الصحف والمجلات على نشر قصتى الفائزة ، وأذكر أننى سمحت بنشرها عندما قرأت هذه القصة واسمها « شجاع » فى ندوة نجيب محفوظ لمناقشتها ، استمع الحضور جيدًا ، وكان نجيب محفوظ يضع يده خلف أذنه ، ويوجه صيوانها نحو الصوت كعادته . وأخيرًا أجمع المتحدثون على تميز القصة ، وقال على أحمد باكثير فيما أذكر « إن هذه القصة قدمت أنموذجًا إنسانيًا واقعيًا مؤثرًا ، فى إطار قضية كبرى ، قدمت تقديمًا فنيًا بارعًا » وعلق الأستاذ نجيب محفوظ مؤكدًا على نفس المعنى البارز فى القصة ، أما الأستاذ عباس خضر فقد أفاض فى الشرح والتحليل بما لا يخرج عن خلاصة الرأى العام ، وتطرق إلى دقة الحوار وإيجازه وتوظيفه توظيفًا جيدًا فى إطار القصة القصيرة التى هى مكثفة بطبيعتها ...

ولقد تحمست جدًا للاشتراك فى الأمسية التى أقامها اتحاد الكتاب عن أدب الرافعى ، حيث انقسم المعلقون إلى فريقين متضادين ، أحدهما يثنى ويؤيد الرافعى فى أسلوبه ومنهجه ، والآخر يعارض ويرفض ، ولقد كنت قد كتبت عن الرافعى كتابًا كاملًا أثناء وجودى فى السجن ، تناولت شتى جوانب إنتاجه الأدبى ، وخاصة فى مجال القصة والشعر ، والمقالة بالطبع ، ووجدت عناء كبيرًا فى تصنيف هذا الكتاب ، ولكن المخطوط للأسف الشديد فقد بعد ذلك ولم يكن لدى نسخة منه ، وكان أحد المتحدثين يهاجم شعر الرافعى (وأظنه الأستاذ المرحوم عباس خضر) ، ويرميه بجمود العاطفة فى تعبيره الفنى ، فقمت بعد فترة لأوضح مكانة الرافعى بين أدباء عصره ، ثم ارتباط قصصه بالواقع المؤلم فى ذلك الوقت ، وبالأحداث الكبار ، وركزت على براعته فى تحليل النفس الإنسانية وتحولاتها ، فى وقت لم يكن « علم النفس » قد شاع مثل أيامنا هذه ، وكان ردى على العاطفة فى شعره ، بأن ألقيت بعض أبيات من شعره الرقيق الرومانسى ، وخاصة قصيدته الشهيرة التى بدأها بالبيت التالى :

من للمحب ومن يعينه والحب أهناه حزينه

أنا ما عرفت سوى قسا وته فقولوا كيف لينه

. . . . الخ، فضجت القاعة بالتصفيق .

وختمت كلماتي بأن الرافعى بأسلوبه المتميز الرصين ، وتشبثه بلغة الآباء والأجداد ، لغة القرآن الكريم ، كان حارسًا يقظًا مثابرًا يسهر على تراث لغتنا ، ويحميها من المخربين والأوغاد من دعاة العامية ، وأعداء الإسلام .

ولقد أثار كتاب الدكتور رشاد رشدى عن « فن القصة القصيرة » عاصفة من النقد والتعليقات ، ولعله كان أهم كتاب صدر فى هذا الباب وقتذاك ، وكان واضحًا أن رشاد رشدى من دعاة « الفن للفن » ، ويركز على « الجمالية » وحدها فى العمل الفنى ، ويرفض أن يكون الفن بوقًا من أبواق الإيديولوجيا أو المذاهب ، وكانت الجلسة فى تلك الأمسية مكتظة بالحاضرين وكبار النقاد والكتاب من مختلف المشارب والأهواء ، لكنه ، أى رشاد رشدى ، بعد أن قدم عرضًا لكتابه وأفكاره ، اصطخب الجدل ، وبرز عدد من المعارضين لفكره ، وأنا لا أخوض فى تفاصيل ذلك ، فقد تعرضت لطرف منه فى بعض كتبي ، ولكنى عندما وقفت لأدلى بدلوى فى المعمعة قلت ما معناه ، إننا لا نتنكر للقيم الجمالية فى الفن لأنها أساسية ، ولكننا نصر ونؤكد على قيام الأدب بدور إيجابى لدى المتلقى ، وبالتالى لدى المجتمع ، وأعلنت بصراحة أن الفنان « متحيز لموقف » ولابد أن يكون كذلك وإلا فقد الكثير من تميزه وهويته وقيمته .

وفى أمسية المرحوم الشاعر أحمد رامى ، وقف أحد النقاد اليساريين ووجه إليه نقدًا لاذعًا بخصوص أشعاره العاطفية ، وخاصة الأغانى العاطفية التى كان يكتبها للسيدة أم كلثوم ، ولامه على قلة شعره الوطنى والنضالى ، إلى غير ذلك من التهم التى يروجها الماركسيون حول من لا يتفقون معهم فى الرأى والمسيرة .. وبدأ الألم على وجه الشاعر الكبير ، وهو يستمع إلى هذا الهجوم الضارى ، وامتقع وجهه ، وكنت على مقربة منه ، والواقع أننى تألمت لألمه ، وخاصة عندما أغرورقت عيناه حينما سمع الناقد يقول إن أغانى رامى عن الهيام والهجران والدموع وعذاب المحبين وأرق العاشقين ، قد علمت الشباب والمراهقين الميوعة ، ودفعتهم إلى ارتكاب جرائم الانتحار من فوق مبنى « مجمع التحرير » . وضحك البعض ..

كانت كلمات قاسية ..

ووقف رامى حزينًا ليذكرنا بشعره العذب ، وقصائده الكثيرة عن الوطن والناس والقيم والمبادئ ، وعن صفحات كثيرة له تشهد بنبوغه وتاريخه الأدبى ، والحقيقة أنه وجد استجابة وترحيبًا حارًا من المشاركين . تجلى فى تصفيقهم له تصفيقًا طويلًا ، كما تجلى فى تعليقات كبار النقاد والأدباء الآخرين الذين أعطوه حقه ، ولم تفتنى هذه الفرصة ، فقد خطوت إلى المنصة ، وقلت : لماذا نحاول أن نقيم الأدباء من خلال وجهة نظر ضعيفة لا عصمة لمنهجها ، وليس هناك دليل مؤكد على صحتها ؛ وماذا يمنع أن يهتم شاعر بالعواطف الإنسانية ويترجم عنها بل وقد يتخصص فيها ؟ لماذا لا ندع البلابل تغرد بالحب والوطن وعواطف الإنسان المختلفة .. لماذا لا ندعها تدعو وتضرع لله ، وتبكى وتضحك ؟ ثم ختمت كلمتى بالثناء على تاريخ شاعرنا الكبير ، وبأبيات من إحدى قصائده التى تترنم بحب الأوطان والإنسان والحياة .

ما أكثر الأمسيات الأدبية الرائعة التي قضيناها فى نادى القصة واتحاد الكتاب ، وما أكثر الأدباء

البارزين الذين استمعنا إليهم وحاورناهم .. كان بعضهم قممًا شامخة ، وتاريخًا عريقًا ، وتجربة أصيلة ، وجهدًا رائدًا ، لقد سعدنا أيما سعادة ونحن ننهل من فيضهم على اختلاف مشاربهم ، وكنا نحبهم ونشعر بالارتواء والشبع ونحن نجالسهم ونراقب حركاتهم وسكناتهم وانفعالاتهم ، لم يخطر ببال أحدنا أن نسيء إليهم ، أو نسخر، غرورًا، منهم ، وكنا نرى أننا أكثر حظًا من غيرنا؛ إذ نراهم ويروننا ، ونحادثهم ويحادثوننا .. إنه لأمر عظيم أن ترى العبقرية مجسدة أمامك ، فتراها بعينيك ، وتسمعها بأذنيك ، وتتمثلها فى فكرك اليقظ .

لقد مرت الأيام ، ومات أغلب هؤلاء ، لكن ما زالت ذكراهم العطرة عالقة بذهنى ، وما زلت أتذكر أحاديثهم ومجالسهم وتعليقاتهم الجادة والضاحكة .. لكم أتمنى أن تعود تلك الليالى الحلوة .. لكن الماضى لا يعود .

والواقع أن تاريخى السياسى لم يكن عقبة فى طريق الانطلاق إلى هذه المجتمعات ، كانوا يعرفون عنى الكثير ، وكانوا يخالفوننى فى الرأى والموقف ، لكننا عشنا كأصدقاء ، يحترم كل منا الآخر ، لكن ذلك لم يمنع البعض من اتخاذ الحيطة والحذر ، فقد تجرى صداقتى لهم بعض الأضرار والشكوك حولهم .. كنت أصافح اليد التى تمتد لمصافحتى أيًا كان صحابها ، وأعذر من يزورّون عنى، وفى كل الأحوال لم أتلبس فكرًا غير فكرى ، أو أحمل شعارًا غير شعاراتى الراسخة ، دون ضجيج أو إعلان .. نعم حاولت أن أبقى مسلمًا .. ففى هذه الفترة العاصفة المتوترة أصدرت فى ليبيا كما قلت كتابين لهما أهميتهما هما « الطريق إلى اتحاد إسلامى » و« الإسلامية والمذاهب الأدبية » ثم مجموعة قصصية اسمها « العالم الضيق » إننى كل عام أو عامين أطل على نادى القصة ، فأرى الوجوه قد تغيرت . . لقد ذهب الكثيرون .. وجاءت أجيال جديدة .. ومصطلحات جديدة ... وموظفون جدد .. وهكذا الدنيا ...

❁❁❁

# [ ٥ ] لقاء الأدباء مع عبد الناصر



في شهر فبراير ١٩٦٢ انعقد بالقاهرة مؤتمر « كتّاب آسيا وأفريقيا » وقد اختارنى اتحاد الكتاب فى مصر لأكون من الأعضاء المشاركين فى المؤتمر ومعى عدد كبير من الأدباء ، وكنت أعمل كطبيب امتياز بمستشفى أم المصريين آنذاك ، وقد حشد المؤتمر عددًا لا بأس به من المشاهير فى فنون الأدب المختلفة وعلى رأسهم الشاعر التركى الشهير « ناظم حكمت » وأديبنا الكبير نجيب محفوظ وغيرهما من روسيا والهند واليابان والصين والدول الأفريقية وغيرها ، ولقد تحدد يوم يلتقى فيه الأدباء مع الرئيس جمال عبد الناصر فى قاعة العرش بقصر عابدين الخاص بالملك السابق فاروق الأول ، وفى اليوم المحدد حملتنا السيارات الرسمية إلى ساحة عابدين .

وعلى باب القصر كان الضباط يأخذون ما معنا من حقائب يد قبل الدخول ، ويتفحصوننا جيدًا ، ثم احتشدنا فى القاعة الواسعة ، التى ليس فيها سوى « كرسى العرش » وحده ، وليس هناك مكان للجلوس ، وفوق رأس الكرسى كتب بالذهب عبارة أظن أن منطوقها يقول « بالعدل تساس الرعية » أو شيئًا من هذا القبيل ، وتناثرنا فى القاعة ، وجاء الرئيس ومعه عدد من رجال الثورة والوزراء والحرس ، ثم وقف فى الاتجاه المقابل لكرسى العرش ، وألقى بيانًا تاريخيًا بهذه المناسبة أشار فيه إلى أهمية الأدب ، ودوره فى رفع مستوى المجتمعات والتقريب بين الشعوب ، ومناصرة قضايا التحرر ومكافحة الاستعمار وما إلى ذلك ، واستقبله الحضور بعاصفة من التصفيق ، وكانوا جميعًا وقوفًا كما سبق وأشرت ، وكان إلى جوار الرئيس وهو يخطب المرحوم الأستاذ يوسف السباعى سكرتير عام المؤتمر ، ثم سمعناه يقول لنا إن الرئيس سوف يصافحنا فردًا فردًا ، وطلب منا أن نذكر أسماءنا ونحن نصافح الرئيس وأن نقف صفوفًا منتظمة استعدادًا لذلك .

وكان من بين الحضور فى ذلك اليوم أعنى تلك الليلة الصحفيان الكبيران على أمين ومصطفى أمين وإلى جوارهما الأستاذ أنيس منصور ، ولقد عجبنا لهذا الأمر ، ذلك لأن الثلاثة كان الرئيس قد غضب عليهم ونحاهم منذ فترة ، فكان لظهورهما المفاجئ بيننا مدى كبير من الدهشة والتساؤل .

وبدأ عبد الناصر يصافحنا ، كان إلى يمينى المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير ، وعلى يسارى الصديق الأستاذ رجاء النقاش ، وعلى مقربة منا الأستاذان على أمين ومصطفى أمين ، ولاحظت من موقعى أن الرئيس صافحهما بفتور وبسرعة ، وعندما جاء الدور على الأستاذ باكثير صافح الرئيس صامتًا دون أن يذكر اسمه له ، أما أنا ورجاء النقاش فقد عرّفناه بأسمائنا ، قلت للأستاذ باكثير : لماذا لم تذكر له اسمك ؟ فلوح بيده دون اكتراث ، ونطق بكلمات قليلة لم أفهمها ، وفى اليوم التالى كتب رجاء النقاش مقالة جميلة فى الصفحة الأولى من جريدة الأخبار بعنوان « رأيت جمال » .

وبعد ذلك انتقلنا إلى قاعة تناول العشاء ، حيث وضع الطعام على « البوفيه » ، وكان كل واحد منا يذهب ويأخذ طبقًا ، ثم يتجه إلى الطعام ليأخذ ما يشاء ، ثم نتناول طعامنا وقوفًا ، كان إلى جوارى

رجل طيب ذو لهجة مغربية ، وكنت أتبادل معه الحديث ، وفجأة رأيت الرئيس يتجه ببصره نحونا ، وكان لا يأكل ، وأشار بأصبعه ، فأصابنى ارتباك شديد ، وبقيت جامدًا فى مكانى ، أما الزميل الذى كان يحادثنى فقد وضع طبق الطعام على « البوفيه » ثم اتجه ناحية الرئيس ، وأنا مشدود البصر إليه ، ووجدته يصافحه ، والرئيس يبتسم فى ود بالغ وبعد دقائق قليلة عاد الرجل ، ثم تناول طبقه من جديد ليواصل الأكل .

قلت له : « ماذا قال لك جمال ؟ » .

قال : « كلمات ترحيب ومجاملة » .

قلت له وأنا أتفحص ملامحه : « من أنت ؟ » .

قال بصوت خفيض متواضع : « مهدى بن بركة » .

- « الزعيم المغربى » ؟

لم يرد ، فقد كان كفاح مهدى بن بركة على كل لسان ، وكانت صوره وتصريحاته تملأ الصحف ، وكان يجد التأييد والرعاية والدعم من رئيس مصر ، وكلنا يعرف بعد ذلك المأساة الدامية التى راح ضحيتها مهدى بن بركة بعد ذلك ، حينما تآمر « الجنرال أوفقير » المغربى مع المخابرات الفرنسية لقتله ، بطريقة شيطانية مقززة ، ويشاء الله بعد ذلك أن يتآمر الجنرال أوفقير على ملك المغرب ، ثم يسقط صريع طموحاته الجنونية ، وهكذا ينطبق عليه « من قتل يقتل ولو بعد حين » . بينما كنا نصافح الرئيس ، سمعت من خلفى فتاتين تقول إحداهما للأخرى : « هل رأيت عينى الرئيس ونظراته ؟ » .

- « فى منتهى القوة .. حاجة تجنن » .

وضحكت أنا والأستاذ باكثير لحوارهما .

وبعد أن التقى الرئيس بمهدى بن بركة ، ودعاه لمقابلته فيما بعد ، شاهدت الشاعرة العراقية « نازك الملائكة » وزوجها الدكتور عبد الهادى يقفان مع الرئيس الذى أخذ يتبادل الحديث مع الشاعرة المبهورة به ، ثم أشار الرئيس بعد ذلك إلى رجل أفريقى يلبس الكثير من عقود الخرز ، والزى المميز ، وتحدث معه وبينهما مترجم ، وهكذا استمر الوضع فى الحديث مع بعض الضيوف .

كنت أشعر بآلام شديدة فى ركبتىّ وساقىّ بسبب الوقوف مدة طويلة ، وكنت أريد أن أجلس بضع دقائق لآخذ قسطًا من الراحة ، وتخف الآلام ، لكن كيف السبيل إلى ذلك وليس هناك مقعد ، هل أجلس على الأرض ؟ ! ونظرت إلى بعيد فوجدت فى آخر الساحة المجاورة جنديًا عملاقًا من الحرس ، وبالقرب منه مقعد صغير ، فتوجهت نحوه وقلت : « هل تسمح لى بالجلوس بضع دقائق ؟ » .

قال برقة : « تفضل ..» .

ومرت بضع دقائق ، شاهدت بعدها الرئيس يغادر الحفل حوله كوكبة من الرجال الكبار فى السلطة ، وأصابنى ارتباك شديد ، ذلك لأن الحرس قد يشك فى وجودى وحدى فى هذا المكان ، فماذا ستكون النتيجة لو حدث هذا الشك ، ونهضت من مقعدى واقفًا بهدوء حتى لا أثير الريبة ، ووقفت وقلبى يدق ، وعندما اقترب الرئيس من موقعى وجدت فتاتين تجريان خلفه ، فوقف وقال لهما : « ماذا تريدان ؟ » .

- « نريد صورة تذكارية معك يا سيدى الرئيس » .

قال : « وأين المصور ؟ » .

ولم يجدوا المصور ، فابتسم الرئيس وقال : « خلاص .. مرة ثانية » .

وانفض السامر ..

قلت للأستاذ باكثير بعد أن عدت إليه : « دمى نشف ، وجف ريقى وأنا أقف وحدى والرئيس قادم » .

قهقه الأستاذ باكثير وقال : « لماذا تضع نفسك موضع الشبهات ؟ أأنت موعود بالمشاكل ؟ » .

- « وعد ومكتوب يا أستاذ .. الحمد لله .. جاءت سليمة » .

وفى إحدى الأمسيات دعينا لطعام العشاء فى السفارة السوفيتية ، وفكرت فى عدم الذهاب ، ولكنى عدت وقررت الذهاب لمجرد حب الاستطلاع ، وهناك رأيت عددًا من شباب الكتاب الشيوعيين الذين أعرفهم فى قمة النشوة والسعادة ، قلت لأحدهم : « ماذا جرى يا عبد الفتاح ؟ » .

قال لى فى حماسة : « اسكت .. سوف أشرب « الفودكا » الروسية الشهيرة أنا والرفاق ، لقد قرأنا عنها فى قصص دستوفسكى وتشيخوف وجوجول ومكسيم جوركى وغيرهم » .

قلت له : « وماذا تكون الفودكا ؟ إنها شراب ملعون كالخمر التى تشربونها هنا » .

- « لا تخض فى أمور لا تعرفها ، ولا تتدخل فيما لا يعنيك .. الفودكا للشيوعى مثل التعميد للمسيحى ..» .

والتقيت فى أحد الاحتفالات الأخرى بأديب الأطفال الشهير « شوجوكويد » ، وكان رجلًا متقدمًا فى السن ، تبدو عليه الدعة والحكمة والوقار ، وكان يحظى باحترام وتقدير جميع أعضاء الوفد اليابانى الذين قدموه إلىّ ، وقالوا أنه كتب للأطفال حتى الآن ما يربو على مائة وست قصص للأطفال من أفضل ما يمكن ، وأن جميع الأطفال فى اليابان يحبونه حبًا جمًا ، وكان الرجل يتكلم الإنجليزية ببساطة ووضوح ، وأخذ يجاذبنى الحديث عن قصص الأطفال فى مصر وأعلامها المشهورين ، ويطرح الأسئلة حول هذا الموضوع ، ثم أخذ يسألنى عن الأساطير الفرعونية ، وهل جمعت فى كتاب باللغة الإنجليزية أم لا ، ثم طلب منى أن أرسل إليه هذا الكتاب إذا وجدته ، وودعته بعد أن أخذنا الصور التذكارية . وأثناء الاجتماعات العامة ، كانت هناك فواصل زمنية قصيرة لمدة ربع أو ثلث ساعة ، نلتقى ونتعارف مع الكتاب الأجانب فى تلك الفسحة ، وذات مرة رأيت الأستاذ رجاء النقاش قادمًا ومعه المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ، وثالثهما مستشرق روسى لا أتذكر اسمه الآن وقال رجاء النقاش : « إنهم يرغبون فى ترجمة بعض قصصك للروسية ، فاختر لهم الرواية المناسبة » .

قلت : « أنت تعرف مؤلفاتى ، لدى « اليوم الموعود » و « الطريق الطويل » و « الربيع العاصف » وهناك مجموعات قصص قصيرة ..

قال رجاء : أفضل « الطريق الطويل » .

- « لماذا ؟ » .

- « لأنى أشم فيها رائحة الأرض والفلاحين ، وفيها تصوير صادق لحياتهم » وكان رجاء النقاش قد كتب مقالة نقدية فى مجلة الإذاعة عن هذه الرواية وهى أول رواية كتبتها فى حياتى ، ونلت عليها ، كما قلت من قبل ، جائزة وزارة التربية ، ثم قررتها الوزارة فى عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦١ على الصف الثانى الثانوى .

وقد وافق الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى على هذا الاقتراح .

والواقع أننى كنت فى دهشة من هذا الأمر ، فالجميع يعرفون أننى من أصحاب الاتجاه الإسلامى ، وأننى خارج من السجن منذ فترة تناهز العامين ، ولو كان الذين يترجمون الرواية من دول أخرى غير

دول الكتلة الشرقية لما عجبت ، وهذا ما حدث فعلًا عندما طلبوها لترجمتها إلى الإيطالية فيما بعد ، ورجحت أن موضوع « الطريق الطويل » واحتفاءها بمآسى الفلاحين ومشاكلهم والظلم الواقع بهم ، وكذلك تركيز الرواية على آثار الحرب العالمية الثانية على القرية وما خلفته من معاناة ، ربما كان ذلك هو الذى دفع إلى ترجمتها . وفعلًا أحضرت لهم نسخة منها وسلمتها للأخ رجاء النقاش الذى قام بدوره بإعطائها للأديب الروسى الذى سبق وتعرفت عليه ، ولعله من المفيد أن أشير إلى أن هذا الأديب الروسى كان يتكلم الإنجليزية ، ومن ثم كانت الفرصة مهيأة للحوار قال لى : « ما رأيك فى الاتحاد السوفيتى ؟ » . لم أشر فى البداية إلى قضية الدين ، ولكنى قلت له : « إنكم تهدرون الحريات ، وتنتهكون حقوق الإنسان » .

- « هذه دعاية استعمارية إمبريالية ، هل تذكر لى واقعة واحدة » .
- « العالم كله يعرف مأساة الكاتب السوفيتى « بوريس باسترناك » الذى نال جائزة « نوبل » عن روايته « دكتور زيفاجو » ، فأولًا أنتم منعتم نشر روايته فى بلدكم ، وثانيًا لم تسمحوا له بأن يتسلم الجائزة ، وحاولتم إلصاق التهم به ، والحد من حركته وإبداعاته ..» .

نظر إلى وجهى فى تمعن وكان يلبس نظارة طبية بيضاء ، ثم قال : « فى بلدكم ، ماذا تفعلون بأى كاتب معارض يهاجم دولته وزعماءها ؟ » .

فى البداية ، لم أدر بماذا أجيب ، فالموقف شائك ، ربما لو تكلمت بصراحة لكان ذلك مدخلًا إلى المشاكل التى أحاول تجنبها ، فقد تصل كلماتى إلى مسامع السلطة ، ولو سكت لكان ذلك إقرارًا بالإجراءات القمعية التى يتخذها الحكام فى الاتحاد السوفيتى ، ووجدتنى فى النهاية أقول له : « نحاكمه ، ونرمى به وراء الشمس » .

- « نحن لم نحاكم باسترناك ، ولم نضعه فى السجن » .
- « الأمور لا يُنظر إليها على هذا النحو » .
- « كيف ؟ » .
- « يجب أن تكون الحرية مكفولة للجميع عندنا أو عندكم » .
- « أرجو ذلك ..» .

ومن الشخصيات التى لفتت نظرى فى المؤتمر الشاعر التركى « ناظم حكمت » الذى صُنِّف فى جانب اليساريين ، ولم تكن هناك فرصة لحوار عميق معه ، لكننا كنا نستمع إلى أحاديثه الرقيقة ، وكان رجلًا سمحًا طيب المشاعر ، معظم قضايا شعره تنحاز إلى الإنسان المعاصر المقهور ، الذى طحنه الظلم والفقر ، وكان مديد القامة ، طلق الوجه ، مبتسمًا دائمًا ، مقبول المظهر والملاحم ، أنيقًا مهذبًا ، ولم يكن شعره يصرخ بالشعارات الحزبية أو السياسية ، بل نستطيع القول أنه شاعر إنسانى المذاق ، وقد مات فى منفاه منذ سنوات . ولقد تم توزيعنا من خلال لجان المؤتمر ، وكان نصيبى فى « لجنة الترجمة » ومن بين أعلامها فى تلك الفترة الدكتورة سهير القلماوى والأستاذ خلف الله (وهو غير خلف الله الكاتب العلمانى الذى أثار ضجة بكتاباته) ، والأستاذ حلمى مراد صاحب سلسلة « كتابى » الشهيرة المترجمة وغيرهم ، وقد أنجزت هذه اللجنة عددًا من التوصيات الهامة فى مجال الترجمة لا يتسع المقام لسردها ولقد لفت نظرى ما قامت به الدكتورة سهير القلماوى من جهود ، وما قدمته من أفكار ، كانت تتكلم بالإنجليزية فى المؤتمر ، ولكنها فى نفس الوقت إذا سمعت خطأ فى الترجمة الفرنسية بادرت بتصحيحه على الفور باللغة الفرنسية ، وكذلك بالنسبة للغة العربية .

ومن الأمور التى لا أنساها فى هذا المؤتمر صحبتى الدائمة مع الأستاذ نجيب محفوظ ، فكنا نجلس متجاورين طوال جلسات المؤتمر العامة ، ونتناقش ونعلق ، والواقع ، والحق يقال ، أن صحبته ممتعة وثرية ، فهو قليل الكلام ، دقيق الملاحظة ، موجز التعليق ، لا تشعر معه بملل أو حرج ..

لقد مر على هذا المؤتمر ثلاثة عقود من الزمان أو أكثر ، ومع ذلك فإن أحداثه ما زالت محفورة فى ذاكرتى ، فقد جاء فى بدايات حياتى الأدبية ، وكان أول لقاء موسع أحضره فى مجال الأدب ، مع اتجاهات وتيارات عدة ، ضمن وفود أكثر من خمسين دولة أفريقية وأسيوية ، وكان هذا المؤتمر يغلب عليه الطابع اليسارى فى جملته ، وإن اشترك فيه أفراد من الكتاب لهم هويتهم وخصوصيتهم ، والحقيقة أننى لم أشهد بعد ذلك - على كثرة المؤتمرات التى حضرتها - مؤتمرًا على نمطه من حيث الموضوعات والحوار والتوصيات ، ولم نفكر فى عقد مؤتمرات للأدب الإسلامى إلا فى الثمانينيات من القرن العشرين ، مع أننى دعوت إلى ذلك فى بداية عقد الستينات ، والحمد لله أن أمنيتى قد تحققت ..

قبل التخرج من كلية الطب وفى عام ١٩٥٩ أعلن عن مسابقة فى المجلس الأعلى للآداب والفنون ، فى الرواية والمسرحية ، حول الحروب الصليبية ، حملة لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط والمنصورة ، إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجه « شجرة الدر » . ثم أسر الملك الصليبى لويس ، ووضعه فى « دار ابن لقمان » بالمنصورة ، وكانت جوائز المسابقة كبيرة ، ووجدت لديّ رغبة شديدة فى الاشتراك بهذه المسابقة ، لكن المشكلة التى كانت تواجهنى هى الامتحان النهائى (درجة بكالوريوس الطب والجراحة) ، وكان قد اقترب موعده ، وأنا أريد أن انتهى من الدراسة بسرعة بعد الفترة الطويلة التى ضاعت بسبب بقائى فى السجن قبل ذلك ، ومع ذلك وجدتنى مدفوعًا دفعًا لا يقاوم للاشتراك فى المسابقة وخرجت إلى المكتبات كى أبحث عن المراجع التاريخية المختلفة التى تمهد لى الطريق للكتابة ، وإذا كان التاريخ علم فإن القصة الأدبية فن ، له أصوله وتقاليده ، ومعنى ذلك أن التاريخ لابد أن يُهضم ويُتمثل حتى تأتى الرواية عملًا فنيًا مقنعًا .. اشتريت الكثير من المراجع التى وجدتها فى المكتبات ، ولكن قد يعجب القارئ عندما يعلم إننى عثرت على كتاب صغير ثمنه قرشان فقط وجدته على سور الأزبكية ، يتكلم عن هذه الحرب من الوجهة العسكرية ، وبه رسوم عن السفن وآلات الحرب فى تلك الفترة التاريخية ، وكان هذا الكتاب من تأليف خبير عسكرى مشهود له بالكفاءة من رجال القوات المسلحة قبل ذلك ، وله العديد من المؤلفات فى هذا المجال .

وأخيرًا توكلت على الله وبدأت كتابة الرواية ، وكنت أقسّم وقتى بين الكتابة فى الرواية ، والمذاكرة استعدادًا لامتحان البكالوريوس ، وبعد أن كنت كتبت ثلاثة فصول ، وثبت إلى ذهنى فكرة وأنا أركب الترام من القصر العينى إلى حى « شبرا » الذى كنت أسكن فيه ، هذه الفكرة هى أن أضع فى الرواية شخصية غجرية تغنى وترقص ، وتستطيع الدخول إلى معسكر الصليبيين ، لتنقل الأخبار للمجاهدين ، وهى فى الواقع فتاة مصرية ادعت أنها غجرية لتحقق غايتها ، والمعروف عن الغجر أنهم لا ينتمون لوطن ، بل انتماؤهم الشديد يكون لجنسهم ، وهذا ما يعرفه الفرنجة بالتأكيد ، وكانت هذه الغجرية « ياقوتة » أو « زمردة » على علاقة عاطفية بأحد قادة الشباب المجاهدين ، وكنت وأنا فى الترام أسجل بعض الملاحظات والحوارات الخاصة بهذه الفتاة ، وما إن وصلت إلى مسكنى حتى ألقيت بكتب الطب جانبًا ، وبدأت فى الكتابة تحت وطأة الحماسة القائمة ، ولم أضيع وقتًا ، ومن العجيب أن هذه الشخصية ، قد أعطت للرواية نكهة شهية ، وأمدتها بالكثير من الجاذبية والتشويق ، وتمت كتابة الرواية بحمد الله ، ثم نسختها على آلة الطبع من ثلاث نسخ ، واستطعنا أن نقدمها فى آخر يوم من الموعد

المحدد ، وبعد بضعة شهور كنت ذاهبًا إلى الكلية فى الصباح كالمعتاد ، واشتريت صحيفة الأهرام ، وأخذت أتصفحها واقفًا حتى يأتى الترام ، وفجأة وقعت عيى على نتيجة المسابقة .. الحمد لله ، . لقد فازت ( اليوم الموعود ) بجائزة أفضل رواية ، وفاز فى المسرحية الأستاذ يعقوب الشاروني والأستاذ على أحمد باكثير ، ثم كانت هناك جوائز تشجيعية أقل قيمة من الناحية المالية للشاعر الكبير محمود غنيم والأستاذ « على شلش » والأستاذ عبد العاطي جلال ، والأستاذ إبراهيم مصباح على ما أتذكر ، ووضعت يدى فى جيبى فلم أجد غير خمسين قرشًا (نصف جنيه) فأخرجتها وأعطيتها لبائع الصحف فى الميدان ، وهو صديق أتعامل معه من قديم ، ولم يكن يعلم السبب ، فأريته الجريدة ففرح وأخذ يعانقنى فى ود ، ولم أركب الترام، بل عدت إلى مسكنى فى شارع « كنيسة الراهبات » ، ودققت الجرس ، ففتحت أمى - رحمها الله - الباب ، وكانت عندى فى زيارة ، ونظرت إلى قائلة : « لماذا رجعت ؟ » ، فرويت لها ما حدث ، فإذا بها تطلق زغرودة عالية ، وأخذت تقبلنى وأقبّل يدها ، ونحمد الله على فضله ، ثم قالت : « أرسل لأبيك برقية حتى يفرح » .

- « سوف يقرأ الناس الخبر فى القرية ، وسيعرف » .
- « الحمد لله .. كنا قد أفلسنا ..» .
- « سوف نقترض على حساب الجائزة » .

وضحكنا ، ثم تركتها مودعًا متجهًا إلى الكلية ، حيث استقبلنى الأصدقاء استقبالًا حافلًا .. كان « المانشيت » . أو العنوان . المكتوب فى الأهرام على ما أذكر .

« أبطال بلدنا ، ودار ابن لقمان ، واليوم الموعود تفوز بالجائزة » .

وكنت قد اخترت لروايتى عنوان « اليوم الموعود » ، وكان لنتيجة هذه المسابقة صدى كبير فى الأوساط الأدبية بالقاهرة ، وكان الناشرون يفضلون نشر الرواية على المسرحية ، ولهذا قدم إلى عدد كبير منهم ، بينما لم يجد الزملاء الفائزون فى المسرحية بهذا الترحيب ، واتفقت مع « دار القلم » وصاحبها الأستاذ محمد المعلم على نشر الطبعة الأولى ، وتسلمت منه مقدمًا مبلغًا من المال قبل أن أتسلم الجائزة ، ووفد إلى بيتى عدد لا بأس به من المعارف يريدون الاقتراض ، ولو حسبت مجموع القروض المطلوبة لوجدتها تفوق الجائزة ، وقدمت للبعض ما استطعت . وكان علينا أن نتسلم الجائزة من الرئيس جمال عبد الناصر فى احتفال كبير يقام فى مدينة المنصورة ، يحضره كبار رجال الدولة والمحافظة والفائزون الثلاثة ، أنا والأستاذ باكثير والأستاذ يعقوب الشاروني (شقيق الأديب المعروف يوسف الشاروني) ، وتسلمنا بطاقات خاصة ، وسافرنا فى قطار إلى المنصورة حيث خرجت جموع حاشدة على جانبي خط السكة الحديد ، لتحية موكب عبد الناصر ، وفى المنصورة نزلت ضيفًا على أسرة الصديق الأديب الحبيب الدكتور محمد حسن عبد الله حيث غمرتنى بكرم الضيافة والمشاعر الطيبة التى لا تنسى .

أقيم الاحتفال الكبير فى ديوان محافظة الدقهلية بالمنصورة ، واصطحبنا الأساتذة يوسف السباعى ، ومهدى علام ، وسعيد العريان إلى المنصة ، ووقف الرئيس يلقى خطابًا هامًا بهذه المناسبة ، ولم يكن انتصار مصر على الصليبيين بالشيء الهين ، أما نحن الثلاثة فقد جلسنا على يسار موقف الرئيس ، وخلف الرئيس تراص أعضاء الوزراتين المركزية والتنفيذية إبان الوحدة مع سوريا ، وكان عددهم كبيرًا ، ولاحظت أن زكريا محيى الدين ، وعبد الحميد السراج (سوريا) يجلسان متجاورين ، لكن السراج وضع ساقًا على ساق ، بحيث أصبح حذاؤه متجهًا صوب زكريا الذى بدا الضيق على

وجهه، فبادر هو الآخر بوضع ساق على ساق، وهكذا أصبح الحذاءان متقابلين، ويكادان يلتصقان، وثبت الوضع على هذه الصورة..

وطال خطاب الرئيس، فقد تشعب إلى قضايا سياسية واقتصادية وفكرية متنوعة، والجماهير تهدر في حماسة، مال عليّ الأستاذ علي أحمد باكثير وقال: «أشعر بظمأ شديد، ماذا نفعل؟».

- «لا بد أن نصبر حتى ينتهي خطاب الرئيس..».
- «قلت لك يا نجيب لا أستطيع، أنا مريض، ولابد أن أذهب إلى دورة المياه».
- «لن يسمح لنا أحد بالحركة ...».

ولكنى وجدت حارسًا على مقربة منا فأشرت إليه فأتي، وهمست فى أذنيه بأن الأستاذ مريض ويريد أن يشرب، قال الحارس: «دورة المياه أسفلنا، ويمكن أن آخذه إلى هناك».

وجاء الفرج، وخاصة أننا كنا قد استلمنا الجائزة، ونلنا التكريم المطلوب.. ونزلت أنا والأستاذ باكثير إلى أسفل بصحبة الحارس، وتركنا يعقوب وحده جالسًا. شربنا فى دورة المياه، وغسلنا وجوهنا وأيدينا، وبقينا فيها لا نستطيع الخروج حتى انتهى الاحتفال، فخرجنا ولحقنا بالموكب أثناء نزوله من شرفة ديوان المحافظة..

وما إن عدت إلى القاهرة بعد ليالى المنصورة الحافلة بالجمال، حتى تفرغت تمامًا للدراسة، ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى وصلتنى رسالة من وزارة التربية والتعليم، تعلمنى فيها بأنها قررت تدريس «اليوم الموعود» على طلبة الصف الثانى الثانوى، وتطلب منى الحضور لتوقيع العقد واستلام مقدم المبلغ المرصود لذلك، فكان لهذا النبأ أثر طيب جدًا فى نفسي وفى نفس الأسرة والإخوان، ووفقنى الله فى أن أجتاز امتحان الجراحة بنجاح، ولم يبق إلا امتحان الأمراض الباطنية بعد ستة شهور. وبعدها أنال درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة، وعلى الرغم من هذه الظروف الدراسية الصعبة إلا أننى واصلت الكتابة فى عدد من الصحف والمجلات فى الداخل والخارج، فقد أصبحت الكتابة جزءًا لا يتجزأ من حياتى لا أستطيع تجاهلها، وكنت أفعل ذلك فى أوقات الراحة، حينما أشعر برغبة قوية فى التعبير عن فكرة أو رأى..

فى هذه الفترة أصدرت كلية الطب مجلتها السنوية، واختارونى أحد المحررين بها، ومن الطريف أن هذه المجلة، أعنى مندوبها، أتى إلى ندوة نجيب محفوظ، وأجرى حديثًا قصيرًا معه، ثم طلب منه أخذ صورة تذكارية لنجيب وأنا، ونشرت المجلة هذه الصورة، وكتبت تحتها «النجيبان ...».

وكانت علاقتى فى هذه الفترة متوطدة مع عدد من الأدباء الكبار الذين تعلمت منهم الكثير، وهذا حق، وكان تعلمى من خلال قناعاتى ومعتقداتى التى كنت أحافظ على جوهرها كما أحافظ على حياتى، بل أكثر، إن أفكار الأساتذة الكبار لا تلغى شخصية التلميذ، بل تدعمها وتقويها، ولا تخرج به عن دائرة قناعاته دائمًا، بل ربما يكون العكس، المهم أن يكون التلميذ واعيًا، مدركًا لأهدافه، متمثلًا لأفكاره، مقتنعًا بها، ويحاول أن يستفيد الكثير مما وراء ذلك، إن اتجاهات عدة تخرج من تحت عباءة المفكر أو الفيلسوف أو الفنان، وبعض هذه الاتجاهات قد تخالفه فى كثير مما يؤمن به، وهذا لا يلغى دور الأستاذ ولا أثره، ونفس الشيء بالنسبة للأصدقاء الذين أرتبط بهم، فقد كان فيهم اليسارى واليمينى، والمسلم والمسيحى، بل واليهودى، كانت علاقات إنسانية، لا تلغى الفروق، ولا تذيب حدود التباين الفكرى والمعتقدى، لكنها كانت بالتأكيد ذات فائدة، ذلك لأن «الآخر» مهما كان لونه وميله يعتبر مصدرًا من مصادر المعرفة، ولم يزل هذا دأبى حتى كتابة هذه السطور،

ولا أظننى سأتزحزح عن هذا الموقف فى قابل ما تبقى لى من عمر ..

ومن العجيب أن عددًا من هؤلاء الأصدقاء، بل والأساتذة، قد طرأ على مواقفهم الفكرية بعض التغيير أحيانًا، والبعض الآخر قد تحول تمامًا إلى موقف جديد يختلف تمام الاختلاف عن الموقف القديم، ولذلك كنت أنادى دائمًا بأننا لا يصح أن نحكم حكمًا نهائيًا على صاحب فكر، من خلال موقف واحد له، ربما يتحول عنه فيما بعد ..

نعود مرة أخرى إلى رواية «اليوم الموعود» فقد أرسلت إليّ مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى تطلب الموافقة منى على إنتاجها فيلمًا سينمائيًا بالألوان، وهى مؤسسة «قطاع عام» شبه حكومية، وهى المنتج الوحيد فى تلك الفترة بعد تأميم صناعة السينما فى مصر على يد رجال الثورة، كان ذلك فى عام ١٩٦٣، وتم التعاقد.

ومن الطريف أن أذكر أن أجرى فى هذا الفيلم كان مائة جنيه فقط تصرف على دفعتين، ومرت فترة طويلة من الزمن دون أن يخرج الفيلم إلى النور، وكانت الحجة التى تساق فى تلك الأيام، إنه يحتاج إلى تكلفة تربو على مليون جنيه، لأنه فيلم تاريخى، وفيه معارك، والمبلغ كبير آنذاك، ثم تدخل الشيوعيون الذين يعملون فى المؤسسة، وأجهضوا المحاولة بحجج واهية، كما أخبرنا واحد منهم كان اسمه أبو بكر الشرقاوى، وفى عام ١٩٧٣ بدأت إذاعة الكويت بإنتاجها حلقات إذاعية لمدة شهر يوميًا، بإعداد الأديب عابدين بسيسو، ثم حولت حقى المادى إلى المجهود الحربى فى حرب ١٩٧٣، وبعد ذلك بسنوات تم إنتاجها حلقات تليفزيونية (إنتاج مصرى ليبى مشترك)، وكتبت الصحف والمجلات باستفاضة عن هذا المسلسل الذى يقوم ببطولته الممثل أحمد عبد العزيز، والممثلة إيمان الطوخى، ومعهما أمينة رزق الممثلة الكبيرة، وليلى طاهر وغيرهم من نجوم من تونس والجزائر وسوريا، وقد ذكر أن إنتاج المسلسل سيتكلف ثلاثة ملايين جنيه، وسيشترك فيه خمسة آلاف كومبارس، وقد جرى التصوير فى مواقع المعارك الحربية فى دمياط والمنصورة، ولم يتم عرض المسلسل بعد حتى كتابة هذه السطور.

وفى خلال تلك الفترة أيضًا (١٩٥٩ - ١٩٦٥) قدمت الإذاعة المصرية بعض التمثيليات، منها خماسية عن رواية «فى الظلام». إن كثيرين من الخبراء يعتقدون أن معظم رواياتى، بل وقصصى القصيرة، صالحة جدًا للسينما والتليفزيون، ومع ذلك فإن عددًا من المعادين لفكرنا يتربصون بنا الدوائر، ويقفون حجر عثرة فى الطريق، ولم ينتج للتليفزيون قبل ذلك إلا مسلسل روايتى «الذين يحترقون» فى ١٣ حلقة، وكان المنتج هذه المرة هو تليفزيون دبى، وقد شاهدها الإخوة فى أنحاء العالم العربى ما عدا مصر، ذلك لأن الرقابة منعت عرضها بحجة أنها توجه نقدًا لاذعًا لبعض أنواع الخدمات (الصحية)، وقامت إحدى عضوات مجلس الشعب فى مصر بهجوم على المسلسل، وعلى المؤلف وعلى المخرج واعتبرته بمثابة «نشر غسيلنا الوسخ» فى الخارج، وشاركها فى ذلك بعض الصحفيين، مع أن الرواية نشرت فى مصر قبل ١٢ عامًا من إنتاجها للتليفزيون.

❁❁❁

# [٦] لقاء مع سيد قطب



عرفت سيد قطب أول ما عرفته من خلال مؤلفاته ومقالاته فى الصحف والمجلات ، كان يكتب فى جريدة « الاشتراكية » وفى « الرسالة » وفى غيرهما قبل أن ينضم إلى الإخوان المسلمين ، وكان على حد تعبير الأستاذ سليمان فياض فى مجلة الهلال مجددًا فى أسلوب العربية ، مثلما كان طه حسين مجددًا بطريقة أخرى ، وكانت سطوره تصرخ بالقوة والثورة على الأوضاع الفاسدة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ، التقينا معه لقاء الروح والقلب والفكر قبل أن التقى به شخصًا لشخص ، وكان فى محاضراته وخطبه واضح العبارة ، عميق التأثير ، قادرًا على الحوار والإقناع ، وكان يفسح صدره لمن يحاوره ، واثقًا بفكره وإيمانه ، رأيناه فى مدرجات الجامعة متكلمًا فى المناسبات الوطنية والإسلامية ، ورأيناه فى الاجتماعات العامة للإخوان المسلمين محللًا ومربيًا ، وفى قسم نشر الدعوة بالمركز العام موجِّهًا حصيفًا ، وعندما صدر ضده حكم بالسجن فى عام ١٩٥٤ أودع سجن طرة ، ثم أتينا بعده وأودعنا سجن أسيوط ، ثم سجن القناطر ، ثم سجن القاهرة .

ولقد كانت تربطنى بشقيقه الأستاذ محمد قطب فى تلك الفترة (١٩٥٩ - ١٩٦٥) صلة أخوية وثيقة ، فقد كان محل ثقتى واحترامى وتقديرى ، ولم أكن أخفى عنه أغلب خصوصياتى ، وقبل ذلك جاءت شقيقته الفاضلة عام ١٩٥٨ إلى مستشفى القصر حيث كنت أخرج من السجن للعلاج هناك ، وأعود إلى السجن مرة أخرى بعد الظهر ، أقول جاءت ومعها « عقد اتفاق » من مكتبة مصر لنشر روايتى الأولى « الطريق الطويل » ، وقد وقعت العقد مع هذه الأخت المحجبة والمنقبة دون أن نتبادل سوى كلمات قليلة . وبعد خروجى من السجن فى المرة الأولى بعفو صحى ، التحقت بالكلية مرة أخرى ، وتزوجت وتخرجت وعملت طبيب امتياز ، وذات يوم قدم إلى الأخ محمد نشنوش صاحب « دار النور » للنشر والتوزيع فى طرابلس ، وكنت قد نشرت لديه ثلاثة من كتبى ، وأبدى رغبة شديدة فى زيارة الأستاذ سيد قطب بالقصر العينى حيث كان مقيمًا هناك للعلاج تحت الحراسة المشددة ، واحترت ماذا أفعل ، لو أن رجال الأمن أمسكوا بى زائرًا له لكانت كارثة ، وخاصة أننى تعهدت عند الإفراج عنى بعدم الاتصال مع أحد من الإخوان وخاصة ذوى المكانة ، وذهبت إلى الأستاذ محمد قطب لنتبادل الرأى ، فكان أن حدد لى وقتًا بعد الظهر ، وهو وقت آمن لزيارة شقيقه ليست فيه مخاطرة تذكر ، وأخبرنى بأنه سوف يكون متواجدًا هو الآخر ، وفى الوقت المحدد أخذت زوجتى السيدة كريمة شاهين ، والأخ الليبى محمد نشنوش ، وتوكلنا على الله وذهبنا إلى موعدنا ..

كان لدى باب الحجرة والنافذة شرطيان لا يبدو عليهما الاكتراث لشيء ، ودخلنا ببساطة ، واستقبلنا الأستاذ سيد رحمه الله بابتسامة ودود ومحبة صادقة ، وكان شقيقه الأستاذ محمد يقف إلى

جواره ، وجلسنا نتحدث فى شتى الموضوعات ، وكان معظم حديثى ، كما سبق وشرحت فى أحد كتبى السابقة ، عن الأدب الإسلامى ، كان يستمع باهتمام وخاصة عندما ذكرته بأن كتابه فى النقد الأدبى يُفهم منه أنه يميل إلى نظرية « الفن للفن » ، فأوضح لى أن الطبعة الجديدة من هذا الكتاب فيها تعديل ، وسأجد فيها بغيتى ، ثم طلب من شقيقه أن يهدينى نسخة من هذه الطبعة ، وكان إلى جواره بعض مؤلفاتى فى القصة ، فأمسك بها وأخبرنى أنه لم يقرأها بعد ، وسوف يكون ذلك فى وقت قريب إن شاء الله ، ولا أتذكر ماذا كان مضمون حديثه مع الأخ الليبى . ووجدت زوجتى تنظر إليه بألم وتكاد تبكى ، كانت قليلة الخبرة بأمور الصراعات السياسية ومشاكلها ، وكانت فى حوالى العشرين من عمرها ، لم تكمل تعليمها الجامعى بعد ، ووجدتها تقترب منه وتقول له : « أنت مريض ، وفى حاجة إلى الراحة والعلاج ، فلماذا لا تعقد صلحًا مع الحكومة وتخرج؟ ». فابتسم لبراءتها وصدق مشاعرها وقال : « الحكومة فكرت فعلًا فى التفاهم معى ، لكنهم طلبوا أن أسجل رأيى فى الثورة وسياستها ، وطبعًا كانوا يتمنون أن أعلن تأييدى صراحة حتى يفرجوا عنى ، ولكنى قلت لهم إنه من الأليق بهم أن يأخذوا رأى رجل حر ، وليس سجينًا ، إن قلت لكم ما يرضيكم ، فستقولون أننى فعلت ذلك لكى يفرج عنى ، وإن قلت غير ما تريدون فلن يتغير الوضع بالنسبة لى ..» .

وهزت زوجتى رأسها فى حيرة ، لكنى تدخلت واعتذرت له عما قالته ، بحجة أنها ليس لديها بعد دراية بمثل هذه الأمور التى لم تمر بتجربتها ، ثم استأذنا وخرجنا وتركت الليبى معه .

وصدرت الطبعة الجديدة من الكتاب ، وبها التعديل النظرى الهام ، الذى أعطى الأدب الإسلامى مفهومًا موجزًا واضحًا ، وإن بقيت النماذج الاستشهادية كما هى ، ثم صدر بعد ذلك الكتاب الموسع الشامل لشقيقه الأستاذ محمد قطب تحت عنوان « منهج الفن الإسلامى » ، وهو يعتبر بحق من عمّد نظرية الأدب الإسلامى ، وقد اتفق معه شقيقه فى المفهوم الشامل لهذا الأدب ، ولقد كان حماسى لهذا الكتاب كبيرًا على الرغم من أننى كتبت فى مقدمة كتابى « الإسلامية والمذاهب الأدبية » بعض الملاحظات على هذا الكتاب القيم .

وعندما زار « خروشوف » مصر لافتتاح « السد العالى » أُفرج عن الشيوعيين المعتقلين قبل أن يصل الزعيم السوفيتى إلى القاهرة ، وبعد ذلك توسط أهل الخير من كبار الشخصيات فى الدول العربية ، مطالبين بالإفراج عن سيد قطب أسوة بالإفراج عن الشيوعيين ، وخرج سيد قطب من سجنه بعد أن قضى فيه أكثر من ثمانى سنوات ، وعاد إلى بيته لا ليخلد إلى الراحة ، بل ليواصل إكمال كتابه « فى ظلال القرآن » ، وليعقد الندوات فى بيته ، ويسجل أفكاره فى كتب جديدة ، وبدا أعنف وأقوى مما كان ، وكان كتابه « معالم فى الطريق » هو الانفجار الكبير الذى أحدث دويًا هائلًا فى الأوساط الفكرية والثقافية والسياسية فى مصر والعالم العربى ، وكذلك جاء كتاب شقيقه محمد قطب تحت عنوان « جاهلية القرن العشرين » ، وبصرف النظر عما قيل حول هذين الكتابين الخطيرين من انتقادات وتحليلات وآراء ، فإن الأمر الذى لا شك فيه أنهما أثارا دويًا كبيرًا فى نطاق واسع داخل مصر وخارجها ، ونتج عن ذلك إعادة اعتقال الإخوان وسيد قطب فى النصف الثانى من عام ١٩٦٥ وبدأت مأساة جديدة لم تكن فى الحسبان ، واتهم سيد قطب وعدد من الإخوان بتدبير مؤامرة واسعة النطاق

لقلب نظام الحكم ، تلك المؤامرة التى قال عنها صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق فى مذكراته أنه لم يجد قضية أصلًا ، واعتذر ، كما قال ، عن تولى أمر قضية سيد قطب ، وأخبر عبد الناصر بأنه لا توجد قضية ، فقال له : « هو كل ما نقول حاجة تعتذر عنها .. خلاص شمس بدران سيتولى الموضوع » . ويمكن الرجوع إلى مذكرات صلاح نصر لمن يريد التوسع فى هذه الناحية الشائكة ..

وقد أراد الله أن أعتقل أنا الآخر فى السادس من سبتمبر عام ١٩٦٥، ولم أكن على ذمة قضية هذه المرة ، بل مجرد معتقل لا تحقيق معه ، وهذا ما سوف نتناوله إن شاء الله فى الجزء التالى من هذا الكتاب ، إذا كان فى العمر بقية ...

❁❁❁

# [٧] فى أسواق الأدب



الواقع أن ريادة المكتبات بالقاهرة بالنسبة لى كان أمرًا مفيدًا لا يقل أهمية عن الذهاب إلى المنتديات الأدبية والفكرية المختلفة ، فهنا أو هناك نلتقى بكبار المؤلفين فى شتى فروع المعرفة والأدب بل والفن بصفة عامة ، وكانت هناك ثلاث مكتبات أذهب إليها على الأقل مرة كل أسبوع ، وهى مكتبة دار العروبة (دار التراث حاليًا) ، ومكتبة وهبة التى كانت تنشر للعديد من المؤلفين ، وخاصة سيد قطب ومحمد قطب وخالد محمد خالد وغيرهم ، ومكتبة الشركة العربية بميدان الأوبرا ، والمكتبات الثلاث فى شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقًا) .

وكانت الفرصة متاحة لأن أجلس منفردًا مع أحد الكتاب وأتبادل معه الحديث على مهل ، فأتزود مما لديه من علم وتجربة ، وقد يجتمع فى المكتبة اثنان مختلفان فى الرأى فيتحاوران وينفعلان انفعالاً متزنًا رصينًا ، وأنا استمع إليهما فى اهتمام بالغ ، ومثل هذه اللقاءات لا تقل أهميتها عن قراءة كتاب من الكتب ، فلا عجب أن ترى الأستاذ محمد قطب إلى جوار الأستاذ خالد محمد خالد ، وهما آنذاك على طرفى نقيض فى التوجه الفكرى ، وربما تقابل عالمًا كبيرًا من علماء الدين أو اللغة أو أى لون آخر من ألوان المعرفة ، فى مكتبة العروبة والتقيت مع المرحوم الدكتور عبد المنعم النمر ، وظلت تربطنا صلة وطيدة حتى وافاه الأجل ، والتقيت بالعلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر ، محقق تفسير الطبرى ، وصاحب مؤلفات هامة فى الفكر واللغة والحائز على جائزة الملك فيصل الكبرى ، والتقيت بالموسيقار زكريا أحمد ، والتقيت أيضًا فى مكتبة الشركة العربية بالأستاذ الكبير محمود تيمور ، والمؤرخ الكبير الدكتور حسين مؤنس ، أما فى نادى القصة فقد التقيت بالأعلام من كتابنا عبد الحليم عبد الله ، يحيى حقى ، أمين يوسف غراب ، د. يوسف إدريس ، يوسف السباعى ، توفيق الحكيم ، وعدد كبير من الشعراء المرموقين آنذاك مثل صلاح عبد الصبور ، فوزى العنتيل ، د . أحمد زكى ، أنس داود ، أمل دنقل ، والشاعر الكبير أحمد رامى ، وكامل أمين ، وأحمد عبد المعطى حجازى ، وآخرين لا تحضرنى أسماؤهم الآن ، بالإضافة إلى شيوخ وشباب النقاد أذكر منهم الدكتور محمد مندور والأستاذ يحيى حقى ، كما التقيت مع عدد كبير من رجال الصحافة ..

أذكر أنه فى أيام الوحدة مع سوريا ، قام المرحوم الأستاذ يوسف السباعى بتنظيم رحلة للأدباء ، والفنانين إلى مدينة غزة قبل احتلالها ، واعتقد أن ذلك كان عام ١٩٦٥ ، وفى اليوم المحدد انطلقت بنا الحافلات شرقًا إلى القنطرة والعريش فى سيناء ، وأخيرًا وصلنا بعد ساعات طويلة إلى مدينة غزة الواقعة على البحر ، ونزلنا فى فندق الأندلس هناك ، وكان هدف الرحلة هو الاطلاع على أوضاع إخواننا اللاجئين الفلسطينيين ، ثم الكتابة عنهم ، والتعبير الفنى عن مأساتهم ، كان معنا من الممثلين يحيى شاهين ، ومن الرسامين بيكار ورخا ، ومن الإذاعيين الأستاذ يوسف الحطاب ، وكان معى طوال الرحلة الأستاذ على أحمد باكثير ، وعدد لا بأس به من الشعراء والكتاب والصحفيين ، وفى نفس الوقت

شاركنا نخبة من كتاب سوريا وفلسطين ، وأذكر أننا التقينا فى هذه الرحلة مع الشاعر الفلسطينى المعروف هارون هاشم رشيد وشقيقه الأستاذ علي ، والأستاذ الناقد الدكتور كامل السوافيرى .

وفى هذه الرحلة رأينا ما يعانيه اللاجئون رأى العين ، مساكنهم الضيقة الواهنة ، كدحهم من أجل الرزق ، ملابسهم الرثة ، الأخطار المحدقة بهم صباح مساء ، وتردى الخدمات الصحية ، وعلى الرغم من صبرهم وصمودهم إلا أنهم يكادون يفقدون الثقة في إخوانهم العرب ، فمنذ حرب ١٩٥٦ والأحوال راكدة ، والقضية لا تتحرك ، قال لنا أحد اللاجئين أنهم يستقبلون وفودًا لا تعد ولا تحصى من العالم العربى والإسلامى ومن خارجهما ، والجميع يطمئنونهم على مستقبل قضيتهم ، لكنهم حتى الآن لا يرون بصيصًا من النور ، إن الكلام كثير ، والفعل قليل ، ومع ذلك فهم يأملون فى أن تتحرك مصر ودول الطوق لنجدتهم فى يوم من الأيام .

وكان بعض أعضاء وفد الأدباء والفنانين يرتجل الكلمات الحماسية ، مؤكدًا أن يوم النصر قريب ، وأن المعركة لابد آتية ، وأذكر أن الفنان الكبير يحيى شاهين قد استثاره ما رآه ، فألقى خطبة عصماء تفيض بالحماسة والقوة ، وكان اللاجئون سعداء جدًا برؤية أعلام الفن والفكر من النساء والرجال على السواء .

قضينا بضعة أيام نتجول فى القطاع ، ونشاهد المستعمرات اليهودية عن قرب دون أن ندنو منها ، وكانت بيننا حوارات شتى ، وكل يسجل فى مذكراته بعض الأفكار ، حتى الرسام بيكار شاهدته وهو يخطط لوحة جميلة بخطوطه المميزة ، وقد لاحظت أن بيكار اهتم جدًا بكتابى عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، والذى كان قد صدر تحت عنوان « إقبال الشاعر الثائر » ، وأخذ يوجه إليّ العديد من الأسئلة حول حياة هذا المفكر الإسلامى وفلسفته ، وبالطبع لم ينس أعضاء الوفد أن يذهبوا إلى أسواق غزة الشهيرة ليشتروا منها الأقمشة والبضائع المستوردة ، وكان إخواننا التجار فى غزة من أذكى وأبرع التجار حسبما رأيت .

أثناء عودتنا إلى القاهرة ، وقع حادث عكّر علينا صفو رحلتنا الجميلة ، فبينما نحن فى جمرك القنطرة وأثناء التفتيش الروتينى ، يبدو أن أحد أفراد الوفد كان معه قطعة من « الحشيش » ، وداخله خوف من أن التفتيش قد يمسك بها ، فما كان منه إلا أن رمى بها جانبًا ، فأمسك به المفتش ، ووقعنا فى ورطة محزنة ، إذ إن رجال الجمرك أخذوا يفتشوننا بدقة ، وأمسكوا بالأديب المتهم ، واحترنا ماذا نفعل ، واستطاع المسئولون عن الرحلة أن يتصلوا تليفونيًا بالأستاذ يوسف السباعى فى القاهرة ، وسرعان ما اتخذ الرجل الإجراءات العاجلة للمجيء إلينا فى القنطرة ، ولا أدرى كيف جاء! المهم أننى رأيته مقبلًا نحونا فى اهتمام . واستطاع بخبرته وذكائه أن ينهى هذه الأزمة ، وأن يطلق سراح صديقنا الأديب المتهم ، ويعود بنا إلى القاهرة بسلام ، ولا أريد فى هذه العجالة أن أتعمق هذا الحادث ، ولكنى أتذكر ما علق به الأخ الصديق الأستاذ على أحمد باكثير قائلًا : « والله يا أخى هذه مهزلة ..» ضحكت وقلت : « مهزلة أم مأساة ؟ هل تنوى أن تكتب عنها مسرحية ؟ » ، فلوح بيده ، كعادته ، فى ضيق ، ولم يرد .

كنت – كما سبق وأشرت فى أحد أجزاء هذا الكتاب – قد زرت القدس والضفة الغربية وباقى أرض فلسطين غير المحتلة فى عام ١٩٥٤ أثناء دراستي بكلية الطب . وبهذه الرحلة الأخيرة ، أى بعد حوالى ثمانى سنوات ، زرت قطاع غزة ، مما جعلنى ألمّ عن كثب بأوضاع هذا البلد الحبيب ، وكان حصيلة ذلك من الناحية الأدبية أن كتبت عددًا من الأعمال الأدبية منها :

١- رواية « أرض الأنبياء » .
٢- رواية « عمر يظهر فى القدس » التى ترجمت إلى الإنجليزية وعدد من اللغات الشرقية .
٣- رواية « دم لفطير صهيونى » وهى خاصة باليهود وبعض معتقداتهم المأساوية .
٤- عدد من القصص القصيرة ، بعضها فى مجموعة « عند الرحيل » .
٥- بعض أجزاء فى روايات أخرى لى مثل « الطريق الطويل » و« رمضان العبور » وغيرهما .

وفى أثناء الرحلة وقف الفنان يحيى شاهين يتحدث مع باكثير حول عظمة فيلم « سلّامة » الذى كتب قصته ، والذى مثلته أم كلثوم ، وأبدى يحيى شاهين رغبته فى أن يقوم الأستاذ باكثير بكتابة فيلم جديد عن « الزبير بن العوام » ، فهز الأستاذ باكثير رأسه دون أن يعلق ، ولما انصرف يحيى شاهين قلت للأستاذ باكثير : « هل ستفعل ؟ » فضحك ، ولم يعلق .

وفى أثناء فترة الامتياز وجهت إلى الدعوات من عدد من مدارس الدولة على مدار عامى ١٩٦٠ ، ١٩٦١ لعقد ندوات عن روايتى اليوم الموعود والطريق الطويل ، ولقد كنت سعيدًا بهذه الندوات لوجودى أمام الأجيال الجديدة الجديدة التى استقبلتنى بمنتهى الحب والحماسة ، أذكر من هذه المدارس :
- مدرسة المتفوقين النموذجية بعين شمس .
- مدرسة المعلمات فى الجيزة .
- مدرسة الأورمان الثانوية بنات .

ولقد كنت مبهورًا بأداء الطلبة والطالبات وهم يستعرضون الرواية أمامى ، وقد كرمنى أحد أساتذة اللغة بأن ألقى فى تكريمى قصيدة عصماء جميلة ، وكنت غارقًا فى خجلى وأنا أستمع لهذا الإجراء ، وفى كل موقف كنت أتحدث عن الرواية والدافع إلى كتابتها ، وركزت على أن اهتمامى مُنصب على المواقف الحاسمة والهامة فى تاريخ حضارتنا الإسلامية والعربية ، وذكرت أن فترة الحروب الصليبية ، ثم الهجمة الاستعمارية فى العصر الحديث ، ومشروع النهضة المعاصرة ، كلها من الأمور التى تشغلنى فى فكرى وفى أدبى ، فى إطار الالتزام الإسلامى الذى أؤمن به .

ومن الأمور الملفتة للنظر فى هذه الندوات ، أن الطلبة والطالبات (الطالبات بالذات) كانوا يسألوننى عن رأيى فى بعض الكتّاب ، وفى بعض الكتب ، وكانت مؤلفات المرحوم الأستاذ إحسان عبد القدوس تحظى بالنصيب الأوفر من الأسئلة ، ولم يسألنى أحد عن نجيب محفوظ أو باكثير أو السحّار مثلًا ، وكان الأمر يبدو محرجًا بالنسبة لى ، إنك تستطيع أن تتحاور مع أديب أو ناقد ، وتبدى رأيك فيما تقرأ ، ذلك أن الطالبات المراهقات فى الواقع يردن الرأى حول قصص الحب والغرام والعاطفة ، ولا يستطيعون أن يفهموا مدلولاتها البعيدة ، أو رموزها الدالة ، فهم لا يعرفون عن قصص إحسان عبد القدوس إلا العشق والهيام ، ودموع الوله ، ونوبات التمرد على العرف والتقاليد ، ولا يدركون شيئًا من مراميها الاجتماعية والسياسية ، وأنا لا أستطيع أن أمنع أحدًا من القراءة لأحد ، أو أصدر حكمًا بحرق كتاب ، ولكنى كنت أقول لهم :

« إن كل فن أو أدب يرقى بعقولكم ومشاعركم وأذواقكم وأخلاقكم هو المناسب لكم ، وكل ما يحرضكم على الفساد والرذيلة والانحراف فهو فن أو أدب فاسد ، يجب أن تتجنبوه ، وأنتم أدرى بأنفسكم ولن تخدعوها » .

لكن الكثير من الشباب لا يؤمن بهذه الأحكام العامة فى الإجابة ، وإنما يريدون إجابات صريحة محددة مباشرة ، ولذلك كنت أسمع من يقول أن قصص الغرام والإثارة تفسد علينا حياتنا وأخلاقنا ،

وقصص إحسان عبد القدوس فيها الكثير من ذلك ، فيرد عليه آخر يعترض على كلامه ، وتكاد تحدث معركة ..

وأذكر أن إحدى الفتيات فى مدرسة المعلمات بالجيزة ، قدمت إليّ بعد انتهاء المحاضرة ، وواجهتنى قائلة : « هناك قصص لإحسان عبد القدوس وغيره تحرضنا على الفساد ، فلماذا لا تأمر الحكومة بمنعها ؟ » .

قلت لها : « إن إحسان عبد القدوس كاتب سياسى قدير ، وله مواقف سياسية جيدة ، أما قصصه فالأمر متروك للقارىء ، وليس للحكومة ، ثم إن إحسان نفسه بدأ يتغير فى كتاباته ، صحيح أنى لا أستسيغ رواياته وقصصه الأولى ، ولكني آمل أن تكون لديكم الحصانة والوعى لقراءة مختلف المؤلفات ، فإذا كانت لديكم الحصانة الأخلاقية والدينية ، فلن يضركم أى إغراء يتضمنه الفن والأدب » .

ولم يفتنى أن أشير إلى أن الروايات التى تقررها وزارة التربية والتعليم على طلبتها فى مختلف المراحل ، تختار بعناية ودقة ، ويجرى عليها التعديل أو الحزف عند الضرورى ، ولهذا فإن هناك أدباء كبارًا ، لم تختر وزارة التربية مؤلفاتهم لتدرسها للطلبة لخروجها على المواصفات التربوية والنفسية .

فاتنى أن أشير إلى أن ندوة نجيب محفوظ قبل إغلاقها ، ناقشت لى كتابين هما : « اليوم الموعود » ومجموعة قصص « موعدنا غدًا » .

وأذكر أن الأستاذين محمد قطب وعباس خضر قد سجلا أحاديث إذاعية فى نقدى ، كما إن نادى خريجى الجامعة المصرية قد أقام حفل تكريم لى ولبعض الإخوة الأدباء ، وكانت ليلة تكريم تجمعنى أنا والأستاذ على أحمد باكثير ، وفى هذه الأمسية تحدث الأستاذ « محمد قطب » عن روايتى « الطريق الطويل » ، وقارن بينها وبين رواية الأستاذ نجيب محفوظ الباكرة « القاهرة الجديدة » ، التى كتبها قبل الثلاثين بزمن ، ودهشت إذ وجدت الأستاذ محمد قطب يفضل الطريق الطويل عليها ، ولم أصدق أذنى ، وكانت معى فى هذه الأمسية الجميلة السيدة زوجتى بعد زواجنا بفترة قصيرة ، كما ألقى أيضًا الأستاذ الدكتور عبد القادر القط كلمة مناسبة عن « اليوم الموعود » .. وقد كان أحد المحكمين فى مسابقتها ، كما شارك فى ندوة إذاعية (البرنامج الثاني) مع الصديق المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المحسن طه بدر ، وقد أدار الندوة الإذاعى والشاعر المعروف فاروق شوشة .

❁❁❁

# [٨] نصف الدين



حينما التحقت بكلية الطب جامعة القاهرة ، نزلت إلى المدينة الكبيرة العريقة ذات التاريخ التليد ، والمآذن العالية ، والحركة المؤارة فى الفكر والسياسة والتجارة والتعليم ، وكان لى فيها عدد من الأقرباء ، وآثرت أن أنزل ضيفًا على عمى الشيخ عبد الفتاح الذى يعمل كاتبًا بوزارة الدفاع ، وقد سبق وتحدثت عنه فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، فأكرم وفادتى لبضعة أسابيع حتى قبلتنى مدينة « فاروق الأول الجامعية » بالأورمان كمقيم فيها مقابل خمسة جنيهات شهرية للإقامة والطعام والشراب ، وكانت آية فى الجمال والنظافة والإدارة ، وقد ضمت هذه المدينة المجاورة لجامعة القاهرة نخبة من القيادات الطلابية السياسية فى تلك الفترة ، ولم تكن ثورة ١٩٥٢ قد قامت بعد ، والمدينة تضم خليطًا كبيرًا من الطلبة الأغراب ، من جميع الكليات ، وقد عشت فيها أربعة أعوام كانت من أجمل سنوات العمر . وعلمت أن أحد علماء قريتنا الكبار وهو فضيلة الشيخ محمود محمد شاهين ، قد انتقل من قرية « القرشية » التى كان يعمل بها إمامًا وخطيبًا إلى مسجد بالقاهرة ، فاعتزمت أنا وابن أخيه الأستاذ فهمى شاهين زيارته فى مسكنه الكائن بشارع قدرى باشا بحى السيدة زينب ، رضى الله عنها ، وقد كان رحمه الله رجلًا سمحًا واسع الأفق ، حجة فى فقه الإمام الشافعى ، خبيرًا بشئون الحياة ، عميق النظرة ، ذا رأى سياسى واضح لكنه يرفض المشاركة فى الصراعات الحزبية ، وكانت أكبر أبنائه « كريمة » التى تبلغ من العمر آنذاك أحد عشر عامًا ، وعلى الرغم من صغر سنها إلا أنها كانت لمَاحة ذكية ، ذات وجه باسم ، وحيوية واضحة ، وعذوبة فى الكلام ، وجمال فى الملامح ، ولقد دخلت هذه البنت الصغيرة قلبى على الرغم من أنها فى مرحلة الطفولة المتأخرة ، وكانت تستجيب لنصائحى بسرعة ، وتفهم ما أشرحه لها من دروس فى محضر والدها ، كما كان لها سيطرة كاملة على إخوتها وأخواتها الذين يصغرونها سنًا ، فقد بلغ عدد هؤلاء الإخوة سبعة أربعة أولاد وثلاث بنات هى رابعتهم ، ولوحظ أنها متقدمة فى دراستها كما أنها مغرمة بالأنشطة المدرسية المختلفة ، فكانت أبرز طفلة فى فريق التمثيل بالمدرسة ، وهى التى تتولى الإذاعة المدرسية بإشراف مدرساتها ، وتجيد الكثير من المهارات الأخرى ، وترافق أباها إلى المسجد كثيرًا وتقرأ له علوم الدين وأمهات الكتب وتصاحبه فى الزيارات الخاصة ، لأنها كانت الأكبر سنًا وفهمًا لذلك استطاعت أن تتأثر بهذا الأب الحانى ، وتستفيد منه الكثير فى قابل حياتها .

وأخذت الأيام تمضى عامًا بعد عام ، والأحداث تترى ، والصغير يكبر ، ووجه الحياة يتغير ، وأنا دائم الاتصال بالعالم الجليل ، أرتوى من فيض علمه ، وأبادله الحديث حول السياسة التى هى شغلنا الشاغل فى تلك الفترة ، وفى أمور الحياة ، ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وكنت أنا شديد الحماس لها ، ولم أكن أعلم بأنى سوف أكتوى بنارها ، لكنه - رحمه الله - كان شديد القلق والتوتر ، ويوجس خيفة من المستقبل ، وكنت أنا لا أرضى بمثل هذه الآراء ، وأجادله بإلحاح حتى يغير رأيه ، لكنه

كان يبتسم لحماستى ، ويدعو الله أن تكون العاقبة خيرًا ، ولاحظت أنه لا يثق فى أخبار الصحف والإذاعة المصرية ، ويلجأ إلى سماع الإذاعات الأجنبية التى تذيع النشرات باللغة العربية ويحترمها ، على الرغم من أننى كنت أخالفه الرأى ، وأتهم هذه الإذاعات بالعمالة والتآمر والعمل لحساب أعدائنا المستعمرين والطامعين ، وكنت أرى وجهه يحتقن غضبًا حينما يسمع جمال عبد الناصر يشتم الملوك والرؤساء العرب ، ويوجه إليهم عبارات نابية ، ثم يقول عنه : « والله ليخربها ويقعد على تلّها » .

وهى عبارة يرددها المصريون عادة عندما يرون التصرفات الخاطئة الفاسدة ، فهم يعتقدون أن من يفعل ذلك ، سوف يبدء بالخسران ، ويخرب الديار ، ثم يجلس على التل مذمومًا مدحورًا ، وكل الذين لهم صلة بالشيخ الجليل يذكرون ذلك جيدًا ، ويحفظون عبارته عن ظهر قلب .

وعندما اندلعت الفتنة عام ١٩٥٤ كما سبق وأشرت وعقد مؤتمر فى كلية طب القصر العينى اختارنى زملائى أن ألقى الكلمة الرئيسية فى المؤتمر ، وفى خطبتى قمت بشن هجوم شديد على الثورة وجمال عبد الناصر ، ثم ساعدنى زملائى فى الإفلات من باب خلفى للكلية ، بعد أن أجريت بعض التعديلات فى ملابسى ، ووضعت نظارة سوداء على عينيّ .. وقلت لنفسى أين أذهب ؟ إذا ذهبت إلى مسكن عمى عبد الفتاح فقد يأتون إليّ ، وبعد تفكير قررت أن أختفى لدى شيخنا الجليل الشيخ محمود شاهين ، ولكنى كنت محرجًا ، فقد أسبب له المشاكل ، ولكنى توكلّت على الله وذهبت إليه ، وشرحت له الأمر ، وأكدت له أن ذلك لن يستغرق سوى أيام قليلة ، ورحب الرجل بى بشدة ، وأوصانى أن ظل معتكفًا بالغرفة التى سأستقر فيها ، وكانت الصغيرة كريمة تأتى إلى بالطعام والصحف ، كما تفسح الطريق أمام بعض الإخوان المخلصين الذين أثق فيهم ، مثل الأستاذ فهمى شاهين ، والأستاذ محمد صفوت نجم وغيرهم ، ولم يطل وقت الاختفاء ، فقد أعادت الثورة الرئيس اللواء محمد نجيب إلى منصبه ، وأفرجت عن الإخوان المعتقلين وغيرهم من المعارضين من رجال الفكر والصحافة والساسة القدامى ، وهكذا استطعت أن أعود آمنًا إلى المدينة الجامعية ، وإلى الدراسة بكلية الطب .

فى عام ١٩٥٥ أصبح عمر كريمة أربعة عشر عامًا ، وكبر عقلها وأحلامها ، وأصبحت فتاة ناضجة ملتزمة ، وفى شهر أغسطس من هذا العام تم اعتقالى وتقديمى للمحاكمة ، حيث حكم على بالسجن عشر سنوات كما سبق وأشرت .

وفى عام ١٩٥٨ كنت أخرج من السجن بضع ساعات للعلاج فى القصر العينى تحت حراسة مشددة ، وفوجئت بكريمة وأمها وشقيقها الذى يليها فى العمر وابن عمتها الحاج محمد مصطفى خضر ، وكان موظفًا فى إدارة جماعات نشر الرياضة بالقرى يأتون لزيارتى ، حينما رأوا القيود فى يدى بكوا تأثرًا بينما كنت ابتسم فقد تعودت ذلك ، وعندما عدت إلى السجن بعد انتهاء العلاج وجدتنى بصراحة أفكر فيها ، لقد كانت فى السابعة عشر من عمرها ، وكنت أكبرها بحوالى تسع سنوات .

وبعد أن أفرج عنى ألح عليّ موضوع الزواج على الرغم من أنى لم أتخرج من الكلية بعد ، ومما سهل أمر التفكير فى ذلك أنى أصبح لى دخل يكفى أن أبنى حياة زوجية معقولة ، وخاصة بعد أن قررت وزارة التربية تدريس بعض كتبى على طلبة المدارس ، كما إن مؤلفاتى الأخرى وكتاباتى فى الصحف والمجلات كانت توفر دخلًا لا بأس به ، وفعلًا تزوجت قبل تخرجى ببضعة شهور ، واستأجرت شقة فى حى شبرا ، فوق الشقة القديمة .. وواضح أن زوجتى كانت كريمة ...

لا أريد أن استطرد فى التفاصيل التى قد لا تهم القارئ ، وكان زواجى بعد تخرجها من المدرسة الثانوية (وقد التحقت بعد الزواج بمعهد الخدمة الاجتماعية وتخرجت منه) وأدركت أن الله قد أنعم على

بهذه الزوجة الصالحة ، التى تبر أهلها ، وتحفظ زوجها ، وتقرأ القرآن ، وتحب الإطلاع على المؤلفات الأدبية والدينية ، ومغرمة جدًا بمؤلفات الإمام الغزالى ، وخاصة كتابه « إحياء علوم الدين » ، ومنذ أن تزوجنا وهى تراجع مسودة مؤلفاتى من الناحية الإملائية والمطبعية بل اللغوية أيضًا ، ذلك لأن والدها رحمه الله قد أحسن تدريس اللغة لها بصورة جيدة ، وتعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة خصيصًا لنسخ مؤلفاتى عليها ..

وفى العام الأول من الزواج رزقنا الله بابننا البكر حسام الدين ، وفى العام الثانى بابنتنا الطاهرة النقية الوفية « عزة » طبيبة النساء والولادة ، وفى العام الرابع جاء الابن جلال الدين صاحب الخلق القويم ، والصدق والإخلاص ، وهو طبيب متخصص فى أمراض القلب ، أما الأصغر محمود فلم يأت إلا فى العام التاسع من الزواج وقد ولد فى مدينة دبى ، وهو حاصل على ليسانس الحقوق ، وفاتنى أن أذكر أن ولدنا الأول تخرج من كلية العلوم قسم الفيزياء والرياضيات هدانا وهداه الله وهدى إخوته إلى طريق الخير والفلاح. واستطاعت زوجتى فور الزواج أن تدرك بذكائها وشفافيتها مسئولياتها الكبيرة نحو البيت ونحو الأطفال الذين بدأ قدومهم منذ العام الأول للزواج ، ونحوى باعتبار انشغالاتى الكثيرة كطبيب وكأديب ، فاستطاعت أن توفر لى الجو المناسب دون أدنى تكاسل أو مضايقات حتى فى أيام الحمل والولادة .

وفى سنة الامتياز التى كنت أقضيها فى مستشفى أم المصريين بالجيزة جاء ابننا حسام الدين كما قلت ، وزاد راتبى جنيهًا ، كما أخذت علاوة الزوجية ، وأصبح مُجْمَل راتبى من الحكومة ثمانية عشر جنيهًا ونصف ، واضطررنا إلى الانتقال لحى الجيزة بالقرب من المستشفى الذى أعمل به ، وودعنا شبرا وشارع كنيسة الراهبات إلى الأبد ، وفى الجيزة ولدت ابنتى « عزة » وأنا الذى قمت بموضوع الولادة بنفسى حيث لم يسمح الوقت باستدعاء زميلة من الزملاء إذ جاءت الولادة سريعة وسهلة ، وكانت تقف إلى جوارى وتساعدنى الحاجة حماتى رحمها الله ، وكنت قد انتهيت من سنة الامتياز (أو التدريب) ، وقد تسلمت يوم ولادتها مبلغًا يفوق الستين جنيهًا عن راتب شهرين متأخرين لى ، فقبلتها أمها وهى تقول « البنات رزقهن كثير .. مقدمها مقدم خير » .

وكانت الحكومة قد أصدرت قانون تكليف الأطباء للعمل بالريف ، وكان لابد أن اتخذ الوسائل للرحيل عن القاهرة ، والذهاب إلى محافظة الغربية (وعاصمتها طنطا) لأبحث عن القرية التى سأعمل فيها ، ومن الطبيعى أن آخذ زوجتى وابنى وابنتى معى ، إذ لا أستطيع العيش بدونهم ، ولقد تضايقت من هذا النقل فى البداية وطلبت من وزير الصحة الدكتور النبوى المهندس ، رحمه الله ، أن يكلفنى بالعمل فى القاهرة ، ذلك لأن أعمالى الأدبية الكثيرة المتصلة بالصحف والإذاعة ووزارة التربية ، ثم الإشراف على طبع الكتب لدى الناشرين ، كل ذلك يجعلنى فى مسيس الحاجة إلى البقاء فى القاهرة ، لكنه رد عليّ قائلًا : « فى الريف ستتفتح أمامك آفاق واسعة للكتابة .. فلتمكث هناك عامًا على الأقل » .

وصدق حدس الرجل الذى كان يعمل أستاذًا لطب الأطفال فى جامعة القاهرة قبل أن يصبح وزيرًا ، وفى تلك الفترة كان تعاملى فى النشر مع الشركة العربية للطباعة والنشر ، فقد تعاون معي صاحبها حسن إيرانى تعاونًا كبيرًا ، ولم أكن اهتم كثيرًا بالناحية المادية ، إذ كان يهمنى بالدرجة الأولى ألا يتأخر نشر مؤلفاتى ، فتصل فى موعدها إلى القارئ ، وكان حسن إيرانى على دراسة واسعة بأسواق التوزيع بحيث كانت كتبى تصل إلى أقصى المغرب العربى وإلى المشرق أيضًا ، حتى إن بعض المكتبات الكبرى فى الدول العربية تضعها بين قوائمها مثل مكتبة « المثنّى » الشهيرة ببغداد ، وأخبرنى الأستاذ

عبد الحليم عبد الله الروائى المعروف رحمه الله أنه رأى بعض مؤلفاتى فى مكتبات المغرب ، بينما لم ير مؤلفات عدد من كبار الكتاب المصريين هناك .

وكان عليّ أن أرحل إلى محافظة الغربية للعمل هناك ، وسافرت وحدى فى البداية إلى طنطا ، وقصدت « المنطقة الطبية » هناك ، وأشاروا على بأن أختار بلدًا أعمل فيه ، ولما ترددت قيل لى أن مقر عملك سيكون قرية « كنيّشة دمشيت » القريبة من طنطا ، ولكن طرأت فى ذهنى فكرة ، لماذا لا اذهب للعمل فى قريتنا شرشابة ، مسقط رأسى ؟ إن أهلى فيها ، وأهل القرية أغلبهم أحبابى وأصدقائى وأعرفهم جيدًا ، وواجب عليّ أن أقدم خدماتى لهم ، ألم يغدقوا عليّ حبهم واحترامهم من قديم ؟ ألم يتعاطفوا معى فى أيام المحن القاسية حينما ألقى بى فى السجن ، وأبديت رغبتى للمسئولين بالمنطقة الطبية فرحبوا بالفكرة حيث إن بشرشابة وحدة مجمعة كبيرة ، وتحتاج لأكثر من طبيب ، وليس بها سوى طبيب واحد مثقل بالعمل ، وسعدت بموافقتهم على ذلك ، لكننى كنت محرجًا بعض الشيء فقد انتابت علاقتى بالأسرة بعض الفتور بسبب عدم موافقتى على مشروع الزواج من إحدى القريبات حسب رغبتهم ، مما جعلهم يغضبون لحد ما لأنى تزوجت من أخرى ، وما إن وصلت إلى القرية حتى استقبلنى أبى رحمه الله بحفاوة فقبّلت يده شاكرًا ، وكذلك فعلت أمى وباقى أفراد الأسرة ، ولم يكن أمامى سوى أن أعود إلى القاهرة وأحمل أسرتى وأثاث بيتى إلى مقر العمل الجديد ، ونزلت فى البداية فى بيت الأسرة ، ثم انتقلت إلى فيللا من دورين داخل الوحدة المجمعة حتى أكون فى مقر عملى ، حيث إنى طبيب متفرغ كل الوقت ، وأستدعى لفحص الحالات فى أى وقت من الليل أو النهار .

فى الأيام الأولى لعملى شهدت الوحدة الصحية ما يشبه المظاهرة ، فقد احتشد المئات من الرجال والنساء والأطفال طلبًا للفحص الطبى ، ولمشاهدة ابن قريتهم الطبيب ، الذى يعتبر أول شاب يتولى هذا العمل من بين ظهرانيهم ، لكأنما شعروا أن الوحدة الطبية أصبحت بحق وحدتهم ، والطبيب ابنهم ، وخاصة أن زميلى بالعمل ، والذى يعيش بينهم منذ سنوات كان مهتمًا أكثر بالمرضى الخصوصى (الذين يدفعون أجرًا) ، ولا يجرى العمليات الصغيرة الجراحية المسموح بها مجانًا إلا بعد دفع مبلغ من المال ، ورأونى أفحص المرضى بدقة دون مقابل ، وأذهب إلى البيوت لفحص وزيارة المرضى دون أن أتقاضى مالًا ، وأصرف لهم أدوية الحكومة بالمجان ، لقد رأوا الإجادة فى العمل ، دون أن يدفعوا شيئًا فتشبثوا بى ، وعندما قسمت العمل بينى وبين زميلى ، بحيث أقوم بعمل العيادة يومًا ، فى الوقت الذى يؤدى هو فيه عمل مفتش الصحة (عمل وقائي) ، والعكس فى اليوم التالى ، كما قسمت عدد الأسّرة بالمستشفى مناصفة بينه وبينى ، فأصبح لى سبع أسّرة ، وله مثلها ، ولاحظت بعد ذلك أن المرضى يتكدسون فى اليوم الذى أعمل فيه بالعيادة ، بينما يقل عددهم كثيرًا فى يومه هو ، وكذلك امتلأت الأسرة السبعة الخاصة بى فى القسم الداخلى ، وبقيت الأسّرة الخاصة به فارغة ، لدرجة أننى ابتدأت أن أضع بعض مرضاى فى أسّرته ، وهكذا وفد إليّ المرضى من شتى قرى المنطقة ، من « كفر الجزيرة » و « ميت المخلص » و « كفر حسين » و « كفر السنارية » و « كفر السحمية » و « سنباط » و « ميت ميون » و « شنراق » وغيرها . وعانيت من إرهاق شديدة لكثرة العمل ، وكان عليّ أن استمر فى أداء رسالتى الهامة ، ولم أكن أتصور أن تحدث لى عقبات تشغلنى عن رسالتى .

وكانت الدولة قد أعلنت برنامج « اشتراكية العلاج » وأنشأت آلاف « الوحدات الصحية الريفية » ، بالإضافة إلى الوحدات المجمعة ، ووضعت فى كل وحدة طبيبًا أو أكثر ، واشتراكية العلاج تعنى الرعاية الصحية الكاملة وقائيًا وعلاجيًا للناس ، دون تقاضى أى أجر ، اللهم إلا دفع أربعة قروش

فقط عند قطع تذكرة الفحص ، ويعفى من هذا المبلغ البسيط الفقراء بعد موافقة الأخصائى الاجتماعى بالوحدة ، لكن اشتراكية العلاج كما رسمتها الدولة لم يتم تنفيذها على الوجه الصحيح ، لأن الأطباء العاملين فى هذه الوحدات ، كانوا يعتقدون أن مرتباتهم غير كافية ، وأنهم يعملون فى قلب الريف وسط الغبار والذباب والعزلة ، وما دام الأجر كذلك فإن من حقهم أن يبحثوا عن مصدر للدخل ، فما كان منهم إلا أن لجئوا إلى اختراع « بدعة » الفحص الخصوصى ، ومعناه أن يدفع المريض مبلغًا من المال مقابل الفحص الدقيق ، والعلاج الكافى ، ومعناه أيضًا أن يدفع المريض أجرًا على العملية الجراحية التى تجرى له داخل المستشفى ، وكانت العمليات المسموح بها عمليات صغيرة عددها سبع ، منها عملية الفتق والبواسير والدوالى والختان والأكياس الدهنية والخراريج بالإضافة إلى الإصابات الجراحية ، وهناك أيضًا الولادات الطبيعية ، من هنا نرى أن الطبيب الذى لا يلتزم بقوانين اشتراكية العلاج كما كانوا يسمونها ، يحصل من عمله الخارجى أضعاف اضعاف مرتبه ، وكان أغلب المفتشين الطبيين فى المنطقة الطبية بالعواصم يعلمون ذلك ، ويغضون الطرف عن تلك المخالفات مقابل ما يقدم لهم من مال أو هدايا . لكنى كنت مصرًا على تنفيذ اشتراكية العلاج بدقة ، وكان هذا مصدر المتاعب التى داهمتنى ، إذ فوجئت ذات يوم بقرار نقلى من القرية بعد حوالى شهرين ، فأصبت بالذهول ، وكان زميلى يبتسم فى سخرية ، ربما ظن أنى ساذج ولا أدرك أبعاد السياسة التى أنتهجها ونتيجتها ، وفهمت بسرعة السبب وراء هذا النقل المفاجئ ، بل فهمه أهل القرية ، والعاملون بالوحدة المجمعة ، لقد كان واضحًا أن المدد قد انقطع عن الكبار فى الإدارة بالمنطقة الطبية ، وكان سبب ذلك أننى قضيت على الفحوصات الخاصة والمبالغ التى تدفع فيها ، وكذلك أوقفت دفع أجر العمليات الجراحية ، ومنعت أيضًا تسرب وبيع أدوية الحكومة ، وخاصة حقن البنسلين والاستربتوميسين والفيتامينات وغيرها . وكان نتيجة لذلك أن توقفت الهدايا والأموال والمجاملات التى يقدمها زميلى للرؤساء فى طنطا ..

وما إن علم أهل القرية بما جرى حتى ثاروا ثورة عارمة ، وكتبوا البرقيات والعرائض الاستنكارية للمسئولين فى المحافظة وفى الوزارة ، وساد الهرج والمرج ، وخرج وفد كبير من أهالى القرية ، وعلى رأسهم قادة فرع حزب الحكومة فى القرية (ويلاحظ أننى كنت معزولًا سياسيًا ، ليس لى الحق فى الاشتراك بأى نشاط حزبى ، حكومى أوغير حكومي) ، وذهب الوفد إلى مقابلة المحافظ المرحوم المستشار عمر زعفان وكان خال وصهر عباس رضوان وزير الحكم المحلى ، وأحد ضباط الثورة السابقين ، وكان للموضوع صدى كبير على مستوى المحافظة ، فماذا يفعل رؤسائى فى الإدارة الطبية بطنطا ؟ لقد لجئوا إلى حيلة خسيسة انطلت على السيد المحافظ فى البداية إذ قالوا له : « إن نجيب الكيلانى ، مشاغب قديم ، ومن جماعة الإخوان المسلمين العدو اللدود للثورة ، وأن ماضيه حافل بالمظاهرات والتمرد ، وقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات ، وأنه يريد أن يستأنف من جديد حياة التمرد والعصيان ، ونحن لم ننقله إلا للمصلحة العامة ، فكيف يكون هناك طبيبان فى وحدة ، بينما نغلق وحدة صحية أخرى ليس فيها طبيب » . واستدعانى المحافظ فعلًا وذهبت إليه على عجل ..

كنت أجلس فى غرفة الانتظار ، وإذ بالسيد المحافظ يخرج من مكتبه ، ويسدد إليّ نظرات غاضبة ويقول : « أأنت الدكتور نجيب الكيلانى ؟ » .

– « نعم .» .

– « ماذا تريد ؟ ألا تكف عن الشغب والفوضى ؟ لماذا لا تنفذ الأوامر ؟ » .

ابتسمت فى هدوء ، وكان يقف إلى جوارى ، الدكتور الصديق محمود جامع من أشهر رجالات

طنطا ، ومدير التأمين الصحى فيها ، والصديق الحميم للمرحوم أنور السادات فيما بعد ، وقلت للسيد المحافظ بمنتهى الثقة والقوة : « أنت يا سيدى المحافظ مستشار قبل أن تكون محافظًا ، وقد أصدرت حكمًا فى قضية دون أن تسمع كلام الطرف الآخر » . وفوجئ الرجل بردى ، وفكّر فيه ، وخفض رأسه ، ثم تخلى عن نبرته الغاضبة وقال بصوت خفيض : « ولماذا لم تخبرنى بالحقيقة من قبل ؟ » .

- « أرسلت إليك يا سيادة المحافظ برقية كلفتنى خمسة وسبعين قرشًا » .
- « لم أرها ..» .
- « اسأل مدير مكتبك » .

التفت إلى مدير مكتبه وسأله عن البرقية فقال : « نعم وصلت » .

- « ولماذا لم تعرضها علىّ » .
- « سيادتك كنت مشغول » .

التفت إلى المحافظ وقال : « أنا ذاهب فى مهمة عاجلة إلى « المحلة الكبرى » . وهى مدينة صناعية كبيرة مجاورة . واستطرد المحافظ قائلًا : « عليك أن تنفذ أوامر رئاستك أولًا » .

ولم يترك لى فرصة للرد أو التعليق ، ومضى فى طريقه صوب الدرج ، الواقع أننى شعرت بإحباط بالغ ، فماذا أفعل ، وسرت فى الطريق أتوكأ على عصاى إلى جوار صديقى الدكتور محمود جامع ، وقلت له : « لن أتراجع أو أهادن » .

- « ماذا ستفعل ؟ » .
- « انظر .. إن ركبتى اليمنى متورمة ، ولا أستطيع المشى إلّا بصعوبة بالغة ، وسأذهب إلى اللجنة الطبية ، لكى أحصل على إجازة مرضية ، وبعدها يفرجها الله ..» .

أخذت إجازة مرضية لمدة أسبوعين ، وعدت إلى القرية معتزمًا العودة إلى القاهرة مع أسرتى لنقضى هناك هذه الفترة ، وقبل أن أركب القطار إلى القاهرة جلست فى « القهوة العثمانية » بطنطا ، وسطرت خطابًا هامًا لسيادة محافظ الغربية ، وكان خطابًا واضحًا صريحًا قوى اللهجة ، وليكن ما يكون .. جاء فى هذا الخطاب « إنكم يا سيادة المحافظ تديرون الأمور من خلف مكاتبكم ، وكان حريًا بكم أن تخرجوا إلى الشوارع ، وتذهبوا إلى القرى ، وتلبسوا الملابس الزرقاء ، وتعيشوا بين الفلاحين لتعرفوا الحقيقة على وجهها الصحيح .. سوف تكتشفون المآسى والمهازل ، سترون أن عيادات ومستشفيات اشتراكية العلاج .. تباع فيها الخدمات والأدوية .. وأصبحت مؤسسات الحكومة عيادات خاصة .. وضاعت شعارات الاشتراكية التى تنادون بها ، وإذا حاول إنسان مخلص أن يلفت نظركم إلى الحقيقة اعتبرتموه متمردًا ورجعيًا وعدوًا للحكومة والشعب .. لقد أبرأت ذمتى ، وأديت واجبى ، وأنا على استعداد تام لأقدم استقالتى لسيادتكم ، ثم أعود لقريتى لأزرع الأرض مع أهلى الفلاحين ، ولن أتقاضى أجرًا ما حييت من أى مريض ، حتى لو استقلت وفتحت عيادة خاصة » ، وفى الرسالة أشرت إلى أن الحقيقة قد تختفى وراء غبار الظنون والشبهات وزيف الأقاويل .

ولم أرسل هذه الرسالة تلك المرة إلى مكتب المحافظ بالمحافظة ، وإنما أرسلتها على عنوان بيته فى طنطا ، وشعرت بالارتياح بعد أن سجلتها بالبريد ، وأخيرًا أخذت الزوجة والأولاد ، ونزلت القاهرة فى منزل صهرى الشيخ محمود محمد شاهين بحى السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، وتفرغت فى البداية للإشراف على طباعة كتبى الجديدة وبدأت كتابة قصة جديدة عن تجربتى تلك فى الوحدة الصحية ، وسميتها « الذين يحترقون » .

التقيت فى القاهرة بصديقى الأديب الناقد الصحفى رجاء النقاش ، ورويت له قصتى في الريف ، فتحمس لها بشدة ، وبادر على الفور بكتابة مقال فى جريدة الأخبار القاهرية فى الصفحة الأخير تحت عنوان : (قصة واقعية مهداة لمحافظ الغربية ... من المسئول عن حماية هؤلاء الأدباء؟)

وأحدث المقال دويًا واسعًا ، وخاصة فى المنطقة الطبية ، ومحافظة الغربية ، ووزارة الصحة ، وأرسل المحافظ أمرًا عاجلًا باستدعائى من قرية شرشابة ، فأخبروه أننى تركتها وسافرت إلى القاهرة ، ثم التفت إلى من حوله وسألهم : أليس فيكم من يستطيع أن يحضر لى نجيب الكيلانى فى أقصر وقت ممكن ؟ » وكان إلى جواره الأستاذ الصديق إبراهيم الغندور ، وعلى الرغم من أنه من رجال التربية والتعليم ، وموجه اللغة الإنجليزية ، إلا أنه كان منتدبًا للمحافظة للقيام بعمل مدير العلاقات العامة ، فأخبر المحافظ بأنه يعرفنى وأنه سوف ينفذ ما طلبه سيادته على الفور ، وانتهز الفرصة ، وتحدث مع المحافظ حديثًا وديًا ، وأشار فيه إلى أنى رجل مشهود له ، وأن مؤلفاتى مقررة على طلبة المدارس ، وأن .. وأن .. وقدم إلى فى القاهرة الصديق « سعيد سلطان » وهو يعمل مراقب صحة بالوحدة المجمعة ، ومعه رسالة من الأستاذ إبراهيم الغندور لكى أعود لمقابلة المحافظ ، ووعدنى بأنى سوف أنال حقى كاملًا ، ولن أتعرض لأية إساءات أو منغصات بعد ذلك .. وتركت القاهرة وحدى ، وعدت إلى طنطا .

جلست فى انتظار الإذن بالدخول للسيد المحافظ ، وكان للانتظار سبب ، فقد استدعى سيادته مدير المنطقة الطبية ، وكذلك المفتش الطبى المختص بى ، والذى سبب لى المتاعب ، والذى يعتبر السند والصديق لزميلى الطبيب بالوحدة ..

ودخلت على السيد المحافظ ، وعندما رآنى هب واقفًا واستقبلنى بحفاوة لم أكن أتوقعها ، ووجهه يشرق بالسعادة وعلى ثغره ابتسامة عريضة ، وعلى الناحية اليمنى يجلس المدير العام والمفتش الطبى ، وفى الناحية الأخرى يجلس رجل عرفت فيما بعد أنه ضابط فى المباحث العامة (أمن الدولة) ، وصافحنى بحرارة ، وطلب منى الجلوس وبدأنا ...

سأل المحافظ المدير العام : « ما هى مآخذكم على نجيب الكيلانى ؟ » .

- « يوزع الكثير من الأدوية ..» .
- « لمن يوزعها ..»
- « للمرضى » .

قال المحافظ : « إذن لا يأخذها لنفسه » .

- « لم نقل ذلك ..» .

وهنا تدخلت قائلًا : « اسمح لى يا سيادة المحافظ .. إن بعض الأطباء يبيعون الأدوية ، ويضعون ثمنها فى جيوبهم ، والسيد المفتش الطبى الدكتور (س ..» يعرف ذلك » .

بدا الغضب على وجه المفتش الطبى وقال : « لا تقل مثل هذا الاتهام أنا لا أعرف شيئًا » .

- « لديك شكاوى بذلك يا دكتور (س ..) ولم تحقق فيها ..» .

اشتد الغضب بالمفتش ، وانفجر قائلًا : « نجيب الكيلانى سجين سابق .. وقد حكم عليه من قبل بالسجن عشر سنوات » هممت بالرد ، لكن المحافظ أشار إلى بيده أن أصمت ، وانبرى سيادته قائلًا : « يا دكتور (س ..) إن ما قلته الآن يدل على أنك متحيز ضد الدكتور نجيب الكيلانى .. والذى تتحدث عنه كان قضية « رأى سياسى » ، وهى لا تشين نجيب .. إننى لا أسألك عن فكره السياسى ، ولكنى أسألك عنه كطبيب » .

خجل المفتش وتدارك الموقف وقال : « إنه كطبيب ممتاز فى عمله » .
– « عظيم .. وهل يأخذ من الفلاحين أجرًا على الفحص الخصوصى » .
– « لا ...» .
– « هل يبيع الدواء الحكومى للفلاحين ؟ » .
– « لا ..» .
– « إذن ماذا تريدون منه » .
– « إن هناك وحدة طبية بدون طبيب ، ولذلك احتجنا إليه ليعمل بها » .
قال المحافظ : « ولماذا لا تنقلوا الطبيب الآخر » .
– « إنه الأقدم يا سيادة المحافظ » .
– « لكنى علمت أنه قُدم للمحاكمة فى محكمة أمن الدولة ، وصدر ضده حكم بعزله من رئاسة مجلس القرية ، وقطع أجر شهرين من مرتبه ، ووقف ترقيته ..» .
– « أمرك يا سيادة المحافظ ..»
– « ليبق الدكتور نجيب فى بلده ، ولا يتعرض له أحد من عندكم .. وإلا فسوف أنقله عندى فى المحافظة لكى يكون إلى جوارى ليساعدنى برأيه وخبرته » وانصرف المدير العام والمفتش وهما يتصببان عرقًا ، وانتصر الحق أخيرًا ، واستبقانى المحافظ بعد أن ذهبا ، وعرض علىّ العمل معه ، واعترف لى بأنه يعانى من قلة الرجال المخلصين فى محافظته ، وأنه لم يعد يثق إلا فى ثلاثة . أنا أحدهم . وألح على فى ذلك ، فقلت له : « أشكرك يا سيادة المحافظ على ثقتك الغالية ، لكنى عاهدت الله أن أبقى متمسكا بمهنتى الطبية حتى النهاية ، وليست لى طموحات فى مناصب سياسية أو إدارية حاليًا ، إننى أشعر بالسعادة القصوى مع مرضاى ، والطب – كما يقولون – مهنة إنسانية بالفعل ، يثيب الله عليها خير الجزاء ...». وصمت السيد المحافظ برهة وقال : « لماذا لا ترشح نفسك فى الانتخابات النيابية القادمة ، وتدخل المجلس ، أنا واثق أنك ستنجح بإذن الله » .

قلت له : « معذرة يا سيادة المحافظ .. فأنا كما تعلم « معزول سياسى » ولا يحق لى الدخول فى الانتخابات العامة ، بسبب الحكم الذى صدر ضدى من محكمة الشعب عام ١٩٥٥» .

قال فى ثقة وحماسة : « سأكلم لك ابن أختى السيد عباس رضوان وزير الحكم المحلى ، إنه يستطيع أن يرفع عنك العزل السياسى ..» .

وصدقت .. وفى الانتخابات التالية قدمت طلبًا للترشيح .. وعلى باب المحافظة نزلت قائمة بأسماء الممنوعين من دخول الانتخابات .. وكان اسمى هو الوحيد فى هذه القائمة ..

ذهبت إلى القاهرة ، وأحضرت أسرتى مرة أخرى ، وعدنا إلى قريتنا الحبيبة مرة أخرى .. وتلقانا الأهالى فى موكب متواضع من الترحيب والفرح والزغاريد .. لقد تحقق نصر لا بأس به فى هذه المواجهة .. والانتصارات الصغيرة تصنع فى النهاية النصر الكبير ..

وتفرغت لكتابة رواية « الذى يحترقون » ، ألجأ إليها فقط فى المساء ، وأسجل بعض الصفحات.. وقد تضمنت هذه الرواية الكثير مما جرى لى فى هذه التجربة ، فكأنها جزء من السيرة الذاتية ..

❁❁❁

# [٩] الحريق الكبير



كانت «الوحدة المجمعة» مكونة من القسم الطبى وبه أطباء وممرضون وممرضات وفنيون وكتبة وحراس وتومرجية وفراشون، وبالوحدة المجمعة أيضًا قسم الخدمة الاجتماعية ومسئولياته معروفة، كما أن فيها قسم للإرشاد الزراعى والحيوانى محدود النشاط للغاية، وهناك أيضًا القسم التعليمى حيث الناظر والمدرسون والطلبة والطالبات، وبالإضافة إلى ذلك مجلس القرية المنتخب، والذى يرأسه الطبيب أحيانًا، أو عمدة القرية الحاج إبراهيم الشافعى أحيانًا، أخرى، وقد رأسه ذات مرة بالتعيين الأخصائى الاجتماعى، وكان رؤساء هذه الأقسام كلها يسكنون فى مساكن داخل الوحدة، الأطباء والناظر والأخصائى الاجتماعى الذى يشرف على النشاط الزراعى والاجتماعى معًا، والمعروف أن مجلس القرية هو الممثل للفلاحين، وممثل الحزب الذى يحكم دون منافس. وكانت أغلب مساكن شرشابة من الطوب اللبن فى تلك الفترة، وليس فى القرية محطات للكهرباء أو ضخ الماء آنذاك، والشوارع متربة، وأسطح المنازل تتكدس فوقها أحطاب الذرة الجافة وأعواد القطن، ومخازن الحبوب والطعام، ومعروف أن هذه الأحطاب الجافة تستخدم فى الأفران لخبز الأرغفة، كما تستخدم فى طهى الطعام، وقلة من الناس يستخدمون مواقد الجاز للطهى، لكن الجميع يخبزون فى الأفران البلدى.

كان يوم الخامس والعشرين من يناير عام ١٩٦٣ يومًا عاصفًا باردًا، وكان الناس يرتجفون من شدة البرد، وحدث أن انطلقت شرارات من فرن مشتعل فى وسط القرية فأمسكت بالحطب، وسرعان ما ارتفعت ألسنة اللهب، واتسع نطاق الحريق فوق أسطح المنازل المتلاصقة الواطئة، وأصاب الذعر الناس، وأخذت النسوة فى الصياح والاستغاثة، وهرولوا لإنقاذ أطفالهم وبهائمهم، وكان انشغالهم بذلك مدعاة لامتداد الحريق بسرعة كبيرة لشدة العواصف، ولوحظ أن بعض الحمائم تطير مشتعلة ثم تحط على أحد الأسطح فتشتعل النيران فيه، ولم يكن فى القرية أجهزة لإطفاء الحريق على الرغم من أنها قرية كبيرة، فاتصل العمدة بالمطافئ فى المركز والمحافظة، ولم تصل النجدة إلا بعد أن احترق جزء كبير من البيوت، وعندما وصل رجال الإطفاء، وجدوا أن مياه الترع قليلة بسبب الجفاف أو السدة الشتوية فى هذا الوقت من كل عام، ومع أن نقص الماء كان مشكلة كبرى، إلا أنه ظهرت مشكلة من نوع آخر غريب، وهو أن الفلاحين هجموا على خراطيم المياه، وكل واحد منهم يريد أن يطفئ بيته أولاً، وهكذا نشبت المعارك بين الفلاحين وبعضهم البعض، وبين الفلاحين ورجال الإطفاء من جانب آخر، وأصيب عدد من الناس من جراء ذلك الصدام، لكن عددًا من الفلاحين تعاونوا فى نقل المياه من الطلمبات التى تخرج المياه الجوفية، ومن الترع فى الأوانى المنزلية والجرادل والصفائح المعدنية، وحققوا فى ذلك قدرًا من النجاح، وحاول البعض إطفاء الحريق باستخدام العصى الطويلة والغليظة وعروق الخشب الضخمة

وأفرع الأشجار ، ونثر التراب هنا وهناك ، كانت الجموع تخوض معركة ضارية ضد سطوة النار التى لا ترحم ، وبقى الصراع ساعات طويلة مؤلمة ، والأطفال يصرخون ويبكون ، وكذلك النساء ، حتى الكلاب أخذت تنبح ، واختلطت أصوات الحيوانات الأخرى ، وأسودت الأيدى والوجوه من أثر الهباب والدخان ، وأصبح جو القرية خانقًا لا يكاد يطاق ، وقد نجد امرأة هائمة على وجهها فى الشارع تجرى وتنادى ابنتها الضائعة ، أو ولدها المفقود ، تاركة الحريق والناس ، فليس فى رأسها إلا فلذة كبدها ، وليحترق العالم كله ، ومات فى الحريق أربعة من الرجال والنساء ، ونفقت بهائم وحمير وأغنام وماعز ، ودمر الكثير من أثاث المنازل ، كما احترقت الأسقف ، وهى فى الغالب من الخشب المغطى بالطين ، ودمرت منازل ، وأتت النار على جزء كبير من المحاصيل التى يخزنها الفلاحون فوق الأسطح أو فى مخازن طينية ، والمعروف أن كيزان الذرة تترك مكشوفة فوق البيوت .. وكانت إحدى النائحات تقول « موت وخراب ديار .. الطف يا رب » . وفى أحد الأماكن تجمع عدد كبير من المسنين ، وقفوا يضرعون إلى الله بصوت عالٍ ، والدموع تتساقط من أعينهم ، وبعضهم يردد « إن ما جرى ما هو إلا نتيجة لعصياننا وغضب الله علينا ، ولا نجاة إلا باللجوء إلى الله ، وكان العمدة والخفراء يجرون هنا وهناك ويطلقون الصفافير ، ويصدرون التوجيهات أعنى الأوامر ، وليس هناك سامع أو مجيب وسط الضجيج والدخان والغبار ، وتقول عجوز تزحف على يديها وركبتيها « إذا كانت هذه هى نار الدنيا ، فكيف تكون نار الآخرة ؟ اللهم رحمتك بعبيدك المساكين .. » .

ومضت الساعات قاسية رهيبة ، لم يكن هناك من يستطيع التوقف للتفكير ، إذ لا مجال سوى العمل ، ومكافحة الحريق بكل شىء حتى بالطوب ، وبكل ما تصل إليه اليد ، إذ لا يستطيع أحد أن يقف متفرجًا ، كان الصديق الترزى « منصور السروجى » يكاد يجن وهو يرى الحريق يلتهم منزله ، وحاول مرارًا أن ينقذ ماكينة الخياطة التى يرتزق منها فلم يستطع أن يقتحم النار ، فجرى صوب أحد رجال الإطفاء وأخذ ينتزع منه الخرطوم عنوة ، وتشبث الشرطى بخرطومه ، فجذبه منصور جذبة عنيفة فأفلت من يد الشرطى ، لكنه اصطدم بعين منصور اليسرى ، فرمى بالخرطوم وهو يستنجد بأخيه : « عين أخيك طارت يا ولد يا كامل .. الحقنى » . وقدم كامل حاملًا فأسه ، يريد أن يهوى بها على رأس رجل الإطفاء ، لكن منصور كان قد أفاق ، فاعترض طريق أخيه ، وأمسك به وهو يقول : « لم يكن يقصد إيذائى يا كامل .. له الشكر على كل حال ، لقد جاء لنجدتنا » .

ووقف منصور يتحسس عينه المتورمة الزرقاء ، ونسى أو كاد ماكينة الخياطة التى تحاصرها النيران.

وهدأت العاصفة ، وأخذ الحريق يخمد رويدًا رويدًا ، وساد الصمت وجلس الفلاحون والفلاحات على الأطلال يبكون ، ويرمقون الدخان المجتمع فى السماء بعيون دامعة حزينة ، ومن الصدف العجيبة أن الآفات الزراعية كانت قد فتكت بالكثير من المزروعات والعام الذى سبقه ، والناس يعانون الفقر وضيق الحال ، ويعزون تلف المحاصيل إلى المبيدات الحشرية المغشوشة ، والتى لا تؤثر فى ديدان القطن أو الذرة ، لدرجة أن أحد الفلاحين وضع دودة قطن وغيرها فى مسحوق المبيد ، وكم كانت دهشته عندما شاهد الدودة تتقلب فى المبيد دون أن يصيبها أدنى أذى ، وهكذا اجتمع خراب المحصول مع دمار الحريق ، فيما يشبه المؤامرة للإطاحة بأمن الفلاح ، وتضييع رزقه ، والقضاء على آماله فى الرخاء ...

وقضى أهل القرية أسوأ ليلة عرفوها فى حياتهم ، وتوافد إلى الوحدة المجمعة عدد من الناس ، هتفت بزوجتى وكانت فى الطابق الثانى : « انزلى وقدمى كل ما لديك من طعام للناس ، وخاصة الأطفال » .

ومن فضل الله أن الحريق لم يصل إلى الوحدة المجمعة القائمة فى المنطقة الغربية ، والتى يفصلها عن

القرية ترعة ، لكن بيتنا ، بيت الوالد ، فى الناحية الشرقية من البلد تعرض لدمار الحريق ، ذلك لأن مد الحريق كان يتجه جهة لشرق كالمارد الجبار الذى لا يقدر على مواجهته أحد ، وحاولت زوجتى بأقصى ما تستطيع أن تقدم كل ما لدينا من مخزون لمن قدموا إلى البيت ، وآوت الأطفال الصغار فى الدور الأرضى كى يستطيعوا النوم ويكفوا عن البكاء ..

فى اليوم التالى قدم سيادة المحافظ ترافقه وزيرة الشئون الاجتماعية وقتذاك الدكتور حكمت أبو زيد ، وبالطبع كنت ضمن مستقبليهم ، ومضى ركب الضيوف فى الحقيقة يجوب شوارع القرية ، وينظر بألم إلى الدمار الذى لحق بها ، ولاحظت أن المحافظ يتودّد إليّ بكلمات طيبة ، وخاصة بعد أن علم من الناس ما بذلته من جهد ، وطلبت إرسال المعونات الغذائية وخيام الإيواء والأغطية على الفور ، فأكد لى أن تلك هى مهمته العاجلة والسريعة ، وكانت المعونة الغذائية التى أتت فى نفس اليوم منصبة على الخبز وحده ، فهو أهم شيء ، والناس جائعون ، والبرد شديد ، ونصبت الخيام ، ووقفت فى ساحة تتوسطها ، وأخذت أوزع أرغفة الخبز ، كان الفلاحون يتزاحمون بصورة جنونية « فالجوع كافر » كما يقول أهل القرية ، وكانوا يتصادمون ويتضاربون وكأنهم نسوا تمامًا الوداعة والألفة التى تربط بينهم من قديم ، وكان الأمر يصل فى بعض الأوقات للتشابك بالأيدى ، لكنى كنت أبادر بفض الاشتباك بإعطاء الطرفين عددًا من الأرغفة التى تكفى ، فأنا أعرفهم واحدًا واحدًا ، كما أعرف حجم كل أسرة ، ومعى نخبة من الزملاء يساعدوننى فى ذلك ، كنت ألبس « روبًا سميكًا ، فوق المنامة البيجاما » ، وأضع على رأسى طاقية من الصوف ، لكن الغبار الناجم عن الزحام كان كثيفًا جدًّا حتى كدت أختنق ، وخف الزحام إلى حد كبير ، واستطعنا إرضاء معظم الناس ، وقد أتى إلى الوحدة لتسلم الخبز الأغنياء والفقراء على السواء ، وقد انتهز بعض العاملين بالوحدة الفرصة ليستولوا على كمية كبيرة من الخبز ، فاعترضت ونهرتهم ، وطلبت من والدى رحمه الله ألا يحضر إليّ أحد من عائلتنا الكثيرة العدد . ورجوته أن ينظم المعونة لهم داخليًا ، فأكبر فيّ ذلك ووعدنى بالتنفيذ ، ومع ذلك فقد أتى عدد من فقراء العائلة ، فلم أشأ أن أردهم خائبين ، بل أعطيتهم مثلما أعطيت الآخرين ، وفى مساء هذا اليوم (ثانى أيام الحريق السادس والعشرين من يناير ١٩٦٣) قدم نائب الدائرة المنتخب الأستاذ صلاح سعدة أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة ، وجلس معنا فى المخيم ، وليساهم بجهوده فى عبور هذه الكارثة ، وكان الأستاذ صلاح رجلًا مخلصًا مهذبًا رقيقًا ، ويمت لبعض أسر قريتنا بصلة قرابة . وقد أبعده جمال عبد الناصر عن الصفوف الأولى فى الثورة لخلافه فى الرأى معهم ، وعينه رئيسًا لمجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام ، وهو من الشخصيات المحبوبة فى البلد ، ومما ذكره أهل قريتنا أنه أثناء المعركة الانتخابية ، طلب منه أهل القرية . كشرط لانتخابه . طلبًا واحدًا ، وهو إخراجى من السجن ، فأكد لهم أنه لن يكف عن بذل المحاولات للإفراج عنى ، وأقسم لهم على ذلك ، وشرح لهم أن هذا يحتاج إلى قرار من مستوى عالٍ ، وهو واثق أن الله سوف يحقق أمل الإفراج عنى . وشيعت قريتنا شهداء الحريق ، وكان منهم شاب اسمه رشدى صالح ، واستقبلت وزيرة الشئون الاجتماعية زوجته المتشحة بالسواد وكانت المقابلة مشحونة بالعواطف المؤلمة ، وقدمت لها المعونة العاجلة ، وفى الأيام التالية أخذنا نطوف بالمنازل لحصر الخسائر ، حتى تستطيع الحكومة تحديد التعويضات المستحقة على وجه التقريب ، وبعد فترة ليست بالقصيرة ، جاءت التعويضات .. لكنها للأسف كانت مخيبة للآمال ، وكان على الفلاحين أن يرضوا .. وأن يصبروا مثلما صبروا من آلاف السنين ..

# [ ١٠ ] الحياة الصعبة فى القرية



بطبيعة الحال، فإن الحياة فى قريتنا كانت صعبة، والمشاكل فيها لا تنتهى، ليس بسبب صعوبة العمل وكثرته، ولكن بسبب الأوضاع المتردية أيضًا، وكانت هناك مخلفات كثيرة من جراء الممارسات الخاطئة لمن سبقونى فى العمل، ومع ذلك حاولت جاهدًا أن أرتب الأوضاع، وأزيل الحزازات القديمة على قدر ما أستطيع، فمثلًا كانت هناك معونات أمريكية تسلم لطبيب الوحدة من دقيق وسمن وغير ذلك، ولم أكن أعلم عنها شيئًا أو أهتم بها إلى أن جاءت فرقة للتحقيق مع زميلى، بعد أن قدمت شكوى من الفقراء يتهمونه بأنه يبيع المعونات لحسابه الخاص، ولا يعطيهم شيئًا، وكم كانت دهشة المحقق عندما وجد أن هؤلاء لم يأخذوا المعونة على الرغم من توقيعهم باستلامها، وبإجرائى لبعض التحريات تبين لى صدق هؤلاء المساكين، وكان البعض منهم يمتون لى بصلة قربى، وأصر الفقراء على أقوالهم، وأصر الطبيب ومن معه على الإنكار، ومع أن صحيفة التحقيق لم تُغْلَقْ تمامًا إلا أن اللجنة قررت تسليمى العهدة، على الرغم من عزوفى الشديد عن ذلك، ووضعت المخزن تحت مسئولية أحد الموظفين، وبدأت التوزيع بنفسى بالعدل، وكم كانت دهشتى عندما جاء والدى إليّ ذات يوم وقال وهو يلوح بيده فى غضب: « أنت نائم .. ولا تدرى شيئًا عما يجرى وراء ظهرك ».

- « خيرًا يا أبى ..».
- « باع أمس رجالك عددًا من أجولة الدقيق، وأنت لا تدرى ».
- « هل هذا معقول ..».
- « أستطيع أن أصحبك بنفسى للتاجر الذى اشترى منهم ».

واستبد بى الضيق، واحترت ماذا أفعل، وأسرعت بجرد المخزن، ولكن اللصوص للأسف لم يتركوا ثغرة، فطلبت منهم المفاتيح، وقمت بنفسى بتوزيع المعونة الأمريكية حتى لم يبق منها شىء، وقررت ألا أترك المعونة فى المخزن مستقبلًا إذا جاءت إلا لفترة قصيرة يتم توزيعها فيها، وأسفت أشد الأسف لأنى وضعت ثقتى فيمن لا يستحقونها، وتعلمت درسًا لا أنساه .. وجاءنى أحد الفلاحين واسمه عبد الحليم أبو باشا وأخبرنى أنه معرض للسجن بسبب زميلى الطبيب، ولما سألته عن السبب قال إن أحد المرضى واسمه أبو الفتح شعبان جاء يشكو من الحمى، فأعطاه الطبيب حقنة مات على أثرها، ثم كتب تقريرًا ذكر فيه أن الوفاة نتجت عن نوبة قلبية مفاجئة، ودفنت الجثة، وبادر عبد الحليم بتقديم شكوى ضد الطبيب متهمًا إياه بالتسبب فى وفاة أبو الفتوح، واستطاع الطبيب أن يفلت، ولم يكتف بذلك بل رفع دعوى ضد عبد الحليم أبو باشا بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات، ومطالبًا برد شرف، وضاق الخناق على عبد الحليم الفقير المسكين، وأخذ يعتذر للطبيب دون جدوى، فما كان منه

إلا أن وكّل أحد المحامين للدفاع عنه ، واقترض أجر المحامى ، وأقسم أنه باع قطعًا من أثاث بيته ، وكان قد فعل نفس الشيء قبل ذلك ليدفع للطبيب تكليف عملية البواسير التى يفترض أن تكون بالمجان واستدعيت الممرضة المختصة ، بعد أن مضى عبد الحليم ، وسألتها عن واقعة وفاة أبو الفتوح شعبان ، بعد أن أفهمتها هذه شهادة تسأل عنها أمام الله ، قلت : « أى حقنة أعطيت لأبو الفتوح » .

- « بنسلين ..» .
- « وهل مات على الفور ؟ » .
- « نعم ..» .
- « ومن الذى أمرك بإعطائه الحقنة ؟ » .
- « الدكتور » .
- « ألم يجر الطبيب اختبار حساسية للبنسلين قبل إعطائه ؟ » .
- « كلا .. نحن لا نعمل اختبار حساسية » .
- « وهل سجلتم ذلك فى دفتر استقبال المرضى ؟ » .
- « لا ..» .
- « لماذا ؟ » .
- « لأن الدكتور طلب منى ألا أسجل اسمه ، ولا الدواء الذى أخذه » .
- « شكرًا ..» .
- « ليس لى ذنب ، وأنا لا أستطيع مخالفة زميلك .. كان يمكن أن يضرنى ..» .

عندما جاءنى المتهم عبد الحليم أبو باشا بعد يومين ، أخبرنى أن القضية أوشكت ، وأنه خائف أن يحكم عليه وهو مظلوم ، فأخرجت ورقة ، وكتبت مذكرة أشرت فيها إلى أن البلاغ الذى قدمه عبد الحليم أبو باشا ليس كاذبًا ، واستدللت على ذلك بعدم تسجيل اسم المريض أبو الفتوح فى دفتر الاستقبال ، وكذلك عدم كتابة نوع الحقنة التى أخذها ، وقد ثبت أنه مات بالمستشفى بشهادة جميع أهل القرية ، لكن جرت محاولة معتمدة لطمس معالم القضية ، وما إن قرأ المحامى المذكرة حتى فرح بها جدًا ، وعندما نودى على القضية قدم المذكرة للقاضى ، وكان أن حكم ببراءة المتهم عبد الحليم أبو باشا الذى صاح بأعلى صوته قائلًا « يحيا العدل .. أنا وراك يا ظالم والزمن طويل » يقصد الدكتور ، وتولت لجان التحقيق من المنطقة الطبية التحقق في القضايا والشكاوى المتراكمة ضد زميلى ، وكان شيئًا مربكًا للغاية بالنسبة له . وجاءنى ذات ليلة منهكًا حزينًا ، وقال : « أعتذر إليك ، أنا تسببت لك فى كثير من المشاكل ، ولكن الله نصرك .. وأريدك فى هذه الأيام أن تقف إلى جوارى وتنقذنى .. لقد أخطأت ودفعت ثمن خطئى ، فمجلس الدولة أداننى ، وأصدر ضدى جزاءً ، وأوقف ترقيتى .. وأنا عندى طفلة أربيها .. أرجو ألا تتخلى عنى ..» . وكان المحقق قد قدم لإجراء تحقيق حول تقاضى الطبيب مبلغًا من المال نظير عملية جراحية بالمستشفى الحكومى بالوحدة ، وكان المحقق يعرفنى من قبل ، وأذكر أن اسمه محمد وهدان ، فرجوته أن يصفح عن الدكتور الزميل ن فأخبرنى أنه لا يستطيع إلا إذا تنازل الشاكى عن بلاغه ، وأحضرت الشاكى وقلت له : « يا حاج يوسف ..» .

- « نعم يا دكتور » .
- « هل سلمت الدكتور المبلغ بيدك ؟ » .
- « لأ ، بل عن طريق التومرجى » .

- « وإذا أنكر التومرجي » .
- « يبقى كذّاب فى « أصل وشه » ..» .
- « ما أريده منك هو أن تقول الحقيقة يا حاج يوسف » .
- « البلد كلها تدفع للدكتور قبل أن تحضر أنت » .
- « نحن إزاء واقعة محددة يا حاج يوسف .. قل للمحقق أنك لم تسلم له المبلغ شخصيًا » .

وهكذا استطاع المحقق أن ينقذ صاحبنا من هذه القضية ، والحقيقة أن الزميل الطبيب لم يرتكب مخالفات أخرى بعد ذلك ، وطلب منى أن أبلغ المنطقة الطبية بأنى موافق أن يبقى معى فى الوحدة بدلًا من نقله إلى مكان آخر ، حفاظًا على استقراره الأسرى ، فوافقت على الفور ، وأخطرت المنطقة بذلك ، وبعدها ساد الوحدة المجمعة جو من الهدوء والصفاء ، ولقد كانت هناك خلافات بين زميلى وغيره من الموظفين وخاصة الأخصائى الاجتماعى وناظر المدرسة وبعض أعيان البلد ، وقد استطعت بعون الله أن أعقد الصلح بين جميع الجهات المتناحرة لكى تستقر الأوضاع ، ونستطيع أن نقدم الخدمات الكافية لإخوتنا من الفلاحين. وذات يوم تقدمت مريضة كبيرة السن مرقعة الثياب ، ونظرت إلى بطاقتها فوجدت مكتوبًا عليها « بالمجان » ، ولست أدرى لماذا سألتها : « هل دفعت الرسوم » .

- « نعم يا بنى ..» .
- « كيف ؟ مكتوب على البطاقة أنها بالمجان » .
- « والله يا بنى دفعت أربعة قروش صاغ ..» .

وجن جنونى ، تلك سرقة أخرى ، واستدعيت الكاتب رضوان وقلت له : « هل أخذت الرسوم من هذه المريضة ؟ » .

نظر إليها وارتبك وقال : « نعم ..» .

- « فلماذا كتبت على البطاقة « بالمجان » ؟ طبعًا لتضع المبلغ فى جيبك » .

ووجدت رضوان ينحنى على مكتبى ، ويمسك البطاقة ، ثم يشطب على كلمة « بالمجان » ويكتب فوقها « رسوم » ، وطلبت منه أن يخرج ، وأخذت أجمع بطاقات المجان من المرضى المتبقية ، واكتشفت أن رضوان زوّر فى الرسوم فى عشرة بطاقات أخرى ، ومعنى ذلك أنه اختلس أربعين قرشًا ، أى ما يوازى ٢ جنيهًا فى الشهر على الأقل ، وهى أكثر من مرتبه الشهرى ، وتقترب من مرتب الطبيب ، وأصدرت على الفور قرارًا بنقل رضوان إلى المختبر ، واخترت بدلًا منه رجلًا أمينًا من أهل القرية ، وكان مسيحيًا اسمه لبيب » .

وتسبب رضوان فى كارثة من نوع آخر ، فقد خاف أن أحقق معه فى البطاقات القديمة المكتوب عليها « بالمجان » ، فسارع بتمزيقها ، ولم يدرك أنه بذلك قد ارتكب حماقة كبرى ، لأن تمزيق البطاقة ، يعنى عدم حصر الأدوية المسجلة عليها للمريض ، وهى أقراص وشراب وحقن ، ومعنى ذلك ، أن الجرد السنوى سيكون ناقصًا ، ويعنى أننى اختلست الناقص من الأدوية ، وضاقت نفسى ، وفكرت أن أسلمه للشرطة ، لكنى أشفقت عليه وعلى عائلته التى لا ذنب لها ، فماذا سيفعلون إذا فصل من عمله ودخل السجن ، وبادرت بحصر سجلات الصيدلة ، والعودة إلى السجل العام ، واستخرجت بطاقات جديدة « بدل فاقد » وشغلت معى فى هذا العمل المرهق عددًا من الموظفين بالوحدة .. وعندما انتهيت من هذه الأزمة ، أتيت برضوان وقلت له : « ارحل عن هذا البلد ..» .

- « إلى أين ؟ » .

- « فى أية داهية » .

« لقد نزلت بلدكم من سنين ، وأصبحت هى موطنى وأهلها أهلى » . عندئذ قدم أبى رحمه الله وقال : « لتصفح عنه المسامح كريم .. وسأتعهد بأن يكون مخلصًا أمينًا » .

تلك كانت نماذج من المتاعب اليومية التى تجابهنا فى العمل ، وتسبب لنا الاضطرابات التى نحن فى غنى عنها ، ويمكن تجنبها ، لكن الطمع كثيرًا ما يدفع بالإنسان إلى ارتكاب الحماقات .

وفى هذه الأثناء أتى إلينا ناظر المدرسة الأستاذ عبد المنعم عميرة ، وقال إنه وردت إلينا إشارة من المسئولين فى المحافظة تطلب من كبار العاملين بالوحدة أن ينتشروا فى القرية ويدعوا كافة أهل البلد بالانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى حزب الحكومة ، وكان لابد من تنفيذ الأوامر ، وركبنا سيارة ، وأمسك الأستاذ عبد المنعم بمكبر الصوت (الميكروفون) وأخذ ينادى والسيارة تمشى ببطء : « يا أهالى شرشابة .. بادروا بالاشتراك فى الاتحاد الاشتراكى فورًا من أجل مصلحتكم .. أيها الفلاح إذا أردت لابنك مكانًا بالمدرسة ، ووظيفة بعد التخرج ، فلتسرع لملء الاستمارة الخاصة بالانضمام للاتحاد الاشتراكى ، والذى لا يشترك لا يلومنَّ إلا نفسه » .

وأخذ الفلاحون يتدفقون على الوحدة لكى ينفذوا أوامر الحكومة ، وكان ازدحامهم أشد ما يحدث أمام الجمعيات التعاونية التى توزع السلع التموينية الرخيصة المدعّمة من الحكومة ، وسرى بينهم كثير من الأقاويل والشائعات ، مؤداها أن من لا يشترك فى حزب الحكومة الأوحد سيتعرض للنقمة والعقاب ، وسيصبح مستقبل أبنائهم مهددًا بالخطر قلت لأبى : « ألن تنضم للحزب ؟ » .

- « وأنت ؟ » .

- « تعلم أننى معزول سياسيًا » .

- « وأنا سأعزل نفسي سياسيًا » .

- « ألا ترى أنه من الأحوط أن ....» .

قاطعنى قائلًا بحزم وبلهجته الشعبية : « بلاش كلام فارغ .. كلهم حرامية ونصّابين » .

على الرغم من أن القرية استطاعت أن تطفئ الحريق الكبير ، مثلما فعلت فى حريق مشابه منذ ما يقرب من ستة وعشرين عامًا ، ولعله على حد قول البعض انطفأ من نفسه بعد أن أكل كل شيء ، أقول على الرغم من ذلك ، فقد بقى الحريق مشتعلًا فى القلوب ، ولماذا لا يكون الأمر كذلك ، وقد ابتلوا بخسائر متتالية فى المحاصيل بسبب الآفات ، وفى مخزون العام والبهائم والبيوت من جراء الحريق ، والمبالغ التي يدفعونها لأولادهم فى الدروس الخصوصية هى الأخرى تلتهم جزءًا كبيرًا من الدخل ، وارتفاع الأسعار يسبب لهم الضيق المتزايد ، وصغر المساحات الزراعية المتاحة لهم .. إنها ابتلاءات كثيرة تتنزل عليهم من وقت لآخر ، ومع ذلك فهم مضطرون اضطرارًا لأن يطيعوا الأوامر التي تصدر من أعلى ، ويستسلموا لقضاء الله ، وعليهم أيضًا أن يهتفوا بحياة الزعيم والثورة ، كفريضة كُتبت عليهم تضاف إلى الفرائض الخمس التى آمن بها الناس منذ أن بعث نبى الحب والرحمة والعدل والحرية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه .

وعلى الرغم من الضيق العارم الذى يثقل على القلوب ، فقد حدثت فتنة بين أعز صديقين يضرب بهما المثل فى القرية ، هما عبد الحميد جاب الله وكامل أبو العطا ، إذ حدث بينهما خلاف حول بعض المسائل المالية ، وتطور الخلاف إلى حرب شعواء ، وسقط القتلى ، وسالت الدماء ، وتعقدت الأمور ، واضطرب الأمن ، ووقف الناس فى حيرة أمام هذا البلاء الجديد ..

# [ ١١ ] من ذكريات القرية



من المؤلفات التي كتبتها بسرعة في هذه الفترة كتاب « الإسلامية والمذاهب الأدبية » ويعتبر هذا الكتاب على الرغم من أنه يجمع عددًا من الأفكار والخواطر حول مذهب جديد في الأدب « الأدب الإسلامي » ، من الكتب الهامة التي فتحت الطريق أمامي لكي أبدأ في كتابة قصص وأشعار في إطار التصور الإسلامي الصحيح ، إيمانًا مني بأن أي اتجاه أدبي في العالم ينبع أساسًا من عقيدة أو فلسفة معينة ، وعلى ضوء عقيدتنا الإسلامية التي تنظم جوانب الحياة المختلفة ، يجب أن يتحرك أدبنا ، وكان هذا بداية حركة فعلية نشأت لأول مرة في إطار فهم واضح ، وقبل ذلك أثرت في الفصل الرابع في كتابي « الطريق إلى اتحاد إسلامي » إلى شيء من هذا القبيل ، ودعوت في ذلك الفصل إلى إنشاء رابطة أو ناد أو اتحاد لحملة الأقلام الإسلامية ، كما دعوت إلى إنشاء إذاعة عالمية إسلامية ، ولاتحاد أو رابطة لعلماء المسلمين في العالم ، ومن فضل الله أن هذه الأفكار كلها قد تحققت ، وكانت بداياتها في المملكة العربية السعودية التي قدمت للمسلمين في أقطار الأرض كثيرًا من الخدمات الجليلة .

أما رواية « الربيع العاصف » فقد كتبتها قبل ذلك ، أي قبل أن أتخرج وأعمل طبيبًا في الريف ، على الرغم من أنها تعالج قضية مشابهة للقضية التي طرحتها في رواية « الذين يحترقون » ، مع اختلاف في الأهداف والتوجهات .

ومن الأمور التي أحمد الله عليها ، أنني استطعت لأول مرة في الوحدة أن اكتشف عددًا من حالات مرضى السل الرئوي باستخدام السمّاعة وحدها ، فلم يكن لدينا جهاز للأشعة ، ولا استعدادات لتحليل « بصاق » المشتبه فيهم ، ولهذا أحلت إلى المستشفى الصدري المركزي الحالات المشكوك فيها ، وقد اتضح أن أغلب الحالات المحولة وُجِد إيجابيًا ، وهكذا وجد هؤلاء الفلاحون . نساءً ورجالًا . الفرصة للعلاج ، كما أنهم أخذوا يتقاضون معونة شهرية مالية ، وتصرف لهم كميات من الغذاء الضروري لهم بالمجان ، وكان لهذا الحدث وقع طيب في نفوس أهل القرية بصفة عامة ، والمرضى بصفة خاصة ، وكنت أحمد الله على هذا التوفيق ، ولقد كان ذلك سببًا آخر من أسباب تزاحم المرضى في عيادتي ، وللثقة ثمنها الغالي الذي ندفعه من عرقنا وسهرنا .

ومن الطريف أن البقال الذي اشترى منه احتياجاتي المنزلية من أرز وسكر وصابون وما إلى ذلك جاءني وأخبرني بأني مدين له ، بما يقرب من أربعين جنيهًا ، وكان يضحك لأنه يرى لأول مرة في حياته طبيبًا مدينًا ، وكان يعلم أني أعيش بمرتبي ، ولا أقبل الهدية أو أجر الفحص الخاص ، وعندما علم والدي رحمه الله بذلك أحضر المبلغ المطلوب ودفعه نيابة عني ، لكن يجب أن أذكر أن حالتي المالية كانت في عمومها جيدة ، لما يرد إلى من دخل الكتب ، ومع ذلك فقد كانت هناك أزمات مالية طارئة لابد أن

تحدث من وقت لآخر ، ولم يكن ذلك ليسبب لى أى إزعاج ..

أخذنى أبى ذات يوم إلى أرضنا الزراعية التى تبعد عن القرية حوالى كيلو متر ، وكان يحدثنى عن أهمية الأرض ، وأن فيها جذورنا ، وأن علينا أن نحافظ عليها ونخدمها ، فى أى وقت من الأوقات ، لأنها رصيدنا الدائم ، وذكرنى أبى بقصة لم يمض عليها إلا ثلاث سنوات ، أى فى عام ١٩٥٩، حينما قدم إلى فى مسكنى بحى شبرا بالقاهرة ، وأخبرنى أنه جاء لأمر هام جدًا ، ولما سألته فى شغف عن ذلك الأمر قال : « أتذكر أنه منذ سنوات طويلة كانت لنا أرض فى حوض « الأربعينية » .

- « نعم أتذكر ..» .

- « وأن هذه الأرض قد سلبها العمدة وإخوته ، حينما حكم لهم فى المحكمة فى قضية غبنا عنها ، وصدر الحكم غيابيًا .. إننا لم ننس هذه الأرض ..» .

- « هذه قصة قديمة مضى عليها عقود من الزمان » .

- « ولو مضى عليها ألف عام .. المهم أنهم يبيعونها الآن ، ولابد أن نشتريها حتى تعود لنا أرضنا ..» .

قلت فى هدوء : « يا أبى .. الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ..» .

بدأ الغضب على وجهه وقال : « إننى أعرف ذلك ، هل جئت إليك لتعلمنى ؟ هذه الأرض هى التى علّمتك ، وجعلت منك رجلًا ..» .

اعتذرت لأبى ، ورحبت بفكرته ، وطلب منى أن أحضر المبلغ المطلوب ثمنًا للأرض ، على أن يُكتب عقد الشراء باسمى ، فهرولت مسرعًا إلى الناشر ، وتسلمت منه المبلغ المطلوب ، ولم يبت أبى ليلتها معنا ، بل توجه فورًا عائدًا إلى القرية وهو فى منتهى السعادة ، وتم موضوع الشراء على خير وبالثمن الذى حددوه ، ومنذ ذلك اليوم ، وأبى يذهب كل صباح إلى تلك القطعة الزراعية ، وكأنها الأم العائدة بعد غربة مريرة ، ويتناول فطوره ، ويشرب الشاى هناك ، وبقى على هذه العادة ما يقرب من عامين ، ولم أكن أحس نحو الأرض ذلك الإحساس العميق إلا بعد هذه الواقعة ، واليوم يأخذنى أبى لأسعد برؤية أرضنا وليعيد تلقين الدرس الذى يجب أن أتذكره جيدًا فى حب الأرض الطيبة ..

وأثناء عملى فى القرية جاءتنى رسالة مسجلة بعلم الوصول من ضرائب طنطا تطلب منى دفع مبلغ ثلثمائة وخمسة وسبعين جنيهًا كضرائب عن مؤلفاتى ، وعن الجوائز التى حصلت عليها فى السنوات الماضية ، وكنت فى هذا الوقت أعانى من ضائقة مالية ، ومدينًا للبقال الذى تبرع أبى بالدفع له ، كنت أشعر بالظلم ، فالذى فرض الضرائب لم يراع أننى متزوج وعندى أولاد ، وعليّ مسئوليات ، ذلك لأنهم فى الضرائب زعموا بأن هناك خطابًا آخر قد أرسل إليّ ، ولما لم أرد عليهم وضعوا تقديرًا جزافيًا ، ولم يعد لى الحق فى التظلم ، بعد أن مضت المدة القانونية ، وتم ربط الضريبة ، وجلست ساهمًا مغتاظًا أفكر ، ماذا أفعل فى هذه البلوى التى لم تخطر لى على بال ، والمبلغ يعتبر كبيرًا جدًا فى مثل تلك الأيام ، ودخل أبى عليّ فى مكتبى بالوحدة المجمعة . كما سبق وأشرت . وسألنى عما يكربنى ، ولما علم بالأمر ابتسم وقال لى ما معناه ، أننى أفرح عندما أنال الجوائز ، وعندما تأتى الحكومة لتطالب بحقها أغضب ، ولامنى على ذلك أشد اللوم واقترح أن أذهب إلى مأمورية الضرائب ، واتفق معهم على التسديد بالتقسيط .

أهل الريف يتصفون بالصبر ، وتقبل الصدمات والآلام بروح عجيبة ، ولديهم استسلام مذهل لقضاء الله وقدره ، ولا يعرف اليأس طريقًا إلى قلوبهم ، فهم يحمدون الله على كل حال ، ويفكرون

فيما يجب عمله مستقبلًا ، رأيت ذلك عندما دمرت الآفات الزراعية محاصيلهم ، فكانوا يحزنون ، لكنهم لا يشقون الجيوب ، ولا يلطمون الخدود ، بل ينظرون فى أمل إلى العام القادم أو الذى يليه ، وليسوا أبدًا فى عجلة من أمرهم ، لإيمانهم العميق بأن الله لن يتخلى عنهم مهما كان الأمر ، ورأيت ذلك بعد أن أتى الحريق على كل شيء المأكل والمسكن وأحيانًا الملبس ، فاتجهوا بدعواتهم وقلوبهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وكأنهم يرددون لا ملجأ من الله إلا إليه ، أو كأنهم يقولون ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه . ترى هل لذلك علاقة بقلة عدد الحالات المرضية الوثيقة الصلة بالأمراض والاضطرابات النفسية ؟ أعتقد ذلك ، لأن حالات ارتفاع ضغط الدم أو القرحة أو الداء السكرى ، أو القولون العصبى أو الذبحات الصدرية ، تعتبر قليلة جدًا إذا ما قورنت بخريطة الأمراض فى المدينة .

ومن الطريف أن أذكر أن حالات الانتحار المسجلة فى قريتنا طوال أربعين عامًا مضت لم تزد عن حالتين أحداهما رجل شنق نفسه ، والأخرى امرأة أشعلت الحريق فى جسدها بعد أن سكبت عليه الكيروسين . وكنت فى عملى حريصًا على الجانب الوقائى فى الخدمات الطبية ، وعلى رعاية الأمومة والطفولة ، ولهذا كنت أشرف بدقة على الممرضات الأربع ، وخاصة فيما يتعلق بالتطعيمات ضد الأمراض المعدية ، وإجراء الفحوص الضرورية للأم الحامل ، وعلاجها دوريًا حتى يستمر الحمل ، وينمو الجنين نموًا طبيعيًا ، وهناك فحص كنا نجريه للحامل يتعلق بإصابتها بميكروب « الزهرى » ، وفى حالة ما إذا كان إيجابيًا نعطيها بنسلين زيتى طوال مدة الحمل حفاظًا عليها وعلى الجنين على الرغم من أن الحالة ليست فى طورها الحاد . وكانت قافلة الممرضات تخرج كل يوم للمرور على بيوت الفلاحين للإشراف على عمليات التوليد الطبيعية التى لا تحتاج إلى تدخل جراحى ، وربط الحبل السرى ، وإنعاش الوليد ، وإعطاء الأدوية اللازمة للأم أو لوليدها ، وتزويدها بالتوعية الصحية الضرورية بخصوص الإرضاع ، والاستحمام والملابس ، وما إلى ذلك .

وكانت هؤلاء الممرضات يعانين من الغربة والوحدة ، وكانت بينهن واحدة فقط متزوجة ، تذهب إلى زوجها كل أسبوع ، وثانية مطلقة ، أما الأخريان فلم يتزوجا بعد ، وهما فى سن حرجة ، فلم يكن غريبًا أن تصاب إحدى الفتاتين بنوبات تشنج هستيرية فى المساء أحيانًا ، كما كانت تدب بينهم بعض الخلافات اليومية ، وفى مثل هذه الأمور ، قد يشاع عن وجود علاقات عاطفية بين هذه أو تلك ، وأحد الموظفين ، أو شاب من شباب القرية ، وخاصة تلامذة المدارس والجامعات ، ولم يكن هناك بد من أن يلزمن سكنهن بالمستشفى ، تحت الرقابة الدائمة ، ولا يسمح بالزائرين لهن ، لكن وجود عدد من المدرسات فى مساكن الوحدة ، والتلاقى معهن ، قد خفف الكثير من معاناة الطرفين ، ولم يكن فى القرية إبان تلك الفترة وسائل التسلية أو الترفيه ، فلا تليفزيون ولا سينما أو مسرح ، وكانت التسلية الوحيدة هى الراديو ، وأحيانًا كنا نسمع البنات . ممرضات ومدرسات . يرقصن ويغنين فى مسكنهن تخفيفًا من عزلتهن وغربتهن والفراغ القاتل الذى يئنون تحت وطأته ، وخاصة أنهم لم يتعودوا على قراءة الكتب أو المجلات أو الصحف ، وحتى لو فكروا فى ذلك فإنها غير متوفرة لديهن ، وقد أشرت على الأخصائى الاجتماعى بتكوين مكتبة متواضعة تضم عددًا من المجلات والصحف والكتب ، لكنه اعتذر لعدم وجود ميزانية لديه تكفى لذلك .

❁❁❁

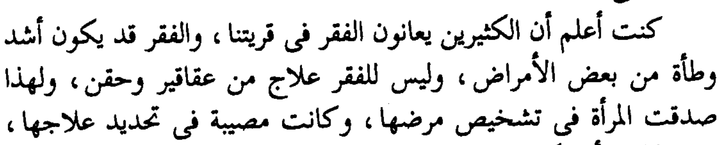
# [ ١٢ ] العودة إلى المدينة



في إحدى المرات دخلت عليّ مريضة فى الخمسين من عمرها ، ولما سألتها فى البداية عن الأعراض المرضية التى تشكو منها ، فوجئت بها تقول : « أطلب منك أن تتصدق على بربع جنيه ، رفع الله مراتبك ، أنا لا أجد ثمن الرغيف » .

وأخرجت لها ما طلبت ، وانتظرت أن تتحدث عن مرضها ، وعدت أسألها ، لكنها وقفت وهى تقول فى امتنان : « لا أشكو إلا من الجوع » .

وودعتنى وانصرفت ، وكتمت الممرضة التى تجلس قبالتى لمساعدتى ضحكتها ، وهى تقول : « لقد كان عليها أن تذهب للأخصائى الاجتماعى » .



كنت أعلم أن الكثيرين يعانون الفقر فى قريتنا ، والفقر قد يكون أشد وطأة من بعض الأمراض ، وليس للفقر علاج من عقاقير وحقن ، ولهذا صدقت المرأة فى تشخيص مرضها ، وكانت مصيبة فى تحديد علاجها ، وأهل الريف يعتقدون أن الطبيب لابد وأن يكون غنيًا ، ولا يتصورون غير ذلك ، كنت حزينًا ، ها هم أهل قريتى على طبيعتهم دون زيف ، ومع ذلك يواصلون الحياة فى صبر واستماتة ، وقد يجتمع عليهم الفقر والمرض ، وهل يجدى الدواء بدون غذاء ؟

ومن الطريف أن امرأة أخرى دخلت عليّ ذات يوم وأخذت تشكو من أعراض مرضية عدة ، فى الرأس والظهر والقلب والساقين والمعدة ، ولم أستطع أن أجمع بين هذه الأعراض فى صعيد واحد ، حتى أرجح مرضًا بعينه ، ووجدتها تقول فى غضب وعصبية : « كلما ذهبت إلى طبيب يقول لى أنى سليمة ، وأن مرضى هو الوهم ولا يعطينى أى علاج » .

فحصتها جيدًا صدرها وبطنها وضغطها ، وقست لها أيضًا درجة الحرارة ، وعزمت على إجراء التحليلات اللازمة لها ، وبرقت فى ذهنى فكرة ، من المفروض أن نصدق المريض فى شكواه حتى يثبت العكس ، من يدرى فقد تكون مريضة مثلًا على الرغم من أن الفحص الإكلينيكى (السريري) لم يثبت أى دليل على ذلك ، ووجدتنى أقول لها ، وأنا أطوى جهاز الضغط : « أنت فعلًا مريضة » .

ودهشت عندما رفعت يديها إلى السماء داعية لى بالستر وطول العمر ، ثم قالت : « أنت الوحيد الذى عرف مرضى » .

لا شك أن هذه المرأة تعانى من مشكلات نفسية أواجتماعية أوغيرها ، ومن المعروف أن الاضطرابات النفسية تنعكس بأعراض عضوية على أى جهاز من أجهزة الجسم المختلفة ، وهذا يسمونه فى الطب « الأمراض النفسعضوية » أو السيكوسوماتيك ، لكننا كنا فى زمن لا يحفل كثيرًا بالأمراض النفسية التى يعتبرونها ترفًا أو « دلعًا » كما يقول البعض ، ولم أترك المريضة تخرج بدون دواء ، بل صرفت لها كمية من أقراص الفيتامينات والحديد ، فأغلب مرضى الريف يعانون من فقر الدم ، لكنى

كتبت لها تحويلًا إلى الأخصائى الاجتماعى ، لعل وقته يسمح بدراسة حالتها ..

وجاءتنى امرأة متزوجة تشكو العقم لأنها متزوجة منذ أكثر من عام ، ولم تنجب ، وفحص المرأة العقيم لابد وأن يسبقه فحص زوجها أولًا لأنه الأسهل ، لكن زوجها كان قد تزوج من قبل وأنجب ، فلابد إذن من التركيز على الزوجة ، وتكون البداية فحصًا دقيقًا ، وأخذا للتاريخ المرضى ، وما إلى ذلك ، لأن الخطوة التالية تحتاج لعمل أشعات إكس بالصبغة ، وتحليل للهرمونات فى بعض الأحيان ، واكتفيت فى المرحلة الأولى لشواهد رأيتها أن أصف لها بعض المضادات الجرثومية الخاصة بحالتها ، مع مساحيق تذاب فى الماء للغسيل ، وطلبت منها العودة بعد شهر ، ونسيت الأمر تمامًا لاستغراقى فى العمل اليومى ، لكنها جاءتنى بعد ثلاثة أشهر ، وكم كانت دهشتى عندما فحصتها ووجدتها حاملًا ولما أخبرتها بذلك أطلقت زغرودة عالية ، وخرجت من غرفة الفحص وهى تواصل زغردتها ، وتساءل الناس عما يجرى ، وظن البعض أن ما حدث يعتبر كرامة من الكرامات التى يأتيها الأولياء حسب زعمهم ، وشاع الخبر فى القرية ، بل وفى القرى المجاورة ، ووجدتنى فى الأسابيع المقبلة محاصرًا بعدد ضخم من العقيمات ، ومن ورائهن جاء الرجال الذين يشكون من العقم أيضًا ، ووقعت فى حيص بيص ، ولم أدر ماذا أفعل ، واستغثت بالمنطقة الطبية كى ترسل أخصائيات فى النساء والولادة ، ولو مرة واحدة أسبوعيًا ، ولكن المنطقة لم تعر الأمر اهتمامًا ، وطلبوا منى أن أحيل الحالات التى تعانى من العقم إلى المستشفى المركزى ، وحاولت بصعوبة أن أقنع الناس بضرورة إجراء التحاليل والفحوص اللازمة لحالات العقم دون جدوى ، وأكدت لهم أن الحالة الأولى التى حملت كانت حالة بسيطة منذ البداية ، استجابت للعلاج المختصر بمحض الصدفة ، ولم ينقذنى من هذا المأزق إلا إجازتى السنوية ، وبعدها يفرجها الله ..

وفى هذا الوقت . أى قبل الإجازة ، حاولت مع عدد من أهل الخير بالقرية أن نوفق بين عائلة جاب الله وعائلة أبو العطا دون جدوى ، ذلك لأن الدماء كانت قد أريقت ، ولأن عبد الحميد جاب الله الطرف الأقوى فى الصراع ، كان يعيش متخفيًا فى المدينة فى أغلب الأوقات حفاظًا على حياته من جنون الثأر ، وقد نجا من عدد من المحاولات لقتله ، وكان الضحايا من الطرف الآخر ، فقد كان عبد الحميد لديه المال والرجال اللذان يمكنانه من البطش بعدوه .

أثناء الإجازة السنوية وصلت رسالة من وزارة الصحة تبدى فيها استعدادها لنقلى إلى القاهرة فى عمل تابع لوزارة النقل والمواصلات أى فى الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية ، وذهبت لأتقصى الأمر ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت النقل يتم بسرعة لم أتوقعها .

عندما علم أهل قريتى بالأمر حزنوا حزنًا شديدًا ، وأخذوا يرددون أقوالًا لا أنساها : يا فرحة ما تمت . أتتخلى عن أهلك فى هذا الوقت ؟

- هل أغضبناك فى شىء .

- يا فرحة العواذل فينا .

أما أبى فقد قال : « لماذا لا ترفض النقل وتبقى معنا .. يقولون إن « عزّك تلّك » » . قلت له يا أبى : « إن اهتماماتى الأدبية ، ومستقبلى الأدبى يلحان على كى أذهب إلى العاصمة ..» .

- تستطيع يا بنى أن تكتب وأنت هنا .. والكتابة كما أعلم ، تأتى فى أى وقت ، وفى أى مكان » .

لكنى كنت قد عزمت وتوكلت ، ولم يكن هناك مجال للتراجع ، إن أجيالًا جديدة من أهل القرية سيأتون بعدى ، وقد يفعلون مثلما أفعل ، هكذا قلت لنفسى ، ولما أصبح أمر النقل مقررًا ، اتفق العاملون بالوحدة مع أهل القرية لإقامة حفل تكريم يليق بى ، اختلطت فيه التحيات والتكريمات بدموع صادقة

حارة .. ووقف أحد الشباب النابهين وهو الأستاذ عبد الحكم عطية سبالة (والمستشار حاليًا » وارتجل كلمة رائعة ، هزت القلوب والمشاعر ، وكانت آية فى الصدق والبلاغة ، أما زميلى الطبيب فقد أفاض فى الحديث ، ومن ضمن ما قاله : « إن زميلنا الفاضل الدكتور نجيب الكيلانى كان حمامة السلام بيننا جميعًا ..» .

كان الرحيل مشحونًا بالعواطف ، احتشد الناس فى الوحدة ، كانت الدموع تترقرق فى عينى ، وكنت أريد أن تتم مراسم السفر البسيطة المؤثرة بسرعة ، شهقت إحدى الممرضات باكية ، وكذلك فعلت « زكية » الفراشة ، وإبراهيم أفندى حمادة فنى المختبر ، ولبيب المسيحى ، هممت بالدخول إلى السيارة ، لكن يدًا أمسكت بى ، وسمعت من يقول : « ألا تودع أباك وأخاك أمين ؟ » .

وتلفت حولى ، كان أبى يقف على بعد أمتار فى ناحية من ساحة الوحدة ، وإلى جواره يقف أخى ، خطوت بهدوء متوتر صوب أبى ، مد يده ، أمسكتها بيدى الاثنتين ، وقبلتها بحرارة ، وأنا مختنق بالدموع ، حاولت أن أتكلم فلم أستطع ، احتضنى الرجل الطيب البالغ من العمر آنذاك سبعة وخمسين عامًا ، وتمتم : « لا تغب عنا طويلًا » حاولت أن أرد فلم أستطع أيضًا ، وصافحت أخى الذى يصغرنى بعام ويعمل بالزراعة والتجارة ، ثم هرولت إلى السيارة وقلت للسائق : « انطلق بسرعة ، لم أعد أحتمل » وتنفست الصعداء حينما وجدت السيارة تنطلق فى الطريق الزراعى مارةً بسوق القرية ، ثم المزارع الخضراء على الجانبين .

نسيت أن أذكر أن السيد المحافظ كان قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة منذ أسبوعين ، وسافرت أنا وأبى لزيارته فى بيته ، ونظرًا لأن حالته كانت حرجة ، فقد منعت الزيارة ، واكتفينا بتسجيل أسمائنا فى دفتر الزيارات ، ودعونا له بالسلامة ، فأنا لن أستطيع أن أنسى فضل هذا الرجل المنصف ، الذى وقف إلى جوارى عندما اتضحت له الحقيقة ، واتخذ إجراءات حاسمة فى إصلاح الأوضاع المتردية بالمنطقة الطبية ، فاحتفظت له فى قلبى بأطيب الذكريات ، ترى ماذا كان سيفعل الآن لو أنه علم أنى راحل عن القرية ، وعن المحافظة بأكملها ؟ ربما رفض الموافقة على النقل ، لكن الإدارة بالمنطقة الطبية فرحوا جدًا بموافقتى على النقل ، إذ كانوا يتمنون التخلص منى منذ زمن طويل ، ولهذا سارعوا باتخاذ إجراءات الموافقة على النقل ، أملًا فى أن يعودوا إلى عبثهم القديم ، وخاصة أن مرض السيد المحافظ يشكل خطورة على حياته ، وقد مات المحافظ رحمه الله بعد إصابته بالجلطة القلبية بشهر واحد ، وحزن كثير من الناس على وفاته ، وقد قرأت عن وفاته فى الصحف وأنا بالقاهرة .

كنت قد تركت زوجتى وأولادى فى بيت أبى عند رحيلى ، إذ لم يكن لدى مسكن فى القاهرة منذ أن غادرتها إلى شرشابة ، ولم أكن أعلم حينها أن أزمة المساكن ستتفاقم فى العاصمة إلى ذلك الحد المقلق ، وأخذت أبحث عن شقة لائقة فى أحياء القاهرة دون جدوى ، لأن قوانين تخفيض الإيجار ولجان الحكومة لتقدير إيجار الشقة بنسب ضئيلة ، جعل الناس يتوقفون عن استثمار مدخراتهم فى إقامة المبانى التى تدنى عائداتها لأقل من أربعة بالمائة ، ولهذا شحّت المساكن مع التزايد المستمر فى أعداد السكان ، وأصبحت ظاهرة « الخلو » مخيفة ، فلكى تجد شقة إيجارها سبعة جنيهات مثلًا ، لابد وأن تدفع للمالك مبلغًا كبيرًا ألفًا أو ألفين أو أكثر من الجنيهات تحت بند « خلو الرجْل » ، وهو أمر مخالف للقانون ، ويتم سرًّا باحتياطات غريبة ، ولم يكن معى هذا المبلغ وبمرور السنين تضاعف هذا المبلغ مرات ومرات حتى وصل فى بعض الأحيان إلى عشرة أو عشرين ألفًا من الجنيهات ، وكانت قوانين الحكومة « السيئة السمعة » المتعلقة بالمساكن هى السبب الرئيسى لأزمة المساكن الخانقة فى مدن مصر كلها ..

تسلمت عملى فى القسم الطبى بهيئة السكك الحديدية فى شارع الجلاء بالقاهرة ، كنت أذهب إلى العمل فى السابعة صباحًا ، وأعود إلى مسكن صهرى الشيخ محمود بعد الواحدة ظهرًا ، وبعد العصر أذهب إلى المكتبات التى أتعامل معها ، وتنشر لى مؤلفاتى ، أو أذهب إلى نادى القصة أو مقهى الأدباء ، أو بعض الجمعيات الأدبية الأخرى ، حيث أجد الفرصة للقاء شيوخ وشباب الأدب البارزين فى تلك الفترة ، ولم أكن أكف عن البحث لعلى أجد شقة مناسبة ، حتى أصابنى اليأس .

وذات يوم استدعانى رئيسى فى العمل وطلب منى أن أذهب إلى القسم الطبى للسكة الحديد بالمدينة السكنية بأبو زعبل ، حيث يوجد هناك عدد كبير من العمال والموظفين فى الورش الكبيرة الخاصة بالقطارات ، وأخبرنى رئيسى أن الانتداب لمدة أسبوع واحد ، وأننى أستطيع أن أركب الحافلة كل صباح بخمسة قروش ، حيث أصل إلى هناك فى أقل من ساعة ، وتضايقت فى البداية من هذا الانتداب المفاجئ ، لكنى أقنعت نفسى بأن الأمر بسيط ، وأنه مجرد تجربة جديدة قد تكون مفيدة ، وخاصة أننى لم أر هذه المنطقة من قبل ، فتوكلت على الله وذهبت إلى هناك ، ولم أجد شقة فى الاستدلال على المستشفى الصغير هناك ، ووجدت المدينة السكنية مدينة جميلة نظيفة مرصوفة الشوارع ، ووجدت مبانيها قسمين : القسم الأول عمارات متفاوتة المساحات للعمال حسب درجاتهم الوظيفية ، والقسم الثانى « ڤيللات » وهى خاصة بالأطباء والمهندسين وكبار رجال الإدارة والأمن ، وعلى الرغم من أن المدينة فى منطقة صحراوية إلا أن بشوارعها الأشجار الجميلة ، وهناك حديقة ملحقة بكل « ڤيلا » تزرع فيها الفواكه والخضروات ، وبالمدينة أسواق ومدارس وناد رياضى . .

ولاحظت أن هناك مدينة سكنية قديمة بنيت أيام سيطرة الإنجليز على السكك الحديدية ، كما إن هناك بعض « الڤلل » العتيقة التى بنيت على الطراز الإنجليزى تمامًا ..

وتعرفت على جراح المستشفى وهو مديرها أيضًا وتبادلنا الأحاديث الودية ، ثم أخبرنى بعد أن شربنا الشاى معًا ، بأنى سأذهب إلى عيادة العمال داخل الورشة ، وأعود إلى المستشفى بعد أن انتهى منها ، وحذرنى من عدم الاستجابة لإلحاح العمال فى طلب إجازات مرضية ، وكان سيئ الظن بهم ، كما حذرنى من الخوض فى الحديث عن السياسة ، ولقد سعدت عندما فوجئت بعدد قليل من العمال والموظفين كانوا زملائى فى المعتقل والسجن فرحبوا بى أشد الترحيب ، وأشعرونى أننى بين أهلى وعشيرتى .. وعدت مرة أخرى إلى المستشفى فى السيارة الخاصة بها منتظرًا انتهاء العمل ، ثم العودة إلى القاهرة ، وفى فترة الانتظار قدم إلىّ ممرض اسمه محمد إسماعيل وقال لى : « ما رأيك يا دكتور فى هذه المدينة السكنية » .

– « فى منتهى الروعة والجمال » .

فابتسم وقال : « فلماذا لا تنتقل إلينا إذن وتعيش معنا ؟ » .

– « كيف ؟ » .

– « هنا نقص فى عدد الأطباء ، ولو طلبت ذلك لوافقت لك الإدارة فورًا » .

– « صحيح ؟ » .

– « بالتأكيد يا بك ، ثم لا تنس أنك ستسكن فى « ڤيلًا » لها حديقة ، ولن تدفع إيجارًا إلا خمسة فى المائة من راتبك الأساسى ، والكهرباء والماء تقريبًا بالمجان ، والسلع التموينية متوفرة ، والعرب الساكنون فى القرى المجاورة يأتون إليك كل صباح بما تحتاج إليه من خضروات وفواكه واللبن والجبن والزبد والطيور وكل ما يخطر على بالك ..» .

نظرت إليه بإمعان ، وراقت لى الفكرة من عدة نواح ، أولًا ستُحلّ أزمة السكن ، ثانيًا سيتوفر لى الهدوء واللازم للقراءة والكتابة ، ثالثًا القاهرة ليست بعيدة عنا ، وأستطيع أن أذهب إليها متى شئت وأعود بعد ثلاث أو أربع ساعات ، ثم ألا يجوز أن يكون ذلك هو الاختيار الإلهى الذى لا أعلم عنه شيئًا ؟

واختمرت الفكرة فى ذهنى ، وفى المساء أفضيت بها إلى صهرى الشيخ محمود الذى يعتبر بمثابة الأب الروحى لى ، فتفكر قليلًا ، ثم وافق بحماسة واضحة ، لكن زوجتى بعد أن علمت بالأمر ترددت فى الموافقة ، فأقنعها أبوها ، بعد أن شرح الميزات التى سنجنيها من وراء ذلك ، وخاصة أن القاهرة قد ازدحمت مواصلاتها وشوارعها ، وتلوثت أجواؤها ، وشحت فيها السلع ، وتعقدت الأمور .

عندما عرضت الأمر على رؤسائى بالإدارة الطبية لهيئة السكك الحديدية وافقوا على النقل دون اعتراض ، وأخبرونى بأنى أستطيع أن انتقل فى أى وقت أشاء .

فى غضون أسبوع حملت الشاحنة الكبيرة أثاث بيتى ، وسرت ومعى أسرتى ، وألقينا عصا الترحال فى « ڤيلّا » أنيقة حديثة بمدينة أبو زعبل السكنية .

❁❁❁

# [١٣] ليالي المدينة السكنية



كانت السنوات التى قضيتها فى المدينة السكنية بأبو زعبل من أحلى سنوات العمر ، ففى الشهور الأولى توثقت علاقتى بالعمال والموظفين ، واستطعت أن أتفهم الأوضاع فى هذا الموقع الصناعى الهام ، بل وفى البلدان المجاورة ، وقد ساعدنى على سرعة التأقلم معهم أن عددًا منهم كانوا يتابعون كتاباتى فى الصحف والمجلات ، وأن جيلًا من أبنائهم كانوا يدرسون روايتى المقررة فى المدارس ، فضلًا عن أن زملائى القدامى فى العمل السياسى ممن كانوا منضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين ، ثم اعتقلوا وأفرج عنهم ، نشروا كل ما يتعلق بحياتى السياسية والأدبية بين جموع العاملين ، حتى أصبحت فى فترة وجيزة أشهر العاملين هناك ، وقد أحبنى الشباب خاصة فكانوا يحرصون على لقائى فى بيتى ، وفى المستشفى فى المساء ، وفى أماكن تجمعهم المختلفة هنا وهناك ، كنت بعيدًا عن العمل السياسى ، ومتفرغًا تمامًا لمهمتى الطبية ، ولاهتماماتى الأدبية .

وكانت منظمات الشباب والجهاز الطليعى لحزب الحكومة هم عين الثورة التى ترى كل شىء ، وأذنها التى تسمع وتسجل ، ثم يفرغون ذلك فى تقارير دورية ترفع إلى مستوى أعلى ، ولم يكن هذا سرًا ، فقد كان أحدهم وهو مصطفى الشربينى شابًا لطيفًا يحبنى ، وأثق فيه ، وكان يهمس فى أذنى من وقت لآخر ويخبرنى بأنهم كتبوا تقارير سرية طيبة فى حقى ، فكنت أشكره على ذلك ، وكان من أغرب الأمور التى مررت بها فى حياتى قصة غريبة ، أرى أنه لا بأس من سردها لأنها عامرة بالدلالة العميقة على إفساد الشباب والعلاقات الإنسانية والأسرية من خلال التربية السياسية الخاطئة .

لقد لاحظت أن هناك جفوة شديدة بين الشاب مصطفى الشربينى الذى أشرت إليه آنفًا ، وبين أبيه الأستاذ على الشربينى عضو نقابة العمال المهمة ، وأحد أعضاء التنظيم السياسى البارزين ، وحاولت جاهدًا أن أصلح بين الشاب مصطفى وأبيه على ، لكن جهودى باءت بالفشل الذريع ، وفكرت : لِمَ لا أتقصّى أسباب القطيعة والخلاف حتى يمكن السير فى خطوات الصلح على هدى وبصيرة ، لكن الابن وكذلك الأب رفضا الإفصاح عن أى سبب ، فرجحت فى النهاية أن الخلاف ناجم عن زواج الأستاذ على من امرأة غير أم مصطفى ، وأنه منفصل عنهم تمامًا ، فلا يذهب إلى زوجته القديمة ولا يزور أولاده منها ، إلا فى إطار العمل بورش السكك الحديدية ، حيث يمكنه الالتقاء بهم كل يوم ، وهم موظفون هناك .

جاءنى على الشربينى ذات ليلة ليناقشنى فى موضوع يخص العمال بالورشة ، فقد لاحظت أن مئات العمال يأتون للعيادة فى يوم الخميس بالذات ، ويلحون فى طلب الإجازة المرضية يومى الخميس والجمعة ، فكنت أتعجب من هذا الطلب ، فيوم الخميس قد أوشك على الانتهاء ولن يستفيدوا إذا أخذوه إجازة ، ويوم الجمعة لا عمل فيه بطبيعة الحال فهو يوم الإجازة الأسبوعى ، وازدادت دهشتى

عندما علمت أن العمال متضايقون جدًا من تصرفى معهم ، مع أنى كنت أفحصهم بدقة ، وأرفض إجازة المتمارضين ، ولا أحجبها عن المرضى ، وجاءنى على الشربينى لهذا الغرض ، وأخذ يشرح لى القضية قائلًا : « عندنا هنا فى الورش عدد كبير من « عمال اليومية » (الظهورات) ، هؤلاء لم يتم تثبيتهم بعد على درجات وظيفية ، فهم مؤقتون ، ويتقاضون عن كل يوم عمل أجرًا محددًا ، ولهذا ليس لهم أجر على يوم الجمعة ، إلا فى حالة واحدة ، وهى الإجازة المرضية » .

وأفهمنى على الشربينى أن الإدارة والنقابة متفقتان على مساعدة هؤلاء العمال وصرف أجر يوم الجمعة عن طريق احتسابه إجازة مرضية ، وهم لا يأتون بالعمال جميعهم ، بل يقسمونهم على دفعات أسبوعية ، فليس من المعقول أن يكون كل عمال (الظهورات) مرضى فى نفس اليوم ، وفى يوم الخميس بالذات وأخيرًا قال لى على الشربينى : « هل فهمت القضية يا دكتور ؟ » .

– « نعم فهمت ..» .

– « رجائى أن تتعاون معنا فى مساعدة هؤلاء المساكين ..» .

فانتهزت الفرصة على الفور وقلت : « وأنت يا عم على ، لماذا لا تتعاون معى ؟ » .

– « فيم ؟ » .

– « فى الصلح مع ابنك مصطفى ، إنه جزء منك » .

ولم يتمالك على نفسه ، فانهار صارخًا فى غضب وقال : « بئس الابن ، لقد كاد يوصلنى إلى حبل المشنقة » .

وقفت وقلت فى دهشة : « ماذا قلت ؟ » .

– « هذه أسرار ولا يصح البوح بها وإلا رحنا فى داهية ..» .

– « لن أتركك حتى تتكلم ..» .

جمع أوراقه وهب واقفًا ، وقال والدموع فى عينيه : « لقد كتب ضدى تقريرًا رفعه لرجال المخابرات ، ولو لم استطع إثبات براءتى لانتهيت ...» .

وخرج عم على وبقيت مسمرًا فى مكانى ذاهلًا .

هل وصل الأمر بابن يكتب تقريرًا سريًا ضد أبيه ويغرى به السلطة التى لا ترحم ؟ أى ابن هذا ، وأى تربية ترباها ، والغريب أن التقرير ثبت أنه غير صادق !! هزنى هذا الحادث هزًا عنيفًا ، ولم أستطع النوم ، إن العلاقات الأسرية والاجتماعية تتدهور بصورة مريعة إلى الهاوية ، فكيف يكون مستقبل أمة هذا شأنها ، وكيف يستطيع شعب أن يمضى فى طريق التقدم والتنمية والتحرير وهو على هذه الصورة من التفسخ والانحطاط ، وإهدار القيم الإنسانية والأسرية ؟ هل هذا حب للوطن أم تدمير له ، إن كل المعانى النبيلة تنقلب رأسًا على عقب ، والناس يتحولون إلى ذئاب جائعة خائفة ، وكيف تسكن الشجاعة والكرامة والحرية قلوبًا كتلك القلوب السوداء التى تتشرب الحقد والجحود .

ذهبت إلى مكتبى بالورشة فى الصباح الباكر ، وأرسلت الممرض لإحضار الشاب مصطفى الشربينى على الفور ، وجاء مصطفى مبتسمًا كعادته ، وصافحنى فى ود ، قلت له : « اجلس يا مصطفى » .

قلتها بصرامة ، ثم أمرت الممرض أن ينصرف ويغلق الباب . « ماذا فعلت بأبيك يا مصطفى ؟ » .

– « لم أفعل شيئًا ..» .

– « لا تنكر ، فقد باح لى بكل شىء ..» .

انتبه إلى ما أقول ، ونظر إلى فى ارتباك ، وغمغم : « ماذا قال ؟ » .
- « التقرير ..» .
شحب وجه مصطفى وقال متلعثمًا : « هذا واجب وطنى ...» .
هتفت فى غضب لم أستطع أن أداريه : « هذا عقوق ، من قال إن أباك صاحب التاريخ النقابى الطويل يقل عنك وطنية ؟ » هل تسمون خلاف الرأى خيانة ..» .
- « نعم خيانة .. كل أعضاء النقابة لصوص بما فيهم أبى » .
نظرت إليه فى احتقار وقلت : « لولا أن مبادئى تمنعنى لصفعتك على وجهك .. قم واذهب إلى عملك ولا تنس أن تكتب ضدى تقريرًا أنا الآخر .. لا ترنى وجهك بعد اليوم ..» .
وجلست بعد أن خرج فى مقعدى أغلى وأنتفض .. هل وصل الأمر إلى هذا الحد من السوء؟ إن الحكم البوليسى الدكتاتورى سوف يوردنا مورد التهلكة ، ولا أحد يستطيع أن يفعل أى شىء الآن لإعادة الأمور إلى نصابها ، والأيام تمضى بالناس من سىء إلى أسوأ ، والأوامر الصارمة من أعلى ، والطاعة من أسفل ، ولا حسيب ولا رقيب .
استيقظت من نومى بعد العصر فتوضأت وصليت ، وكانت زوجتى تصلى جماعة خلفى ، ثم جلست لأشرب الشاى ، ودق جرس الباب ، وحينما فتحت وجدت مصطفى أمامى بكامل لباسه ، شابكًا يديه على صدره ، خافضًا رأسه ، بدا أمامى ضحية تستحق العطف والرثاء ، ولم لا يكون مريضًا يحتاج إلى علاج ، رق قلبى له فقلت برقة : « تفضل يا مصطفى » .
دخل دون أن ينطق بكلمة ، حتى التحية لم يلقها ، وجلس فى غرفة الضيوف كئيبًا حزينًا بينما ذهبت لأحضر له الشاى وبعض الفاكهة ، ترك الشاى أمامه دون أن يمسه ، ولم تمتد يده إلى الفاكهة ، وظل صامتًا فترة ، لم أشأ أن أخرجه عن صمته .. وبعد دقائق رفع رأسه ، ونظر إلىّ بعينين حزينتين وقال : « سامحنى يا دكتور .. لقد أخطأت فى حق أبى .. وفى حقك أيضًا » .
لم أشأ أن أعلق ، وتركته يمضى فى حديثه : « لقد علمونا فى المنظمة أشياء غريبة ، لا أدرى كيف اقتنعنا بها وصدقناها ، لقد كتبت التقارير عن كثير من العمال ، وكنت أراهم يساقون للتحقيق ، وينالون العقاب ، ثم يعودون إلى الورشة أذلاء .. كنت أسعد لأنى انتقمت منهم ، ولفقت التقارير لخصومى كى يتأدبوا .. كنت أشعر بلذة غريبة حينما أهزمهم .. وظننت أننى أصبحت كبيرًا وذا سلطة .. وأخيرًا أردت أن أنتقم من أبى الذى أهملنا وأهمل أمى دون ذنب .. عاشت معه أيام الفقر ، ولما أثرى وأصبح لديه إمكانات كافية ، تركها وتزوج غيرها .. صغيرة وجميلة .. ونسى المرأة التى عاشت معه الأيام المريرة ، حينما كان عاملًا يتقاضى يوميًا بضعة قروش .. إنها أمى يا دكتور ...» .
قلت : « وهو أبوك » .
- « صدقت .. وبرغم ذلك فأنا مخطئ .. وأريدك أن تصلح بينى وبين أبى لنبدأ من جديد » .
وحمدت الله ، وأخذت مصطفى إلى أبيه معتذرًا تائبًا ينشد العفو ، رفض على بشدة فى البداية ، لكن ثورته هدأت رويدًا رويدًا ، وأخذ يعاتب ابنه ، ويذكره بالماضى ، كيف حنا عليه وعلمه ورباه ، وكيف فتح أمامه باب الرزق . وألحقه بوظيفة مناسبة ، وكيف كان يبكى من أجله عندما يمرض .. وبكى مصطفى لعل الدموع تغسل خطيئة قلبه .. وبكى على .. ثم أمسكت بيد كل منهما وتصافحا .. وقرأا الفاتحة ، وتعاهدا على الحب والصفاء ..
وشعرت براحة غريبة ، وأنا أمضى فى الطريق إلى مسكنى ، ونسمات الليل العليلة . المنعشة تلثم

وجهى المحتقن من شدة الانفعال .. كنت أقول فى نفسى : لسنا فى حاجة إلى ثورة جديدة ولكننا فى حاجة إلى الحب .. نعم الحب .

فى الثامن والعشرين من شهر مارس عام ١٩٦٤ فوجئت بأعراض الوضع تظهر على زوجتى الحامل ، لم يكن لدينا فى مستشفى المدينة السكنية قسم للولادة ، فاستدعيت سائق الإسعاف ، وانطلقت بها إلى القاهرة ومعي ابنى حسام الدين البالغ من العمر ثلاث سنوات ، وابنتى عزة البالغة من العمر عامين تقريبًا ، أو أقل قليلًا آنذاك ووالدتى ، وقصدت عيادة الصديق الدكتور « عبد الفتاح شيبة الحمد » وهو أخصائى نساء وولادة بميدان « لاظوغلى » بالقاهرة وشقيق زوجة الروائى المعروف الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله ، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلًا لنا فى العمل بالقسم الطبى فى القاهرة ، وأخذت الطفلين إلى جدتهما ومعهما أمى ، بعد أن تركت الزوجة فى رعاية الله برعاية الزميل الطبيب الذى قرر أن الوضع يحتاج إلى بعض الوقت .

وعدت إلى العيادة ومعى أم زوجتى ، وفى نفس الليلة وضعت زوجتى مولودها الثالث الذى سميناه جلال الدين ، كان المولود صغيرًا وأقل من الوزن الطبيعى ، يميل لونه إلى السمرة ، لكنه كان نشطًا صحيحًا بحمد الله .. ولقد كان الأصدقاء يسمونه « ترانزستور » لصغر حجمه ، إشارة إلى الراديو الصغير الذى يحمل فى اليد ..

وبعد الولادة عدت فى المساء إلى مسكن صهرى ، الذى ظل ساهرًا ، وكانت والدتى هى الأخرى تنتظر على أحر من الجمر ، ودخلت وألقيت السلام فى وقت متأخر من الليل ، وكنت مرهقًا ، كانت أم زوجتى معها فى العيادة لتشرف على طلباتها ؛ إذ لم يكن هناك ممرضات أو حكيمة ..

لاحظت أن أمى قلقة ، وقد كان يحلو لى مداعبتها ، أحيانًا ، ولما لم أتكلم سألتنى : « هل ولدت كريمة ؟ » .

- « الحمد لله يا أمى » .
- « وهل هى بخير ؟ » .
- « على ما يرام ...» .

ووجدت أمى تتحرك فى مقعدها ومظاهر القلق لا تخطئها العين ، كانت تريد أن تعرف هل المولود ذكر أم أنثى ، شأنها فى ذلك شأن أهل الريف الذين يفضلون إنجاب الذكور ، ولم تستطع الصبر أكثر من ذلك ، فقالت : « ولد أم بنت ؟ » .

قلت وأنا أرغب فى مشاكستها : « ولد .. بنت .. كله خير وفضل من الله ونعمة .. الحمد لله عندنا قبل ذلك الولد والبنت » .

هزت أمى رأسها فى أسىً وقالت : « فهمت .. لقد ولدت بنتًا .. هيه .. الحمد لله ..» .

قلت فى هدوء وأنا أخلع سترتى دون اهتمام ، وأنا أقصد ذلك : « من قال ذلك ..بل وضعت ولدًا .. افرحى يا ست الحبايب » .

وهبت واقفة وأطلقت زغرودة عالية رغم الوقت المتأخر من الليل ، قلت لها : « سوف توقظين أهل حى السيدة عائشة ..» .

- « هذا يوم الفرحة .. ادع الله أن يسعدوا فى عز أبيهم وأمهم ..»
- « وجدهم وجدتهم سواء فى القاهرة أو شرشابة » .

وابتسم صهرى الشيخ الجليل ، الذى لم يكف عن قراءة القرآن والأدعية وذكر الله طوال الوقت .

ثم قال : « لا تنس العقيقة يا بنى .. إنها سنة نبوية شريفة .. فلتذبح خروفين » .

قالت أمى : « خروف فى شرشابة وآخر فى القاهرة » .

وضحك الشيخ وقال : « ويمكن أن نتبرع بثالث لأهل المدينة السكنية بأبو زعبل » .

ومسحت أمى رحمها الله على رأسى وظهرى وقالت : « كثر عيالك ، فليرزقك الله برزقهم » .

ولم تمكث زوجتى فى العيادة إلا ليلة واحدة ، وعادت إلى بيت أبيها ، وجاء الصغيران حسام الدين وعزة ينظران إلى أخيهما الوليد فى شغف وفضول ، ويلمسانه برقة ، ويستأذنان فى تقبيله ، لكنى نهيتهما عن ذلك ، على أن أسمح لهما بعد أن يكبرا ، وكان جلال الدين الوليد هادئًا جدًا ، ينام كثيرًا بعد أن يرضع ، وأحيانًا يطول نومه عن المعدل فى فراشه دون أن يتحرك ، مما كان يبعث الخوف فى نفس أمه ، فتهزه كى يستيقظ ، وذات مرة كانت ترضعه أثناء الليل ، ونامت ، وعندما استيقظت وجدته راقدًا على أرض الغرفة فوق السجادة دون أدنى حركة ، أصابها الذعر ، لقد سقط الولد من فوق السرير دون أن تشعر به ، وكان عمره حوالى ثلاثة أشهر ، وظل راقدًا دون أن يبكى أو يصرخ ، وأيقظتنى فقمت أفحصه بدقة خوفًا من أن يحدث له ارتجاج فى المخ ، لكنى والحمد لله وجدته سليمًا معافيً . فأكدت على زوجتى ألا ترضعه ثانية إلا وهى جالسة ، ولا تنيمه إلا فى سريره الصغير الذى يحفظه من السقوط ..

وعدنا مرة أخرى إلى المدينة السكنية لنستأنف حياتنا العادية من جديد ، وكان معنا الوالد والوالدة وأختى الصغيرة سميرة ، وكان لوجود الوالدين معنا فترات طويلة بإصرار منى ، ذلك أنى استشعر الأمن والألفة والاطمئنان وهما إلى جوارى وخاصة أن زوجة أخى أمين الذى يصغرنى بعام كانت تثير المشاكل مع أمى وتسبب لها النكد ، وأنا حريص على أن تنعم أمى بالاطمئنان والسعادة ، وما يكاد أبى وأمى يُسافران إلى القرية حتى ألح عليهما فى العودة من جديد ، لكونى كنت أريد أن أعوض أيام الفراق الطويلة المريرة حينما كنت سجينًا ، وكذلك سنوات التعليم التى قضيتها بعيدًا عنهم فى المرحلة الابتدائية والثانوية والجامعية ، وأصبح والدى رحمه الله صديقًا للكثيرين من سكان مدينة أبو زعبل السكنية ، فكانوا يحبونه ويدعونه لزيارتهم ، وكان مكانه المفضل للجلوس هو محل بقالة الأخ الصديق « إسماعيل الهضيبى » ، وكانت أسرة الهضيبى التى ينتمى إليها فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى المستشار السابق فى القضاء المصرى ، وصاحب التاريخ العريق ، أقول كانت هذه الأسرة الكريمة تقيم فى قرية « عرب الصوالحة » القريبة منا ، وكان شقيق إسماعيل واسمه « الحاج محمد الهضيبى » عمدة القرية « المختار كما يسمى فى بعض الدول العربية) ، ويبدو أن الأمر لم يرق لرجال الأمن ، وذهب أحد المخبرين إلى أبى لينصحه بالابتعاد عن أى إنسان يمت بصلة لعائلة الهضيبى ، ولم يقتنع أبى بهذا الكلام الفارغ الذى لا معنى له وقال للمخبر بلهجته الريفية البسيطة : « جرى إيه يا بنى .. هو إحنا بنعمل مؤامرة .. دول ناس طيبين وباحبهم وبيننا وبين بعض مصالح .. هو الصداقة حرمت ؟ » .

وذهبت إلى رئيس مكتب المباحث العامة فى المدينة السكنية « يحيى بك كامل » ، وكان جارًا لى فى السكن ، كما كان يختارنى دون غيري من الأطباء لعلاج أولاده وزوجته التى لا يراها أحد ، لأنها متمسكة بالتقاليد (فهم من الصعيد) ، وكانت تربطنى بالرجل علاقة لا بأس بها رغم أنى مدرج عنده فى « القائمة السوداء » وأن من واجبه أن يراقبنى كسجين سياسى سابق ، وناقشت موضوع أبى معه ، فأبدى تفهمًا وطلب من المخبرين أن يتركوا أبى وشأنه .

والواقع أن أسرة الهضيبى فى عرب الصوالحة كانوا يبالغون فى احترامى وإكرامى أنا ووالدى ، وكانوا ينظرون إليّ كواحد منهم ، وظلت هذه العلاقة الطيبة الخفية فى معظم الأحيان إلى أن رحلت عن تلك الديار .

كان مكتب المباحث العامة (أمن الدولة) فى المدينة السكنية ، من المكاتب المهمة لأنه يقع فى منطقة يسكن فيها الهضيبيون ، ولأن المنطقة صناعية وبها عدد كبير من العمال ، ومن الطريف أن بعض رجال المباحث كانوا يطلقون على هذه المنطقة « منطقة تل أبيب » ، وكان رئيس المكتب يحيى كامل أمين شخصية ذكية ونشطة ، ولم يتهاون فى أى موضوع له علاقة بالأمن ، وعلى الرغم من تاريخى وماضيّ الذى يعرفه هو جيدًا ، لأن تحت يده « ملف كامل » عن كل شيء يتعلق بى إلا أننى وجدت نوعًا من الصداقة بيننا دون حساسية تذكر ، فكنا نسهر معًا ، نحتسى أكواب الشاى (وأنا لا أحب القهوة) ، ونتحدث فى كثير من الأمور حتى السياسى منهما ، لكنى مهما كان الأمر كنت شديد الحرص جدًا ، فلا أنزلق إلى مناطق المحرمات السياسية ، لأنه مهما كان الأمر فهو رجل أمن ، وإذا سقطت سقطة فمن المحتمل جدًا أن أحاسب عليها حسابًا عسيرًا .

وكان أحيانًا يستدعى بعض من تحوم حولهم الشبهات ، ويستجوبهم فى مكتبه ، وبعدها أسأله عما حدث ، وكان أحيانًا يجيب وأحيانًا يتكتم الأمر ، ولم أكن ألح عليه فى شيء ، ولا أذكر أنه أفشى لى سرًّا من أسرار عمله فى يوم من الأيام ، فمثلًا كان يقبض على بعض الإخوان ، فاستفسر منه عما جرى ، فيضحك لكنه يراوغنى ويمتنع عن الإجابة .

وقد استطاع هذا الرجل أن يكشف عن بعض مظاهر الاستغلال والفساد فى المدينة السكنية ، ولما تجمعت لديه كافة الخيوط ضرب ضربته وأمسك بتلابيب المتهمين فأخذوا جزاءهم بصورة أو بأخرى .

وكان الجميع فى المدينة يعملون له ألف حساب وحساب ، إذ كانت تصل إليه كافة التحركات والأحاديث التى تدور بين العمال حتى فى مجالسهم الخاصة ، ويتخذ ما يراه من إجراءات أغلبها فى إطار التهديد والتوبيخ أو العقوبات المحدودة كأن يحجز المخطئ ويأمر بضربه ، ثم يتركه يعود إلى عمله ، بعد أن ينبه عليه بألا يحدث أحدًا بما جرى له وإلا ...

أذكر إننى كنت استقبل فى مسكنى بالمدينة السكنية عددًا كبيرًا من أصدقائى الأدباء والصحفيين ، فكانوا يبدون إعجابهم بهذا المكان الجميل ، وتلك المدينة المريحة ، ويقولون إن الفرق شاسع بينها وبين القاهرة ، وكنا نتحدث عن الحركة الأدبية وفرسانها ، ونناقش كل جديد يصدر عنها ، ونناقش المعارك الحامية التى تدور بين أنصار الشعر التقليدى والشعر الحديث ، والمعارك التى تدب بين مدارس النقد المختلفة ، وكان الاتجاه السائد فى تلك الفترة هو الاتجاه الواقعى الاشتراكى (الواقعية الاشتراكية فى الأدب) يليها الاتجاه الوجودى الذى يتزعمه الفيلسوف والأديب الوجودى سارتر ، والذى زار مصر فى النصف الأول من الستينيات ، من القرن العشرين ، على ما أذكر ، وقوبل بحفاوة بالغة ، ونهج المسرح نفس النهج فقد كانت قسمة بين المذهبين الغالبين .

جاء لزيارتى الأستاذان الصديقان عاشور عليش (سكرتير تحرير جريدة المساء التى كنت أكتب فيها » والأستاذ محمد المندى (صحفى بنفس الجريدة وكاتب قصة أيضًا) ، وقضا فى ضيافتى يومًا وليلة ، وقد كان الأستاذ عاشور فى غاية الانبهار بهذا الجو الذى أطلق عليه « جوًا صوفيًا رائعًا » على حد تعبيره ، وأجرى معي حديثًا طويلًا عن الأدب نشره على أكثر من نصف صفحة فى جريدته ، وقدم له بمقدمة جميلة ، أما الأخ لأستاذ محمد المندى فله قصة طريفة قد يكون من المفيد أن تروى ، فقد كان

مفتونًا بالأدب وهو يعيش فى صعيد مصر ، ويعمل بهيئة السكك الحديدية ، ثم قرر التفرغ للأدب فاستقال من وظيفته ، وباع أملاكه من الأراضى الزراعية ، والبيت الذى كان يسكن فيه ، وأتى بأسرته (زوجته وابنه مهنا وابنته) إلى القاهرة ، وسكن فى شقة متواضعة ، وأخذ يطبع مؤلفاته على نفقته الخاصة لما لم يجد ناشرًا لها ، فقد كان اسمه جديدًا فى الساحة الأدبية ، وهكذا أوشكت أمواله على النفاد ، وأخذ يجرى هنا وهناك بحثًا عن وظيفة لها صلة بالأدب أو الصحافة ، أو يحاول أن ينشر بعض قصصه ومقالاته نظير مكافأة مالية ، والتقيت بمحمد المندى منذ أن خرجت من السجن وهو على هذه الحالة من السوء والاضطراب ، وكثيرًا ما كان يثور ويسب ويلعن الأوضاع المحزنة للأدب والأدباء ، وفكر أن يجمع أسرته وراءه ، ويمضى معهم فى مظاهرة احتجاج رافعًا لافتة مكتوب عليها « هذا هو حال الأدب فى مصر » ، فكنا نهدئ من ثورته ونحاول قدر الاستطاعة فى التهوين من الأمر ، ومساعدته فى حل مشاكله ، وبعد سنوات من الضيق والعنت أخذه الأخ الأستاذ عاشور ليعمل معه فى جريدة المساء ، وبالصبر والدأب استطاع أن يحصل على عضوية نقابة الصحفيين ، ويثبت على وظيفة فى الجريدة بمرتب معقول ، وأكرمه الله فى ابنه مهنا الذى تخرج من كلية الزراعة جامعة القاهرة ، وسافر للعمل فى الكويت ، وهكذا خلص الأخ المندى من مآسى الفقر والمعاناة .. وكان للمندى صديق شاب اسمه « حسن محسب » لمع اسمه بعد ذلك فى مجال القصة وفى الكتابة للسينما ، وكان من أشهر أفلامه ذلك الفيلم السياسى المبهر (وراء الشمس) الذى عالج فيه قضية الاستبداد والدكتاتورية وطغيان أجهزة المخابرات ، وما يعانيه المخالفون فى الرأى من اضطهاد وتعذيب ، وقد لقى هذا الفيلم رواجًا ملحوظًا ، وتقديرًا كبيرًا (ظهر الفيلم فى فترة حكم الرئيس السادات) ، ومن الأمور الطريفة أن محمد المندى وحسن محسب كانا يكتبان مقالات نقدية مشتركة ، وقد كتبا مقالة عن روايتى « ليل الخطايا » فى مجلة الأدب التى كان يصدرها المرحوم الأستاذ الكبير أمين الخولى (زوج الدكتور بنت الشاطئ) رحمه الله ، وكان التوقيع على المقالة باسم « المندى ومحسّب » .

وكان الأستاذ عاشور عليش من أسرة الشيخ عليش عالم الأزهر الجليل ، وقد عمل بالصحافة فترة طويلة ، وكان كفاءة ممتازة ، ويتميز بروح خفيفة وثابة ، وصدق فى المعاملة والأداء ، وتمكن فى الأسلوب الصحفى الأدبى الجميل ، وتذوق عالٍ للأثر الأدبى ، وظل يعمل بالصحافة فى موقعه حتى بلغ سن التقاعد هو والأخ الأستاذ محمد المندى .

أما رواية « ليل الخطايا » التى أشرت إليها منذ قليل فإن قرائى لا يرونها الآن ، ذلك لأنى منعت إعادة طبعها ، ولهذا لم تطبع إلا مرة واحدة فى « دار الفكر » بدمشق ، والسبب فى منع نشرها ، هو أن هذه الرواية كانت بها جرعة زائدة من تصوير المشاعر والعواطف بين المرأة والرجل ، كما أنها تتعرض لمشكلة الخيانة الزوجية التى أمقتها أشد المقت ، ولقد اندفعت لكتابتها تحت فورة غضب وحماس بالغين ، لأنى عرفت أبطال هذه القصة ، وألممت بالخيانة التى آلمتنى ، فقررت أن أكتبها رواية ، وكأنى أنتقم أو أحاكم هؤلاء الخونة الذين لا يرعون فى الله إلّا ولا ذمة ، ولما هدأت مشاعرى ، قلت لنفسى كان يمكن أن أكتب القصة على نحو آخر لا يثير المشاعر ، وعلى الرغم من إعجاب البعض بهذه القصة التى كتبتها وأنا ما زلت طالبًا بكلية الطب ، بل إن أحد رجال الفكر الإسلامى أثنى عليها ، بحجة أنها تعالج قضية خطيرة ، أقول على الرغم من ذلك فإنى رفضت بشدة جميع العروض التى قدمت لى لإعادة طبعها ، أما طلاب الماجستير والدكتوراه الذين كتبوا أطروحات عن أدبى ، فقد كانوا يصرون على البحث عنها ، ووضعها موضع التحليل والمناقشة ، ويحصلون عليها بعد مشقة .

وهناك رواية أخرى اسمها « أميرة الجبل » كتبتها عن قبائل « الشحوح » التى تعيش على جبال « إمارة رأس الخيمة » بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ونشرت سلسلة فى مجلة قطرية فى السبعينيات ، من القرن العشرين اسمها مجلة « الفجر » ، وهذه القصة لم أنشرها فى كتاب بسبب اعتراض رقابة دولة الإمارات العربية المتحدة ، لأن من شخصيات الرواية شخصية تقليدية لها احترامها وحيثيتها ..

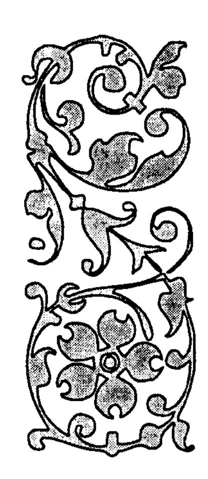
وكانت فترة وجودى بالمدينة السكنية من أزهى الفترات التى مرت بى فيما يتعلق بالإبداع الأدبى ، فقد وضعت عددًا من المؤلفات الهامة فى القصة والرواية ، وكنت أرسل الممرض عبد الفتاح وهو شاب طيب مخلص إلى القاهرة كل أسبوع ، ومعه إنتاجى من القصص القصيرة ليوزعها على الصحف والمجلات التى كنت أكتب فيا بصفة دورية شبه منتظمة .

وفى بيتى بالمدينة السكنية كان يفد الأصدقاء الذين تربطهم بى صلة وثيقة من مختلف أنحاء العالم العربى من سوريا وليبيا وباقى الدول العربية .

فما أجملها من أيام لا تُنسى ! !



# [١٤] الأيام تمضى



كان شقيقى الأصغر «محمد» يصغرنى باثنى عشر عامًا تقريبًا، وحينما أخذونى إلى السجن كان عمره لم يزل صغيرًا وفى نهاية المرحلة الابتدائية، وكان له مكانة عزيزة فى قلبى، لذلك كنت أشرف على تعليمه وتوجيهه الوجهة السليمة، لكن شاء القدر أن أتركه فى عام ١٩٥٥ فحزنت لذلك أشد الحزن، وقد انشغل أبى بمأساتى، وذهب الصغير فى هذه الأيام القاسية إلى مدينة زفتى القريبة ليواصل تعليمه هناك دون أن تتوفر له الرعاية الكاملة، وعندما كتب الله لى الإفراج حولت له إلى مدرسة ثانوية فى القاهرة ليعيش معى وتحت إشرافى، وعاش محمد سنوات معى، عرف فيها جميع معارفى وأصدقائى وأعمالى، فكان نعم العون لى، ولقد كان لهذا الجو الذى عاش فيه تأثير كبير فى أفكاره وشخصيته وحكمه على الأمور، وخاصة أننا نعيش فى جو إسلامى بعيد عن الإكراه والضغط النفسى، ونتحاور فى أخوة حول كل ما نتعرض له من أمور.

وشاء الله ألا يؤهله مجموعه فى الثانوية العامة إلا لدخول كلية «التربية الرياضية» فى الهرم، ولاحظت عليه شيئًا من الضيق، فقد كان يريد أن يلتحق بالطب أو الهندسة أو غيرها من كليات القمة كما كانوا يسمونها، لكننى أقنعته بأن اجتهاده فى أى كلية، وتفوقه بها سيفتح أمامه المستقبل الباهر، فالإجادة فى أى فرع من فروع المعرفة يؤهل إلى المجد، وكان طلبة الكلية فى ذلك الوقت يقيمون داخلها حيث يوفر لهم المسئولون الطعام والشراب والرعاية الكاملة، ومن حسن الحظ أنه كان بالكلية أصدقاء مخلصون لى، عاشوا معى سنوات السجن، منهم الأخ الدكتور الأستاذ سليمان حجر المعروف الآن فى الأوساط الرياضية ونقابتهم.

وتحقق الأمل فيما بعد، وتفوق محمد فى دراسته، ونال درجة الماجستير ثم الدكتوراه، وتدرج فى وظيفته حتى أصبح أستاذًا ورئيس قسم ووكيل كلية، وهو على أبواب العمادة الآن، ولقد كان أخى محمد. وما زال. الأخ والصاحب والابن، ولا أعتقد أن هناك من هو أخلص لى منه، وهذه نعمة من نعم الله علينا.. فهو إلى جوارى فى شيخوختى، يسهم بجهوده المتواصلة من أجل راحتى وإسعادى، ولا أذكر أنه رفض لى طلبًا قط، لقد تنكر لى بعض الأهل للأسف طمعًا وجشعًا، لكن أخى الدكتور محمد ظل ثابتًا على العهد، مقيمًا على الوفاء، لدرجة أننى أشعر وكأن أبناءه أحمد وأمانى وأسامة وطارق أبنائى، وكأن زوجته العالمة الفاضلة الأستاذة زينب الشرقاوى ابنة لى لا تقل قربًا إلى نفسى من ابنتى الدكتورة عزة.. ولقد قال أحد الأساتذة الأصدقاء لنا ذات مرة «إننى أحسدكم على أخوتكم التى لا مثيل لها» فقرأت على الفور «سورة الفلق» وقاية من الحسد.

إن موضوع الصداقة الحقة، وصلة الرحم الحميمة، يشكلان أهمية قصوى فى حياتى، وأعتبرهما ضرورة من ضرورات الحياة، كالطعام والشراب، بل والماء والهواء.

فى أحد أشهر الصيف انتدبتنى الإدارة الطبية للعمل فى القسم الطبى بالإسكندرية لمدة شهر نظرًا لأن الزميل القائم بالعمل هناك سافر فى إجازة سنوية ، ورحبت بالأمر لأنى قد أجد فرصة للاستمتاع بشاطئ البحر بالإسكندرية إلى جوار العمل ، وفعلًا أخذت زوجتى وأولادى وتركنا المدينة السكنية مؤقتًا ، ورحلنا إلى الثغر الجميل ، واستأجرنا شقة مفروشة ونزلنا بها ، كنت أعالج المرضى من الصباح حتى الواحدة ظهرًا ، ثم اذهب إلى الشاطئ فى حى « كليوباترا » حيث أعطانى الصديق المهندس عبد الفتاح الحسينى مفتاح كبينته وهو العالم الكبير الآن فى أمريكا ، والمتخصص فى الفيزياء النووية ، والذى اكتسب الجنسية الأمريكية ، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلًا لنا فى أيام سجن أسيوط المريرة . وفى « كابينة » عبد الفتاح ، كنت أجلس أنا وأسرتى نستمتع بمشهد البحر ، وذات يوم لمحت الأستاذ الكبير محمد قطب قادمًا من بعيد فهرولت للقائه ، ولم يكن شقيقه الشهير سيد قطب قد أُفرج عنه بعد ، وانتقلنا . أنا وهو . إلى مقهى فوقه « الكابينة » ممتد داخل البحر ، وجلسنا نتحدث فى شتى الموضوعات ، ثم أخرج كتابًا بالإنجليزية لأحد المستشرقين الغربيين ، وأخذ يقرأ لى فقرات من بعض الصفحات تشن هجومًا لاذعًا على كتابات وأفكار سيد قطب وشقيقه محمد ، ولم يكن ذلك غريبًا ، فإن نسبة كبيرة من المستشرقين مهمتهم الرئيسية التهجم على الإسلام ورجاله وفكره ، مع أن هناك عددًا قليلًا آخر من المستشرقين يتصف بالإنصاف والعدل .

وأخذ الأستاذ محمد يتردد يوميًا على الكابينة لنجلس معًا ونتحدث فى أمور شتى ، وبينما كنا جالسين ذات يوم رأيت رجلًا أزرق العينين ، أصفر الشعر ، أبيض البشرة يقف فوق درج « الكازينو » وينظر إلىّ بإمعان ولفترة طويلة ، لم أعر الأمر التفاتًا فى البداية ، ولكن استمرار الرجل فى وقوفه ، ورصده لى ونحن جلوس أمام « الكابينة » جعلنى أقف وأدقق النظر فيه بإمعان ، ولما عرفته ابتسمت وهتفت به قائلًا : « أهلًا بك يا زكى بك .. تفضل معنا » .

فلوح بيده محييًا ثم هبط الدرج لينزل إلى الشارع ، ثم يهبط الدرج الآخر الموصل إلى مكان جلوسنا ، وقبل أن يصل إلينا ، قلت للأستاذ محمد قطب ولزوجتى التى تجلس فى الداخل : « احذروا .. وتحفظوا فى الحديث .. هذا رجل من رجال الحكومة ..» .

فمن يكون « زكى بك » هذا ؟

لعلى أشرت إليه عندما تحدثت عن الفترة التى قضيتها فى سجن أسيوط ، فقد كان أحد ضباط السجن ، وهو الذى استولى على ديوان شعرى الأول « أغانى الغرباء » وكاد أن يتسبب فى تقديمى للمحاكمة لما يحتويه الديوان من أشعار تمس الحكم والنظام ..

وجلس زكى بك ، حيث قدمت له مشروبًا باردًا ، وأخذنا نتحدث عن الذكريات المريرة فى سجن أسيوط ونحن نضحك ، وشر البلية ما يضحك ، وظل الأستاذ محمد قطب صامتًا يكتفى بالاستماع ، لكن زكى بك كان يشعر بالخجل الذى يخالطه شىء من الندم ، وخاصة عندما أشرت إلى « أنهم » أضاعوا من عمرنا سنوات ، وعوّقوا مسيرة مستقبلنا ، فأشار بما معناه أننا أحسن وأسعد منهم حالًا .

وبينما أنا منهمك فى العيادة صباح أحد الأيام ، جاء الممرض وقال : « لم يعد هناك مرضى ..» .

حمدت الله وعولت على المسير إلى شاطئ البحر حيث تنتظر زوجتى وأولادى ، لكن الممرض قال : « هناك رجل يريد لقاءك » .

– « مريض ؟ » .

- « لا ..» .
- « أدخله إذن » .

لم أكن أعرفه ، وأخذت أقيسه بنظراتى ، بينما أخذ هو يضيق عينيه ويوسعهما ، ثم تنحنح وجلس ، وعلى فمه طيف ابتسامة ساخرة ، ونظرًا لأنى كنت فى عجلة من أمرى فقد قلت : « أحب أن أتعرف على الأخ » .

- « لست بأخ .. أنا من المباحث (أمن الدولة) ..» .

شىء كالصدمة ينتابنى كلما لقيت واحدًا من هؤلاء المخبرين المحدودى الثقافة ، لكنى سرعان ما أمتص الصدمة لكثرة تعودى عليها ، ذلك أمر لا مفر منه ، ولابد من التعامل معهم بمنتهى الكياسة ، وإلا فإن تقريرًا واحدًا يمكن أن يسبب لى العديد من المشاكل التى أنا فى غنى عنها ، وطرح أسئلة مختلفة ، متى أتيت إلى الإسكندرية ؟ ومتى ستعود إلى القاهرة ، من هم أصدقاؤك هنا ؟ وأين تقيم ؟ وهل تقابلت مع أحد من الإخوان المسلمين ؟ وما أخبارك ، وفى النهاية طلب منى أن أحضر فى السابعة مساءً لمقابلة سيادة المفتش العام لمباحث إسكندرية فى مكتبه ، ولما سألته عن السبب أجاب بأنه لا يعرف . وذهب من حيث أتى ..

واتجهت أنا إلى الشاطئ ..

كنت متضايقًا بعض الشىء على الرغم من أن شيئًا كهذا مُتوقع دائمًا .

فى الموعد المحدد ذهبت لكى أقابل المفتش ، وانتظرت ما يقرب من ساعتين فى غرفة الانتظار المكتظة بالتعساء من أمثالى ، وكلما استعجلت السكرتير كان يقول : « البك مشغول .. دقائق قليلة وتدخل ..»

شعرت بمزيد من الضيق والملل ، وقفت وتسللت خارجًا قابلنى « المخبر » عند الباب قال فى دهشة : « إلى أين ؟ » .

- « عندى عمل فى القسم الطبى ولا يمكننى تأخيره » .
- « لكن ...» .

قاطعته قائلًا : « تستطيع أن تحدد لى موعدًا آخر » .

مشيت فى الشارع والهواء يصافح وجهى المحتقن ، أينما ذهبت فى أى مدينة أو بلد أجدهم هناك ، المخبرون فى كل مكان ، سواء عرفناهم أم لم نعرفهم ، وعلى الرغم من أن ذلك شىء مزعج للغاية ، إلا أننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا سوى الصبر ، نعم الصبر هو الصديق الحميم الذى يلازمنى كظلى ، ولا يتخلف عنى دائمًا ، إننى لا أستغنى عنه ، وإلا انفجرت .. ولذلك جعل الله جزاء الصابرين كبيرًا وقال فى كتابه العزيز ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ .

فى صبيحة اليوم التالى دخل الممرض عليّ فى مكتبى وأخبرنى أن هناك زيارة منزلية لمريض موظف ، وأنه يقيم فى أحد الأحياء الشعبية ، وكانت الزيارات المنزلية مرهقة ، وتستغرق وقتًا ، وقد يكون فى اليوم زيارتان أو أكثر ، هذا بالإضافة إلى عمل العيادة اليومى حيث يكون عدد المرضى كبيرًا ، نسبة كبيرة منهم من المتمارضين ، وأخبرت الممرض أننا سنذهب إلى ذلك المريض فى بيته بعد أن أتم الفحص للمرضى ..

واتخذنا طريقنا إلى بيت المريض ، كان مبنى قديمًا واسعًا ، عالى الحيطان ، متسع الغرف ، ودخلنا الغرفة التى يرقد فيها المريض ، فوجدتها تضاهى أربع غرف أو أكثر من البيوت الحديثة ، كان المريض

غارقًا فى عرقه ، والحمى تشعل جسده ، وقد غطى وجهه بشال رقيق ، وحينما كشف الغطاء عن وجهه ذهلت .. هل ممكن أن يكون هو... وأمسكت « بالأورنيك » المرضى ، أو البطاقة المسجل فيها اسم المريض ، وتأكدت ، وصحت فى فرح : « عبد المنعم الوزّان ؟ كيف حالك ..» .

وفتح عبد المنعم عينيه بصعوبة ، ونظر إلى بإمعان ، وسرعان ما أضاءت الفرحة وجهه ، وجلس فى سريره فاتحًا ذراعية على آخرهما ، وتعانقنا بحرارة ، إنه أحد زملائى بالسجن فى أسيوط ، كان وديعًا طيب القلب ، على الرغم من عوده الفارع ، وجسمه القوى ، وكانت هناك ابتسامة طفولية لا تغادر محياه ، وكان دائمًا يتميز بالشهامة والكرامة وإنكار الذات ، وربما كان هذا الخلق القويم هو السبب فى أخذه من بيننا ، و « تغريبه » إلى سجن آخر بعيدًا عنا .

كان لقاؤنا عامرًا بالمشاعر الحية التى لا يمكن أن يخمدها الزمن ، وعادت الذكريات وتركزت فى لحظة قصيرة من العمر ، وكان إخوة عبد المنعم وأبوه يحيطون بسريره ، ولم يكن أحد منهم يتوقع هذه المفاجأة ، وعلى الفور تحولت من طبيب إلى صديق ، ونسينا المرض لدقائق ، وقدموا ألوان شتى من الفواكه والمشروبات ، وبدا وكأن عبد المنعم قد شفى من مرضه ، قلت لعبد المنعم : « لم أكن أعلم أنك خرجت من السجن ، ولم أكن أعلم أيضًا أنك تعمل فى السكك الحديدية » .

ابتسم كعادته وقال : « خرجت منذ شهرين فقط ، وعدت إلى عملى السابق الذى تركته من سنوات طويلة ، إن أبى وإخوتى جميعًا موظفون بهيئة السكك الحديدية .. وأنا سعيد أنك معنا .. لم أكن أعلم ذلك ..» .

وبدأت الفحص ، كانت درجة حرارته أقل قليلًا من أربعين درجة ، وكان بصدره التهاب شعبى حاد ، وطمأنته ، وكتبت له العلاج ، وأصر على أن أتناول معهم طعام الغذاء فى الغد . لكنى طلبت منه تأجيل ذلك حتى يُشفى ، ويأتى إلىّ بعد الإجازة المرضية التى سمحت له بها ، وكانت لمدة أسبوع .

كانت أمى رحمها الله تقول حكمة شعبية جميلة نصها « مصير الوجوه تتلاقى » . ولذلك كنت كلما ذهبت إلى مكان أجد لى فيه إخوة وأحبابًا ، أغلبهم على شاكلة الأخ عبد المنعم الوزان ، وعندما سافرت فى شهر العسل (بعد الزواج) إلى الصعيد قاصدًا الأقصر (البلد السياحى المعروف) وأسوان ، كنت كلما نزلت بلدًا وجدت فيها إخوة أعزاء ، وكنت أقرأ لافتات الأطباء على عياداتهم الخاصة فأفاجأ بصديق منهم ، وكلما رآنى واحد منهم أخبر الآخرين ، فلا يكاد يمر يوم إلا وأجدنى وسط حشد كبير منهم وأراهم يتسابقون لدعوتى كي أنزل عليهم أو أقبل دعوتهم للغذاء أو العشاء ، ألا يبعث هذا على المتعة والسعادة ؟ ألا يعنى ذلك أن الأخوّة الصادقة المخلصة لا تقدر بالمال ؟

والغريب أن فى الإسكندرية أبناء خئُولة وعمومة ، ولكنى كنت قليل الاتصال بهم ، والمجاملات بينى وبينهم محدودة فى تلك الفترة ، وعلى الجانب الآخر كان إخوة العقيدة دائمى الاتصال بى ، والزيارة لى ، وصدقت الحكمة التى تقول : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

وأخيرًا عدت بعد فترة الانتداب من الإسكندرية إلى المدينة السكنية بأبو زعبل ، واستأنفت مسيرة حياتى السابقة من جديد ، واستقبلنى الإخوة والأصدقاء بحفاوة بالغة ، ولم يكد يمضى أسبوعان حتى كلفت بانتداب آخر إلى أين ؟ إلى أسوان أقصى جنوب مصر ، حيث كان يجرى بناء السد العالى على قدم وساق ، ولم يكن يُقبل أى عذر مهما كان لأى موظف يكلف بالعمل فى السد العالى .

قلت لزوجتى :

– « ماذا أفعل ؟ من انتداب إلى انتداب آخر ؟ يا قلبى لا تحزن » .

وردت على الفور قائلة : « سآتى معك » .

– « والأطفال » .

– « سنأخذ معنا حسام الدين ، ونترك عزة وجلال الدين مع أمي حتى نعود » .

واستطردت قائلة : « لم نذهب إلى أسوان منذ شهر العسل ، وأريد أن أستعيد الذكريات الجميلة ، ستكون رحلة ممتعة بإذن الله » .

– « إن مما يحنقنى أن الإدارة الطبية بها عدد كاف من الأطباء ، لكن الانتداب لا يقع إلى عليّ ، لأن الوساطة تتدخل وتفسد العدل والنظام ، أتراني أدخل في صراع جديد معهم ؟ » .

– « يا رجل .. سنذهب فى رحلة مجانية ، وسنشاهد السد العالى حتى نستطيع فى المستقبل أن نحدث أولادنا وأحفادنا عنه بعد أن نشاهد إنشاءه بأعيننا قبل أن تتدفق فيه مياه النيل .. والسفر فى القطار بالمجان ، والإقامة بالمجان .. فماذا تريد بعد ذلك ؟ » .

وفى اليوم المحدد للسفر ، ذهبنا إلى القاهرة ، وقصدنا المحطة الرئيسية لقطارات السكك الحديدية ، وركبنا قطار الثامنة مساءً ، كان الطريق طويلًا ، والقطار ينطلق بسرعة ، لكنه كان يتوقف مرات عديدة ، لا ندرى لماذا ، وأحيانًا كان يطول توقفه ، وبقيت متيقظًا طوال اليوم ، فأنا لا أستطيع النوم فى وسائل المواصلات مهما امتد زمن السفر ، أما طفلنا حسام الدين فقد نام ، واستيقظ بعد ساعات ، ثم وقف فى صالون الدرجة الأولى الذى نشغله وقال فى ملل : « عايز أروح بيتنا .. »

وأخذ يبكى مصرًا على أن يعود إلى بيته ، ولم يسكت إلا بعد أن أعطيناه قطعة من الشيكولاتة ، وأسمعناه بعض قصص الأطفال الشيقة التى يحبها ، ثم نام مرة أخرى ، ونامت إلى جواره أمه ، وبقيت يقظان حتى أشرقت الشمس على الدنيا ، وبسطت أشعتها على الحقول ، وتدفقت عبر نوافذ القطار ، ولم نصل إلى أسوان إلا حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا .. أى بعد خمس عشرة ساعة ، وهى مدة طويلة جدًا تزيد عن المدة المقررة بعدد من الساعات .

كنت أشعر بإرهاق شديد للغاية ، واستقبلنى بعض العاملين بالقسم الطبى بأسوان ، وأنزلونى فى بيت إلى جوار المحطة ، الدور الأسفل منه للعيادة ، والدور الأعلى للسكن ، مضطرًا للعودة إليهم على الرغم من التعب الشديد الذى أشعر به .

وما إن انتهيت من عملى حتى طلبت من الممرض أن يأخذ نقودًا ويذهب ليشترى لنا بعض الطعام والمتطلبات المنزلية الأخرى وصعدت إلى الطابق الثانى كانت زوجتى نائمة وإلى جوارها طفلها .

كانت القطارات تشحن بأطنان كبيرة من الأسمنت والمواد الأخرى والمعدات إلى موقع السد العالى يوميًا ، وبعد يومين أو ثلاثة أخذت زوجتى وطفلى لزيارة هذا العمل الضخم الذى يتحدث عنه العالم ، والذى تسبب فى إشعال حرب ضارية بيننا وبين إسرائيل وحلفائها من الإنجليز والفرنسيين ، والواقع أن الإنسان يعجز عن إعطاء الوصف الشافى والدقيق للأعمال الجبارة ، والنشاط المذهل ، والجهد المتواصل الذى يبذل فى بناء السد العالى ، والذى غير وجه الحياة تمامًا فى أسوان المدينة وفيما حولها من جبال وأراض ، فقد رصف العديد من الطرق ، وأنشئت المدن الجديدة ، وأقيمت مصانع أساسية أو تكميلية ، ومئات الحافلات والسيارات والمركبات الميكانيكية تتحرك صاعدة نازلة ، وفى موقع السد نفسه أعداد هائلة من العمال وانفجارات وضجة كبيرة حتى ليصاب الإنسان بالذهول وأمسكت بيد طفلى ، وإلى جوارى زوجتى ، وطلبنا الإذن بالسير داخل أنفاق السد الضخمة الآمنة ، ودخلنا أحد هذه الأنفاق وقلت لزوجتى : « إن هذا المكان الذى نسير فيه سوف تغمره المياه بعد ذلك ،

ولن يمشى فيه أحد حتى مئات ، بل ربما آلاف السنين .. هذه فرصة تاريخية لأقول بأمانة وصدق إننى أخذت بروعة هذا العمل العظيم ، وكنت سعيدًا بأن أقضى فى رحابه ما يقرب من شهر ونصف على دفعتين ، وتعرفت خلال هذه الفترة على عدد من كبار المهندسين المصريين والعاملين فى شركات المقاولات وموظفى العلاقات العامة ، وفى أسوان أيضًا التقيت بعدد من الزملاء القدامى فى كلية الطب ومن الإخوان أذكر منهم الدكتور صلاح راشد وهو شخصية مرموقة فى بلده ومسقط رأسه أسوان ، والدكتور عباس نوير وهو من الكوادر السياسية ، والدكتور فايز نخلة وهو زميل مسيحى متفرغ لعمله الطبى وغيرهم .

فى أحد الأيام بعد انتهاء العمل جاءنى الممرض فى مسكنى وقال : « مطلوب تحنيط اثنتين وثلاثين جثة ..» .

صدمت لما قاله وهتفت : « اثنتان وثلاثون » .

– « نعم ..» .

– « كيف ماتوا ..» .

– « انفجار فى السد العالى أثناء العمل ، إنهم يضعون المتفجرات ليحطموا الصخور ، ولابد أن يكون هناك ضحايا .. وكل جثة لا يسمح بتسفيرها إلى موطنها إلا بعد تحنطيها هذا هو القانون » .

– « ولماذا أنا بالذات ؟ » .

– « لأن طبيب السكك الحديد هو المختص بذلك » .

– « وإذا رفضت ؟ » .

– « ينتدبون الطبيب مفتش صحة بندر أسوان » .

– « حسنًا فليفعلوا ذلك ...» .

قال الممرض فى شيء من الغضب : « هذا رزق ، فكيف ترفضه ؟ » .

– « لم أفهم ..» .

– « إن لك على كل جثة سبعة جنيهات للتحنيط ، وهذا مبلغ كبير جدًا إذا حسبته ، وأنت لن تفعل شيئًا فى عملية التحنيط ، ستكون تحت إشرافك ، وسأقوم أنا بالعمل الفعلى مقابل جنيه واحد لكل جثة ..» .

لا أدرى لماذا شعرت بالحزن والغثيان ، ووجدت لديّ صدودًا عن إتيان هذا العمل ، بل لم أستطع مجرد الاستمرار فى التفكير فيه ، ولم يعد لدى أدنى رغبة فى الحديث عن ذلك ، لذلك قلت للممرض : « دعنى ، ولا تعد لهذا الأمر ، ودبر الأمر مع مفتش صحة البندر » .

ولم تكد تمر ساعة ، حتى دق جرس الباب ، وعندما فتحت وجدت رجلًا أشيب طويل القامة يقف عند قمة الدرج ، ويقول : « مساء الخير يا دكتور ، أنا الدكتور « جورج » . ...» مفتش صحة المركز ، جئت أعاتبك ، كيف تترك حقك ليبتلعه « ابن ال ...» مفتش صحة البندر ؟ إنه ليس من حقه ..» .

– « لكنى لا أريد ذلك يا أخى ..» .

– « أنت لم تزل صغير السن ، ولا تعرف مصلحتك .. يجب أن تنزل فورًا لتأخذ رزقك ..» .

ولم استجب لطلبه ، كانت « رزق » هنا فى غير موضعها ، بل تثير اشمئزازى ، فهبط الدرج غاضبًا متوترًا ، وهو يلقى بكلمات احتجاج وتأنيب ولوم لم أتبين ألفاظها جيدًا ، وعلمت أن هناك صراعًا

وتنافسًا بين مفتش صحة البندر ، ومفتش صحة المركز ، وأنهما يستشعران نحو بعضهما كراهية شديدة ، وأن كلا منهما يحاول أن يكون له حق التحنيط فى حالة غياب طبيب السكة الحديد .

قضينا أيامًا جميلة فى أسوان ، وزرنا جزيرة النباتات ، و « مدفن أغا خان » الشهير ، وسهرنا فى فنادقها الجميلة الحديثة آنذاك مثل فندق « نيوكتاراكت » الحديث والقديم ، وذات يوم جاءنى الممرض وقال : « هناك زيارة منزلية لابد من الانتهاء منها الآن » .

- « لماذا ؟ » .

- « لأن المريض يدّعى المرض ، وهو سائق قطار ، وإعطاؤه إجازة يعنى عدم إرسال ثلاثة آلاف طن أسمنت إلى السد العالى ، وناظر المحطة سيأتى إليك بنفسه لهذا الأمر ..» .

- « وأين يسكن سائق القطار ؟ » .

- « فى جبل الحكروب » » .

- « ماذا تقول ؟ » .

- « أقول جبل الحكروب ..» .

- « وكيف الوصول إليه » .

- « نركب الحافلة حتى سفح الجبل ، ثم نترك الحافلة ونركب حمارًا ، أو نمشى فى طرق الجبل ، حتى نصل إلى المدينة السكنية ..» .

- « إذن هيا بنا » .

نزلنا من الحافلة عند الجبل ، وبدأنا نصعد الطريق الضيق الملتوى ، وأمامنا رجل يرتدى زيًا أزرق يسبقنا بحوالى خمسمائة متر ، ولم أجد أثرًا لمبانٍ على الجبل ، ولما سألت الممرض عن الوقت الذى سنقضيه فى الوصول أجاب بأنه حوالى نصف الساعة أو أقل قليلًا ، وقال إن الرجل الذى يسير أمامنا متجه هو الآخر إلى المساكن الشعبية هناك ، كان الجو حارًا ، والعرق يسيل ، وأنا أجر ساقىّ جرًا ، والوقت بعد الظهر ، والممرض يحمل الحقيبة التى بها أدوات الفحص ، وبعض أدوية الإسعافات الأولية ، وأخيرًا ظهرت المساكن على إحدى القمم ، وكانت عبارة عن عمارات جديدة بيضاء من أربعة طوابق ، وتجولنا بحثًا عن رقم العمارة ، ووصلنا بعد أن نال منا التعب ، كان الرجل راقدًا فى فراشه ، لكنه فى حالة جيدة ، ولا تبدو على وجهه علامات ألم أو ضيق ، بل كان على فمه ابتسامة خفيفة ، وحوله عدد من الأطفال والنسوة ، وقبل أن أبدأ الفحص : « إن ناظر المحطة رجل ظالم ، دائمً يضطهدنى ، ويكلفنى بأشق الأعمال ويترك زملائى يمرحون ..» .

قلت بإيجاز وأنا أجفف عرقى : « مم تشكو ؟ » .

- « صداع ، وآلام عامة فى الجسم » .

- « وهل هذا يمنعك من الحضور للعيادة ؟ » .

- « لم أستطع التحرك ، ماذا أعمل ؟ » .

- « الزيارة المنزلية كما تعلم للحالات الشديدة والمرضى الملازمين للفراش » .

- « وهل ترانى ألعب الجمباز ؟ إننى ملازم الفراش كما ترى » .

وقمت بفحصه بدقة استغرقت وقتًا لا بأس به ، وجدت درجة الحرارة طبيعية ، وأرقام ضغط الدم لا غبار عليها ، والقلب والصدر سليمان ، والحلق والزور لا أثر فيهما للاحتقان أو الالتهاب ، ولما تأكدت أنه متمارض ، أمسكت بالبطاقة وكتبت عليها « لائق ، ويعود لعمله فورًا » كنت أتكلم بما أكتب ،

وكتبت له ورقة بهذا المعنى ، وسجلت فى الملاحظات « تخصم مصاريف زيارة الطبيب لحساب هيئة السكك الحديدية » ، . لكنى للأسف رأيت المتمارض بطرف عينى وهو يخرج لسانه استهزاء للممرض ، وتظاهرت بأنى لم أر شيئًا .

عدت أنا والممرض فى نفس الطريق ، ورودتنى فكرة ، قلت : « أليس هذا هو الرجل الذى كان يسير أمامنا على الجبل » .

رد الممرض ببرود عجيب : « بلى .. إنه هو نفسه » .

- « ولماذا لم تخبرنى ؟ » .

- « وما الفائدة ، ثم إننا أبناء بلد واحد ، ولا يصح أن أعقد الأمور بسببه » .

ثم التفت إلى قائلًا : « ألا تعلم أن تقريرك هذا سيتسبب له فى قطع أجر خمسة أيام من مرتبه ؟ » .

- « أعلم ، لكنه يستحق ..» .

حينما عدت إلى المسكن ، سألتنى زوجتى عن سبب تأخيرى ، فرويت لها ما حدث وأنا أخلع ملابسى ، وارتدى منامتى ، وضحكت عندما سمعتها تقول : « جبل الحكروب اسم رائع لقصة جديدة .. رومانسى جدًا .. « وداعًا يا جبل الحكروب » أليس هذا عنوانًا جميلًا » .

- « الجبل موجود ، ولكن أين القصة » .

- « إذا لم توجد تستطيع أن تخترعها ..» .

- « تعرفين أننى لا أنطلق إلا من الواقع .. حتى ولو كان بسيطًا ..» .

- « الواقع أمامك .. فلتلحق بخيالك ..» .

- « لا أستطيع أن أبدع وأنا جائع ..» .

ضحكت وأخذت تعد المائدة لنأكل ، فقد اقترب وقت صلاة العصر ذكرتنى زوجتى بمنحة التفرغ التى نلتها قبل ذلك ، لكى أكتب رواية عن السد العالى ، فماذا كانت قصة هذه المنحة ؟ وكيف كنت سأكتب قصة دون أن أرى السد الذى هو موضوعها ؟ ولقد وضعت وزارة الثقافة فى مصر لائحة خاصة « بمنحة التفرغ للفنانين والأدباء » ، وشكلت لجنة من كبار الكتاب لفحص الطلبات التى ترد إليها من الأدباء الراغبين فى التفرغ لمدة عام واحد يجدد عند الضرورة ، وتقوم هذه اللجنة بتقدير راتب شهرى مناسب للعضو الذى ستوافق على تفرغه ، ولابد لطالب التفرغ أن يقدم إنتاجه الأدبى السابق الذى يرشحه لذلك ، وكان من أعضاء لجنة التفرغ الأساتذة الكبار : الأستاذ عباس محمود العقاد ، والدكتور طه حسين ، والأستاذ يحى حقى وغيرهم ، وعزمت أن أتقدم بطلبى للتفرغ مرفقًا به مؤلفاتى السابقة ، وعلمت من سكرتير اللجنة وأظنه الأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوى ، أن اللجنة وافقت على منحى التفرغ ثم تراجعت بعد أن قرأت فى البيانات المدونة بطلبى أننى « طبيب مكلف بالعمل لمدة سنتين تتجدد تلقائيًا ورأت اللجنة أنه ما دام الأمر كذلك فإننى لن أستطيع ترك عملى الطبى . ولو مؤقتًا . وأتفرغ للأدب ، وكان المشروع الذى قدمته هو كتابة رواية عن السد العالى ذلك الحدث الكبير فى تاريخ مصر ، وقررت اللجنة إرجاء البت فى الطلب ، وفهمت من الصديق السكرتير أن الذى يستطيع إعادة النظر فى الموضوع هو الدكتور. طه حسين ، أو الأستاذ العقاد ، وكانت وجهة نظرى أن حق التفرغ له أمر بعيد الأثر فى وضعى الأدبى ، وأن اللجنة عليها أن توافق على تفرغى ما دامت مقتنعة . وهذا حقى ، بصرف النظر عما إذا كنت سأنفذ التفرغ أم لا ، وكانت اللجنة قد وافقت على منحة التفرغ للأستاذ الصديق على أحمد باكثير لكتابة مسرحية عن عمر بن الخطاب ، وقد كتبها فى ستة

عشر جزءًا ، صدرت عن مكتبة مصر بالفجالة ، وقد تفرغ لهذا العمل عامين كاملين ، وعزمت على مقابلة من أستطيع من أعضاء لجنة التفرغ لأقنعهم بإعادة النظر فى الموضوع .. وهكذا التقيت بالأستاذ يحيى حقى فوافق ، ثم ذهبت إلى الأستاذ العقاد ، كما سبق وشرحت فى مكان آخر ، وعندما قابلته فى منزله بمصر الجديدة فى يوم جمعة أثناء ندوته الأسبوعية ، قدمت نفسى إليه دون إلقاء قائلًا : « أنا نجيب الكيلانى »

فابتسم وصافحنى قائلًا : « أهلًا يا دكتور » .

أدركت أن الرجل رحمه الله يذكرنى ، بدليل أنه أضاف كلمة دكتور إلى اسمى ، ودخلت فى الموضوع مباشرة ، وشرحت له قضية تفرغى ، فقال إنه تذكر ذلك الموضوع ، ثم صمت برهة وقال بالحرف الواحد : « الذين قرءوا كتبك يثنون عليك ، وأعدك بأن أوافق عند إعادة طرح الموضوع » .

ولم يبق إلا أن أذهب إلى الدكتور طه حسين فأنا لم أقابله منذ أن تسلمت منه الميدالية الذهبية فى عيد العلم (ديسمبر ١٩٥٩) فى حضور رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر ، بمناسبة فوزى بالجائزة الأولى فى مسابقة القصة القصيرة لذلك العام ، لكن الأستاذ ثروت أباظة الكاتب المعروف تكفل بذلك نيابة عنى ، وتمت موافقته هو الآخر وصدر القرار أخيرًا .. القرار الذى أنفذه ، ذلك لأنى وجدت صعوبة لدى الجهات التى أعمل بها ، ولكنى لم أشعر بالضيق لذلك ، فقد كنت دائمًا حريصًا على أن أظل وثيق الصلة بمهنتي الإنسانية ، ولا افترق عنها حتى أبلغ سن التقاعد ، وأن يكون الأدب مجرد هواية جادة وليس احترافًا أو تفرغًا ، على الرغم من أن أصدقاءنا وإخواننا فى المغرب العربى ، كتبوا عن ضرورة تفرغي للأدب لأهمية الاتجاه والمبادئ التى أؤمن بها ، وأدعو إليها ..،استمر انتدابى فى أسوان المدينة التى أحببتها لأكثر من شهر ، كنت أجد الفرصة المواتية لأتنزه فى نهر النيل الجميل ، وأذهب إلى المدن الصناعية الجديدة التى تثلج القلب ، وأزور مواقع السد العالى التى لا أملّ من مشاهدتها ، وأسجل بعض القصص والخواطر عن ذلك ، وفى أحد الأيام جاءنى الممرض يقول : « الدكتور (م ...) وصل من الأقصر ليشاركك فى الفحص الثلاثى » .

كان هناك يوم محدد كل فترة لفحص العمال الذين يعانون أمراضًا مزمنة ، ولابد لهذا الفحص أن يتم بواسطة طبيبين ، ونزلت ورحبت بالدكتور (م ...) ، وتراص العمال فى صف طويل ، وبدأنا فحص النظر ، وكم كان ذهولى عندما رأيت الدكتور يكتب قوة الأبصار عند الرجل الذى نفحصه أنها ٦/ ١٢ ، مع أنى لاحظت أنها ٦/ ٢٤ ، وتوقفت عن العمل وقلت له : « إنك تخطئ يا دكتور (م ...) » .

قال وهو يسدد إلى نظرات ذات معنى : « لقد دفع المبلغ المطلوب » .

هتفت فى دهشة : « ماذا ؟ » .

– « أقول دفع خمسة جنيهات » .

– « لماذا ؟ » .

– « لينجح .. أم تريد أن تقطع رزقه » .

كان الكلام يدور بيننا همسًا :

وضعت القلم ، وخلعت السماعة ، وقلت : « آسف .. لن أشاركك فى الفحص » .

– « لماذا ؟ الأمور تمشي على هذا النحو من قديم ، « ويا بخت من نفّع واستنفع » .. وأستطيع أن أفحص وحدى ، وبعد ذلك أحضر أحد الزملاء فى الأقصر ليوقع معى ..» .

وعدت إلى مكتبى فى العيادة ، وأنا أنتفض من الغيظ ، إن المخالفات ترتكب جهارًا نهارًا ، والرشوة

تُؤخذ دون خوف ، تمامًا مثلما كان يحدث فى المنطقة الطبية بطنطا ، وما زال المذياع يتحدث عن الثورة .. والنقاء الثورى ..،عصر الطهارة والعدالة والحرية والاشتراكية ، وانتهى الفحص الثلاثى ، وأخذ (م ..) الأوراق ، ثم جلس معى يشرب الشاى فى هدوء غريب ، ويضحك معى ، ثم لاحظت مجىء فتاتين حاسرتين يسلمان علينا ، وعرفنى (م ..) بأنهما أختاه ، وبعد أن اتجه لأخذ القطار الذاهب إلى الأقصر ، قهقه الممرض وقال : « هل صدقت أنهما أختان له ؟ » .

- « نعم ، وماذا فى ذلك ؟ » .

- « يا دكتور أنت رجل طيب ، لا تصلح لهذا الزمان » .

فهمت ما يرمى إليه ، إن الأمر فى غاية العجب ، فهناك رجال تحت الشمس يصنعون ما يشبه المعجزة بالسد العالى ، وعلى الجانب الآخر رجال يرتشون ويسرقون ويستغلون نفوذهم ، وعلى امتداد الوادى فقراء لا يجدون القوت ، وعلى قمة السلطة رجال أصبحوا ملوكًا أو كالملوك بما حصلوا عليه من مال حرام ، وسلطة جائرة لا ترحم ، ونفوذ خرافى لا يعترضه أحد ، والغريب أن عامة الناس يعرفون الكثير ، لكنهم لا يستطيعون الشكوى ، أو حتى مجرد الإفصاح عما يقلقهم .

انتهت أيام الانتداب الجميلة ، وحملت أمتعتى ، ومعى ابنى وزوجتى ، وركبنا قطار الصعيد المتجه إلى الشمال .

فى الطريق بدت لنا بعد ساعات محطة قطار مكتوب عليها « بنى مر » قلت لزوجتى : « أنظرى واقرئى اللافتة » .

- « ماذا هناك ؟ » .

- « ألا ترين تلك القرية البعيدة ؟ » .

- « نعم » .

- « إنها بلدة عبد الناصر بن الحاج حسين ، والد الرئيس ..» .

هزت رأسها قائلة : « لقد قطع مشوارًا طويلًا من هنا حتى ...» .

ولم تكمل ، أكانت تريد أن تقول « حتى القاهرة » أم « حتى القمة » ، لا أدرى وسبحان المعطى الوهاب !

وعدنا إلى المدينة السكنية بأبو زعبل .. ذلك الحصن الدافئ المريح ..

عندما جلست فى مكتبى كنت أستشعر السعادة تملأ قلبى ، أخذت ألامس بنظراتى الحانية قطع الأثاث فى المكتب ، والأدوات الطبية الموضوعة أمامى ، وانظر عبر الباب والنافذة إلى الناس الطيبين الذين أحبهم . وراودنى إحساس داخلى بالخوف وتساءلت : هل يمكن أن يحدث ما يعكر الصفو ، وأترك هذا المكان الجميل المريح الذى اختلط بروحى وكيانى ؟

لست أدرى لماذا راودنى هذا الخاطر :

يا إلهى ! ! ! ماذا قد يحدث فى الغد ؟

❁❁❁

# [١٥] أدب الحياة والحرية



دائمًا كانت تشغلنى قضية الحرية، ذلك لأننا شعب ابتلى من قديم السنين بملوك وولاة وحكام قلما يرعون حق الله وحق العباد، ولقد كانت للتجربة المريرة التى خضتها أكبر الأثر فى تعميق الإحساس بالحرية، وأهميتها للإنسان حتى يبدع ويجدد، وللوطن حتى ينمو ويتقدم ويزدهر، ولهذا فإن الكم الأكبر من قصصى ورواياتى، بل ومؤلفاتى الأخرى تدور حول هذا المعنى النبيل، وذلك من خلال التصور الإسلامى الصحيح، والواقع أننى نشأت فى أسرة من عامة الشعب، كانت تتميز بروح الحرية والتسامح والتفاهم، ولم يكن فيها أى نوع من الإكراه أو القهر أو القسوة، فضلًا عن أننى كنت أهيم فى عالم المفكرين والمصلحين وقادة الرأى من خلال قراءاتى المستمرة عن القادة والمثل العليا التى تحلق فى أجواء عالية تخلب اللب، وتثرى الروح، وتبعث على الأمل والتفاؤل والثقة، ولهذا صدمت فى حياتى صدمة رهيبة حينما رأيت ما رأيت من قوة وإذلال وتعذيب فى السجون ، وفى السجن الحربى بالذات، ومهما كانت المبررات والأسباب لهذا الظلم الفادح، فإنه أمر شاذ مدمر، لن يثمر إلا المآسى والأحزان، والخيبة والهزيمة النكراء للأمة كلها.

أعجبت بشخصية الداعية الإسلامى والمصلح الكبير «جمال الدين الأفغانى»، وأخذت أتقصى أفعاله وأقواله وحياته المليئة بالجهاد والعجائب، وكنت فى تلك الفترة أعزم كتابة رواية عن انعكاسات الحرب العالمية الأولى على مصر (١٩١٤ - ١٩١٨)، وعن ثورة الشعب وسعد زغلول باشا المعروفة بثورة ١٩ (١٩١٩)، وتجولت فى كتاب التاريخ الذى كتبه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى، وفيه تسجيل مفيد وموسع عن هذا الأحداث وغيرها، حتى أتمثل الخلفية التاريخية سياسيًا واجتماعيًا فى تلك الفترة لأن ذلك ضرورى للقاص أو الروائى الذى يستلهم التاريخ..

وهكذا بدأت فى كتابة رواية «النداء الخالد»، وأعنى به نداء الحرية طبعًا، ولجأت إلى حيلة فنية مقبولة، إذ جعلت «الشيخ عنبة» وهو أحد أبطال النداء الخالد مغرمًا بشخصية جمال الدين الأفغانى، حافظًا للكثير من نصوص أقواله وكتاباته، وكان من عادة الشيخ عنبة ألا يرد على سؤال إلا بقول مأثور لجمال الدين الأفغانى، ويسبق ذلك بقوله «يقول حبيبى كذا وكذا» ويقصد بالحبيب الأفغانى وهكذا شاعت فى أجواء القصة روح الأفغانى وفكره، ودعوته الصادقة من أجل تحرير المسلمين من الظلم والاستعمار، وتحرير الإسلام من الخرافات والخزعبلات، ولقد كانت هذه القصة من ثمرات الحياة الوادعة المطمئنة فى مساكن أبو زعبل.

ومن الروايات التى كتبتها فى هذه الفترة رواية «الكأس الفارغة»، ،هى رواية تجرى أحداثها فى منطقة قنال السويس، والصراع الدائر هناك بين الفدائيين من الإخوان المسلمين وبين القوات البريطانية المستعمرة، ولقد كان لى فى هؤلاء الفدائيين أصدقاء وإخوة أعزاء بعضهم ضحى بحياته فى سبيل الله،

وسلمت الرواية بعد الانتهاء من كتابتها للناشر حسن إيرانى صاحب الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع بميدان إبراهيم باشا « الأوبرا سابقًا » ، وسلمها على الفور لمطبعة « النزهة » وأظنها فى « حى شبرا » وفعلًا بُدئَ فى الطبع ، وصححت من التجارب (البروفات) أكثر من مائة صفحة ، وفجأة توقفت مطبعة النزهة عن الطبع ، ولما سألت عن السبب قيل أن الحكومة فرضت الحراسة عليها ، واستولت على أموالها ، واحترت ما مصير روايتى ؟ وذهبت إلى البك الحارس الذى عينته الحكومة ، وطلبت منه نصوص الرواية ، فأخبرنى أنه لا يستطيع التصرف فى شيء الآن ، وأخذت أجرى هنا وهناك بضعة شهور دون جدوى ، ويئست من استرداد روايتى « الكأس الفارغة » وعدت بعد جهد جهيد بيد فارغة ، وللأسف الشديد لم يكن لدى نسخة من هذه الرواية ، ولم أستطع الاستدلال بعد ذلك على الحارس أو على أصحاب المطبعة الأصليين ، وضاع الجهد الذى بذلته فى كتابة هذه الرواية التى كنت أعتز بها أيما اعتزاز قالت زوجتى : « لماذا لا تكتبها من جديد ؟ » .

– « يصعب ذلك .. فأنا لا أتذكر إلا إطارها العام ، والشيء الذى أكتبه مرة ، لا أندفع إليه بنفس الحماسة إذا عدت لكتابته مرة أخرى ..» .

وحزنت أشد الحزن ، مثلما حزنت على كتابى « الرافعى فى موكب البعث » الذى أحرقته يد لا تقدر قيمته ، ومثلما حزنت على مسرحية « حسناء بابل » التى كتبتها فى السجن عن « هاروت وماروت » وصادرتها إدارة سجن أسيوط أثناء قيامها بحملة تفتيشية متعنتة ، ولم يكن لدى صور لهذا الإنتاج الأدبى القيم الذى ضاع ، وهناك عدد من قصائد الشعر ومن القصص القصيرة والمقالات لقيت نفس المصير المؤلم ، ولقد سبق وأشرت إلى أن رواية « الظل الأسود » هى الأخرى كانت قد فقدت فى بيروت ولم نعثر عليها إلا بعد خمسة عشر عامًا ، ودفعنا فيها مبلغًا كبيرًا من المال حتى نستردها وقد نجحنا فى ذلك والحمد لله ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الطبعات الأولى أو التالية لبعض كتبى قد نفدت ، وكنا نحاول أن نبحث عن نسخة منها لإعادة الطبع فنعجز ، من ذلك كتابى عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال ، وكتابى عن أمير الشعراء شوقى ، وديوان أغانى الغرباء وغيرها من الكتب ، وذلك راجع لإهمال بعض الناشرين ، ولإهمالى أيضًا فى الاحتفاظ بنسخ من مؤلفاتى ، أو بصورة منها ..

كنت حريصًا أثناء عملى بالمدينة السكنية على أن أبتعد عن العمل السياسى حسب قرار الحكومة بالعزل السياسى ، حتى أبعد عن نفسى شبهة العداء والتآمر ضدهم ، وما أيسر إلصاق تهم كهذه بأى معارض سياسى لسبب أو لآخر ، وحدث أن أضرب عمال « الظهورات » فى ورش السكك الحديدية بأبو زعبل ، مطالبين بتثبتهم على درجات وظيفية أسوة بزملائهم ، وامتلأت الورش برجال الأمن ، وحوصر العمال ، وبعثت النيابة العامة برجالها للتحقيق ، وكان بعض العمال يغمى عليهم فينقلونهم إلى المستشفى ، وكان مدير المستشفى رجلًا صارمًا لا يحب المشاكل ، ويعتقد أن حالات الإغماء ما هى إلا افتراء ، وادعاء وكذب ، وعلاجه لذلك كلمة يقولها ويعرفها الناس فى المدينة السكنية : « هات اثنين سنتيمتر يا عبد الفتاح » . وعبد الفتاح هو الممرض ، والاثنان سنتيمتر هما من الكحول ، وعادة يحقنها المدير تحت جلد المريض فى فخذه ، فيشعر بما يشبه النار ترعى فى جسده ، فيطلق صرخة مدوية ، ويقفز من فوق السرير كمن لدغته عقرب ، ويفر هاربًا ، وهكذا عرفه المتمارضون والمدللون من أهل المدينة السكنية رجالًا ونساء ، ولهذا عندما يسمعونه يقول ٢ سم يا عبد الفتاح يفرون هاربين ، وحاولنا إقناع المدير بعدم اللجوء لهذا الأسلوب ، وخاصة أن الحقنة تترك قرحة كبيرة فى الجسم ، ولكن دون جدوى ، ولم يفكر أحد من الأطباء العاملين معنا فى اللجوء لتلك الطريقة ، وعندما حمل بعض المغمى عليهم من العمال

المضربين إلى المستشفى قال البك المدير : « اتركوهم لى .. حقنة اثنين سنتى يا عبد الفتاح » . وهكذا قفز العمال المستجون فى الفراش ، وأخذوا يهرولون طلبًا للنجاة .

أجرى وكيل النيابة التحقيق مع كل فرد على حدة ، ثم وعدهم بالنظر فى مطلبهم العادل . وأقنعهم بأن الحكومة حريصة على مصالح العمال ، وهى فى طريقها لتدبير الدرجات والميزانية اللازمة لذلك فى أقرب وقت ممكن حسب أوامر الرئيس جمال عبد الناصر ، وانتهى الموضوع على خير ، فقد وافق العمال على العودة إلى أعمالهم مخافة اعتقالهم وطردهم ، وأبدوا ترحيبًا بالوعود الجادة التى سمعوها من المسئولين ، والحقيقة أن مطالبهم قد أجيبت فيما بعد ، لكن طوال هذه المدة حرصت على ألا يكون لى أدنى صلة بتحركات العمال ، وإلا اتهمت بإثارتهم وتحريضهم على الإضراب ، وعندئذ . لا قدَّر الله . ستتجه أصابع الاتهام نحوى ، وينسون الفاعلين الأصليين ، سألنى يحيى بك كامل أمين رئيس المباحث بالمنطقة عن رأيى فى هذا الموضوع ، قلت : « لا تجرنى لمثل هذه الأمور » .

– « أسألك كأخ ، وليس كمعزول سياسى » .

قلت له معتمدًا على الله المنجى : « يجب أن تعطوهم حقهم ، وخاصة أن الثورة تعلن دائمًا أنها فى صف العمال والفلاحين ، فكيف يعيش هؤلاء الناس ويعولون أسرًا ، وهم يتقاضون أجرًا ضئيلًا ، ومستقبلهم غير مؤمّن ؟ إن « الظهورات » يعملون بصفة مؤقتة ، وقد يُسرحون فى أى وقت ، فمن أين يأكلون ؟ » .

– « أنا معك فى هذا الرأى ، وسوف أسجله فى تقريرى » .

---

وفى عام ١٩٦٤ بعد ولادة ابنى جلال الدين بفترة طلبت زوجتى أن تكمل دراستها فى معهد الخدمة الاجتماعية بالقاهرة ، ووافقت على الفور نظرًا لأنى كنت قد اتفقت مع والدها الشيخ قبل الزواج أن تتم تعليمها ، وكانت هناك عقبات منها أنها سوف تذهب إلى القاهرة يوميًا بعد الظهر وتعود فى المساء لأن الدراسة مسائية ، ومنها أيضًا الأبناء الثلاثة وضرورة توفير الرعاية الكاملة لهم ، وهناك أيضًا الرعاية التى أحتاجها شخصيًا ، وحاولنا تدبير الأمر بطريقة مقبولة ، وقد وفقنا الله فى ذلك والحمد له أولًا وأخيرًا .. واستطاعت زوجتى بالتفاهم مع أساتذتها أن يعفوها من الحضور يوميًا ، واكتفوا بأن تحضر ثلاثة أيام فى الأسبوع ، وبالنسبة للأطفال فقد كان وجود الوالدين وأختى الصغيرة سميرة ذا نفع كبير ، أما أنا فقد تكفلت بالأمور الخاصة بى ، خلال الأيام الثلاثة ..

أخذت أتصفح الكتب والمحاضرات التى تذاكر فيها زوجتى ، وبينما كنت أقرأ فى محاضرات المجتمع العربى ومقوماته والقومية العربية لاحظت أن مقومات هذا المجتمع هى الجنس والجغرافيا والتاريخ ووحدة الهدف والمصير ، وسألت زوجتى : « وأين الإسلام ؟ أين الدين كمقوم أساسى ، وهل كان للعروبة فى الجزيرة العربية دولة قبل الإسلام ؟ » .

– « هذا ما يدرسونه لنا » .

– « ناقشى أستاذك فى الأمر » .

وفى أحد الأيام عادت زوجتى لتخبرنى أنها ناقشت الأستاذ الدكتور فى مسألة الدين والعروبة ، فتهرب منها بحجة أن ذلك هو المنهج الذى قررته الوزارة ، وإن مثل هذه المسائل متروكة لخبراء المناهج والتربية ، لكنه همس قائلًا : « أنت على حق ولكن لا تتكلمى فى أمر كهذا ، فنحن فى أيام يسهل

تأويل الأمور، وفهمها على وجه خاطئ، والعاقل من ابتعد عن مثل تلك الأمور الشائكة».

وفى أحد الأيام استأذنت زوجتى منى فى أن تأخذ نسخة كتابى «المجتمع المريض» وهى دراسة شيقة ومؤلمة فى نفس الوقت عن المسجونين وقيمهم، وعن الجريمة والعقاب، وأساليب الإصلاح، والعلاقة بين الجريمة والاقتصاد والسياسة، وكذلك عن الفنون فى السجون، وما يبدعه هؤلاء التعساء من قصص وأشعار وفنون تشكيلية وغير ذلك. وهى جوانب طريفة لم يتناولها أحد من قبل من كتابنا المعاصرين، وكان هذا الكتاب قد نال جائزة وزارة التربية والتعليم فى مسابقة الدراسات الاجتماعية والنفسية عام ١٩٥٧، وقد تأخر نشره لسنوات.. ووافقت على أن تهدى زوجتى أستاذها نسخة من هذا الكتاب، وبعد يومين جاءها الأستاذ الدكتور وقال: «لم أنم ليلة أن تسلمت هذا الكتاب يا ابنتى، وقرأته فى ليلة واحدة، ذلك لأن أسلوبه شدنى، وأحداثه استولت على مشاعرى، إنه أسلوب فريد فى طرح القضايا العلمية والاجتماعية، يذكرنى بكتابات وطريقة «ديل كارنيجى» الكاتب الأمريكى المعروف ..».

ثم صمت برهة ونظر إليها بإمعان وقال: «هذا الكتاب لا يكتبه إلا رجل عاش بين المسجونين، وذاق مرارة السجن، هل سجن زوجك قبل ذلك».

قالت: «نعم، وقضى فى السجن بضع سنوات، ووضع مؤلفه هذا وهو سجين، ونال الجائزة عنه قبل أن يفرجوا عنه.. إن ما تقوله هو نفس ما قالته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) التى كانت عضو بلجنة المسابقة ..».

- «بلغى زوجك تحياتى واحترامى، وبلغيه رغبتى الشديدة فى التعرف إليه ..».

الحقيقة أن كتاب «المجتمع المريض» يحتل مكانة كبيرة فى نفسى، وأنا أشعر أننى أديت جزءًا من الواجب نحو هؤلاء الذين يكابدون مر الحياة وراء الأسوار، وألقيت الضوء على قيمهم وفكرهم وسلوكهم، آملًا أن يكون ذلك بداية للاهتمام بإعادة النظر فى أمر الجريمة والعقاب، والأسباب التى تدفع إلى الجريمة، وأساليب العلاج الصحيحة للانحرافات الأخلاقية على أسس من العدالة التى تشرق فى صفحات كتاب الله. وفى السنة النبوية المطهرة، ولن أطيل الحديث عن ذلك، فنظرة إلى ذلك الكتاب «المجتمع المريض» سوف تفتح الآفاق أمام الفكرة والنظر والاعتبار.

كان الوضع المالى بالنسبة لى متأرجحًا، فأحيانًا يكون لدى الكفاية من الرزق الذى يضمن الحياة الرخية المريحة، وأحيانًا أخرى ألجأ إلى الاقتراض، على الرغم من أن الراتب الحكومى معقول، وكان دخلى من الكتابة متقلبًا، مرة يأتى ومرة لا يأتى، وخاصة أنه لا جوائز جديدة، والكتب التى تقررها الوزارة تكون لمدة عام أو عامين، فلم يكن غريبًا أن أوافق على بيع طبعة جديدة من كتاب جديد بمائة جنيه أو أقل، وأتقاضى عن القصة القصيرة أو المقالة فى الصحف ما بين ٥ إلى ١٠ إلى ١٥ جنيهًا حسب الأحوال، وذهبت ذات صيف إلى الإسكندرية مع الأسرة لقضاء ثلاثة أسابيع للراحة والترفيه، ولكنى قطعت الرحلة بعد أن نفد ما معى من المال، وعدت إلى القاهرة قاصدًا منزل صهرى كى نقضى معه ليلة، ثم نرحل إلى المساكن التى أعمل بها، وبعد صلاة المغرب، أخبرت زوجتى بأنى سأذهب إلى المكتبات التى أتعامل معها لأعرف أخبارها ثم أعود بعد ساعتين تقريبًا، وسألتها عما معها من المال فقالت إنها لا تملك سوى ربع جنيه فقط.. أخذته منها، وقصدت الترام، وفى مكتبة الشركة العربية جلست مع مديرها الأستاذ صلاح إبراهيم وهو صديق وزميل فى أيام الاعتقال، وجلسنا نشرب الشاى، وبعد نصف ساعة تقريبًا دخل علينا حسن إيرانى صاحب المكتبة بوجهه الباش، وقال لى على

الفور : « أين كتبك الجديدة ؟ » .

- « إننى أكتب رواية ، وسأنتهى منها إن شاء الله أوائل الشهر القادم » .

وفوجئت به يقول : « عظيم ..» .

ثم التفت إلى الأخ صلاح مدير المكتبة وقال له : « ادفع يا صلاح للدكتور نجيب خمسين جنيهًا عربونًا للرواية الجديدة ..» .

وقبل أن أعلق ، وجدته يسألنى : « وكتبك القديمة ؟ » .

- « ماذا عنها ؟ » .

- « ألا تريد أن تخرج طبعات جديدة لها ؟ » .

- « لا بأس » .

- « كم عددها ؟ » .

- « بعضها لم يتم توزيع طبعتها السابقة بالكامل ، والبعض يمكن إعادة طبعه » .

- « كم رواية جاهزة ؟ » .

- « اثنان ..» .

التفت إلى صلاح مرة أخرى وقال له : « ادفع للدكتور مائة جنيه أخرى كعربون للروايتين » .

ثم انصرف ، معتذرًا عن الجلوس معنا ، لانشغاله بأعمال ومواعيد هامة ، وعدت إلى زوجتى ومعى مائة وخمسون جنيهًا ، وهى تضارع مرتب أربعة شهور من أجر الحكومة أو أقل قليلًا .. لكأن الله أراد أن يبعث بالناشر فى هذا الوقت بالذات ، حاملًا لى هذا الرزق دون اتفاق مسبق ، والعجيب أن حياتى مليئة بمثل هذه الوقائع ، مما جعلنى أثق فيما عند الله أكثر من ثقتى بما فى يدى ، وأذكر أننى حينما كنت أعمل فى دولة الإمارات العربية المتحدة قبل بلوغى سن التقاعد ، أن حدث وشرعت فى بناء بيت لى فى مدينة طنطا الشهيرة ، ونفدت كل مدخراتى ، وأمسكت بالقلم والورق أجمع وأطرح وأضرب وأقسم ، وانتهيت إلى نتيجة بأنه لابد من التوقف عن العمل فى المشروع لمدة عام حتى أجد المال اللازم ، وحدثنى الصديق الأستاذ محمد مصطفى عميرة الذى يعمل بالقسم الإدارى بالمستشفى عارضًا على أن أقترض من بعض الإخوان ، وأعطيهم شيكات فى أشهر متتالية للسداد ، ولكن الفكرة لم ترق لى ، كان ذلك يوم اثنين ... ومساء الأربعاء التالى اتصل بى من الكويت الأخ الأستاذ محسن طنطاوى ، وأخبرنى أن بالكويت شركة إنتاج تليفزيونى ، وإذاعى ، وتريد شراء بعض روايات لإنتاجها ، وقد فوضوه فى التفاهم والتعاقد معى ، وتكررت الاتصالات التليفونية فى نفس الليلة حول شروطى والمبلغ المطلوب دفعه مقدمًا ، وفى النهاية اتفقنا على أن يأتى محسن بطائرة الجمعة للتعاقد ودفع المقدم ، وأتى فى الموعد المحدد ، وجلسنا فى بيتنا ، وكتبنا العقود ، وتسلمت الدولارات المتفق عليها ، وقد قامت زوجتى أكرمها الله بكتابة العقود على آلة الطباعة ، فقد كانت بارعة فى الضرب عليها ، وبعد أن تناولنا طعام الغذاء بعد صلاة الجمعة ، قال محسن : « تعلم أنى أعمل بالنشر ، ألا تخصنى بكتاب من تأليفك ؟ » .

- « ليس عندى كتب جديدة » .

قال : « أى شىء بركة منك » .

وفكرت قليلًا ، ثم قلت له أن لدى عددًا من القصص القصيرة المنشورة فى الصحف والمجلات ، فهل أقص لك هذه القصص من مصادرها وترتبها أنت ، وتعدها للطبع ؟ » .

رحب محسن بالفكرة ، وفعلًا أحضرت كومة من المجلات والصحف ، وأخذت أبحث حتى

استطعت أن أجمع له كتاب « فارس هوازن وقصص أخرى » وتم التعاقد بينى وبينه ، وتسلمت مقابل حقوق النشر ، وكان محسن سعيدًا بذلك ، وسافر محسن ..

وفى المساء قلت لزوجتى : « يا سبحان الله .. عوّلت على الأرقام والحسابات ، وهكذا قررت وقف مشروع المبانى ، وأراد الله سبحانه أن يلقننى درسًا عن الرزق ، نعم .. أرسل إلىّ رزقًا بالطائرة رأسًا من الكويت إلى هنا فى دبى .. ماذا تقولين فى ذلك ؟ « أقول الحمد لله » .

- « هل تذكرين قصة ذلك الأعرابى الذى سمع قول الله : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

ماذا قال الأعرابى ؟ قال : « من الذى أغضب الحليم حتى أقسم » .

الحقيقة أن الرزق بيد الله وحده ، لكننا كبشر نخاف ونرتعد عندما نواجه مصاعب مالية .. فماذا تقولين الآن عن هذا العون الربانى ؟ » قالت والبشر يعلو وجهها : « أقول الحمد لله .. ولا تنس حقوق العباد فى مال الله الذى أتاك » .

والحقيقة أن قضية « الرزق » وارتباطها بالمشيئة الإلهية أمر حيوى فى حياتى ، وهل أنسى أننى فى أيام السجن السوداء التى لم أكن أجد فيها شيئًا من المدخرات وهبنى الله الجوائز العديدة التى أمنت متطلباتى فى السجن ، بل وفى الفترة التى تلته ، وساهمت فى حل بعض أزمات الأسرة ، وهل أنسى أيام الحرب العالمية العظمى ، وحياتنا القاسية فى الريف حتى عز القوت والملبس والعلاج ؟ إن حياتى مليئة بالعظات والعبر التى تؤكد دائمًا أن الاعتماد على الله وتقواه والعمل الجاد هم المخرج الصحيح من أية أزمة ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ صدق الله العظيم ..

❁❁❁

دعانى الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوى لحضور حفل الافتتاح لمسرحيته الجميلة والتى تحمل اسم « جميلة » وهى عن الفتاة الجزائرية « جميلة بوحريد » التى شاركت فى مقاومة الاستعمار الفرنسى ، وحكم عليها بالإعدام ، وتحدثت عنها كل صحافة العالم ، ونقلت تفاصيل محاكمتها ، وإزاء الضغط الذى مارسه الرأى العام العالمى ، تمَّ إنقاذ هذه الفتاة من حبل المشنقة ، وذهبت أنا وزوجتى لمشاهدة المسرحية الجديدة ، حيث احتشد فى الافتتاح عدد كبير من رجالات المسرح والأدب والصحافة ، واستقبلنا الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى بعوده الفارع ، وبنائه المتين ، وابتسامته الحلوة ، ورحب بنا أيما ترحيب ، وقد أدت الممثلة « محسنة توفيق » دور جميلة تمثيلًا مؤثرًا بارعًا » .

والواقع أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى كان شخصية بارزة مثيرة للجدل ، فقد كان يساريًا فى شبابه ، وأصدر مجلة شهيرة اسمها مجلة « الغد » ممثلة للفكر الاشتراكى قبل الثورة ، وكتب فيها قصيدة « من أب مصرى إلى الرئيس ترومان » ، وقد شاع أمر هذه القصيدة واشتهرت ، وقبل ذلك كتب عبد الرحمن رواية « الأرض » من جزءين ، وتعتبر لونًا جديدًا فى القصة فى هذه الأيام ، وقد نقدتُ هذه الرواية رغم إعجابى بها فى نقطتين أساسيتين : الأولى الإفراط فى اللهجة العامية فى الحوار ، والثانية تصوير ما نسميه رجل الدين فى القرية تصويرًا مقززًا ، وغير ذلك من الأمور ، وكتب الشرقاوى دراسته المعروفة عن الرسول « محمد رسول الحرية » ، وقد هوجم بسببه هجومًا شديدًا ، واعترض الأزهر على نشره فى كتاب بعد أن تم نشره فى إحدى الصحف ولعلها جريدة « المصرى » الناطقة بلسان

حزب الوفد آنذاك ، والتى توقفت عن الصدور أيام الثورة ، وكان الهجوم على ذلك الكتاب منصبًا على أنه قدم شخصية الرسول ﷺ كبشر أوتى فكرًا وعقلًا عظيمين ، وموهبة فذة ، وقدرة على الجهاد ، والانتصار للفقراء ، وتحقيق العدل ، ولم يرجع الشرقاوى فى ذلك إلى الوحى والتكليف الإلهى ، ثم سمح بنشر الكتاب بعد أن قامت الثورة المصرية بفترة . وفى سنواته الأخيرة كتب الشرقاوى عددًا من المؤلفات الضخمة عن أئمة الفقه الإسلامى منهم الأئمة الأربعة و « على إمام المتقين » و « ابن تيمية » و « ابن حزم » وغيرهم ، وكالعادة أثارت هذه الكتب جدلًا واسعًا ، وخاصة كتابه عن الإمام على رضى الله عنه ، بل وصل الأمر إلى أن قامت ضده مظاهرات فى بعض الدول العربية مثل « قطر » ، ومن الأقوال الشهيرة التى نسبتها الصحافة إلى الشيخ العلامة والكاتب الإسلامى الكبير محمد الغزالى قوله : بأن الشرقاوى يلجأ إلى « مزبلة التاريخ » ليستقى منها الوقائع ، إشارة إلى أن الشرقاوى لا يقوم بفرز الروايات التاريخية ويحللها ويستبعد الموضوع أو الملفق أو الضعيف منها ، وقد تعرض الشرقاوى لحملة ضارية من الإسلاميين فى مختلف أنحاء العالم العربى والإسلامى ، ومع ذلك فقد كان لى رأى يعتمد على استقراء تاريخ الرجل ، وخلاصة أعماله الإسلامية ، الأخيرة بالذات ، وخلاصة هذا الرأى أنه لا يصح الحكم على مفكر من خلال موقف واحد أو موقفين فى حياته ، وأن الشرقاوى رغم ما وقع فيه من أخطاء تاريخية ، كان حسن القصد حينما كتب عن الأئمة ، فقد قدم صورة مشرقة حية نابضة لحياة هؤلاء الأعلام وفكرهم وجهادهم العظيم ، وذلك يرجح السلبيات التى وردت فى هذه الكتب الأخيرة ، ولم يكن الشرقاوى فى تصورى شيوعيًا ، وقد رويت فى غير هذا المكان كيف أنى التقيت به مصادفة فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة فى موسم الحج ، وأظن أن ذلك كان فى عام ١٩٨١ ، وكانت ترافقه السيدة حرمه ، وكان يلبس جلبابًا أبيض ، ونظارة سميكة ، وكان يتحدث حديث المؤمن الصادق ، ولم يكن يشوب تصرفاته وكلماته شائبة من مراءاة أو ادعاء ، ولم أكن قد رأيته منذ اثنى عشر عامًا بسبب عملى بالإمارات منذ عام ١٩٦٨ ، إننى على يقين من أن الرجل كان طيب القلب ، وكان نصيرًا للحرية ، مدافعًا عن حقوق الفقراء والمظلومين ، ويتضح ذلك جليًا فى جميع كتاباته شعرًا ومسرحًا وقصة قصيرة وروايات ونقدًا ، وساهم الشرقاوى فى إثراء الحياة الفكرية فى مصر وخارج مصر ، وعاش فى خضم معارك الأمة قديمًا وحديثًا ، والرجل الذى كتب مسرحية عن جميلة الجزائرية ، كتب أيضًا عن الإمام الحسين مسرحيتين هما : « الحسين ثائرًا » و « الحسين شهيدًا » ، وقد كتبهما من منظوره الفكرى المعروف ، وجدير بالذكر أن الرقابة كان لها موقف معارض من ظهور المسرحيتين على المسرح ، وودع الشرقاوى الحياة ، بعد أن ترك تراثًا كبيرًا لا يمكن تجاهله ، وساهم بقدر فيما نسميه « الأدب الإسلامى » الآن ، وأعنى بذلك بعض مؤلفاته وليس كلها ، وقبل أن يسلم الروح كتب البيت التالى :

أنا ذا أموت ولم أقل      كل الذى كنت أريد

رحمه الله وغفر لنا وله .

ولقد دعيت أيضًا لمشاهدة العرض الذى تقيمه فرقة الفنون الشعبية التى كونها الأستاذ زكريا الحجاوى منهمكًا فى جمع التراث الشعبى من أشعار وقصص وأساطير وألحان ، وجمع من مختلف أنحاء البلاد عددًا من المطربين الشعبيين ، ورواة السيرة الشعبية والعازفين ، ومن الشخصيات التى لمعت فى فرقه « أبو دراع » و « أبو طه » ، و « خضرة » ، وقد تميزت بصوت مليء رنان ذى نبرات عذبة ، ومن

أهم الملاحم التى أنشدتها ملحمة « أيوب المصرى » وهى قصة أسطورية لا تتفق تمامًا مع ما ورد عن سيدنا « أيوب » عليه السلام فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد كانت الأشعار التى تغنيها خضرة تسيل الدموع ، وتحرك المشاعر ، أما « أبو دراع » فقد ذاع صيته فى وسائل الأعلام وحفلات الأفراح ، واستطاع أن يصل إلى « باريس » فى فرنسا ، وغنى فى إحدى صالاتها المشهورة ، كما اشتهر أيضًا « أبو طه » ، وظهر فى كثير من الأفلام السينمائية ، وكتب الأستاذ زكريا الحجاوى من خلال تلك الأقاصيص الشعبية والأساطير عددًا من المسلسلات الإذاعية منها « أيوب » و « سعد اليتيم » . وغيرها .

كان زكريا الحجاوى فنانًا وهب حياته للفن ، بعد أن كان صحفيًا معروفًا ، وكاتب قصة ، وظل منهمكًا فى عمله الذى ملك عليه فؤاده سنوات طويلة ، حتى انتدب للعمل فى قطر فى مجال الفن الشعبى ، وهناك فى قطر لفظ أنفاسه الأخيرة ، وقد ربطتنى به علاقة طويلة لسنوات عدة ، كنت ألحظ فيه الرقة والوداعة والتضحية ، ولم يكن يشغله غير فنه الذى عشقه وتفانى فيه بصورة كنت أؤاخذه عليها ، وكثيرًا ما كان يقترض منا بعد أن ينفق على فرقته كل ما معه ..

وفى تلك الفترة أيضًا فكرت في أن أنتقل من وزارة النقل والمواصلات إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة ، ووافق الأستاذ المرحوم يوسف السباعى ، ولكن هيئة السكك الحديدية رفضت ، وكان الحل أن أستقيل من عملى ، ثم أتقدم للعمل بالمجلس ، ولكنى أفقت .. وفكرت .. وتذكرت العهد الذى قطعته على نفسى ، ألا وهو ألا أترك مهنة الطب أبدًا ، وحمدت الله على أن النقل لم يتم .

وفى هذه الفترة أصيب ولدى البكر بحمى طالت مدتها ، ولم يجد معها أى علاج ، واستعنت بزميلى الدكتور عبد الخالص والى أخصائى الأطفال ، ونقلنا الطفل إلى القاهرة ، وأجرينا له الفحوص اللازمة فى المختبر ، وكنا نشك فى إصابته بمرض التيفود ، ولكن الاختبارات جاءت سلبية ، وكانت تجربة مريرة بالنسبة لى ، فكنت أضعه على السرير ، وهو يشكو من آلامًا فى بطنه ، وأبكى من أجله ، وقرر الأطباء أنه مرض بسبب فيروس ، وأنه سوف يستمر فترة ، ويختفى دون علاج ، فليس هناك مضادات حيوية أو أية عقاقير طبية تقضى على الفيروسات ، وكان علينا أن نصبر ، لكن الطفل المريض كان لا يكف عن الشكوى والآلام ، اسمعه يقول « لماذا لا تعلمنى الصلاة يا بابا » وأقول : « أنت صغير وعمرك ثلاث سنوات ، وعندما تشفى بإذن الله ستصلى معى » .

أقول كانت تجربة مرض الطفل تجربة صعبة ، وعلمتنى شيئًا كان يجب أن أتعلمه ؛ إن الأطباء عادة يعاملون المريض « كحالة » وليس « كإنسان » فقد يكون المريض فى حالة سيئة ، ويعانى من آلامًا رهيبة ، فى الوقت الذى ترى فيه الطبيب يفحصه وهو يتبسم ، أو يضحك ، دون أدنى مشاركة عاطفية للمريض التعس ، وكان وضعى مع المرضى فيه شىء من التعاطف ، ولكن لم يكن بالقدر الكافى ، وبعد أن مرض طفلى ، وعانيت الأمرين من الإشفاق والخوف عليه ، وكانت دموعى تنهمر كلما راودنى خاطر بأن طفلى - لا قدر الله - قد يموت ، بعدها تغيرت مشاعرى تمامًا نحو المرضى ، لدرجة أننى كنت أبكى من أجلهم أحيانًا ، ولا أقصر فى تقديم أقصى ما أستطيعه من عون ، ومن وحى هذا الموقف كتبت قصة قصيرة تحت اسم « المعطف الأبيض » أو « النافذة » ، وأشرت فى آخر القصة إلى أن مرض ابنى كان بمثابة النافذة التى أطللت منها لأرى آلام المعذبين والتعساء من المرضى ، وهى موجودة فى مجموعة قصص « حكايات طبيب » .

وحكايات طبيب تضم مجموعة من القصص الفنية القصيرة عما صادفته من مآسى خلال العمل

بالمهنة فى الأماكن المختلفة ، وقد أشار بعض النقاد إلى أهمية ذلك الكتاب لتفرده فى موضوعه ، وحرصه على « الصورة الفنية » للقصة ، فهو ليس مجرد سيرة ذاتية سردية ، ولكنه عمل فنى متميز ، وقد بدأت فكرة هذا الكتاب حينما كنت أشارك فى برنامج « عيادة على الهواء » فى إذاعة « الشارقة » بدولة الإمارات العربية المتحدة ، وكان فى بداية البرنامج فقرة بعنوان « مذكرات طبيب » كنت أقرأ فيها قصة ذات دلالة وفائدة بصوتى ، وقد قدمت عشرات القصص ، ولكنى عندما أردت جمعها فى كتاب ، اكتشفت أن الإذاعة قد أضاعت أغلبها ، ولم يبق إلا بضع وعشرون قصة جمعتها فى « حكايات طبيب » .

وفى هذه الفترة أيضًا أدخلت الطفلين حسام الدين وأخته عزة مدرسة حضانة بالمدينة السكنية فى أبو زعبل ، وكانت عزة لم تزل صغيرة ، وذات يوم عاد حسام الدين وترك أخته التى تمشى ببطء ، وكانت زوجتى قد ذهبت مبكرًا ذلك اليوم إلى معهد الخدمة الاجتماعية ، وقلقت على الصغيرة ، فأسرعت بالذهاب إلى الخارج للبحث عنها ، ولكنى والحمد لله وجدتها تقترب من البيت ، وعندما حملتها اكتشفت أن قرطها الذهبى ليس فى أذنيها ، قلت : « أين « الحلق » يا عزة ؟ » .

شحب وجهها ونظرت إلى فى خوف وقالت يتلعثم : « الحرامى خده » .

- « أى حرامى ؟ » .

- « كان يركب عجلة .. أخذه .. وأنا خفت أتكلم ..» .

ضحكت وقلت : « ماذا سأقول لماما عندما تعود فى المساء ، ستتهمنى بالتقصير فى المحافظة عليكم » .

قالت الطفلة ببراءة وقد فهمت ما أقصده : « قل لها الحرامى خده ..» .

كانت مثل هذه الحوادث الصغيرة تسبب لى قدرًا كبيرًا من النكد ، فليس من المعقول أن يترصد لص لابنتى الصغيرة ليسرق قرطها الصغير ، وأنا الذى أسعى جاهدًا لراحة أهل المدينة ليلًا ونهارًا ، ولا أتقاعس عن تلبية أى نداء لمريض مهما كنت أشعر بالتعب أو الرغبة الشديدة فى النوم ، وأمضى فى عز البرد وعز الحر لمراجعة المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالانتقال ، وأشارك الجميع فى أفراحهم وأحزانهم حتى خيل إلىّ أنه لا يوجد إنسان يفكر فى إيذائى ، وعلقت زوجتى على أفكارى تلك بقولها : « ليس هناك مجتمع مثالى مائة فى المائة .. لسنا ملائكة ، ويجب أن نتقبل مثل هذه الأمور بهدوء وبساطة » .

وكان كلامها مقنعًا جدًا .

من الأمور التى لا أنساها ، وأنا فى المدينة السكنية ، إننى فوجئت برجل لم أكن أتوقعه ، إنه المفتش الطبى فى مدينة طنطا ، رئيسى وأنا أعمل بالوحدة المجمعة فى قرية شرشابة ، والذى سبب لى العديد من المشاكل ، وهاجمنى بعنف أمام محافظ الغربية رحمه الله ، كان العداء بينى وبينه مستحكمًا ، وظل الصراع دائرًا حتى انتقلت إلى القاهرة وتركت القرية .. ها هو يأتى أخيرًا لزيارتى مبتسمًا ، واستقبلته بكل ترحاب ، وكأن ليس بينى وبينه عداء قديم مرهق ، وأبدى اعتذاره بشجاعة عما بدر منه نحوى ، بدعوى أنه لم يكن يعرفنى حق المعرفة ، وظن فى يوم من الأيام أنى « مشاغب » ويحلو لى إثارة المشاكل ، وأخبرنى أنه لم يقرأ كتبى إلا مؤخرًا ، ولم يتبين حقيقة مواقفى إلا بعد أن رحلت إلى القاهرة ، وأثنى على إخلاصى وعلى المبادئ السامية والإنسانية التى أتمثلها فى سلوكى ، وعزا سبب الجفوة التى نشأت بينى وبينه بسبب وشايات زميلى فى العمل ، وتقبلت اعتذاره قائلًا ببساطة « عفا الله عما

سلف » ، وتناولنا طعام الغذاء معًا ، وكان ثالثنا الأخ فؤاد سلطان الذى يعمل رئيسًا لقسم المالية بالمنطقة الطبية بطنطا ، وكان صديقًا قديمًا لى ، وهو الذى صحب المفتش فى زيارته هذه ، وقام بالدور الرئيسى فى تصفية ما شاب علاقاتنا القديمة ، بعد أن ذهب كل منا إلى حال سبيله ، وكنت أسعد جدًا بأن يعرف خصومى حقيقة الخلاف الذى يدب بينى وبينهم ، ويدركوا أننى لم أكن مخطئًا فى حقهم ، أو متجنيًا عليهم ، وأشعر بطعم السعادة كلما حدث شىء من هذا القبيل ، وقبل أن يودعنى هذا المفتش عائدًا إلى طنطا ، قدمت إليه أحدث كتبى محبة وشكرًا ..

وممن دأبوا على زيارتى فى هذه الفترة الأخ الشاعر المعروف الأستاذ عبد المنعم عواد يوسف ، فقد كان من الشعراء المجيدين المجدين ، كما كان يكتب النقد أحيانًا ، وكان مقره هو مدينة شبيه القناطر التى تبعد عنا مسافة قصيرة ، لكنه كان يعمل مدرسًا بالقاهرة ويسافر يوميًا إليها بقطار « كوبرى الليمون » ، ولقد كنت أعجب بشعر عبد المنعم عواد يوسف الذى حظى بتقدير النقاد ، وقد نال عبد المنعم عددًا من جوائز الشعر ، وألقى عددًا من قصائده فى مهرجانات الشعر ببعض الدول العربية ، وأصدر ديوانه الأول « عناق الشمس » فى وقت مبكر ، وكتب فى كبريات الصحف والمجلات العربية ، وعلى الرغم من تجديده فى الشعر إلا أنه لم يغرق فى الألغاز والغموض والرموز ، بل ظل شعره رقراقًا جميلًا مفهومًا معبرًا تمامًا عن المعانى التى يقصدها ، كما اختص الأطفال بديوان شعر رقيق بعد سنوات ، وشاء الله أن يذهب عبد المنعم وحرمه للعمل كمدرسين بدولة الإمارات بعد ذهابى إلى هناك فى عام ١٩٦٨ بحوالى أربعة أشهر ، حيث امتدت صداقتنا وعلاقتنا الأبدية حوالى ربع قرن فى تلك البلاد الطيبة ، وكان عبد المنعم مستغرقًا فى شعره ، يفكر فيه ، ويحاول أن يبحث دائمًا عن صيغ جديدة ، ويرتاد الأندية والجمعيات الأدبية فى أنحاء القاهرة ، ويلقى قصائده فيها ، ويوثق علاقاته بمعظم الشعراء حتى إنهم أصبحوا جميعًا أصدقاءه جيلًا بعد جيل ، وكان مهتمًا بذلك أيما اهتمام ، ويعرف الكثير عن حياة أصدقائه الشعراء وحوادثهم وطرائفهم ومواقعهم فى الساحة الشعرية ، والواقع أنه كان ضليعًا فى اللغة العربية وآدابها وقواعدها ، ملمًا بالتراث الشعرى العربى القديم ، ناجحًا تمامًا فى تدريس اللغة بأسلوب سهل ميسور ، ومن الغريب أنه ظل مدرسًا طول حياته ، ولم يرق إلى مفتش أو موجّه ، وكان تلامذته الذين يدينون له بالفضل ، يأتون ليتفشوا عليه فى « دبى » فيخجلون من أن يفتشوا على أستاذهم ، فيحيونه ، ويمجدون تاريخه الأدبى العاطر وينصرفون شاكرين ..

وكان عبد المنعم حلو الحديث ، سريع البديهة ، يحب الفكاهة أو النكتة ، إذ إن طفلى الصغير أمسك بعملة معدنية من فئة القرش ، مرسومًا عليها صورة الملك فاروق » سأله طفلى حسام الدين : « من هذا يا عمو ؟ » .

- « هذه صورة الملك فاروق » .

وطفلى بالطبع لم يكن يعرف الملك فاروق فقد ولد بعد خلعه بتسع سنوات ، ولذا سأله . « ومن هو الملك فاروق يا عمو ؟ » .

فكر عبد المنعم قليلًا ، ولم يرد أن يفيض فى الشرح لطفل صغير لن يتفهم الأمر بسهولة ، ولهذا قال عبد المنعم بأسلوب المدرس المتمكن : « إنه جمال عبد الناصر « بتاع » زمان » .

وضحكنا ، ولم يخف علينا ما توحى به النكتة من دلالة ، ومع ذلك فقد كان عبد المنعم من المعجبين بجمال عبد الناصر ، المؤيدين لسياسته ، وكتب فى الثورة شعرًا كثيرًا ، لكن هذا لم يؤثر على العلاقة بيننا ، فقد كان لكلٍ آراؤه وأفكاره ومعتقداته السياسية ، وبقينا طوال حياتنا وحتى اليوم أصدقاء

أوفياء ، وقد خفت حدة إعجابه بجمال عبد الناصر ، بعد أن مات ، وتكشف الكثير عن أخطائه السياسية ، وانتهاكه لحقوق الإنسان ، ذلك لأن عبد المنعم عواد ظل دائمًا متمسكًا بدينه ، يؤدى صلواته ، ويحج بيت الله الحرام ، ويتغنى بقيم الإسلام الرفيعة الغالية ، ويبثها فى الكثير من شعره .

ولقد كنت فى تلك الفترة وثيق الصلة بالأخ الأستاذ حسين عاشور وأسرته ، وخاصة والده الفاضل الشيخ أحمد عيسى عاشور العضو البارز فى الجمعية الشرعية بالقاهرة ، وصاحب كتاب « الفقه الميسر » ، وصاحب مجلة « الاعتصام » التى تصدرها الجمعية ، وكان حسين زميلًا لى فى سجن أسيوط ، ثم طابعًا وناشرًا للكتب ، وكان خفيف الظل ، حلو المعشر ، حلو الحديث ، لا يمل الجلوس معه ، كما كان طموحًا ، ويحلم بأن تكون له دار نشر كبيرة ، وأن يصدر مجلة إسلامية ، وقد تحقق له ما أراد بمرور السنين ، فأصدر مجلة « المختار الإسلامى » ، وكذلك « مطابع المختار الإسلامى » ، ومجلة نسائية اسمها « هاجر » ومجلة للأطفال اسمها « زمزم » ، ونشر عددًا من الكتب لبعض أعلام الفكر الإسلامى ، كما نشر لى رواية « رحلة إلى الله » التى ذاع صيتها ، ورواية « رمضان حبيبى » عن حرب ١٩٧٣ ، التى قررت - بعد تبسيطها - على طلبة المدارس فى مصر ، وغيرها من الكتب الأخرى ، وكنت أكتب فى مجلة « الاعتصام » التى يديرها والده قصصًا إسلامية قصيرة ، كانت محل رضى العاملين فى الجمعية الشرعية والقراء ، وقد جمعتها فى كتاب « دموع الأمير » ، وقد اشتركت مع الأخ حسين عاشور فى نشر روايتى « عمر يظهر فى القدس » فى طبعتها الأولى ، بعد أن أجفل الناشرون من نشرها فى البداية ، ثم رحبوا بها بعد أن صدرت أول مرة ..

الحديث عن حسين عاشور ووالده الشيخ أحمد ، وأخوته الأساتذة حسن والدكتور محمد ، وطه ومصطفى وعبد اللطيف حديث يطول ، ويكفى أن أقول أنها أسرة مباركة خدمت الإسلام فى مجال الإعلام بصورة تدعو إلى الاعتزاز والفخر ، والفضل لله ..

❁❁❁

# [ ١٦ ] كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا



كنت على يقين أن أيام الشقاء قد ذهبت إلى غير رجعة ، وكانت لدى الأسباب القوية لهذا اليقين، مما جعلنى لا أخشى المستقبل ، وأنطلق إلى الأمام بخطى واسعة ثابتة ، لا تعثر فيها ولا تردد ، والحمد لله فإن عملى الطبى يشهد لى بالكفاءة والإخلاص والالتزام المهنى والأخلاقى ، والعمل السياسى الرسمى لا وجود له ، فالحكومة قد فرضت علينا العزل السياسى ، والحظر الشديد قائم لا يسمح بأى نشاط للإخوان المسلمين ، وكتاباتى الأدبية تتوالى يومًا بعد يوم ، والكتب التى أنشرها تلاقى النجاح ، وقيام وزارة التربية والتعليم بتدريس بعض هذه الكتب للطلبة دليل على خلوها من كل ما يهدد النظام بطريق مباشر ، وصوتى يعلو فى المحافل الأدبية دون أن يؤخذ علىّ أى مأخذ سياسى ، وحتى الكتب التى صودرت سواء « الطريق إلى اتحاد إسلامى » (فى مصر) أو مسرحية « على أسوار دمشق » التى منع تداولها فى سوريا » ، وبعض الكتب لأخرى ، لم يثبت أنها خرجت عن دستور الدولة وقوانينها ، ولم يكن يصدر أى كتاب إلا بعد سماح الرقابة به ، ولو كان فيها شبهة لما صدرت أصلًا ، حتى المنشور الذى هاجم عبد الناصر تحت عنوان « فرعون الصغير » ثبت بالدليل القاطع أننى ليس لى أدنى صلة به ، والتقارير التى يكتبها رجال الأمن الذين يرصدون تحركاتى فى أى مكان أذهب إليه ، لم تستطيع أن تسجل نقطة خروج على النظام ضدى ، فلماذا لا أطمئن ، وأمضى فى طريقى آمنًا ، واثقًا تمام الثقة أننى لن أمس بأذى .

ولهذا عندما التقيت بالأخ الصديق الأستاذ « عبد الله العقيل » بالقاهرة ، وكان يعمل مديرًا للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف الكويتية ، وعرض علىّ التعاقد مع وزارة الصحة بالكويت للعمل بها ، اعتذرت له شاكرًا ، وأخبرته أن نجاحى الأدبى قد تحقق لحد ما بالقاهرة ، وأن تركى لها سوف يفقدنى الكثير ، وربما نسينى الناس إذا اغتربت عنهم سنوات ، فضلًا عن أن وضعى السياسى لا يبعث على الخوف ، ولو كان لدى ذرة شك فيما أقول لوافقت فورًا على عرض أخى عبد الله العقيل ، وفررت بجلدى ، ولا أدخل تجربة السجن المريرة مرة أخرى ، واتضح فيما بعد أننى نسيت أمرًا هامًا ، ولعلنى لم أستطع أن أتوقعه فى يوم من الأيام ، فهناك أمور كثيرة فى الحياة لا يستطيع الإنسان توقعها إلا بعد التجربة والخبرة ومنازلة الأحداث ، أقول إننى نسيت أمرًا هامًا كان يجب أن أذكره ألا وهو أن النظام الدكتاتورى أو الشمولى يفتقد المنطق السليم ، ويدوس العدالة وحقوق الإنسان إذا شعر بأن وضعه مهدد ، وفى هذه الحالة يتخبط ، ويضرب ضربات عشوائية ، ولا يحترم ضميرًا ، أو يرعى حرمة شىء ، وفى ذلك الوضع لا يفرق بين حق وباطل ، وشر وخير ، وأمانة وخيانة ، ويصبح كل شىء عنده مباحًا ، ولا يفكر فى حلال أو حرام .

وبعض من اختصهم الله بالرؤية الواضحة يمكنهم أن يستشعروا ذلك عن بعد ، لكن حسن النية من

الناس قد تغيب عنهم هذه الرؤية ، وفى لحظة من اللحظات يجدون أنفسهم وقد سقطوا فريسة الطغيان ، وأحيط بهم من كل جانب ، ويحاولون الإفلات دون جدوى ، فتلهبهم سياط الندم والحسرة ، حتى يسقطوا إعياءً ويعتصمون بالصبر ، صبر العاجزين المقهورين الذى ليس لهم أحد ينجدهم إلا الله ..

اكفهر الجو فجأة ، وتلبدت السماء بالغيوم ، وتناقل الناس همسًا بعض الأخبار المزعجة التى تعنى أن كارثة ما قد تحل فى أى وقت من الأوقات ، وذهلت عندما علمت أن بعض الأصدقاء قد اعتقلوا وعلى رأسهم الأستاذ سيد قطب الذى لم يفرج عنه إلا منذ شهور ، ومع ذلك فقد كنت واثقًا . حتى تلك اللحظة . أننى فى أمان ، ولم أقترف « وزرًا سياسيًا » يبعث فى نفسى القلق ، هذا من الناحية العقلية والمنطقية ، لكنى كنت أشعر بقلق داخلى ، وأن قلبى غير مطمئن لما يجرى ، وأن الهواجس تطاردنى فى يقظتى ومنامى ، حتى بعد أن ذهبت إلى « يحيى بك » فى مكتبه بمقر الأمن ، وناقشته فى الأمر ، فأكد لى أن ما يجرى يتعلق ببعض الأفراد الذين أخطأوا فى حق الحكومة ، وأننى وأمثالى لا شأن لنا بهذه الأمور ، وأننى يجب أن أكون مطمئنًا تمامًا ، ولم يكشف لى عن شيء مما يجرى .

حسنًا نحن الآن فى شهر أغسطس عام ١٩٦٥ والحرارة شديدة الوطأة ، وموعد إجازتى السنوية قد أزف ، وعرض على الأخ « أسعد سيد أحمد » الذى كان يعمل فى مكتبة دار العروبة « دار التراث حاليًا » أن أذهب معه إلى مصيف « بلطيم » الذى يتميز بالحشمة والهدوء والجو النقى ، ووافقت على الفور ، وكأنى أفر من همومى الغامضة ، وذهبنا بأسرتينا ، واستأجرنا عشتين قرب الشاطئ .،أخذنا نجلس والأطفال يلعبون في الماء ، والنسوة يقمن بإعداد الطعام ، ويجلسن فى مكان قريب خاص بهن ، وكان طبيعيًا أن نتناول الأمور الجارية ، ونحاول دراساتها وتحليلها ، ونقرأ الصحف بدقة ، لكن الذى أزعجنا فعلًا ، وبث الخوف فى قلوبنا تسرب أخبار عن اعتقال بعض المصطافين فى بلطيم ، لكننا عزونا ذلك إلى أنهم قد يكونون متورطين فى تنظيم من التنظيمات السرية والله أعلم ، وإلا لماذا يقومون باعتقالهم تحت جنح الظلام ؟

وفى الأيام العشرة الأخيرة من شهر أغسطس نشرت الصحف نعى الزعيم الكبير مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول فى رئاسة حزب الوفد الذى حلته الحكومة منذ سنوات ، وكان الرجل يعيش فى بيته بحيّ « جاردن سيتى » بالقاهرة طوال هذه الفترة معزولًا عن الناس ، وإقامته محددة ، ولا يذكر اسمه فى الصحف وكل وسائل الإعلام ، على الرغم من جهوده الوطنية الرائعة ، وتاريخه العاطر ، وانتخابه زعيمًا للأمة بأغلبية ساحقة قبل قيام الثورة ، وفوجئ الناس بأن الحكومة قد أصدرت بيانًا تنعيه فيه ، وتشيد بأعماله الوطنية المجيدة ، لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ تحولت جنازة الزعيم إلى مظاهرة صاخبة تهتف :

- الوداع يا نحّاس .
- جعنا بعدك يا نحاس .
- لا حرية بعدك يا نحاس .. الخ هذه الهتافات .

وعلى الفور تم اعتقال عدد كبير من أعضاء حزب الوفد القدامى ، وسيقوا إلى السجن ، وأخذ الناس يتحدثون عن تلك الجنازة التاريخية وما حدث فيها ، دون أن تشير الصحف إلى شيء من التفاصيل .

وسافر جمال عبد الناصر إلى موسكو لمقابلة زعماء الكرملين ، وأخذنا نتابع الأخبار فى الصحف

والإذاعة ، ونحن على شاطئ « بلطيم » ، وفى أحد الأيام قرأنا خطابًا للرئيس ألقاه فى النادى الثقافى العربى للمبعوثين فى العاصمة السوفيتية ، وهاجم فيه التيار الإسلامى في مصر هجومًا عنيفًا جدًا ، وأخذ يرمى الرجعية بكل نقيصة وخيانة ، وأنهم أعداء الشعب ، ولا حرية لأعداء الشعب ، وأنهم يتآمرون .. وأنهم .. وأنهم ، وشعرنا بالإحباط الشديد ، ونحن نقرأ ذلك الخطاب فى الصحف المصرية .

وكان أخى أسعد سيد أحمد من الكوادر النشطة فى صفوف الإخوان منذ سنوات طويلة ، ومعروف لدى الجميع ، مقرب من القيادة ، وكان يتولى مسئوليات ضخمة ، ومع ذلك فقد خرج من المعتقل بعد عامين من اعتقاله فى عام ١٩٥٤ ، بعد أن صمد فى التحقيقات وكان ذكيًا وذا حجة ، فأفلت منهم ، وعاد لعمله فى صناعة الكتب ، لكنهم كانوا يعودون لاعتقاله فترات قصيرة ؛ شهرين أو ثلاثة مثلًا ، إذا حامت حوله شبهة ، ثم يطلقون سراحه مرة أخرى ، ومن أبرع عمليات أسعد سيد أحمد ، أنه انتسب لحزب مصر الفتاة الذى يتزعمه آنذاك « أحمد حسين » ، بعد المؤامرة التى دبرها شباب ذلك الحزب لاغتيال الشهيد حسن البنا وفشلت ، ورأى الإخوان أن يكون لهم « عين » بهذا الحزب ، ووقع الاختيار على أسعد ، الذى أخذ يتدرج فى كوادر حزب مصر الفتاة ، حتى أصبح السكرتير الخاص للزعيم أحمد حسين ، ولم يُكتشف أمره إلا بعد أن سقطت قائمة بأسماء عدد من الإخوان فيما عرف بقضية « الأوكار » و « سيارة الجيب » والاعتداء على « حامد جودة » رئيس مجلس النواب فى حكومة السعديين والأحرار الدستوريين التى كان يرأسها « محمود فهمي النقراشى باشا » ومن بعده « إبراهيم عبد الهادى باشا » ، ودهش أحمد حسين زعيم مصر الفتاة عندما أبلغوه أن سكرتيره الخاص عضو نشط بجماعة الإخوان ، ومن جهازهم الخاص ، وأخذ يضرب كفًا بكف ، ومع ذلك فقد ظل أحمد حسين محافظًا على صداقة أسعد ، محبًا له حتى وافاه الأجل المحتوم ، وكان أسعد مخلصًا له طوال العمر ، يشرف بنفسه على طباعة مؤلفاته ، ويلبى له جميع احتياجاته .

قلت لأسعد ونحن فى بلطيم بعد قراءة خطاب جمال عبد لناصر فى موسكو : « ما رأيك فى هذا الكلام ؟ » .

قال ببساطة يُحسد عليها وهو يضحك : « أشم فيه رائحة الغدر » .

– « ما معنى ذلك ؟ » .

– « ضربة جديدة عنيفة يوجهها للإخوان » .

– « أى إخوان ؟ لقد اعتقل من شك فيهم ..» .

قهقه وقال : « لا .. الإخوان جميعًا .. قديمًا وحديثًا » .

– « حتى نحن دون أن نفعل شيئًا » .

– « يكفى أنك « كنت » من الإخوان .. هذه « تهمة » لا تُمحى أبد الدهر » .

قلت فى غضب : « أنت متشائم جدًا ..» .

– « ذلك لأنى أعرفهم ..» .

سألته : « بأى حق يعتقلون مثلًا واحدًا مثلى ؟ » .

عاد يضحك ويقول : « عن أى حق تتحدث ؟ » .

أصابنى غم شديد ، ولم أعد أشعر بجمال المصيف ، ولا نسيم البحر ، ولا فرحة الأطفال ، ولم يعد لدى شهية للطعام ولكن بصيصًا من الأمل كان يراودنى ، ذلك لأنه لا يوجد أدنى سبب لاعتقالى هذه المرة . « إيه يا أسعد .. هل الحكاية فوضى ؟ » .

- « فماذا تظنها إذن ؟ » .

ذهب كل منا إلى « عشته » التي يسكنها ، وعولت أن آوى إلى فراشي في وقت مبكر من الليل ، وخاصة أن الأطفال الثلاثة حسام الدين وعزة وجلال الدين قد أكلوا وناموا من شدة التعب في اللعب طوال النهار ، ولاحظت زوجتي أنني متكدر ، ولما سألتني عن سبب ذلك أبحت لها بمكنون صدري ، فانقبضت وبدا عليها الضيق والخوف ، وقالت : « وأين أذهب بهؤلاء الأطفال الثلاثة إذا حدث لا قدر الله و ...» .

قاطعتها قائلًا : « فلنسلم أمرنا لله ، وأنا لا أتصور أن يعتقلوني هذه المرة دون سبب » .

- « ربنا كبير .. » .

وعلى الرغم مما أعانيه من قلق ، فقد وضعت رأسي على الوسادة ، ورحت في سبات عميق ، وبعد الفجر بقليل أيقظتني زوجتي بهدوء وهي ترجف ، وكان طبيعيًا أن نصلي الصبح قبل شروق الشمس ، ووجدتها تقف صامتة مكفهرة ، والدموع في عينيها ، هتفت وأنا أفرك عينيّ : « ماذا حدث ؟ » .

- « لا تنزعج .. لقد جاء رجال الأمن ، واعتقلوا الأستاذ أسعد ، وأخذوه من « عشته » إلى القاهرة منذ ساعة » .

- « ألم يسألوا عني ؟ » .

- « لا .. لقد كانت زوجة أسعد هنا منذ دقائق ، وطلبت مني أن أخبرك بالأمر على الفور ، لكي تتصرف مخافة أن يأتوا إليك أنت الآخر ..» .

- « وهي ، ماذا فعلتْ ؟ » .

- « سترحل فورًا إلى القاهرة هي وابنة أختها ..» .

قلت وأنا ذاهب للوضوء : « يجب أن نعد العدة نحن أيضًا للرحيل إلى القاهرة غدًا إن شاء الله مخافة أن يأتوا ويعتقلوني هنا ، فتعانين من المتاعب مع الأطفال أثناء السفر ، وخير لنا أن يعتقلوني في بيتي بالمدينة السكنية ..» .

ومضى ذلك اليوم كئيبًا حزينًا مر المذاق ، وجلست على الشاطئ شاردًا أتوقع كل لحظة أن يهبط رجال الأمن فيقيدون يديّ ، ويقتادوني إلى المصير المجهول كما فعلوا منذ عشر سنوات في عام ١٩٥٥ ، وتدور الطاحونة من جديد ، ونقاسي ألوان القهر والعذاب ، وكأننا . كما يقول أبي دائمًا . يا بدر لا رحنا ولا جينا .. أي أنه لم يتغير شيء في الحياة ، فالبؤس على حاله ، والمرارة التي في حلوقنا وأرواحنا لم تتغير ..

---

كنا على عجلة من أمرنا ، ذهبنا في الساعة السابعة صباحًا إلى موقف السيارات المتجهة إلى القاهرة ، والأطفال ما زالوا يغالبون النعاس ، وزوجتي في حالة ارتباك وخوف شديدين ، وأنا أمضي كالمسحور ، أتوقع في كل خطوة مفاجأة غير سارة ، وانطلقت الحافلة ، ولم أكن أشعر بمعنى للحياة ، ما أبعد الفارق بين يوم المجيء ويوم العودة ، وبعد أن وصلنا إلى القاهرة ، استأجرت سيارة لتنقلنا إلى « حي السيدة عائشة » حيث يقيم صهري ، وبعد أن دققت الجرس ، فتحت لي والدة زوجتي ، وما إن رأتنا داخلين حتى أجهشت بالبكاء المر ، وذهلت إذ رأيتها على هذه الحالة المحزنة ، ولما سألتها عن سر بكائها قالت : « إنهم يقبضون على الناس كل ساعة ، خفت أن تكون ممن يأخذونهم إلى المعتقل ،

وارتسمت على ثغرى ابتسامة مصطنعة مرتعشة ، وقلت وأنا أحاول أن أتماسك »
- « هذا لن يحدث لأننى لم ارتكب مخالفة » .
جففت دموعها وهى تردد مرارًا : « الحمد لله ....» .
إلا أننى فى الواقع تشاءمت . وازدادت همومى ، وركبنى قلق متزايد لا يعلم إلا الله مداه ، ثم رأيت صهرى خارجًا من الحمام ، وقد ساد الشحوب وجهه ويقول : « جئت فى وقتك .. الحمد لله .. استرها يا رب .. البلد على فوهة بركان ، ولا ملجأ من الله إلا إليه » .
آلمنى أن أرى تلك الصورة القاتمة ، التى تشابه تمامًا الصورة القابعة فى داخلى ، ووجدتنى أصافح صهرى ، ثم أخذت أشرح كيف أن الذين قُبض عليهم متهمون فى قضية خطيرة كما تقول الأنباء ، وأن وضعى ووضع غيري من قدامى الإخوان المسلمين يختلف عن ذلك تمامًا ، فلسنا موضع اتهام أو شك ، وبالتالى فلم يعد هناك مبرر للخوف من الاعتقال ، وإلا أصبح الأمر مهزلة ، تمتم فى أسى : « مهزلة ! ! ! نحن نعيش فى مهزلة كبرى » .
فى المساء اتجهنا إلى بيتنا فى المدينة السكنية ، لاحظت أن صهرى يودعنى بحرارة ويعانقنى ويحتضننى بقوة ، هذا الرجل يشعر بشىء لا أعرفه ، إنه شفاف القلب ، مستنير البصيرة ، إذا رأى فى منامه رؤيا تحققت حسب تأويله لها ، وكثيرًا ما كان يفسر الرؤيا من القرآن الكريم ، وتساءلت بينى وبين نفسى هل يتوقع هذا الرجل شيئًا لم يرد الإفصاح عنه ؟
بعد أن استقر بنا المقام فى بيتنا بالمدينة السكنية ، فكرت لماذا لا أذهب إلى يحيى بك كامل أمين رئيس مباحث المنطقة ، واستفسر منه عن الوضع حتى يطمئن بالى ، وفعلًا ارتديت ملابسى وذهبت إليه فى مكتبه ، قابلنى مبتسمًا ، وعلى وجهه تبدو علامات الانشغال الشديد ، وطلب لى فنجانًا من الشاي ، كان يجلس خلف المكتب ، واضعًا قبضة يمناه تحت ذقنه ، مسددًا نظراته نحوى ، وقال ضاحكًا :
- « جئت تسأل » .
- « وعندك الإجابة » .
- « حتى الآن لا خوف من شىء » .
- « لكن الاعتقالات على قدم وساق » .
- « هذا بالنسبة لفئة بعينها دأبت على العناد والتآمر ..» .
قلت له : « إننى أعيش كجار لك فى المسكن والعمل ، وتعلم عنى كل شىء » .
- « هذا صحيح ! ! » .
- « هل التقارير عنى مطْمئنة ؟ » .
- « أنا لا أكتب إلا الحقيقة ، ولا أظلم أحدًا ، وأعلم أن الله سيحاسبنى على كل شىء ، وأنا . رغم كونى من رجال الأمن . أخاف الله رب العالمين » .
شعرت بشىء من الارتياح ، وشربت الشاى . وأثناء جلوسى معه حاولت أن أفهم شيئًا محددًا واضحًا عن أبعاد المؤامرة التى يتحدث عنها الناس فى كل مكان ، ولكن الرجل كعادته لم يبح لى بشىء ذى قيمة ، ولم يشر إلى المعتقلات التى يساق إليها الناس سوقًا ، ولا ألوان التعذيب الرهيب الذى يتناقل الناس أخباره همسًا ، وخاصة أن البعض إذا مر بجوار « سجن القلعة » الذى تجرى فيه بعض التحقيقات ، سمع أصوات استغاثة وصراخ مرير ، وهذا السجن تحت إشراف المباحث العامة ، أما

السجن الحربى فقد أصبح تحت إشراف جهة أخرى وهى المخابرات العامة ، وتحت إدارة « شمس بدران » الذى يعرفه جميع الناس فى مصر ، والذى أصبح وزيرًا للحربية فى هزيمة ١٩٦٧، ثم لجأ إلى الخارج ليعيش فى لندن بعد موت جمال عبد الناصر ، وانتحار المشير عبد الحكيم عامر قبل ذلك .

قلت ليحيى بك وأنا فى مكتبه : « إذا مر يوم الرابع من سبتمبر (عام ١٩٦٥) بسلام ، فإنى استطيع أن أطمأن » .

- « ولماذا هذا التاريخ بالذات ؟ » .

- « مجرد إحساس ..» .

نظر إلى فى دهاء وقال : « بل نتيجة حسابات دقيقة .. أنا أعرف كيف تفكر » .

ودق جرس التليفون ، فانشغل عنى ثم نسى الموضوع بعدها .

الإنسان فى مثل هذه الأمور كالغريق الذى يتعلق بقشة ، ولهذا وجدت فى كلمات الضابط قدرًا من بعث الأمل فى النفس ، دون أن تزايلنى رواسب الشك المزمن الذى يجثم على القلوب فى هذه الأيام السوداء ، وعدت أحمل البشرى لزوجتى المسكينة التى هزتها الأنباء المزعجة ، وخاصة من الإذاعات الأجنبية .

فى اليوم التالى ذهبت إلى الإدارة لتسلم راتبى الشهرى ، ثم عدت إلى البيت لأن إجازتى السنوية لم تكن قد انتهت ، وعندما جلست على المقعد قلت لزوجتى بالحرف الواحد : « خذى أربعة وأربعين جنيهًا .. حافظى عليها محافظة شديدة .. من يدرى قد يمر عليك ثلاثة أو أربعة أشهر دون أن تحصلى على الراتب » .

قالت فى خوف : « ما معنى ذلك ؟ » .

- « يعنى .. لا قدر الله ، إذا اعتقلونى فسوف يوقف الراتب .. ولن يبدءوا مرة أخرى فى صرفه بتوكيل منى إلا بعد بضعة أشهر ..» .

صاحت فى أسى : « أنت تلعب بى ، لم أعد أحتمل ، مرة تقول إنهم لن يعتقلوك ، ومرة أخرى تزعم أنهم قد يعتقلونك ، ألا ترحمنى من هذا العذاب ..» .

- « إنها إرادة الله ..» .

اتصل بى سكرتير نادى القصة فى القاهرة ، وأخبرنى أنه وقع علىّ الاختيار لكى أكون عضو « لجنة التحكيم » فى مسابقة الرواية التى يجريها النادى كل عام ، وطلب منى الحضور فورًا لاستلام مواد المسابقة ، وكان على أن انتهى بسرعة من قراءة الروايات الخمس التى أنيط بى قراءتها وتقيميها مخافة أن تسبقنى الأحداث ، كما أننى كنت أعد مقدمة جديدة للطبعة الثانية من كتاب « إقبال الشاعر الثائر » فأتممتها على الفور تحسبًا أيضًا لما قد تأتى به الأيام ، كما أنى أعددت أربع نسخ من كتاب « النداء الخالد » وقدمتها لوزارة التربية تمهيدًا لتقريرها على إحدى سنوات المرحلة الثانوية ، وكلفت زوجتى . فى حالة اعتقالى لا قدر الله . أن ترسل كتاب إقبال ومعه المقدمة الجديدة للناشر ، وأن تحمل روايات مسابقة نادى القصة إلى السكرتير بعد أن كتبت التقارير اللازمة لها ، وماذا أفعل غير ذلك « اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » ، وهل يجدى الخوف والحسرات والآهات والدموع ؟

التحقت بعملى فى الأول من سبتمبر ١٩٦٥، ومارست العمل بالعيادة والمستشفى كالمعتاد ، وألفت الوضع الراهن ، وتأقلمت عليه ، وعلمت أنهم اعتقلوا صديقى الأستاذ محمود صقر ، وهو مدرس من خريجى كلية اللغة العربية ، ومن قرية « منية البندرة » بجوار « القرشية » مركز السنطة ،

ومحمود هذا هو الذى قام بنسخ كتابى « الطريق إلى اتحاد إسلامي) بخطه الجميل ، وكان مهتمًا جدًا بالكتاب ، ويتمعنه وهو يكتب بإعجاب بالغ ، ولم أكن أعلم أن محمود صقر منضم إلى التنظيم الجديد للإخوان المسلمين ، وكذلك كان شقيقه الأستاذ لطفى صقر من أعز الأصدقاء ، وسمعت إشاعة تقول بأن السلطات قد أخطرت أهل محمود بأنه مات فى السجن ، وقد تحققت هذه الإشاعة ، وتركت فى نفسى أثرًا عميقًا ، وأسالت دموعى .. ولم أنس محمود طوال السنوات القادمة ، وحينما كتبت روايتى « رحلة إلى الله » فى عام ١٩٧٤ بعد ذلك ، كانت مأساة محمود هى الحدث البارز فى هذه الرواية التى هزت مشاعر القراء فى كل مكان ، وإن كنت قد حوّرت فى تاريخ الواقعة فجعلتها فى عام ١٩٥٤ بدلًا من عام ١٩٦٥.

ذهبت إلى صلاة الجمعة فى مسجد « الكخيا » الشهير ، وبينما أنا أتجه إلى المسجد وجدت زوجة أخى أسعد سيد أحمد تمر بالقرب منى ، سألتها : « ما مصير أسعد ؟ » .

قالت متعجلة : « لا نعرف عنه أى شىء » .

- « والأخبار ؟ » .

- « مؤسفة ، إنهم يعتقلون الناس جميعًا » .

وانصرفت مسرعة ، وكأنها تخاف من أن يكون هناك من يراقبها أو يتبعها ، ودخلت المسجد ، وقلبى يضرع بالدموع ، ما أكثر الهموم والأثقال التى رانت على هذا القلب المُعانى طوال السنين ، فى الطفولة والشباب على حد سواء ، وشعرت وأنا أجول فى شوارع القاهرة كأنى عابر سبيل يطوف بنظراته على المعالم ، ويتعمق صورها ، وكأنه يراها لآخر مرة ، آه .. الرحلة لم تنته بعد ، وآه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ، والناس يسيرون لا يعبأون بأحد ، كل منطوٍ على ذاته ، يعيش فى عالمه الخاص ، وكأنه يقول مالى والآخرين ؟! أنا وبعدى الطوفان .. وتردد فى رأسى آيات من القرآن الكريم من هنا وهناك ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ ، روحى تتشرب الكلمات القدسية ، وقلبى الواجف تهدأ ضرباته .. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ .. نعم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ ..

كنت جالسًا أنا وزوجتى وأطفالى نتناول طعام الفطور فى صبيحة اليوم السادس من شهر سبتمبر (١٩٦٥) ، وكنت أتحدث مع زوجتى كعادتنا فى هذه الأيام عن الاعتقالات والثورة وجمال عبد الناصر ، والتقطت ابنتى عزة اسم « جمال » الذى كانت تسمع عنه الأغانى فى التليفزيون صباح مساء ، ووجدنا الطفلة تقف وتهز رأسها وجسدها الصغير وتغنى أغنية شائعة فى ذلك الوقت تقول :

وجمال وإخوانه ألف سلام
يسلم لاوطانه ألف سلام

وضحكنا ، وأجلسناها لتكمل طعامها حتى تذهب إلى الحضانة وقلت : « الطفلة البريئة لا تعرف شيئًا عن حقائق الأمور » .

ودق جرس الباب ، وهرولت إلى الشرفة .

وجدت العربة السوداء واقفة ، وإلى جوارها يحيى بك كامل أمين وأحد مخبريه أطللت عليه قائلًا : « خيرًا يا بك » .

- « انزل .. نريدك خمس دقائق » .

قلت دون تردد : « اعتقال ؟ » .

فلم يرد .

قلت : « سأنزل فورًا » .

وأسرعت بارتداء ملابسى الصيفية ، وطلبت عددًا قليلًا من ملابسى الداخلية ، وزوجتى حتى الآن لا تدرك أبعاد ما يجرى ، لم يكن لها تجربة سابقة فى هذا المجال .

قالت فى اضطراب : « ماذا يحدث ؟ » .

قلت وأنا ابتسم فى مرارة : « تشجعى يا حبيبتى .. لقد جاءوا أخيرًا لاعتقالى » .

صرخت بأعلى صوتها ، ولم تستطيع أن تتمالك مشاعرها ، وأخذت تردد : « حرام ... حرام .. والله العظيم حرام ....» .

طلبت منها بحزم أن تجفف دموعها ، وتكف عن الصراخ ، وأفهمتها أننا يجب أن نكون شجعانًا فى مواجهة الأحداث ، وأن ما تفعله لا يليق بامرأة مؤمنة مثلها .

وهبطت الدرج مسرعًا ، والأطفال يتدحرجون ورائى ، وصافحت يحيى بك ، وفتح لى المخبر الباب ، وما إن دلفت إلى السيارة السوداء ، وأدار السائق المحرك حتى وجدت طفلى الأكبر حسام الدين البالغ من العمر أربع سنوات وبضعة أشهر يجرى ويقف أمام السيارة معترضًا ويقول بأسلوبه البرىء : « أنت رايح فين يا بابا ؟ » .

قلت له وأنا أغالب دموعى : « ادخل البيت يا ولدى » .

ونظرات الصغير تائهة حائرة تُنبئ عن عدم فهم أى شىء ، ومشت السيارة ، ثم استدار بها السائق أمام البيت ، وما إن ابتعدت قليلًا حتى سمعت صياح زوجتى وأطفالى ، أغمضت عينى ، وكان قلبى يهتف داعيًا : « اللهم أنت المنتقم الجبار » .

وران علينا الصمت ، وبعد فترة قصيرة قال يحيى بك : « كان المفروض أن يتم اعتقالك فى الفجر حسب الأوامر ، لكنى رأيت أن أتركك حتى الصباح ، ولكى تتناول إفطارك » .

قلت باقتضاب : « أشكرك » .

- أنا لم أقصر نحوك ، وكان تقريرى عنك طيبًا ، لكن ماذا نفعل ، لقد صدر القرار الجمهورى : (باعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه فى أمره) .

وأنت سبق اعتقالك فى أغسطس عام ١٩٥٥.

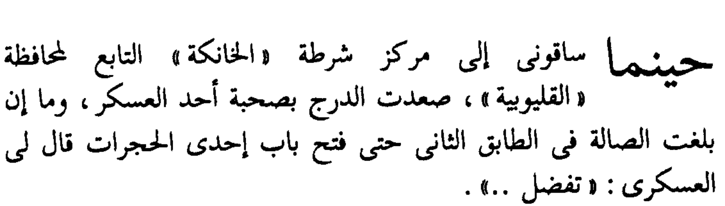
لم يكن هناك جدوى من الكلام ، لقد وقع ما كنا نخشاه ، ولم يعد هناك أمل فى النجاة من قبضة الحاكم ، ومن العبث الحديث عن العدالة والدستور والحريات ، فهذه كلها ترهات وأساطير لا معنى لها ولا قيمة ، ولست راغبًا فى أن أتحدث مع يحيى بك ، فقد تحدثنا كثيرًا وطويلًا قبل ذلك ، وذهب كل شىء أدراج لرياح ، شىء واحد أصبحت مقتنعًا به تمام الاقتناع ، ذلك أن العيش فى بلادنا مستحيل ، وأن الهجرة واجبة ، وإذا لم تتيسر الهجرة بالطريق الرسمى فلا بأس من الهروب ، والتسلل عبر الحدود مهما كان الثمن .. ووجدتنى أردد ما قاله أبى مرة أخرى : « كأننا يا بدر .. لا رحنا ولا جينا » ..

❁❁❁

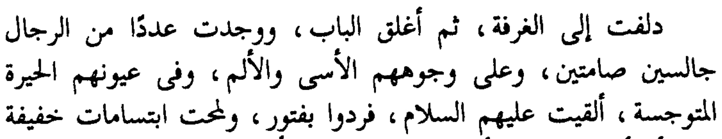
# الجزء الخامس

## [١] الوداع يا دنيا





**حينما** ساقونى إلى مركز شرطة « الخانكة » التابع لمحافظة « القليوبية » ، صعدت الدرج بصحبة أحد العسكر ، وما إن بلغت الصالة فى الطابق الثانى حتى فتح باب إحدى الحجرات قال لى العسكرى : « تفضل ..» .



دلفت إلى الغرفة ، ثم أغلق الباب ، ووجدت عددًا من الرجال جالسين صامتين ، وعلى وجوههم الأسى والألم ، وفى عيونهم الحيرة المتوجسة ، ألقيت عليهم السلام ، فردوا بفتور ، ولمحت ابتسامات خفيفة رغم الحزن ، لكأنهم حمدوا الله أن أتيت إليهم ، فأغلبهم يعرفنى ؛ إما لأنهم كانوا رفاقى فى السجن للمرة الأولى ، أو لأنهم ربما زارونى أكثر من مرة فى المستشفى لأفحصهم وأعالجهم ، والمصائب تخف حدتها عندما يكثر ويتجمع الذين يعانونها .

خلف باب الغرفة المغلق جلس عسكرى على مقعد خشبى يحمل فى يديه مدفعًا رشاشًا موجهًا إلينا نحن الجالسين فى صمت وترقب ، وعينا العسكرى مفتوحتان جيدًا ، وليس فى الغرفة إلا نافذة مغلقة ذات قضبان حديدية ، وطاقة للنور والهواء .

حاولت أن أتكلم مع رفيقنا القديم الأخ محمود سرحان وهو من أبو زعبل البلد ، لكنى لاحظت أنه عازف عن الكلام ويجيب هامسًا ببطء ، ثم يدير وجهه بعيدًا عنى ، وأدرك الشيخ إبراهيم البلّاط حيرتى ، فقال : « يا دكتور ... الكلام هنا ممنوع » .

فعجبت ، ونظرت إلى العسكرى ، وكأنى استفسر منه ، فهز رأسه قائلًا : « هذه هى الأوامر ، ومع ذلك تستطيعون الكلام بصوت خفيض حتى لا يسمعكم المأمور » .

كانوا مجموعة من المعتقلين أتى بهم رجال الأمن إلى هنا وقت الفجر . وهم من البلدان المجاورة ، تمهيدًا لترحيلهم إلى أحد المعتقلات التى لا يعرف أحد عنها شيئًا ، وليس فيهم من يعرف ما الجرم الذى ارتكبه ، ولهذا أخذوا يتساءلون ويوجهون معظم أسئلتهم إلىّ ، وأنا مثلهم لا أعرف السبب ، ومع ذلك فإن الجميع كانوا على يقين من أنه ليس من الضرورى أن يكون هناك سبب مباشر ، فالسلطة تحبس المشبوهين والذين سبق اعتقالهم قبل ذلك ، وقاية من الفتن ، وحفاظًا على هيبة الدولة واستقرارها كما يقال دائمًا ، وليس علينا إلا التسليم والسمع والطاعة ، وهل هناك من يمكنه الاعتراض أو تقديم تظلم ؟ ثم لمن نقدم الشكوى ؟ قال الشيخ إبراهيم البلّاط وهو عالم دينى أزهرى الثقافة :

« أما لهذا العذاب من نهاية ؟ » .

قال محمود سرحان : « عذاب مستمر طول العمر ما بقيت ، وبقى جمال عبد الناصر » .

لم يكن لدى أدنى رغبة فى الطعام ، والوقت يمر ، ومن آن لآخر يدخلون علينا معتقلًا جديدًا أو أكثر ، حتى امتلأت الغرفة بالقادمين ، وشعرت بالإرهاق : فملت برأسى إلى جوار الحائط ، ورحت فى نوم عميق لا أدرى كيف جاءنى ، واستيقظت فى الفجر ، لأرى باب الغرفة مفتوحًا والغرفة نفسها مزدحمة بالجالسين ، وكذلك الصالة الواسعة التى أمامها ، وقلت مستغربًا : « ما هذا ؟ » .

قال محمود سرحان : « لقد اعتقلوا أشخاصًا جدًا لم نعرفهم فى الإخوان من قبل ، ولم يسبق اعتقالهم .. تصور إن فيهم أخى « الحسين » وهو فلاح .. وهناك جزار ... وطبال .. وصاحب عربة كارو مصاب بالجذام .. إنهم لا يكادون يعرفون شيئًا عن السياسة أو الدين اللهم إلا القليل ..» .

وعلق الشيخ البلّاط فى غضب : « الحكومة أصابتها لوثة من الجنون .. إنها بداية النهاية ، لا يتصور عاقل أن يفعلوا ذلك ..» . واقترب منا أحد المعتقلين وقال : « هل سمعتم الخبر ؟ » .

- « ماذا ؟ » .

- « ابن « حجازى بك » مدير المركز اعتقلوه هو الآخر ، وقد وردت إشارة من الداخلية بإيقاف حجازى بك عن العمل .. أخبرنى بذلك أحد العسكر الآن » .

لم يعد هناك شيء مستغرب فى هذه الأيام ، لكنى لاحظت أن المعتلقين هذه المرة يسيطر عليهم خوف شديد ، وذلك بسبب الحملة المعادية فى الصحف ، ومن جراء المظاهرات المضادة للشيوعيين التى يقوم بها الشيوعيون المؤيدون للحكومة ، وكذلك اللافتات المحرضة ، والهتافات الحاقدة التى تقول :

« اقــتــل ... اقــتــل يــا جــمــال
لا مــحــاكــمــة ولا اعــتــقــال »

إن النية متجهة إذن إلى إبادة وقتل الإخوان المسلمين ، أو من يتهمون بأنهم منهم ، لذلك فإن المعتقلين هذه المرة كانوا يتوقعون أيامًا سوداء ، وأحداثًا رهيبة ، ويستطيع أى مراقب أن يقرأ سطور المأساة على وجوههم جميعًا ، وعندما أقول المعتقلين فإننى أقصد بذلك الأفراد الذين لم تُوجّه إليهم أية تهمة على الإطلاق ، فالمعروف أن المتهمين أخذوا إلى أماكن أخرى يجرى فيها التحقق على قدم وساق مثل سجن القلعة والسجن الحربى ، وسجن أبو زعبل الجديد ، ومن لا تثبت إدانته يحال إلى الأماكن التى يوضع فيها المعتقلون الأبرياء أو « المتحفظ عليهم » كما أطلقوا عليهم فيما بعد ...

فى اليوم الثانى من وجودى بمركز شرطة « الخانكة » جاءت زوجتى وأخى الأصغر محمد ، وقفوا فى الشارع قبالة النافذة ونادونى ، فوسع لى الإخوة الطريق كى أطل عليهما ، ولم يكن هناك مجال للحديث سوى أننى بخير ، ولا أطلب شيئًا ، وأنى أوصيهم بالأطفال الثلاثة حسام وعزة وجلال خيرًا ، ثم نصحتهم بالانصراف ، وعدت متألمًا إلى ركنى القصى : أجفف دمعات سقطت على الرغم منى ، فى سجنى الأول كنت شابًا خاليًا من الأطفال والزوجة ، ومسئولياتى محدودة ، وهمومى قليلة ، أما اليوم فالأمر مختلف تمامًا ، إن قلبى يكاد يشق صدرى وينطلق إلى الخارج ويحط حيث يكون أطفالى ليحتضنهم ويحنو عليهم ، والوجوه الثلاثة الصغيرة البريئة تلازم مخيلتى ليل نهار ، وإلى جوارهم أمهم المذهولة المكتئبة ، إننى أتذكر أبى الآن ، وكذلك أمى ، ماذا سيكون وقع الخبر عليهم ؟ أيبدءون رحلة الأحزان من جديد ؟ لقد اقترب أبى من سن الستين ، وتقدمت السن بأمى أيضًا ، ولقد عانيا كثيرًا فى

المرة الأولى ، فكيف يكون وضعهم هذه المرة ؟ وتذكرت أن أبى كان يقول لى كيف يخفف عنى وأنا سجين : « لا تفكر فى شىء .. فكر فى نفسك .. نحن بخير ونستطيع أن نتدبر أمورنا .. كل ما يهمنا هو أنت .. ونحن راضون بقضاء الله ما دمت موجودًا .. وما دام فينا أمل بأن يفرجها الله عنك ..» .

---

قبيل الفجر جاءت سيارات ، وحراس مدججون بالسلاح ، وعربات نجدة ولاسلكى ، ثم حشرنا فيها ، وانطلقت بنا إلى المجهول ، حتى الذين يقودون السيارات لا يعرفون أين سيتجهون ، إنهم يتلقون الأوامر باللاسلكى ، « انحرفوا يمينًا .. ادخلوا الطريق الثالث .. توقفوا ثم ارجعوا من الطريق الموازى .. إلخ » .

وفى الصباح الباكر وقبل أن تشرق الشمس وقفت بنا السيارات أمام سجن عتيق لم أره قط ، سألنا حارسًا عن اسم هذا السجن فقال : « هذا سجن « أوردى أبو زعيل » ، وهذا غير سجن أبو زعبل القديم المعروف ، وهو أيضًا غير سجن أبو زعبل الجديد الذى يوجد فيه الآن بعض المعتقلين رهن التحقيق ..» .

ثم عبرنا البوابة الضيقة واحدًا واحدًا تحت الحراسة المشددة ، ثم أغلق علينا باب السجن ، ثم جلسنا القرفصاء صفوفًا فى باحة السجن الواسعة ، وأمامنا قائد السجن الضابط « يوسف » وهو رجل طيب ، ونائبه الضابط « كمال دوس » وهو صديق قديم مسيحى الديانة ، وله معى قصة مؤلمة قبل ذلك ، وهناك حضرة « الصول بولص » ، وبينما نحن جلوس اقترب منا « الصول بولص » وفى يده دفتر كبير ثم أخذ يتفحص وجوهنا جيدًا .. ثم التفت نحوى وقال : « أهلًا .. أهلًا .. شرفت يا نجيب يا كيلانى » .

ثم مال نحو الشيخ إبراهيم وقال : « كيف حالك يا شيخ إبراهيم يا بلّاط ؟ » .

واتجه ناحية أخرى وهو يقول :

« جئت مرة ثانية يا صدّيق يا عبد الحميد .. أنت جن مصوّر ..» .

وأخذ يعدد أسماء بعضنا ، وهو يسخر ويمط الكلمات ، وينوع العبارات ، فابتسم قائد السجن وقال : « هل تعرفهم جميعًا يا صول بولص ؟! » .

قهقه وقال : « كلهم « سوابق » يا بك » .

وكلمة « سوابق » تعنى فى السجون « معتادى الإجرام » وسمع « كمال دوس » اسمى ، فهرول نحوى وقال : « أنت ؟ إننى لا أصدق عينيّ ، ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ » .

فابتسمت قائلًا : « نصيبى يا كمال بك » .

وبان الكدر على وجهه ، فأردت أن أخفف عنه الحرج وقلت : « لا تحمل همًا ، ليست هذه أول مرة » .

فمصمص بشفتيه ، وأعطانى ظهره وانصرف ..

خلعنا ملابسنا المدنية ، وتسلمنا ملابس السجن ، وبدأنا فى ارتدائها ، ثم أخذوا أحذيتنا وجواربنا وملابسنا الداخلية أيضًا ، ووضعوها فى المخازن واسم كل واحد منا على ملابسه ، كانت ملابس السجن مهترئة ممزقة ، وخاصة فى الأماكن الحساسة من أجسادنا ، وكان هذا شيئًا مؤلمًا للنفس ، وكان البعض يحاول أن يستر عورته بيديه ، قلت لمن يجلس إلى جوارى : « لقد عرفوا الإنسان بأنه هو الحيوان الناطق .. ثم زعموا بأنه هو الحيوان الضاحك ... وأنا عندى تعريف جديد للإنسان » .

قال : « ما هو ؟ » .

- « الإنسان هو الحيوان الذى يرتدى « كلسونًا » داخليًا يستر عورته ..» .

كان سجن « أوردى أبو زعبل » بناءً عتيقًا يبدو أنه بنى فى أيام حكم الأتراك قديمًا ، وهو مكون أساسًا من ستة عنابر ، يستطيع كل عنبر أن يسع ثمانين فردًا ، لكنهم ملئوا كل عنبر بعدد يفوق المائة .

وتسلم كل واحد منا « برشًا » من سعف النخيل للنوم عليه ، وبطانية قديمة للغطاء ، ووعاء من الزنك لنضع فيه الطعام يسمونه « قروانة » ، كما تسلمنا عددًا من الجرادل (حوالى خمسة عشر دلوًا للشرب) وعندما دخلنا العنبر وجدناه مستطيلًا ، وفى نهايته مرحاضان ، وقاعدة خشبية موضوع فوقها زير لمياه الشرب ..

انهمكنا فى إعداد العنبر وتنظيفه وتنظيمه ، وفرش كل منا برشه ، وكذلك البطانية ، وكانت الأبراش متصلة بحيث تغطى أرضية العنبر المبلّط ، وفى وسط العنبر ممشى يفصل بين جانبيه ، ويمتد هذا الممشى من الباب حتى المراحيض ، وتراص معظم المعتقلين على الجانبين فوق الأبراش ، وهدأت الحركة ، وكان الجميع فى انتظار الماء والطعام .

هنا سوف يستقر بنا المقام لا ندرى إلى متى ، فلم يعد لدينا قدرة على التنبؤ بشىء ، ومع ذلك يسود شعور عام بمستقبل مفزع غامض لا يعرف أحد أية تفاصيل عنه ، وقد يعتقد البعض أن الذى لا يزج باسمه فى قضية أو تحقيق برىء ، ولا يصح أن يقلق على مصيره ، هذا الاعتقاد هراء ، فالكل متهم ، والكل معرض للنقمة والانتقام ، وسوط الجلاد لا يفرق بين سجين وسجين ، إن كل من يدخل إلى السجن ، ويصبح وراء الأسوار يصبح مهدر الدم ، لا وزن له ولا قيمة ، وهو إلى الحيوان الأعجم أقرب ، لكنه للأسف لا يستمتع بحقوق الحيوان ، وليس له جمعية رفق كتلك التى تهتم بالحيوان ...

يجب أن نرضى بما هو مقسوم ، ونحاول أن ننسى الدنيا خارج هذه الأسوار ، ولتكن هذه العنابر بمثابة كهوف ننعزل فيها إجباريًا عن الخلق وداعًا يا دنيا .. هذا هو عالمنا الجديد ..

❊❊❊

# [٢] مشاكل وهموم



نزلنا في عنبر رقم ٦ وكنا التسعين عدًّا ، وكان من الضرورى أن ننام على جنوبنا لضيق المساحة ، وغير مسموح لأحد أن يستلقى على ظهره وهو نائم ، إذ معنى ذلك أن يحرم آخر من مكان ينام فيه ، ولم يكن لنا حق الاعتراض أو الشكوى ، فالمفروض أن نقبل الأوضاع كما هى وإلا تعرضنا للعقاب ، ثم إن عدد المعتقلين أكثر من طاقة الاستيعاب فى المعتقلات المخصصة لنا ، وقد نتحمل الزحام ، لكن واجهتنا عدة مشاكل منها أن بيننا أحد المصابين بمرض الجذام ، وهو عربجي مسكين كان يقيم منذ فترة طويلة فى مستعمرة الجذام ، ويبدو أنهم وجدوا له اسمًا فى إحدى شعب الإخوان المسلمين القديمة ، فاعتقلوه - هو وأخاه - وأتيا بهما إلى المعتقل ، وكان الإخوة يخافون من انتقال العدوى إليهم بهذا المرض الخطير ، كما وجدنا مريضين آخرين بالعنبر يعالجان من مرض السل (الدرن الرئوي) ، وهذان يجب أن يستأنفا علاجهما حتى لا يتفشى المرض فيهما ويستعصى ، ومن الطبيعى أن يخاف المعتقلون من انتشار العدوى ، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الإخوة يعانى من ارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية والزحار (الدسنتريا) وأمراض الكلى وتليف الكبد ، ولم يكن من المتوقع والأمور متأزمة على هذا النحو أن نطالب بعلاج أحد ، فحاولنا أن نقوم ببعض الإجراءات الوقائية الطفيفة حتى يفرجها الله ، فهو بيده الأمر ، وهو الحافظ .

واقترح بعض الإخوة عليّ - بصفتى طبيبًا - أن أتكلم مع الضابط كمال دوس الذى تربطنى به معرفة سابقة ، لعله يساعد فى نقل المرضى المصابين بالأمراض المعدية على الأقل إلى أماكن للعزل حتى ولو كانت في داخل المعتقل نفسه حفاظًا على بقية الإخوة من الإصابة بالعدوى ، ربما ترددت فى بداية الأمر ، لأنى أعرف أن الأصدقاء - بل والأقارب - قد يتنصلون منها ، وينكرون معرفتهم بنا فى مثل هذه الظروف حتى لا ينالهم أذى ، ومع ذلك فقد جلست إلى جوار باب العنبر انتظارًا لمجيء الضابط للتفتيش ، ولكن مرت أيام دون أن يأتى ، وأخيرًا طلبت من السجان الذى يحضر لنا الطعام وأرغفة الخبز أن يخبر كمال بك بأنى أريد أن أكلمه ، فلم يرد عليّ ، إذ كان المفروض أن يلقى السجان الأوامر علينا ثم ينصرف دون أن يسمح لأحد أن يكلمه ، وإذا تكلم معتقل فلن يرد عليه أحد . ولقد حاولنا الحديث مرة مع (الجاويش حجازي) الذى يسكن معنا فى مدينة أبو زعبل السكنية القريبة من السجن ، فقال بالحرف الواحد « أنا لا أسمع .. لا أبصر .. لا أتكلم » وأعطانا ظهره وانصرف .

ويئست من لقاء الضابط « كمال دوس » . لكنى بعد ثلاثة أيام وجدته يأتى ويفتح الباب ، كنت جالسًا على مقربة منه ، لكنه تظاهر بأنه لا يراني ولا يعرفنى ، فاعتصمت بالصبر ، وبعد وقت قصير قال : « أنا هنا للمحافظة على النظام ، وإحضار الأكل لكم ، ولا شيء غير ذلك .. مفهوم » .

وقفت وقلت مستأذنًا : « لو سمحت يا أفندم » .

- « ألم تسمع كلامى ؟ » .
- « سمعت ، لكن ..» .
- « لكن إيه . . .» .
- « عندنا مريض جذام ، ومريضان بالسل ..» .
- « ربنا يشفى ..» .
- « نعم ، لكن العدوى ..» .

أغلق علينا الباب فى عنف وغلظة مصطنعة وهو يقول : « سوف نرى ..» .

شعرت بالآلام ، ذلك لأن القضية إنسانية بحتة ، فلماذا هذه المعاملة الجافة ؟ ومن حق أى إنسان أن يحمى نفسه من خطر الأمراض ، إن تعريضنا للمرض إجراء قاس لا يصح أن يحدث فى بلد متحضر يؤمن بالله .. وأصابنا قدر من الغم لفشل المسعى ، وسلمنا أمرنا لله ، فهذا ما كنا نتوقعه ، بل إننا نتوقع أكثر من ذلك ، فإن ما حدث منذ عشر سنوات ونحن فى المعتقل يتكرر بنفس الأسلوب ..

وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا « كمال دوس » يأتى بعد يومين وبصحبته حكيمباشى « مستشفى الشرطة » ، وهو رجل متقدم فى السن ، وكان له ابن معنا فى كلية طب القصر العينى منذ سنوات . قال كمال بك : « البك جاء ليتعرف على أوضاعكم الصحية ..» .

تنفسنا الصعداء ، وحمدنا الله ..

وقال كمال : « أظن أن معكم طبيب معتقل .. فليأت إلى هنا ..» .

كنت أجلس فى آخر العنبر ، فقمت وهرولت صوب الباب ، قال كمال بك وكأنه لا يعرفنى : « هل أنت طبيب ؟ » .

قلت وأنا أبتسم : « نعم . . .» .

قال : « فيه إيه عندكم » .

- « مريض بالجذام ، ومريضان بالسل ..» .

قل الحكيمباشى : « أين هم ؟ » .

ودعوت المرضى الثلاثة ، فقام الحكيمباشى بفحصهم بسرعة ، واستخدم السماعة عندما فحص مريضى السل ، ثم هز رأسه بعد أن سجل الأسماء وانصرف ، وأغلق علينا الباب من جديد ، وفى خلال أسبوع واحد ، استدعى المرضى الثلاثة ، ثم نقلوا إلى مكان آخر لا نعلمه ، وبعدها استدعانى كمال وحدى ، كان يقف على مقربة من العنبر فى الباحة الواسعة ، ثم صرف العسكرى ، وبقيت معه وحدى ، تلفت يمنة ويسرة ، ثم قال بصوت خفيض : « أنا لا أنسى فضلك علىّ ، ولا صداقتنا ، لكننى فى وضع شائك ، ولا أستطيع أن أفعل لك شيئًا .. إن عيون رجال الأمن حولنا ، تصور إنهم يجندون العساكر للتجسس علينا ، ولهذا لا أحاول الاتصال بك إلا خفية ، كما أحاول أن أتجنبك ، وأظهر إننى لا أعرفك . . مع إننى مسيحى ، ولا يصح أن يشك أحد فى أمرى لكن تأكد أن قلبى معك ، وأدعو لك من كل قلبى ، فالناس جميعًا فى المنطقة حزنوا من أجلك ، وكلهم مجمعون أنك إنسان طيب ..» .

ثم تذكر شيئًا ، فاستدرك قائلًا : « هل اعتقلوا زوجتك ؟ » .

أصابنى الخوف والاضطراب ، وهتفت : « ولماذا يعتقلونها ؟ هل حدث شيء كهذا ؟ » .

- « لا .. لا .. مجرد سؤال ..» .

ثم قال : « انصرف الآن ، فقد قدم العسكرى ، وسأحاول أن أكلمك كلما حانت الفرصة . . .» .

قلت مسرعًا : « أرجوك .. أرجو أن تطمئننى على زوجتى وأولادى » وعدت إلى العنبر مكتئبًا حزينًا ، لقد داهمتنى الوساوس من أجل زوجتى ، فلو فرضنا أنهم اعتقلوها ، فلماذا ؟ ثم من هناك يعتنى بأمر الأطفال ، وبقيت معتصمًا بالصمت بعد أن عدت إلى العنبر ، وإخوانى يسألوننى عن السبب ، فأبحت لهم بشكوكى حول مصير زوجتى ، فأكدوا أن الحكومة هذه المرة قد اعتقلت عددًا كبيرًا من النساء زوجات المتهمين وقريباتهم أو من حامت حولهن شبهات أى نشاط دينى سياسى ، وذكروا من بينهن السيدة زينب الغزالى وشقيقة الأستاذ سيد قطب ، وأم وأخوات المعتقل صلاح الأنور وغيرهن كثيرات ، وكان هذا التصرف بمثابة حدث جديد لا مثيل له فى تاريخ مصر الحديثة ، وأصبح معتقل سجن القناطر الخيرية أول معتقل نسائى فى بلادنا .. ومع ذلك فقد حدث أن تم اعتقال بعض النساء اليساريات أيام حكم الرئيس السادات بعد ذلك أى بعد مضى حوالى خمسة عشر عامًا ، لكن يظل ما حدث أيام عبد الناصر بالنسبة لإنشاء معتقل خاص بالنساء له الأسبقية التاريخية ، بل إن بعض النسوة أخذن أيضًا إلى السجن الحربى فى هذه الأيام (١٩٦٥) للتحقيق معهن فيما عرف بقضية سيد قطب رحمه الله ، وصدرت ضدهن أحكام بالسجن . الحقيقة أن كلمات كمال دوس عن زوجتى قد زرعت فى نفسى قلقًا بالغًا ، ذلك لأنى مؤمن بأن كل شىء ممكن الحدوث فى هذه الأيام ..

وبالنسبة لمشاكل مرضى ارتفاع ضغط الدم والسكر والذبحة الصدرية والكبد وغيرها لم نستطع أن نفعل شيئًا ، فقد اعتبروها من الأمراض غير المستعجلة .

ومن المشاكل التى واجهتنا فى عنبر ٦ بسجن « أوردى أبو زعبل » مشكلة أحد المدمنين على « الأفيون » ، ولقد صُدم الإخوة بظهور حالة كهذه بينهم ، إذ ليس من المعقول أن يقع أحد الإخوان فريسة للمخدرات ، وهو يعلم أنها محرمة شرعًا ، ودار الجدل حول هذا الموضوع الخطير ، فرأى البعض أن يتركه وشأنه ، ورأى آخرون ألا نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه الكارثة التى تؤدى بالمدمن فيموت بسبب الأعراض الانسحابية من إسهال وأمغاص وقىء وأرق وآلام عامة ، وسيولة الأنف والعينين وما إلى ذلك ، وعرفنا من أهل بلد المدمن واسمه (م . غ) أن المسكين كان يعانى مغصًا كُلَويًا مزمن وهو فى بلده ، وكان يأخذ حقن « المورفين » لتخفيف المغص ، وبتكرار هذه الحقن أدمن عليها ، فكان يأخذ المورفين عند أزمة المغص ، وإذا لم يتيسر له ذلك يتعاطى الأفيون بديلًا عنه ..

كان (م . غ) يرقد فوق البرش كالضحية ، وفى عينيه الذابلتين استغاثة وضراعة ، وكان معنا أحد الصيادلة المعتقلين ، واثنان من الأطباء غيرى ، فرأوا أن علاجه يبدأ بإعطائه جرعات متناقصة يوميًا من الأفيون ، ويضاف إلى ذلك علاج الأمراض الانسحابية كالمغص والإسهال والضعف وغيرها ، لكن كيف نوفر له ذلك ؟

ولم يكن لنا حيلة فى الأمر سوى أن نستسلم لقضاء الله وقدره ، إن شاء نجاه من الموت وإن شاء أماته .. ولم نكن نعلم أن هناك ما يدبر فى الخفاء ، فقد حاول زملاؤه فى المصنع الاتصال بأحد السجانة (ح) ليساوموه فى إحضار كمية من المخدر لإنقاذ حياته ، وتم لهم ما أرادوا ، وبدأ المدمن يأخذ كمية قليلة تتناقص يوميًا ، وما إن تماسك وعادت إليه عافيته ، حتى قال : « إننى الآن قادر على الاستغناء عن الأفيون نهائيًا وقد أقسمت ألا أقربه مرة أخرى فى حياتى .. » .

وفى خلال بضعة أسابيع انتهى الإدمان بالنسبة له .

ومن الطريف أيضًا أنه كان معنا فى المعتقل أحد الرجال الأثرياء ، وهو رجل صالح له أيادٍ بيضاء على الجماعة إذ كثيرًا ما تبرع لها بمبالغ كبيرة بلغت عشرات الآلاف ، وكان المسكين واسمه (م . د)

لا يستطيع أن يذهب إلى المرحاض دون أن تكون فى فمه سيجارة يدخنها ، وظل يعانى من الإمساك ثمانية أيام متصلة حتى ساءت حالته ، واستطاع بعض الإخوة أن يهرب له عددًا ، السجائر عن طريق أحد العسكر ، ويوم أن حصل - للأسف - على السيجارة ، ذهب للمرحاض وجلسنا ننتظر النتيجة ، وحينما خرج منه راضيًا كنا نضحك ونقول له : « مبروك يا حاج ..» .

كانت الأيام تمر بطيئة ثقيلة ودخل علينا شهر أكتوبر ١٩٦٥ ونحن نعانى مرارة الانتظار والقلق ، وأتى إلينا فوج من المعتقلين الجدد ، كان أحدهم قادمًا من معتقل أبو زعبل الجديد والقريب منا ، وأخبرنا بأشياءٍ كثيرة لم نكن نعلم عنها شيئًا . منها أن هناك جماعة إسلامية جديدة اسمها « جماعة التبليغ » ، وهى جماعة مهمتها الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترسيخ عقيدة التوحيد الصحيح فى نفوس الناس ، وذلك عن طريق عقد لقاءات فى المساجد ، وكان لديهم شيء اسمه « الخروج فى سبيل الله » ومعناه أن يأخذ كل فرد متاعه البسيط ، ومعه مجموعة من إخوانه ، ويذهبون إلى القرى والكفور والمدن البعيدة ، ويتحدثون إلى الناس دون الإشارة إلى الأمور السياسية أو الحزبية ، إن مهمتهم الأساسية هى التمكين لدعوة التوحيد ، وشرح « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . وامتد نشاطهم حتى غطى أنحاء القطر المصرى ، وقطاع غزة فى فلسطين ، كما كانت لهم أنشطة فى الدول العربية والإسلامية ، بل وفى دول أوروبا نفسها ، وقد نشأت هذه الجماعة أصلًا فى الهند ، وتكون لها فرع فى مصر ، وقد علمت أن أحد رجال التربية والتعليم وهو الأستاذ عبد العزيز العراقى يرأسه ، وهو خريج - كما علمت - من كلية العلوم ، وأخبرنا الأخ القادم من معتقل أبو زعبل الجديد ، أن من بين أعضاء هذه الجماعة عدد كبير من الشباب صغار السن ، وأن معهم أيضًا مذيع تليفزيونى شهير ناجح هو المرحوم الأستاذ إبراهيم عزت ، الذى استضافنى ذات يوم فى برنامجه التليفزيونى الأدبى « كاتب .. وكتاب » أو « كاتب .. وقصة » على ما أذكر . وقدمنى فى البرنامج بكل حب وترحيب ، وأخذ قصة قصيرة من قصصى وأخرجها تمثيلية فى حوالى ربع أو ثلث ساعة ، وبعدها بدأ معى الحوار عن قصصى .. وأتذكر أنه يوم تسجيل البرنامج أخذنى إلى إحدى غرف مبنى التليفزيون وصلينا العصر معًا ، ثم أخبرنى أنه « خارج فى سبيل الله » إلى مدينة المحلة ، ولم أفهم عند ذاك معنى عبارة « الخروج فى سبيل الله » لكنى فهمتها اليوم من أخينا القادم من معتقل أبو زعبل الجديد ، عندما حدثنا عن هذه الجماعة - جماعة التبليغ - وذكر اسم إبراهيم عزت ، وعلمنا أنه تعرض لتعذيب شديد ، لكنه لم يكن وراءه أية أسرار سياسية أو تنظيمية ، فأمر جماعته واضح ، ولا علاقة لها بالسياسة ..

ولعله من باب استكمال قصة إبراهيم عزت ، أن نقول أنه ظل وفيًا لدعوته ، بعيدًا عن السياسة ، عابدًا زاهدًا بعد أن ترك التليفزيون ، وكان يذهب إلى الحج والعمرة ويطيل الإقامة فى مكة المكرمة ، وفى أحد الأعوام كان يؤم المصلين فى صلاة التراويح (القيام) فى البيت الحرام فى شهر رمضان ، ثم لقى الله ساجدًا . وهكذا مات ذلك الرجل الصالح الذى أحبه كل من عرفه ، ودعا له بالرحمة ..

وعلمنا ونحن أيضًا فى عنبر ٦ أن هناك عددًا كبيرًا من الإخوان الذين سجنوا عشر سنوات وخرجوا فى شهر مارس أو يوليو أو أغسطس عام ١٩٦٥ ، أقول إن هؤلاء أعيد اعتقالهم ، ولم يمض عليهم شهور أو أيام ، وقدموا مرة أخرى للمحاكمات بتهمة غريبة ، وهى إعادة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين داخل السجن ، وعرفت قضيتهم بقضية « إخوان العشرات » أى الذين قضوا أحكامًا بالسجن عشر سنوات كاملة ، وكان من بين هؤلاء أخى وصديقى الدكتور رشاد بيومى الذى أكمل دراسته فى كلية العلوم بعد خروجه من السجن ، ونال درجة الدكتوراه وسافر إلى أمريكا ، وأخبرنى رشاد بعد أن

أعيد اعتقاله فى عام ١٩٦٥ وهو لم يزل طالبًا بالكلية ، بأنهم ساقوه إلى التحقيق وسألوه : « ماذا رأيت فى مصر بعد خروجك من السجن ؟ وهل لاحظت التقدم الكبير الذى طرأ على البلاد ؟ » .

فأخبرهم رشاد أنه لم ير شيئًا ، لأنه لم يقض إلا أيامًا قليلة تقل عن الشهر ، ثم أعيد إلى السجن مرة أخرى .

سألوه : « ما رأيك فى ثورة عبد الناصر » .

– « أضاعت مستقبلى ، وآذتنى شر الإيذاء ، وهل كان فى إمكانى أن أرى شيئًا وأنا سجين؟ » .

وكان نتيجة لهذا الكلام أن قاموا بتعذيب رشاد ، وخلعوا أظافر يديه ورجليه دون سبب يذكر ، ونظرت إلى أظافره وقلت له : « إن أظافرك الآن نظيفة وجميلة ، ولم يكد يمر على خلعها إلا شهران أو أكثر قليلًا ..» .

هز رأسه فى أسىً وقال : « الحمد لله ..» .

ولعله من المفيد أن أشير فى هذا المقام إلى قصة حب مثيرة كان بطلها رشاد بيومى عندما كان سجينًا فى المرة الأولى [فى الستينات الأولى أى النصف الأول] ، فقد كان رشاد يشكو من ألم فى المثانة يحتاج إلى جراحة عاجلة ، فنقل إلى مستشفى بإحدى محافظات الصعيد (ورشاد رجل صعيدى من سوهاج ، وأبوه كان موظفًا بالبنك هناك ، ولقد كان رشاد معى أيام سجن أسيوط فى الخمسينات) ودخل رشاد المستشفى للجراحة ، وبقى فيها فترة طويلة .. وكانت هناك طبيبة حديثة التخرج تشارك فى الإشراف على علاجه ، ومن الطبيعى أن يلفت نظرها ذلك السجين المثقف الذى يدرس بالجامعة ، ويتسم بالوقار والثقة بالنفس والاستقامة والثبات على المبدأ ، ودار بينهما حوار .. بل حوارات ، تناولت شتى القضايا فشغلها أمره ، كما آنس فيها روحًا نقية طاهرة ، ولم يقف الحراس الذين يلازمون السجين المريض رشاد ليل نهار حجر عثرة فى تطور العلاقات الإنسانية النظيفة بينهما ، ولم يغادر رشاد المستشفى – بعد الشفاء – إلى سجنه إلا وكانا قد تعاهدا على الزواج بعد الإفراج عنه ، وظن البعض أن ما حدث مجرد مشاعر ودية عابرة ، سرعان ما تخفت حدتها مع الزمن ، لكن تلك العلاقة ظلت راسخة حتى تم الزواج بعد سنوات ، وأثمر البنين والبنات ، واستقرت تلك الأسرة الصغيرة سنوات فى أمريكا ، وسنوات أخرى فى دولة الإمارات العربية المتحدة حيث عمل رشاد أستاذًا فى كلية العلوم بجامعتها لبضع سنوات .

ونعود إلى هموم ومشاكل العنبر رقم ٦، فقد كانت مشكلة المياه من المشاكل العويصة ، وأذكر أننا قضينا ذات مرة ستًا وثلاثين ساعة دون ماء حتى جفت حلوقنا ، وكاد يقتلنا الظمأ ، ناهيك بالأمور الأخرى الحيوية التى تحتاج إلى استعمال الماء ، أما الوضوء وإزالة الجنابة فقد كنا نستعيض عن الماء بالتيمم ، وفى يوم الظمأ ذاك كان أخونا « سيد غياض » الذى يعمل بورش السكك الحديدية ، يستلقى على ظهره ويحلم بمجىء الماء وهو يقظان ويقول : « إننى أرى الماء يجرى فى المواسير (الأنابيب) .. نعم يجرى . سوف يأتى الماء حالًا ويتدفق كما تدفق من الصخرة التى ضربها نبى الله موسى عليه السلام بعصاه ..» ويطول انتظار سيد غياض ، ولا يأتى الماء ، وأخيرًا بعد طول انتظار سمعنا صوت الماء يتدفق من الصنبور .. فهرع الجميع صوب المرحاض ، وتزاحموا بصورة مؤلمة ، كل إنسان يريد أن يرتشف قطرات ، ويبلل وجهه ورأسه ، وكان هناك الزير الوحيد الذى يجب أن نملأه حتى يضمن لنا مددًا دائمًا من الماء بقية اليوم ، لكن الزحام الشديد ، واندفاع الإخوة نحو الماء قد حرمنا من ملء الزير ، وانقطع الماء بعد ساعة ، وليس لدينا رصيد يذكر منه ، وهنا تدارس الإخوة الأمر ، وقرروا اختيار واحد منا يكون

مسئولًا عن تنسيق وتنظيم توزيع المياه ، وأطلقوا عليه « مسئول الزير » ووقع الاختيار عليّ كى أقوم بهذه المهمة الشاقة الحيوية فى عنبر ٦ وفكرت فى الأمر قليلًا ، وتوصلت إلى وضع سياسة ثابتة لهذا الأمر ، ثم وقفت وسط العنبر وطلبت من الإخوة أن يستمعوا إلى ما أقول ، على أن يكون لهم الحق فى مناقشة أفكارى بهذا الصدد .

كانت خطتى تعتمد على الآتى :

أولًا - عندما يأتى الماء ، فستكون الأولوية لملء الزير تمامًا بالماء ، ويمنع منعًا باتًا ذهاب المعتقلين إلى دورة المياه فى ذلك الوقت .

ثانيًا - بعد امتلاء الزير يسمح لممثل عن كل مجموعة بملء دلو الشرب الخاص بهم ، واحدًا بعد آخر .

ثالثًا - بعد امتلاء الدلاء (الجرادل) جميعها ، يُبدأ فى ملء قروانات الطعام الزنك الخالية ، وتوضع كل قروانة مملوءة عند صاحبها .

رابعًا - بعد ذلك يسمح للمعتقلين تباعًا بغسل أيديهم ووجوههم والوضوء كذلك .

خامسًا - وفى نفس الوقت يسمح بالذهاب إلى المرحاض لقضاء الحاجة والاغتسال إن أمكن .

وهكذا استطعنا أن نحسم أمر المياه ، مع الالتزام بالاقتصاد فى استهلاكها سواء أكانت متوفرة أم كميتها قليلة ..

وكان الإخوة يحيوننى مازحين « أهلًا .. مدير عام إدارة الزير » .

وكانت أمور حياتنا تمضى رتيبة فى عنبر ٦ ولا نكاد نعرف أية أخبار عن العنابر الخمسة الأخرى ، ففى الفجر نستيقظ لصلاة الفجر ، ثم نقرأ ورد المأثورات شفاهًا حيث لا يسمح لنا باقتناء الكتب ، والمأثورات (الصغيرة - أو الكبيرة) عبارة عن مجموعة من التسبيحات وذكر الله والدعوات والآيات القرآنية ، جمعها الشهيد الإمام حسن البنا ، وكانت شائعة فى أوساط الإخوان ، ثم نتناول طعام الإفطار ، ونجلس بعد ذلك لقراءة القرآن ، ومن لا يحفظ يستطيع أن يستمع لمن يحفظ ، ثم نصلى الظهر ونتناول طعام الغداء ، ومن أراد أن ينام يأخذ قسطًا من النوم ، ثم تأتى صلاة العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وعقبها نتناول طعام العشاء ، ونجلس للسمر والترويح عن النفس ومدارسة أحوالنا العامة والخاصة ، وقد نناقش أمور السياسة أو الاقتصاد أو المسائل الاجتماعية المختلفة ، كمشاكلنا الأسرية ، والآثار الأليمة الناجمة عن اعتقالنا ، ومصير زوجاتنا وأبنائنا ومعاناتهم المتوقعة .

كنا نجلس ذات مرة ، ونحن مجموعة من الأطباء والمهندسين والمدرسين ومختلف الموظفين ، نناقش مشكلة الإخوان مع الحكومة ، واقترب منا المعتقل « إبراهيم هلال » وهو خريج المدرسة الزراعية المتوسطة ، ويعمل فى المنصورة ، وانبهر بما يدور بيننا من حوار ، وكأنه وجد ضالته المنشودة فهناك سؤال يحيره ، ويريد أن يستمع إلى إجابة شافيه عنه ، ورفع إبراهيم هلال يديه وهو يقول : « سؤال » .

قلت : « تكلم يا إبراهيم » .

[ إننى أعرف أنه رجل بسيط محدود الثقافة والخبرة ، يعيش فى عمله عيشة الفلاحين دون تعقيد أو هموم تذكر ، وهو طويل القامة جدًا (فوق المترين) متين البنيان ، أشقر الشعر والوجه ، ملون العينين ..]

قال إبراهيم : « أريد أن أعرف هل ستفرج عنا الحكومة أم لا ؟ ومتى يكون الإفراج إذا كان لنا نصيب فيه؟ » .

رد أحد الإخوة شارحًا الأوضاع السياسية العامة فى مصر ، وعلاقاتنا بالدول العربية والأجنبية ، وما يترتب على ذلك من نتائج ، ولم يرتح إبراهيم للإجابة لأنها لم تتعرض لسؤاله المحدد ، وانتظر إبراهيم ، وأخذ ينظر إلى المتحدث الثانى ، وكان موظفًا كبيرًا فى وزارة المالية ، فأخذ يفيض فى شرح الوضع الاقتصادى المتدهور ، ونفاد الميزانية الخاصة بالإنفاق على السجون والمعتقلات ، وبعد أن أنهى حديثه لم يجد إبراهيم أيضًا الإجابة الصريحة المحددة عن سؤاله ، والتفت إلى المتحدث الثالث ، وكان ضابطًا سابقًا فى الشرطة قبل طرده منها واعتقاله ، كان الضابط السابق يتحدث عن إسرائيل ونواياها العدوانية ، ومن الغريب أن هذا الضابط واسمه « عباس أبو كرم » قد أكد أن إسرائيل لا بد وأن تضرب ضربتها العسكرية التالية فى أقل من عامين ، بل وأقسم على ذلك ، وعباس أبو كرم من مشاهير شباب الإخوان ، وكان وثيق الصلة بقيادتهم منذ سنوات طويلة .

ولم يجد إبراهيم هلال هنا أيضًا إجابة محددة على سؤاله « هل سيفرج عنا ؟ ومتى ؟ » .

وهكذا دارت أحاديث النخبة المثقفة درسًا وتحليلًا ، وإبراهيم هلال المسكين ، ينقل بصره من واحد إلى آخر ، ويحاول جاهدًا أن يستوعب الحديث ، وينتظر كل مرة الإجابة التى يحلم بها دون جدوى .

فى النهاية رفع إبراهيم هلال يده الطويلة ، وكفه العريض إلى أعلى وقال : « استمعوا إليّ » .

نظروا إليه جميعًا ، وصاح إبراهيم : « الفرج آت قريبًا إن شاء الله » .

وأخذوا يسألونه عن كيفية حدوث ذلك ، ولماذا يعتقد هذا الاعتقاد ، كانوا يظنون أنّه سوف يحلل الأوضاع ويصل فى النهاية إلى النتيجة التى يؤمن بها ، ولهذا سأله أحدهم : « ولماذا سيفرج عنا يا إبراهيم ؟ » .

هب واقفًا بهامته المديدة وقال بلهجته الشعبية المضحكة : « أصل الحكاية بَظْوَتَتْ » .

وضج الجميع بالضحك .

فكلمة « بَظْوتت) تعنى أن كل شىء أصبح فوضى ، فلا منطق ولا عقل ولا نظام ، وأن هذا الاضطراب والضياع وعدم فهم أى أمر من الأمور ، يعنى ألا يوجد أى إنسان يستطيع الجزم بشىء ، وفى هذه الحالة فإن الله وحده هو القادر على الإتيان بالفرج ولا أحد سواه . . هذا ما تصوره إبراهيم هلال وعبر عنه بلهجته الشعبية البسيطة ، وأخذ إبراهيم هو الآخر يضحك ، ويقول لقد صدعتم رأسى بالكلام والفلسفة دون أن أفهم شيئًا ، والظاهر أنه لا يوجد أحد يفهم كيف يجيب على سؤالى ..

ولقد تنوعت جلساتنا فى عنبر ٦ ، أحيانًا نجلس لسماع النكت والطرائف ، وأحيانًا أخرى نتدارس الفقه أو تفسير القرآن ، وبعض الإخوة كان يجلس بيننا ليروى لنا قصة قرأها فى كتاب ، أو فيلم سينمائى شاهده قبل ذلك ، أو دراسة صدرت لواحد من مشاهير الفكر ، وأذكر أننى رويت لهم فى إحدى الليالى ملخصًا لرواية « اليوم الموعود » التى نلت عنها جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، وتسلمت الجائزة – كما سبق وأشرت فى الجزء الرابع – من جمال عبد الناصر نفسه ، والرواية عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ملك فرنسا على المنصورة ، وقيام الملكة شجرة الدر بالوقوف فى وجهه ..

وأذكر أن زميلنا الدكتور (م . سليم) وهو من أطباء رشيد ، كان يعانى من حالة نفسية متردية فلم يكن يطيق سماع النكات والقفشات ، ويثور ويرمينا بالسفه وعدم إدراك أبعاد المأساة التى نعيشها ، فكنا نشفق عليه ونكف مؤقتًا عن السمر ، حتى تهدأ ثورته ، وينطفئ غضبه .

وكان بيننا من ساعدتهم الظروف بالقيام برحلات إلى خارج مصر ، فيجلسون ويحدثوننا عن

مشاهداتهم فى البلاد الأجنبية وما يدور فيها من أفكار وأحداث وقيم ..

فى ليلة السابع والعشرين من شهر أكتوبر ١٩٦٥ وكان قد مضى علينا فى المعتقل حوالى خمسين يومًا ، كنا نجلس فى المساء حوالى الساعة العاشرة ، وإذ بالباب يفتح فجأة ، فنهب واقفين ، ووجدنا أمام العنبر عددًا من العسكر ، وهتف أحدهم فى جفاء وسرعة قائلًا : « ستة منكم ..» .

ظننا أنهم يريدون ستة معتقلين لكى يحضروا الخبز المخصص للعنبر كما يحدث عادة ، حيث يكون الخبز موضوعًا فوق عدد من البطاطين ، فيمسك المعتقلون بأطراف البطانية ، ويحملون الخبز لكى يوزع علينا ..

وخرج ستة رجال ، وأغلق الباب ، لكننا بعد دقائق قليلة سمعنا صراخًا عاليًا واستغاثة ، وجمدنا فى أماكننا لا ندرى ما يجرى فى الخارج . لكن الصراخ يزداد ونسمع ضجة كبرى تحت جنح الليل لا نعرف تفاصيلها . وخيل إلينا أن رجال الأمن ينوون قتلنا ، وسوف يأخذوننا ستة ستة للتخلص منا ، وساد القلق الجميع ، واعتصمنا بالصمت المرعب ، لقد حانت لحظة النهاية ، وليس لنا سوى أن نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول اله ، وأن الموت حق ، والبعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق ..

ولم يكن هناك مجال للدموع أو للتفكير فى الماضى أو المستقبل ، وكيف تنسكب الدموع وقد شلت الأفكار والإرادة ، إنها حالة من الاستسلام المطلق ، وتلاشى الإحساس بالزمان والمكان ..

لم يطل بنا الوقت ، لكنها كانت لحظات قاتلة رهيبة ، وفجأة صمتت أصوات الاستغاثة ، وساد الهدوء المعتقل ، وفتح باب العنبر وارتمى الرجال الستة على الأرض وأغلق الباب ، وجاء صوت أجش من الخارج:

« ممنوع الكلام » .

أخذنا ننظر إلى الرجال الستة ، إنهم أحياء ويتحركون ، بل إن أحدهم يبتسم ، وبقينا نحو ربع ساعة ، ونحن على هذا الوضع ، وسمعنا قهقهة فى الخارج ، وجاءنا صوت الجاويش حجازى يقول : « لقد ذهبوا .. تكلموا كيف شئتم .. إن هذا الذى يحدث « يقطع الخلف » والله العظيم ..

من أين جئتم لنا ؟ أيامكم كلها كرب فى كرب » .

وتجمعنا حول الرجال الستة نستفسر عما جرى ، كل ما عرفناه أنهم ضربوا ضربًا مبرحًا ، آثاره على أجسادهم ووجوههم ، وأن هناك مجموعة أخذت من كل عنبر من العنابر الخمسة الأخرى ووقع عليهم نفس العقاب المجهول السبب ، فليس فى المعتقل أحد متهم فى قضية سيد قطب ، أو أية قضية أخرى من القضايا ، والجميع - كما قالوا - معتقلون تحت التحفظ ، لكنى بقيت أفكر فى الأمر ، فتذكرت أن هذه الليلة هى ذكرى الاعتداء على جمال عبد الناصر فى حادث المنشية منذ عشر سنوات ، ويبدو أن رجال الأمن قد أرادوا الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة على طريقتهم الخاصة ، وقد علمنا فيما بعد أن إخواننا فى معتقل أبو زعبل الجديد ، قد أمروا بالنزول فوق الدرج على أيديهم وركبهم كالأغنام وهم معصوبى العيون ، وضربوا جميعًا فى ساحة السجن أمام مدير المباحث ومساعديه ، واتضح فعلًا أن ذلك كان بمناسبة الذكرى ..

وفى اليوم التالى استمر الضرب والتكدير للجميع فى عنبر ٦؛ إذ وقفنا صفًا فى مواجهة الحائط ،

وجاء العسكر من خلفنا بالعصى والكرابيج وأخذوا يضربوننا بقسوة ، ومن يلتفت ليرى ما خلفه أو ليتوقى الضرب يزيدون له فى العقوبة ، وكان معهم « كمال دوس » الذى حاول كما يبدو أن يحمينى من الضرب ، لأنى لم أتلق أية ضربات ، وكان يقف إلى جوارى فى الصف المعتقل إبراهيم هلال ، الذى نال قسطًا وافر من الضرب لطوله الفارع ، بل إنهم أمعنوا فى إيذائه وإيذاء الآخرين حينما حلقوا له ولهم الشوارب ، وكان هذا شيئًا معيبًا ، وحسبت أننى نجوت ، ولكن العسكرى جاء ومعه ماكينة الحلاقة وحلق شاربى أنا الآخر ، وكان « كمال دوس » بعيدًا عنا ، ولعله تعمد ذلك ..

وفى خلال يومين ساد الهدوء المعتقل مرة أخرى ، لكن فى خلال إحدى الليالى أخذ أخونا المعتقل محمود سرحان يصرخ من شدة الألم فى بطنه ، وفشلت كل الجهود فى إسكات الألم ، فلم تجدِ بعض الأقراص المخصصة لذلك ، وكان معنا قليل منها فى القضاء على شكواه ، فقمت وفحصت محمود فحصًا جيدًا ، فتبين لى أنه مصاب بالتهاب حاد فى الزائدة الدودية ، وهذا يحتاج إلى جراحة عاجلة وإلا انفجرت الزائدة ، ومرت الليلة شديدة الوطأة على أخينا محمود وعلينا ، وكان يصرخ ويقول : « ى .. يانا .. يا غُلبى .. أغيثونى يا ناس .. هموت ..» .

وفى الصباح قررت أن ندق الباب المغلق ، طلبًا للضابط المناوب ، فليس من المعقول أن نترك محمود وهو يقترب من حافة الموت فى هذه الأوضاع التعسة التى لا تمت بصلة لأى رعاية صحية .. وأخذنا ندق الباب .. جاء العسكرى وقال : « ماذا تريدون ؟ » .

– « نريد حضرة الضابط المناوب » .

– « ليه » .

– « واحد بيموت ..» .

– « يموت ولّا يخفى .. فى ستين داهية ..» .

– « حرام ..» .

– « طيب اسكت أنت وهو .. سأبلغ الضابط » .

وبعد ربع ساعة ، فتح الباب ، ووجدنا الضابط كمال دوس يقف فى مواجهة العنبر ، وظل صامتًا بعض الوقت فهرولت إليه قادمًا من آخر العنبر ، ثم قلت وأنا أقف بالداخل قرب الباب : « عندنا يا سعادة البك معتقل مصاب بالتهاب حاد بالزائدة الدودية » .

– « المصران الأعور ؟ » .

– « نعم ..» .

– « متأكد يا دكتور ؟ » .

– « مائة فى المائة » .

– « سأبلغ الداخلية فى القاهرة ، وإذا لم يكن التشخيص صحيحًا فستكون نكبة عليك وعلينا ..» .

– « المعتقل محمود سرحان فى حالة خطرة ..» .

– « سأتصرف .. أغلق الباب يا عسكرى » .

وجلسنا ننتظر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة ، ومحمود يئن ويتوجع ويتقيأ ، وشمل العنبر هم ثقيل ، وصمت حزين ، وبعد طول انتظار جاء حكيمباشى مستشفى الشرطة ، ثم أخذ المريض وفحصه ، وأمر بنقله إلى مستشفى سجن طرة ، وعلمنا فيما بعد أن محمود سرحان أجريت له جراحة

عاجلة بمجرد وصوله إلى طرة ، ووجدوا أن الزائدة كانت على وشك الانفجار ، مما جعل الجراح هناك يقول له بعد تماثله للشفاء : « كنت على وشك الموت ، إنهم هكذا دائمًا لا يرسلون الحالات العاجلة إلا فى اللحظات الحرجة » .

وفى أحد الأيام أخذونا مجموعات مجموعات إلى قاعة كبيرة بها مقاعد خشبية ، وسلمونا عددًا من الاستمارات لكى نملأها ، كانت مكونة من عشر ورقات على ما أذكر وفيها بيانات كثيرة عن المعتقل واسمه الرباعى ومؤهلاته وأسماء أقاربه حتى الدرجة الرابعة ووظائفهم ، وتاريخ حياته السياسى وغير ذلك من البيانات ، وكانت الأوراق الأولى خاصة بالمخابرات العامة ، ثم سلمونا مجموعة أخرى من الأوراق على النمط الأول لكى نملأها لمباحث أمن الدولة .

وفى أحد العنابر المجاورة لنا كان هناك معتقل متقدم فى السن . وفى إحدى الليالى اضطجع على « البرش » وهو يبتسم ويقول :

« سوف يفرجون عنى غدًا إن شاء الله » .

وذهل المعتقلون ، لأنه لا يتصل بأحد ، وليس لديه أية مصادر للمعلومات ، فظنوا أنه قد رأى فى منامه رؤيا تشير إلى ذلك ، ولم يأخذوا الأمر مأخذ الجد ، لكن الذى حدث فى اليوم التالى ، أن هذا المعتقل سقط مغشيًا عليه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يستطيع أحد إسعافه ، وهكذا أفرج عنه كما توقع ونقل إلى بلده جثة هامدة ، وساد الحزن أنحاء المعتقل ..

وبعد حوالى ثلاثة أشهر من الاعتقال ، قدم إلينا الضابط كمال دوس ، ووجهه ينطلق فرحًا ، وقال بعد أن فتح باب العنبر : « أين الدكتور نجيب ؟ » .

فأسرعت إليه ، وسمعته يقول : « أتيت إليكم ببشرى عظيمة » .

هتفنا بصوت مختلط : « خير يا سعادة البك ..» .

وتخيلنا أنه يزف إلينا بشرى الإفراج عنا ، لأننا لسنا معتقلين على ذمة قضية من القضايا ، ولم نستطع التمادى فى الأحلام إذ سمعناه يقول : « لقد قررت الحكومة صرف رواتب الموظفين الذين لم يوجه إليهم الاتهام ، ومعى الآن توكيلات أرجو أن تكتبوها وتوقعوا عليها ، حتى يستطيع من توكلونه من أقاربكم صرف الرواتب عن الفترة السابقة وعن الشهر الحالى ..» .

وضج عنبر ٦ بالتصفيق والتكبير والشكر ، ثم سلمنى كمال دوس توكيلات المعتقلين لكى أشرف على استكمالها ثم أسلمها له بعد ذلك ، وكان لهذه الواقعة أثر طيب فى نفوس معظم المعتقلين ، ذلك لأن أسرهم سوف يجدون ما ينفقون على أنفسهم ، فيحميهم من ذل الحاجة ويسترهم ، وهذا أمر بالغ الأهمية ، لكن فرحتنا لم تكتمل ، لماذا ؟ لأن بيننا عددًا كبيرًا من أصحاب الأعمال الخاصة ، كالتجار وأصحاب الحرف والمزارعين والمحامين وأطباء العيادات الخاصة والصيادلة وغيرهم ، هؤلاء قد حيل بينهم وبين نشاطهم ، ولا شك أن أسرهم سوف يعانون معاناة شديدة ، بعد انقطاع دخلهم ، وتلك مأساة لن تساهم الحكومة فى حلها ، فماذا ستفعل هذه الأسر التعسة ؟ لو فكر أحد فى معاونتهم لوجهت إليه تهمة جمع الأموال لتمويل الجماعة الإرهابية ، وهذه جريمة فى نظر المسئولين عقوبتها السجن ، إنه حصار جائر حول تلك الأسر المسكينة التى لا حول لها ولا قوة ، فلا عجب أن تتصرف نساء الأسر الكريمة بطريقة مؤلمة فتلجأ إلى أحط الأعمال ، أو إلى الخدمة فى البيوت حتى يوفروا لأنفسهم لقمة العيش ، ونفقات تعليم للأطفال ، ونفقات العلاج وما إلى ذلك .

ولعله من المحزن أن نشير أنه أثناء حرب ١٩٦٧ اعتقل عدد من اليهود والفلسطينيين ، ووضعوا فى

معتقل أبو زعبل الجديد ، وكان مسموحًا لليهود المصريين المعتقلين بأخذ أموال من ذويهم للإنفاق على أنفسهم داخل السجن ، لشراء الطعام والدواء وغير ذلك ، كما سمح أيضًا للمعتقلين المصريين . ولم يكن للفلسطينيين من يرسل إليهم أموالًا ، وفيهم من يدخنون السجائر ، وقد سمح لهم بها ، وفيهم من يحتاجون إلى دواء أو إلى طعام إضافى ، ولم يكن أمام الفلسطينيين وسيلة سوى أن يقدموا بعض الخدمات الصغيرة للمعتقلين اليهود مقابل أجر مالى أو عينى يدفع لهم ، كغسل الملابس مثلًا ، وقد آذى هذا الأمر شعور المعتقلين من الإخوان المسلمين ، وتحدثوا فى الأمر مع ضباط الأمن فى المعتقل ، والتمسوا منهم الموافقة على إحدى الخطتين التاليتين :

١- إما إن يسمح للإخوان المعتقلين بجمع تبرعات لهم من بينهم ، أو تكون المعونة على صورة أشياء عينية .

٢- وإما أن تقوم الحكومة بنفسها بمنح المعتقلين تبرعات أخوية تسد بعض احتياجاتهم .

ولم يوافق رجال الأمن على الخطة الأولى لأنها تعنى قدرًا من التعاطف والترابط بين الإخوان والفلسطينيين وهذا ما لا تريده الحكومة على الإطلاق ، ووعدت المجموعة الأمنية بصرف معونات عاجلة وشهرية للفلسطينيين ، لكن المبلغ كان زهيدًا جدًا لا يفى بأقل القليل من الاحتياجات ، وكانت هذه المعونات الصغيرة جزء من حصيلة أرباح مقصف السجن ، مما جعل الفلسطينيين يعودون للعمل فى خدمة اليهود والمعتقلين مرة أخرى ، وحاول الإخوان أن يقدموا لهم خفية بعض المعونات العينية من خلف ظهر رجال الأمن بالمعتقل .

والواقع أننى شعرت براحة نفسية بالغة عندما تقرر صرف راتبى لأسرتى ، فأنا لم يكن لدى دخل خارجى يذكر يضاف إلى راتبى الذى أعتمد عليه اعتمادًا أساسيًا وخاصة أننى توقفت عن الكتابة فى الصحف والمجلات وعن تأليف الكتب ، وكانت هذه تشكل دخلًا ثانويًا يساعد فى تحمل أعباء المعيشة .

وبعد أن خرجت من المعتقل سألت زوجتى ذات مرة ، كيف قضت الشهور الثلاثة الأولى بعد اعتقالى دون راتب ، فأخبرتنى بأمور عجيبة ، فقد دق جرس الباب فى بيتى بالمدينة السكنية بأبو زعبل ، فأسرعت لترى من الباب ، فوجدت رجلًا يحمل على حماره جوالًا من الأرز ، وكمية من الشاى والسكر والصابون وغير ذلك من المستلزمات الضرورية للمنزل ، وقال هذا الزائر الغريب الذى لم يسبق لها معرفته . « هذه البضاعة دفع الدكتور ثمنها قبل اعتقاله » .

ولم يكد يكمل عبارته حتى سارع بالرحيل قبل أن يذكر اسمه ، وكأنه يولى هاربًا قبل أن تراه عين من عيون المباحث وقد تكرر ذلك مرات .

وأخبرتنى زوجتى أيضًا أنها ذهبت إلى مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى ، وقابلت مديرها الأستاذ سعد الدين وهبة – نقيب الفنانين الآن ، والكاتب المسرحى المعروف – وطلبت منه باقى مكافأة الفيلم السينمائى الذى كانت المؤسسة تستعد لإنتاجه ، وقد وافق على ذلك .

كما أرسلت إذاعة الكويت مكافأة لبضعة أحاديث إذاعية كنت قد أرسلتها إليهم عن طريق صديقى الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله ، وكانت هذه المكافأة حوالى خمسين جنيهًا .

وفى فترة اعتقالى لم تبق زوجتى وأولادها وحدها ، فقد ذهبت إلى والدها بحى السيدة عائشة بالقاهرة أيامًا . وخاصة فى الفترة الأولى من الاعتقال وكفلها أبوها رحمه الله كفالة تامة ، وبعد ذلك جاء أبى وأمى وأختى الصغيرة سميرة ليستقروا مع زوجتى فى مسكننا بالمدينة السكنية ، وعاشوا معًا فترة

طويلة ، ولم يسافروا إلا قبيل خروجي من المعتقل بقليل ..

أعود مرة أخرى لأقول أن صرف راتبى لزوجتى أثناء وجودى بالمعتقل قد أزاح عنى همًا ثقيلًا والحمد لله ..

نسيت أن أذكر واقعة حدثت وأنا فى عنبر ٦ من المفيد التعرض لها ، فبعد أن كتبنا الاستمارات الخاصة بالمخابرات وأمن الدولة ، جاء الضابط كمال دوس وفتح الباب ، ونادانى ، فخرجت إليه ، وسار فمشيت إلى جواره ، وهمست « خيرًا » .

قال : « هنا رجل من المسئولين يريد مقابلتك » .

دق قلبى خوفًا ، ماذا يريدون منى ، وأنا لا صلة لى بأية قضية ، صحيح أننى أعرف الأستاذ سيد قطب وشقيقه الأستاذ محمد ، وبعض أفراد أسرته ، لكنها علاقة أخوية عادية ليس لها أية أبعاد سياسية أو تنظيمية ، لكننا فى هذه الأيام لا يعرف أى إنسان هل هو متهم أم برىء أم مدان ، لقد اختلطت الأمور ، وتشوهت الحقائق ، والإنسان يتأرجح كالريشة فى مهب الريح .

وأخذنى كمال دوس إلى حجرة صغيرة تقع خلف عنبر ٦، كنت أسير حافيًا ، أرتدى لباس السجن المعهود بلونه الكالح ، رأسى حليق ، وكذلك شاربى ، والبرودة تسرى فى أطرافى .

وأخيرًا وجدت نفسى أمام شاب طويل قليلًا ، قمحى ، اللون يلبس نظارة شمس سوداء ، ألقيت عليه التحية ، وبقيت واقفًا ، كان يجلس خلف مكتب خشبى متواضع ، وأخذ يوجه إلى بعض الأسئلة العادية عن اسمى وعملى وأنشطتى وهو يقلب فى أوراق أمامه أدركت أنها هى الاستمارات التى ملأناها منذ ساعة ، ثم قال : « ألا تريد أن تقول شيئًا ؟ » .

-« شكرًا يا بك ..» .

هز رأسه وقال : « هل أنت متضايق من اعتقالك ؟ » .

كنت أستطيع أن أجيب بأسلوب دبلوماسى ، وأزعم - كما يفعل البعض - بأنى غير متضايق ، ما دام ذلك لأمن الدولة ومصلحتها ، وأن الإنسان المخلص المضحى من أجل وطنه يجب أن يتحمل بعض المعاناة فى سبيله ، لكنى لم أستطع أن أنافق ، واجتاحتنى موجة مباغتة من الشجاعة وقلت وأنا أتصنع الهدوء ، مع أن ضربات قلبى تتسارع ، وجسدى يرتجف ، وأنا أحاول أن أخفى ذلك كله قلت : « كيف لا أتضايق يا بك ، وأنا لا أعرف مبررًا أو سببًا لاعتقالى هذه المرة .. لم أكن أتوقع شيئًا كهذا بالمرة ... هل يرضيك يا بك .. أن أمشى هكذا حافيًا ، وأنام على البرش ، وأضع رأسى على حجر ، وأحرم من زوجتى وعيالى دون ذنب جنيته ؟ » .

اضطجع إلى الخلف وقال : « هذا إجراء مؤقت .. البلد كانت على وشك أن يلتهمها حريق كبير .. فماذا نفعل ؟ لابد أن نلم بأطراف المؤامرة ونطمئن ..» .

- « إذن اقبضوا على المتهمين » .

- « لا نعرفهم كلهم ، ولهذا لابد من اعتقالكم جميعًا أولًا ..» .

- « من حقى كمواطن أن أكون آمنًا على نفسى ، ورجال الأمن والتحريات يعرفون من المشتبه فى أمرهم .. يجب أن يكون هناك فرز قبل الاعتقال ..» .

- « لا .. لا .. الاعتقال أولًا .. ثم الفرز بهدوء ، ألا يجوز أن يكون بينكم واحد يحاول الاعتداء على الرئيس ..» .

- « هذا احتمال قائم دائمًا ..» .

وبعد فترة قال : « عمومًا سوف نبدأ بالإفراج عمن لم يتورطوا فى المؤامرة بعد أيام قليلة .. بل أفرجنا فعلًا عن أعداد قليلة .. »

ثم سمح لى بالانصراف .. وأخبرنى أن اسمه « هـ. د » . كان كمال دوس ينتظر فى الخارج وعندما خرجت قال كمال فى لهفة : « لقد قضيت وقتًا طويلًا معه نسبيًا .. ماذا كان يقول لك ؟ » .

– « كان يناقشنى فى أمر اعتقالنا .. »

قال كمال : « حذار أن تكون قد وقعت فى الفخ .. كلامهم معسول ويا ويل من تخرج منه كلمة لها معنى .. » .

– « اطمئن .. »

دخلت عنبر ٦ واحتشد حولى الإخوان وكلهم يسألون عن أين ذهبت ، ومع من كنت ، وماذا قال وماذا قلت ، جلست لألتقط أنفاسى اللاهثة ، وأردت أن أخفف التوتر السائد ، وأقلل من أهمية الأمر ، وقلت : « كيف حال الزير ؟ » .

– « زير إيه .. وهباب إيه .. الماء لم يأتِ بعد » .

– « الحمد لله .. خفت أن يأتى الماء فى غيابى فتهدرونه » وأخذ هذا يلكزنى ، وذاك يهزنى ، يحرقهم الفضول لمعرفة أى شىء ، وهكذا المسجونون دائمًا ، يتنسمون الأخبار ، وإذا لم يجدوها اخترعوها ، وكل شائعة أو خبر تعنى فى النهاية .. الإفراج .. ولا شىء غير الإفراج ..

ولم يطل الانتظار ، فقمت بشرح تفاصيل المقابلة ، وبدا على وجوههم الارتياح لسماع ما قلت ، وكان أهم شىء فيه ، هو أن رجل المخابرات « هـ. د » وعد ببدء الإفراج عنا فى أقرب وقت ممكن ، وعلى الرغم من أننا لا نثق عادة فى مثل هذه الوعود ، إلا أننا نميل دائمًا لتصديقها ، ونعيش فى جنة الأمانى والآمال التى تنبض بها قلوبنا ، وخاصة أننا على يقين تام ببراءتنا .

فى اليوم التالى أخبرنى الضابط كمال أنه رأى زوجتى وأطفالى بالحافلة (الأوتوبيس) ، وأنهم بخير ، لكنه لم يستطع أن يخبرها بأننى أقيم معه فى سجن « أوردى أبو زعبل » .

بدأت معرفتى بكمال دوس منذ عام ، ففى صبيحة أحد الأيام كنت أجلس فى مكتبى بالمستشفى ، ودق جرس التليفون وأخبرنى المتحدث بأن هناك حالة « صعق كهربائى » لشاب فى سن المراهقة ، وأن سيارة الإسعاف فى الطريق إلى المستشفى ، ويجب الاستعداد لاستقبال الحالة الخطرة ..

أسرعت بإعداد الإسعافات الأولية اللازمة لمثل هذه الحالات على قدر الاستطاعة ، ووقفت ومعى الممرضات على الباب انتظارًا لقدومه ، وكم كان أسفنا عندما وصل المصاب ميتًا ، كان يرافقه ضابط سجون علمنا بأن اسمه كمال دوس ، وأن الشاب المصعوق بالكهرباء هو ابن أخته ، وقد جاء الشاب مجدى من الصعيد لزيارة خاله الضابط ، وفى صبيحة ذلك اليوم وضع إصبعيه (السبابة والوسطى) فى « فيشة » الكهرباء الخاصة بالغسّالة ، فسرى التيار الكهربائى فى يده اليمنى ثم إلى باقى جسده ، فصرخ صرخة مدوية ثم ارتمى على الأرض ، كان مجدى هذا وحيد أبويه ، وعائلته من الأسر الميسورة الحال ، لم أيأس رغم أن الحالة ميئوس منها ، وبذلت جهدًا خارقًا فى عمل التنفس الصناعى وتدليك القلب ، وإعطاء بعض الحقن اللازمة ، فنحن يجب أن نبذل جهدًا مضاعفًا مع حالتين هما الغريق والمصاب بصعقة كهربائية ، ولكن لم تفلح الجهود التى بذلت فى إنقاذه ، وكان يقف إلى جوارنا الضابط كمال ، ولما تأكد من النتيجة المؤلمة المحزنة ، مزق سترته الرسمية حتى خلعت أزرارها وأخذ يضرب رأسه ووجهه ويصيح حتى انهار تمامًا ، وكنت أواسيه وهو يقول باكيًا : « عندى من الأولاد خمسة ، وهذا وحيد

أبويه ، يا ليت الرب أخذ واحدًا من أولادى ، وترك مجدى المسكين » .

فأخذت أفهمه أنها إرادة الله ، وأنه لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ويجب أن نرضى بما قسمه الله ونصبر ، فليس لنا فى الأمر حيلة ، وأعطيته دواءً مهدئًا للأعصاب ، ثم أحضرت له فنجانًا من القهوة ، وأشعل الممرض له سيجارة كان يجذب أنفاسها بيد مرتعشة ، ثم طلب منى أن أكتب برقية باسم والد مجدى وأكتب فيها « احضروا بسرعة ، مجدى ابنكم فى حالة خطرة » .

الواقع أننى تأثرت جدًا بالحادث ، وبعدها ذهبت إلى كمال فى بيته مواسيًا ، وصحبنى فى العزاء عدد من الأصدقاء ، وظلت العلاقة الودود قائمة بينى وبينه ، وكثيرًا ما تبادلنا الزيارات ، إلى أن حدث اعتقالى هذا الأخير ، والتقيت به فى أوردى أبو زعبل ، وجاء الوقت الذى حاول فيه أن يجاملنى فى حدود الإمكان ، لكن الظروف كانت قاسية وأكبر منه وأكبر منى ، قال لى ذات مرة : « لكم يؤسفنى أن أرى طبيبًا وأديبًا محترمًا مثلك يرتدى هذا الزى المحزن ..» .

قلت بابتسامة راضية : « أنا لا أخجل أو أشمئز من هذا الملبس ، فلن يغير من حقيقتى شيئًا ، ولن يخفض من قدرى أمام نفسى ، لم أرتكب عملًا أندم عليه ، أو خطيئة أستحى منها ، وهذا أمر الله ..» .

❁❁❁

# [٣] الليالى الطويلة



قد يظن البعض أن معاناتنا تأتى كلها من تصرفات السلطة الجائرة، وقسوتها البالغة، ولا يتصور الكثيرون أن من بين المعتقلين أنفسهم من يثيرون القلاقل، ويكونون مصدر متاعب ومشاكل وآلام نفسية شديدة.

كان معنا المعتقل (س) وهو شخص محدود الموهبة، قليل الذكاء، انتهازى لا يفكر إلا في نفسه، ولهذا كان سيء السمعة، مكروهًا من الجميع، وخاصة بعد أن عرف عنه أنه يكتب تقارير سرية لرجال الأمن عمن يشك فى إخلاصهم للحكومة، ولم يكن (س) يخجل من الإعلان عن ذلك حماقة منه وجهلًا، ومن المعروف أنه قد حكم عليه فى الاعتقالات الأولى عام ١٩٥٤ بالأشغال الشاقة، وأودع فترة فى سجن الواحات، ثم انشق عن جماعته، وتعاون مع السلطة، وقبض ثمنًا لذلك، وهو العفو عنه، ولم يكن يتوقع على الإطلاق أن تأتى الحكومة مرة أخرى لتعتقله، وتضعه مع غيره من المعتقلين، ذلك لأنه أثبت إخلاصه التام لها، واستجاب لكل مطالبها، ولم تعد له أدنى صلة بالعمل السياسى فى صفوف الجماعة المنحلة، لكنه بعد تفكير فهم أن هذا الاعتقال الأخير لن يطول، وإنما هو مجرد إجراء تحفظى لا أكثر، وسوف يفرج عنه فى وقت قريب، وكان يصرح بذلك دائمًا، وإذا سمع أحدًا يهاجم الحكومة أو سياسة البطش السائدة، تصدى له بجرأة، وحمل عليه حملة شعواء، مما حدا بأحد المعتقلين (ص) أن يقول له بحدة: «مهما فعلت فلن تصدقك الحكومة، وستبقى معتقلًا معنا رغم أنفك، ولم يفرج عنك إلا معنا ..».

وما إن سمع ذلك حتى استشاط غضبًا، وسبّ ولعن، وأقسم أنه سوف يفرج عنه عاجلًا، وهدد كل من يتحدث عن الثورة بسوء بإبلاغ المسئولين عنه حتى يلقى جزاءه الرادع، ومضت الأيام ثقيلة كئيبة فى عنبر ٦ وذات مساء بعد صلاة العشاء، جاء الضابط ومعه عسكرى وسأل عن المعتقل (س) وأخبره بأنه يجب أن يأخذ أشياءه الخاصة ويخرج معه، وظن الجميع أن نبوءة (س) قد تحققت وأنه قد صدر أمر بالإفراج عنه مكافأة له على إخلاصه.

كان (س) يبدو فى قمة الانتعاش والسعادة، وأخذ يبعثر كلمات الشماتة هنا وهناك، ويحذر كل من تسول له نفسه بالإساءة إلى الرئيس، أو التحدث عنه بما لا يليق، وقبل أن يغادر العنبر وهو يضع البقجة تحت إبطه، اتجه صوب المعتقل (ص) وقال له فى تعالٍ: «هل رأيت؟ هأنذا أخرج إفراجًا .. قلت لك إن الحكومة لا تنسى رجالها .. أما أنت فأبشر بالبقاء هنا إلى الأبد ..».

وخرج (س) وجلس سكان العنبر ٦ صامتين، وكل فرد فيه يفكر ويستعيد أحاديثه مع (س)، هل قال شيئًا أمامه يمكن أن يكون موضعًا للحساب والسؤال أمام رجال الأمن؟ والبعض الآخر أخذ يلوم

نفسه لأنه صرح بخبيئة نفسه ومشاعره ضد الثورة التى أذاقته ألوان العذاب ، فلماذا لم يخفِ مشاعره ويعتصم بالصمت داخل المعتقل ، حتى تمر الأزمة ، ويخرج لأهله ؟

بعد مرور أسبوعين قدم إلينا معتقل جديد ، لكننا علمنا أنه اعتقل منذ شهرين ، ثم سيق إلى السجن الحربى للتحقيق معه ، وبعد أن ثبت عدم وجود علاقة بينه وبين القضية الجديدة ، نقلوه من السجن الحربى إلى معتقل أوردى أبو زعبل لينضم للمعتقلين المتحفظ عليهم - كما يسمونهم - وهم الذين ليست لهم صلة بأية قضايا أمنية مطروحة على الساحة فى تلك الفترة العصيبة ، وأخذ هذا القادم الجديد يحدثنا عما يجرى فى السجن الحربى من تحقيقات وتعذيب واعترافات ، ومن هم المتهمون فى القضية الكبرى ، وغير ذلك من أمور ، وتحدث عن الرجل الأول المشرف على التعذيب والتحقيقات فذكر اسم « شمس بدران » المعروف جدًا لكل الناس فى تلك الفترة ، ورديف المشير عبد الحكيم عامر وزير الحربية ، وذات مرة سمعنا هذا المعتقل القادم من السجن الحربى نتحدث عن (س) ، فقال : « أوه .. لقد رأيت (س) فى السجن الحربى » .

لم نصدق ما نسمع ، فقد كنا موقنين أنه تم الإفراج عنه ، وذهب إلى بيته . « يا رجل قل كلامًا غير ذلك ، لقد أفرجوا عنه ..»

ضحك أخونا المعتقل وقال : « عن أى إفراج تتحدثون .. لقد أكل ضربًا بالكرابيج لم يأكله حمار فى مطلع » .

وضحكنا ، ولعل البعض كان شامتًا ، لكن الأمر مثير للغاية ، فكيف تأخذ المباحث رجلها لتعذبه ؟ وأخذ أخونا يروى القصة قائلًا :

- كانت هناك قضية إخفاء الأسلحة التى حوكم فيها البعض عام ١٩٥٤، وصدرت ضدهم أحكام .. هذه الأسلحة كان جمال عبد الناصر قد هربها للإخوان قبل قيام الثورة ، وحفظت فى مخزن بعزبة « العشماوى باشا » وكان حسن العشماوى ابن وزير المعارف الأسبق عضوًا بارزًا فى مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين ، وكان ينسق العمل بين الإخوان والضباط قبل الثورة ، كما كان يلتقى مع جمال عبد الناصر كرئيس لتنظيم الضباط .. واحتفظ الإخوان بتلك الأسلحة إلى أن قامت الثورة ، ثم حدث الشقاق الكبير بين الإخوان والثورة .. وحوكم من احتفظوا بهذه الأسلحة .. وانتهى الأمر ... لكن رجال الأمن بعد تلك السنوات الطويلة أدركوا أن كمية الأسلحة المهربة لم تسلم بكاملها للحكومة .. وأن هناك قطعًا من السلاح ما زالت مفقودة ، فقرروا إعادة التحقيق فى القضية عام ١٩٦٥ أى بعد أكثر من عشر سنوات .. ومن الطريف أن المعتقل (س) كان متهمًا فى تلك القضية القديمة الجديدة .. وهكذا نقلوه من أوردى أبو زعبل إلى السجن الحربى للتحقيق معه مرة أخرى ، ومن الطبيعى أن يضرب ويهدد قبل أن يخضعوه للتحقيق الجديد ..»

وأخذ نزلاء عنبر ٦ يضربون كفًا بكف ، وهم مندهشون غاية الاندهاش لما جرى وأخذوا يتساءلون : ترى ماذا كانت مشاعر (س) الذى خرج وهو موقن بالإفراج فإذا به يساق إلى « المحمصة » وهى مكان التعذيب كما يطلق عليه المعتقلون ؟ ؟

اللّهم لا شماتة ..

إن أمثال (س) فى السجون والمعتقلات السياسية كثيرون ، وقد يكون من حق أى إنسان أن يغير رأيه ، بعد أن يظن أنه كان على خطأ فى توجهه السياسى أو تصرفاته ، فالناس يتغيرون ويتحولون لأسباب كثيرة ، بعضها حقيقى نابع من التفكير والاقتناع ، وبعضها ناجم عن الضعف البشرى ،

والبحث عن حياة آمنة مطمئنة ، بعد أن أنهكته التجارب المريرة ، والضغوط القاسية ، وهكذا يتضاءل تمسكه بالمبادئ ، فيتخفف منها ، ويلقى عن كاهله أعباءها ، وما (س) إلا مثل من هذه الأمثلة الأخيرة ، فقد كان فلاحًا مسكينًا رقيق الحال ، ينوء بأعباء الحياة الشاقة ، فباع كل شيء لينجو بنفسه ..

الأيام تمضى ..

والذكريات القاسية تراوح القلوب الصابرة ..

وهناك من يستيقظ فى الليل الطويل ، ثم ينفجر باكيًا ، ماذا جرى ؟ لقد رأى فى منامه أن أحد أطفاله مريض .. وأنه يستغيث به ..

وآخر يرى أن زوجه أتت إليه في الرؤيا تشكو سوء الحال .. إنهم بشر يفكرون فى مصائرهم ومصائر ذويهم الذين يتلقون العلم ، أو الذين كانوا على وشك الزواج ، أو الحوامل اللائى سيضعن حملهن فى غيبة الآباء .. أذكر أن أحد إخواننا الصعايدة (من سوهاج) قال لى : « أعتقد أن زوجتى قد ولدت الآن » .

قلت : « وأنت لن تعرف اسم المولود » .

قال بحماسة : « لا ، لقد أوصيتهم أن يسموه محمود » .

- « وإن جاءت بنتًا يا مصطفى ؟ » .

سكت برهة ، ويبدو أنه لم يعمل حسابًا لذلك ، لكنه بعد تفكير قال : « لابد أنهم سوف يسمونها « سيدة » على اسم المرحومة أمى ..»

ضحكت مداعبًا وقلت : « وإذا ولدت تومين ولدين ؟ »

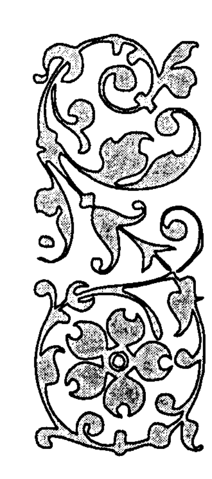
حار مصطفي ولم يدر بماذا يجيب ، فقلت على الفور : « إما أنهم سوف يسمون الأول محمود والثانى محمود أيضًا ، وإما إن يسموا الأول محمود والثانى « سيدة » » .

وشاركنا الحاضرون الضحك ، ذلك لأن النساء فى الصعيد يلتزمن بتوصيات الرجال دون أن يحدن عن ذلك ..

وتمضى الليالى الطويلة الشاقة .. وتمضى .. ونحن ننتظر فرج الله ، الذى لابد أن يأتى فى يوم من الأيام ..



# [٤] أبو زعبل الجديد



في أحد أيام شهر نوفمبر ١٩٦٥ فوجئنا بحركة غير عادية فى ساحة السجن ، ثم فتحت الأبواب ، ووجدنا أحد الضباط ينظر فى قوائم الأسماء ، وينادى علينا اسمًا اسمًا ، ثم نرص فى صفوف ، وتساءلنا ماذا يجرى هنا ، ولم يكن أحد من الإداريين بالسجن قادرًا على أن يجيب على تساؤلاتنا ، فلا يجب أن يخبرنا أحد بأية معلومات ، فمن المفروض أن نظل فى عماية تامة عن كل ما سيجرى لنا ، ورأى أحد إخواننا أن هذه القوائم ما هى إلا قوائم الإفراج عنا بعد أن مضى علينا فى السجن بضعة أسابيع ، ومما يرجح ذلك أنه ليس بيننا من اتهم بالاشتراك فيما يسمونه المؤامرة الجديدة ، كما إن رجل المخابرات الذى التقيت به منذ أيام (هـ. د) قد صرح بأن الحكومة بصدد الإفراج عمن لم تلحق بهم شبهة فى وقت قريب . والحقيقة أن هذا الظن قد أوجد شعورًا عامًا بالتفاؤل ، ومع ذلك فقد تراجعت عن تفاؤلى ، وخاصة أن أسماء جميع المعتقلين فى أوردى أبو زعبل قد وردت فى القوائم ، وليس من المعقول - كما تعودنا - أن يفرج عنا دفعة واحدة ، ولهذا قلت لمن حولى من الإخوان : « لا تُفجعوا إذا وجدتم أنفسكم قد نقلتم إلى معتقل آخر ..»

قال أحدهم : « ألا تظن أن هذا إفراج » ؟ . « كلا ..»

وحشرونا من جديد فى سيارات كبيرة ، تحت حراسة مشددة ، وانطلقت القافلة الحزينة فى طريق المجهول مرة أخرى ، لكن لم يطل بنا المسير ، فبعد دقائق من تحركنا وقفت السيارات بنا أمام مبنى جديد أنيق ، ولم يكن من الصعب علينا أن نعرف أن هذا هو معتقل أبو زعبل الجديد ، وتبخرت أحلام الإفراج أمام الحقيقة المرة الواقعة ، وداهمنا غمٌّ شديد حتى لكأننا نُعتقل مرة أخرى ، ونزلنا من السيارات وجلسنا القرفصاء ، وخرج علينا رجل ضخم الجثة ، مكفهر الوجه ، يميل إلى السمرة ، ويرتدى زى الشرطة وقال : « هل سمعتم عن « الصول » الجوهرى » ؟

كنا نسمع عنه الكثير ، وخاصة ما يتعلق بقسوته وجفوته ، وإمعانه فى تعذيب الإخوان الذين يجرى معهم التحقيق ، ولم ننطق .. كانت نظراتنا تعبر عن مشاعرنا الحزينة ، ووقف الجوهرى أمامنا وقال : « الشعب لو رآكم لضربكم بالأحذية على رءوسكم .. أنتم خونة وأعداء للشعب ..»

لم ننطق .

واستطرد قائلًا : « على كل واحد منكم أن يخرج من جيبه منديلًا ، ثم يعصب به عينيه جيدًا ، بحيث لا يرى أى شىء ..»

قال المعتقل الحاج حامد ، وهو فراش بإحدى مدارس وزارة التربية : « أنا ليس معى منديل يا أفندم »

صاح الصول الجوهرى بصوت أجش : « اخلع سروالك واعصب به عينيك ..»

ثم أخذونا إلى الساحة الداخلية لمعتقل أبو زعبل الجديد ، وأمر الصول كل واحد منا أن يخلع

ملابسه تمامًا ويكومها إلى جواره حتى تتم عملية التفتيش على وجهها الصحيح ، وعندما تلكأ البعض في فعل ذلك انهالت عليهم السياط ، وهكذا تم بسرعة خلع الملابس ، ووضعها إلى جوار صاحبها ، وأصبحنا جميعًا عراة ، لكن من حسن الحظ أننا معصوبوا الأعين ، ولا يرى أحدنا الآخر ، وبعد أن تمت عملية التفتيش على الوجه المطلوب سمح لنا بالذهاب إلى أماكننا ، ولكن كيف نذهب إليها ونحن معصوبو العيون ؟ ولكن لم تطل بنا الحيرة ، فقد أمسك كل منا بقفا زميله حتى شكلنا سلاسل طويلة من الرجال العرايا الذين يحملون بقجهم فى يدهم الأخرى ، وفى بداية كل سلسلة عسكرى يمسك بيد أول واحد فى الطابور .. وجرى العسكر ، وكنا نجرى معصوبى الأعين وراءه ، ولم نكن نعرف صفات الطريق الذى نجرى فيه ، وبعد لحظات أدركنا أننا نصعد درجات سلم طويل ونحن نلهث ، وفجأة أفلتت يدى من الأخ الذى يقودنى ، ولكنى لم أتوقف ، بل اندفعت جريًا ، وخلفى عدد من الإخوان ، وكم كانت دهشتى عندما وجدت رأسى تصطدم بحائط ، فتوقفت ، ولم أدر ماذا أفعل ، فتوقفت ، وتوقف من خلفى ، ولم يطل انتظارى ، فقد أتى عسكرى ، وأمسك بيدى ، وقادنى على الدرج ، وبدا السلم طويلًا جدًا ، ولا أدرى أين أصعد ، وفى النهاية وصلنا إلى طريق ضيق على يسارى حائط ، وعلى يمينى سور من القضبان الحديدية يرتفع حوالى مترًا ونصف المتر تقريبًا ، ثم فتح باب ، ودفعت إليه ، ثم أغلق الباب ، عرفت ذلك من خلال صوت المفتاح الحديدى الضخم ، وتحسست المكان بيدى ولكنى شعرت بأن يدًا حانية تشدنى برفق إلى حيث وضعت بقجتى ، وجلست عليها ، وبعد دقائق سمعت صوتًا رقيقًا يقول : « ارفع العصابة من فوق عينيك » .

– « إنهم لم يسمحوا بذلك بعد ..» .

– « اطمئن يا أخى ، لقد ذهبوا » .

تباطأت قليلًا ، فما كان من هذا الأخ إلا أن مد يده وأزال العصابة عن عينيّ ، وفتحت عينى لأجدنى فى عنبر كبير ، به عشرات من الرجال الذين يجلسون صامتين ، ويوجهون نظراتهم نحوى ، لم أكن أجهل أن هؤلاء معتقلون مثلى ، بل إنى أعرف البعض منهم ، ولم أكن وحدى الذى قدم إلى هذا العنبر ، فقد أتى معى ستة ، وبقية المعتقلين الذين كانوا معنا فى أوردى أبو زعبل توزعوا على بقية العنابر فى معتقل أبو زعبل الجديد ، في الطابق الرابع الذى نزلت به ، كان بهذا العنبر ما يقرب من خمسة وثمانين معتقلًا ، وأنه يضم رجالًا من محافظة سوهاج والقليوبية وبور سعيد والسويس وغيرها .

ولقد كنت معروفًا لدى عدد ضخم من إخوانى منذ سجنى لأول ربما بسبب الجوائز الأدبية التى نلتها وأنا سجين ، وبعض المسلسلات الإذاعية التى أعدت عن قصصى ، وكتابتى فى الصحف والمجلات ، وما إن علم الإخوة بالعنبر باسمى حتى هرعوا إليّ يرحبون بى ويصافحوننى ويعانقوننى .

وكان العنبر نظيفًا ، وبه دورة مياه جيدة فيها مرحاضان لهما أبواب ، بعكس مرحاض أوردى أبو زعبل المكشوف ، كما كان يوجد دش للاستحمام ، لكن الازدحام كان شديدًا يكاد يضيق بعدد المعتقلين ، وكان باب العنبر من القضبان بحيث يرانا ونرى كل من يمر فى الممشى الطويل لممتد أمام العنابر .

واستقر بنا المقام مرة أخرى فى هذا المكان ، لكن الذى آلمنى أشد الألم هو تلك التحقيقات الرهيبة لتى تجرى فى ساحة الدور الأرضى طوال الليل ، وكان التعذيب مستمرًا ، وكذلك الصراخ والعويل والاستغاثة ، مما جعلنى أعانى من الأرق لبضع ليال ، ولم أكن أستطيع النوم إلا ساعتين وقت الظهر ، لكنى تعودت على المأساة بمرور الوقت ، وأمسيت أستطيع النوم مع صدور تلك الأصوات البائسة ، وقد

لاحظت أن الذين يجرى معهم التحقيق يرقدون فى ساحة الدور الأرضى طوال النهار والليل ولا ينامون فى الزنازين الصغيرة الملحقة بذلك الدور ، وقد يظل المتهم مسجّى فى تلك الساحة ليالى وأيامًا قد تمتد من أسبوع إلى شهر ، ويأكل ويشرب حيث هو ، ولا يسمح له بالتحرك إلا عند ذهابه إلى دورة المياه أو إلى المكتب الذى يجرى معه فيه التحقيق ، وكان من بين هؤلاء الدكتور أحمد الملط وهو ذو شهرة واسعة وتاريخ عريق فى جماعة الإخوان ، والأستاذ المذيع التليفزيونى إبراهيم عزت ، وإخوان « العشرات » الذين سبقت الإشارة إليهم ، ومن تثبت إدانته كان يرحّل إلى السجن الحربى لاستكمال التحقيق معه ، وقد تثبت براءة البعض هناك فيعودون إلى معتقل أبو زعبل الجديد مرة أخرى .

ما أقسى ما تمر الأيام .

لقد تشوقت لرؤية أولادى .

ألم يكن من العدل أن يسمح لنا بالزيارة أو حتى المراسلات ؟

وفى هذه الأيام ألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابًا سياسيًا هامًا ، وصدرت الأوامر لقائد المعتقل بأن يذيع الخطاب من خلال ميكروفون المعتقل حتى نسمعه ، كان الرئيس فى هذا الخطاب يحمل بشدة على حلف الرئيس الأمريكى أيزنهاور الذى أطلقوا عليه حلف بغداد .. وأخيرً أطلقوا عليه الحلف الإسلامى ، وهو مكون من مجموعة من الدول الإسلامية تتكاتف لتجابه الشيوعية والاتحاد السوفيتى ، وصور عبد الناصر الحلف على أنه « خواجة ألبسوه عمامة » ، وكانت الجماهير وهى تستمع إلى الخطاب تهتف وتصفق وتضحك عند سماعها لسخريات الرئيس اللاذعة ..

وفى اليوم التالى لسماع الخطاب ، سألنا رجال الأمن عن رأينا فى هذا الحلف وفى كلام الرئيس ، وطلبوا منا أن نكتب عريضة للرئيس نسجل فيها رفضنا للحلف ، وتأييدنا للرئيس ، ولم نكن ندرى ماذا نفعل ، فإذا تخلينا عن ذلك تعرضنا لمزيد من العذاب والقهر والإذلال ، ولم يكن أمامنا سوى أن نرفض ذلك الحلف المشبوه ، وخاصة أننا دائمًا ضد تلك الأحلاف الاستعمارية من قديم الزمن ، وأخذنا رأى الدكتور « خميس حميدة » وهو وكيل جماعة الإخوان المسلمين السابق ، وكان معتقلًا معنا فقال : « إنها مسألة محيرة ، فقد نؤيد الرئيس فى رفض الحلف الآن ، فيقابل تصرفنا بالرضى ، لكن ماذا نفعل إذا حدث فى المستقبل ووافقت الحكومة على ذلك الحلف ؟ سنكون عرضة للمؤاخذة الشديدة .. إن رأيى هو أن نعلن أننا مع الدولة فى موقفها من الحزب ، ولها أن تتخذ القرار المناسب » .

ولقد كان من الصعب أن نتبع نصيحة الدكتور خميس حميدة ، لأن المطلوب حاليًا هو رفض الحلف وإدانته ..

وتم لهم ما أرادوا ووقعنا على إدانة الحلف ورفضه ، لكن الذى آلمنا هو أن الرئيس شن حملة ضارية على جماعة الإخوان المسلمين ككل ، وأكد أن كل من تطاله شبهة نشاط سوف يبقى فى المعتقل طول حياته ، ونحن نعلم أن الشبهة من السهل أن تأتى من مخبر جاهل أو عدو حاقد ، أو عضو فى حزب الرئيس ، وكلها أمور مقلقة تدعو إلى الحزن والأسف ..

---

فى إحدى الليالى سمعت اسمى فى الميكرفون فأصابنى ارتباك شديد ، وخاصة أن اسمى جاء بين عدد من أسماء شباب الإخوان القدامى أعضاء الجهاز السرى ، وبعض المتهمين فى قضية السلاح ، وكان معروفًا أن من يسمع اسمه فى الميكروفون عليه أن يجمع حاجاته ، ويستعد للترحيل إلى السجن

الحربى ، فقمت وأنا فى غاية الاضطراب لأرتدى حذائى ، وأربط بقجتى ، ومد أحد الإخوان يده لى بمنديل نظيف ، وقال لى : « اعصب عينيك جيدًا » .

وكان هذا هو المألوف لكل من ينادى على اسمه ، وجلست كالتائه لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي ما يقرب من نصف ساعة ، أنتظر الضابط الذى سيفتح الباب وينزل بى إلى الإدارة ، ثم سمعت وقع أقدام الضابط وهو يدق الأرض بحذائه الغليظ ، وقلبى يدق أسرع من خطواته . وأخيرًا وقف أمام الباب ، وكنت أنا واقفًا أنا الآخر فى وضع استعداد واستسلام تام ، لكنه لم يفتح الباب .

قال : « أين نجيب الكيلانى » .

هرولت إليه ، ومعى بقجتى ..

قال : « هل زوجتك اسمها كريمة محمود شاهين ؟ »

– « نعم .. »

– « هذا شيك وصل باسمك من إذاعة الكويت بمبلغ كذا .. ونريد أن توقع على هذا التوكيل لزوجتك كى تصرف الشيك » .

تنفست الصعداء .

هل أنا فى حلم ؟ وهل نجوت فعلًا من الترحيل إلى السجن الحربى ؟ لم أكن أصدق ، لكن الضابط يسلمنى قلمًا ، ويمد لى الأوراق لكى أوقع عليها .. لم أقرأ شيئًا .. كانت يدى ترتجف بشدة ..

قال لى الضابط : « اهدأ حتى يأتى التوقيع سليمًا .. »

وما إن انصرف الضابط ، حتى ضج الإخوة بالضحك ، وأخذوا يهنئونى بالنجاة ، حتى لكأنى حصلت على قرار إفراج .

شربت جرعة ماء أحضرها لى إخوانى ، واستلقيت على ظهرى حتى أجمع شتات نفسى المبعثرة ، كنت خجلًا أمام نفسى من هذا الاضطراب الزائد الذى يلم بى عند كل حدث مجهول ، لكن ما حيلتى ؟ هكذا خلقنى الله سريع التأثر ، شديد الانفعال ، ولا أتوقع خيرًا أبدًا من هؤلاء الطغاة ، الذين ينظرون إلى الناس دون تفرقة على أنهم متطرفون .. منحرفون .. خونة .. إرهابيون .. أحيانًا كان يبدو لى أن الموت أفضل ألف مرة من هذه الحياة القاسية الرهيبة ، لكنى كنت سرعان ما أهدأ ، وأعتصم بالصبر وأذكر نفسى بكلمات الله :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ...﴾ .

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ .

لهذا كان عزائى فى آيات القرآن الكريم .

وفى الصلاة .. وفى ذكر الله ..

أراد إخوانى من أهل الصعيد بسوهاج أن يُسرّوا عنى ، وأن يمدونى بأحداث حقيقية قد تصلح كمادة للكتابة ، فقال لى الأستاذ عويس وهو مدرس بمدرسة « الخيام » الابتدائية (والخيام قرية فى محافظة سوهاج) فقال : « هل سمعت عن قضية الحلبة ؟ »

فقلت فى دهشة : « حِلْبة ؟! إنها نبات أخضر يشبه البرسيم ، لكن أية قضية تقصد ؟ » .

وأشار عويس بيده ، فحضر عدد من الشباب الصعايدة ، بينهم رجل فلاح قح ، يصعب عليّ أن أفهم كلمة واحدة من لهجته المغرقة فى المحلية والتى لم أسمع مثلها من قبل ، وطلب عويس منهم أن يرووا قصة قضيتهم التى حدثت فى عام ١٩٥٦ بعد أن أصدر جمال عبد الناصر دستورًا جديدًا للبلاد ، أغلق بموجبه المعتقلات - كما زعموا - وحل محكمة الشعب التى حاكمت الإخوان فى عام ٥٤ - ١٩٥٥ وغيرها من المحاكم الاستثنائية .

واستمعت إلى القصة باهتمام ، وكان عويس يتولى شرح ما غمض عليّ من أقوال إخوانه الصعايدة ، وقضية الحِلْبة تتلخص فى الآتى :

قام بعض الفلاحين بزراعة مساحة كبيرة من الحلبة ، وعند الحصاد كانوا يسجلون أسماء العمال فى كراسة صغيرة ، ويكتبون أمام كل اسم ما أخذه من الأجر المتفق عليه بالقروش ، وكان يتولى أمر الكتابة فى الكراسة طالب بالسنة الأولى فى مدرسة الزراعة المتوسطة ، وفى أثناء سير هذا الطالب بالليل عائدًا من الحقول إلى بيته صادفه كمين من رجال الشرطة يترصدون لصوصًا سرقوا بعض المواشى ، فأمسكت الشرطة بذلك الطالب ووجدت معه الكراسة وأسماء الفلاحين ، كما قرءوا أيضًا عبارة على غلاف الكراسة تقول « يسقط جمال عبد الناصر ، ويعيش الهضيبى » فما كان من الضابط المسئول إلا أن أمسك بالطالب الصغير وأرسله مخفورًا إلى أمن الدولة بسوهاج ، وصدر الأمر بالقبض على الطالب وعلى كل من وردت أسماؤهم فى الكراسة بتهمة تكوين تنظيم سرى ضد الحكومة لقلب نظام الحكم .

وأمام دهشة الناس سيق الفلاحون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة إلى القاهرة . ولكن محكمة الشعب كانت قد ألغيت ، والمعتقلات أغلقت ، وهكذا قدموا لنيابة أمن الدولة لمحاكمتهم ، ووضعوا فى سجن القاهرة رهن التحقيق ، واستمر التحقيق ثلاثة أسابيع تبين خلالها أن الفلاحين الفقراء الأميين لا يعرفون شيئًا عن السياسة ولا يعرفون من يكون الهضيبى ولا من الإخوان المسلمين ، الطالب الصغير وحده البالغ من العمر ستة عشر عامًا هو الذى لديه فكرة مبسطة عن الإخوان والهضيبى ، وتبين للمحققين أن الأسماء التى وردت فى الكراسة لأجراء يعملون فى الزراعة وأخذ المحققون يضحكون ثم أصدروا أمرًا بحفظ القضية والإفراج عن الجميع .

من العجيب أنه بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على هذه الواقعة ، جاء رجال وزارة الداخلية ، واعتقلوا أصحاب قضية الحلبة مرة أخرى ، وهم الفلاحون الأميون ومعهم طالب الزراعة الذى أصبح مدرسًا الآن بعد أن تخرج منذ سنوات وحصل على دبلوم الزراعة المتوسطة ، وكانوا مجرد معتقلين ينطبق عليهم قرار « اعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه فى أمره » .

ومن سوهاج أيضًا تم اعتقال رجل يدعى « عبد الرحيم المهندس » سألته : « ما هى قصتك يا عبد الرحيم » .

عدّل من وضع منظاره الأبيض فوق عينيه وقال : « نحن أصلًا من عائلة « أبو برسيم » .

لم أستطع أن أمسك نفسى من الضحك ، لكنه استطرد فى جدية وقال : « أبو برسيم حوّرت بعد ذلك إلى عائلة « البيرشمى » وهى أسرة معروفة فى المنوفية .. ونحن أصلًا ننتمى إلى عائلة البيرشمى هذه ، لكن جدى الكبير إبراهيم كان مهندسًا ذائع الصيت ، وأرسلته الحكومة إلى الصعيد لكى يحمى شطآن نهر النيل من التآكل ، وأقام هناك (فى المنيا) وأطلق عليه الناس اسم (إبراهيم المهندس) هل تعرف يا سيدى الدكتور النبوى المهندس وزير الصحة ؟ »

– « نعم أعرفه يا عبد الرحيم ، وهو من أساتذتى فى كلية الطب » فابتسم عبد الرحيم ابتسامة عريضة وقال : « هذا الوزير هو ولد عمي .. وهو من أحفاد جدنا الكبير إبراهيم المهندس طيب الله ثراه .. لكن كما تعلم أصبح فى أسرتنا الأغنياء والفقراء .. وأنا يا أخي من الفرع الفقير .. لكننا شرفاء محترمون .. ونحن لسنا فى حاجة إلى ابن عمنا الوزير ولا غيره .. لن أطيل عليك .. أنا لم أتعلم تعليمًا نظاميًا كافيًا ، حفظت القرآن ، وأجدت القراءة والكتابة ، وأخذت أبحث عن وظيفة ... أرسلت عشرات الرسائل إلى جمال عبد الناصر دون جدوى ، ثم جاء اليوم الحاسم .. انتبهت إلى عبد الرحيم وقلت : « متى كان ذلك » ؟ « عندما أرسلت رسالة إلى جمال عبد الناصر وقلت له فيها : إذا لم تأمر لى بوظيفة ، فسوف أهتف بحياة الملك أحمد فؤاد الثانى وليّ عهد الملك المخلوع فاروق الأول ... وعندها قامت الدنيا ولم تقعد ، وجاء العسكر بالسلاح والعربات المصفحة وقبضوا عليّ فى عام ١٩٥٦ بتهمة التآمر على الثورة وزعميها .. ووضعونى فى سجن مصر ، وبدأت نيابة أمن الدولة تحقق معى ... لم يستمر التحقيق أكثر من ستة عشر يومًا .. وعرفوا أن المسألة تهديد أجوف ، وهزار فى هزار . وهكذا أفرجوا عنى .. وعدت إلى بلدتى بعد أن تلقيت درسًا موجعًا فى الأدب .. وقد تعجب كثيرًا جدًا . ..»

– « لماذا أعجب يا عبد الرحيم » ؟ « لقد صدر أمر بتعيينى فى وظيفة حكومية على الفور وأصبحت أقرأ عدادات المياه فى المنازل .. والحمد لله لقد جعلونى موظفًا محترمًا .. ولو لم أهدد بالهتاف بحياة الملك أحمد فؤاد الثانى لما نلت بغيتى ..» .

قلت : « لماذا اعتقلوك هذه المرة يا عبد الرحيم ؟ »

– « أنا شخصيًا لا أعرف .. لقد أخذت ألحّ وأسأل الضابط عن السبب دون جدوى ، وأكدت لهم أننى لم أكن من الإخوان المسلمين فى يوم من الأيام .. وكان الضابط مقتنعًا بكلامى .. وبعد أن تعب من كثرة أسئلتى ومناقشتى .. قال لى فى سخرية : لقد اعتقلناك يا عبد الرحيم « كمالة عدد » ، وهى كما ترى كلمة تعنى الاستهزاء بى ، ولما لاحظ الضابط أسفى وغضبى أخبرنى بأن القرار الجمهورى الصادر يقرر اعتقال كل من سبق اعتقاله أو المشتبه فى أمره . . .»

ولم تكن حادثة « الحلبة » أو حادثة « عبد الرحيم المهندس » هى المثل الوحيد لعشوائية الاعتقالات ، فقد كان هناك مئات الحالات الشبيهة بذلك ، مثال ذلك الرجل الذى طلب ترشيح نفسه ضد الرئيس فى انتخابات رئاسة الجمهورية ، وكنا نطلق عليه فى المعتقل « سيادة الرئيس » ، والمعتقل محمد جبالى الذى اعتقل لمدة يوم واحد فى الخمسينات ، من القرن العشرين ، لمجرد تشابه اسمه مع معتقل هارب ، ثم أفرج عنه بعد معرفة حقيقته ، لكنهم جاءوا واعتقلوه فى عام ١٩٦٥ لأنه سبق اعتقاله خطأ يومًا واحدًا قبل ذلك ، والأخوان شاهين وهما محاميان ، بل والأغرب من ذلك اعتقال رجل من أصدقاء « الخُطّ » مجرم الصعيد واسمه محمد عبد اللطيف ، ومن المضحك أن هذا الرجل كان فى المعتقل الجنائى (معتقل الأشقياء) فى قنا ، وفى الحقيقة أن هذا الرجل كان يبدو طيبًا سمحًا ، ولا يكف عن القراءة فى المصحف ، ويعلل اعتقاله مع الإخوان هذه المرة ، بأنه كان فى شبابه يتردد على شعبة الإخوان فى بلده ليسمع الدروس الدينية التى كانت تعجبه ، وكان يضحك ويقول : « يومان فى معتقل المجرمين بقنا ، ويومان فى معتقل الإخوان المسلمين فى أبو زعبل .. حتى لكأن كتب علينا أن نقضى معظم أيامنا فى المعتقلات ..»

وكان فى المعتقل أيضًا رجل « حشاش » ضليع وهو الذى كان يجلس « مسطولاً » فى إحدى المقاهي ، وسمع في الإذاعة تسجيل حادث الاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر فى المنشية ، فعلق

قائلًا وهو تحت تأثير المخدر : « ست رصاصات وما تجيش واحدة منهم فى قلبه ؟ » وسمعه أحد المخبرين فقبض عليه ، ثم قدم للمحاكمة بتهمة غريبة وهى « تمنّى اغتيال سيادة الرئيس » وحكم عليه من محكمة الشعب فى قضايا ١٩٥٤ بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ ... ويخرج ... وتمر الأيام ثم يعاد اعتقاله مع الإخوان ، مع أنه لم يكن عضوًا بالجماعة فى يوم من الأيام .

وقد يشتد العجب عندما نعلم أن الداخلية اعتقلت عددًا من « العمد » فى قرى سوهاج ، أغلبهم قد تخطّى السبعين من عمره ، وقصة هؤلاء العمد أنه بعد قيام الثورة بأيام ، جاءهم مأمور المركز وجمعهم فى صعيد واحد ، وقال لهم : « إن الثورة التى قامت هى ثورة الإخوان المسلمين ، وعلى كل عمدة فيكم أن ينشئ شعبة للإخوان فى بلده ، ويكون رئيسًا لها ، وهذه هى أوامر الحكومة » .

وتم للمأمور ما أراد ، وتمر سنوات ، ثم يأتى عام ١٩٦٥ أى بعد الثورة بثلاثة عشر عامًا ، ويصدر أمر باعتقال هؤلاء العمد المساكين ، هذا وقد رأينا بعض كبار السن القادمين من أقصى الجنوب ، والذين اعتقلوا لأول مرة فى عام ١٩٦٥ ، وكان أحدهم - وقد اقترب من الثمانين من عمره - يقول : « لماذا لا يتفاهم حسن البنا مع الحكومة حتى يفرجوا عنا ؟ » ولم يكن هذا الرجل يعلم أن حسن البنا مات منذ سنوات طويلة ..

الواقع أن عملية الاعتقال التى اجتاحت مصر فى تلك الأيام كانت عملية طائشة عشوائية على نطاق واسع ، ولم يكن لها ما يبررها ، ولقد كتب صلاح نصر مدير المخابرات فى عهد عبد الناصر فى مذكراته أنه رفض أن يتولى قضية سيد قطب ، معللًا ذلك بأنها ليست قضية ، مما ضايق منه عبد الناصر وقال له : « إحنا كل ما نقول لك امسك حاجة تقول لأ .. خلاص شمس بدران هيمسك القضية » وقال صلاح نصر فى مذكراته أيضًا أنه بعد صدور الحكم بإعدام سيد قطب ، طلب صلاح من الرئيس عدم التصديق على الحكم لأن إعدامه (ومجموعته) حرام .. فتبرم عبد الناصر من كلامه وقال له : كفاية .. مراتى بتقول حرام .. وأنت بتقول حرام .. خلاص .. أنا صدقت على الحكم ، هذا بعض ما جاء فى مذكرات مدير مخابرات عبد الناصر ، وقد حاولت أعبر عنه من الذاكرة ، ومن يرد الرجوع إلى هذه المذكرات فإنه يسهل عليه ذلك ، لأنها صدرت فى كتاب ، بالإضافة إلى أنها نشرت فى مجلة أسبوعية كبيرة فى مصر قبل ذلك ، وهى حسبما أعتقد مجلة المصور ، والواقع أن الاعتقالات شملت عددًا من الإخوان الذى استقالوا من الجماعة منذ سنوات ، وبعضهم كان على خلاف شديد مع قيادتها ، ولم تفرق الحكومة بين من بقوا فى الجماعة ومن تركوها نهائيًا .

وخلال هذه الفترة اعتقلت الحكومة مجموعة من أعضاء حزب الوفد ، كما اعتقل الصحفى الشهير مصطفى أمين وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكذلك حوكم حسين توفيق الذى اتهم فى قضية مقتل « أمين عثمان باشا » وزير المالية فى حكومة الوفد ، وكانت الثورة قد أفرجت عنه بعد قيامها ، وأسقطت بقية سنوات العقوبة عنه ، وفى هذا الوقت أيضًا اعتقل أصدقاء السيد كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة ، بعد اختلافه فى الرأى مع جمال عبد الناصر ، الذى حدد إقامته فى مكان معين ، وعقب الرسالة التاريخية التى بعث بها كمال الدين حسين والتى يقول فيها لعبد الناصر : « اتق الله ... » .

ومن الطريف أنه كلما جاء معتقل جديد فكنا نقول إنه :

إخوانى - أو وفدى - أو شيوعى - .. إلخ وإذا لم تكن تعرف هوية المعتقل فكنا نقول عنه : « فئات أخرى »

تمثلا بما كان يطبق فى قانون الانتخابات المصرى الذى يقسم ممثلى الشعب إلى عمال وفلاحين ومثقفين وفئات أخرى .

إننى كثيرًا ما أتذكر كلمات الأخ المعتقل إبراهيم هلال عندما استبدت به الحيرة ، وعجز عن تفسير ما يجرى من أحداث فقال قولته المشهورة بلهجته الشعبية المحببة : « أصل الحكاية بَظْوِتت ..»

لقد اختلط الحابل بالنابل ، وتلوثت قيم عظيمة كانت راسخة فى كيان الأمة ، وضاع الأمن والأمان وأصبحت مصر سجنًا كبيرًا . يعيش ساكنوها فى خوف ورعب واضطراب ، سواء من كانوا داخل الأسوار أو خارج الأسوار ، وأصبحت أمنية الشرفاء فى تلك الفترة أن يخرجوا من مصر ، ويبحثوا لأنفسهم عن أرض آمنة ، ينعمون فيها بالحب والسلام والحرية والكرامة ..

كان أخونا « عويس عبد الوهاب » معتقلًا مميزًا فى سلوكه وتصرفاته ، كنت تنظر إلى وجهه فترى فيه وجه المصرى المسلم الأصيل ، وكانت كلماته تدل على إيمان ونبل وصدق ، وباختصار فهو عمومًا الإنسان الذى تحب أن تجلس إليه ، فتشعر بالارتياح والثقة والطمأنينة ، ومع ذلك فلم أكن أعرف عن تاريخه شيئًا سوى أنه مدرس ابتدائى بمدرسة فى قرية « الخيام » بالصعيد .. وذات مرة شاهدت الأخ الأستاذ حسن دوح يمشى أمام العنبر ، وحسن - كما سبق وأشرت - زعيم الجامعة على أيامنا ، ومجاهد كبير فى حرب فلسطين ، وحرب القنال قبل الثورة ، وقدم حسن إلى باب عنبرنا وقال : « أين عويس عبد الوهاب » .

وهبّ عويس واقفًا ، وجرى عند الباب ، ومد يديه من خلال القضبان واحتضن حسن دوح فى شوق وحب . « أهلًا أخويا عويس » .

- « أهلًا أخويا حسن » .

وتساءلت بينى وبين نفسى ما الذى جمع بين عويس القادم من قرية الخيام ، وحسن دوح الذى كان اسمه على كل لسان فى المجتمعات السياسية والثقافية والإسلامية .. ألا يبدو الأمر غريبًا ؟ .

وكنت معجبًا بحسن دوح وتاريخه وخطبه الملتهبة فى المؤتمرات الجامعية الشهيرة ، وكان الناس يرددون بعض مقاطع من خطبه ، كما كانت الصحف تحتفى بأخباره وبياناته السياسية المؤثرة . وأدركت أنه لابد وأن يكون لعويس عبد الوهاب - هذا الرجل البسيط المتواضع - شأن أى شأن ، وكان يصعب عليّ أن أجر عويس إلى الحديث عن نفسه ، ولهذا قررت أن أبحث عن حقيقة عويس بين أهل محافظته وأصدقائه من خارج محافظته .

هذا الفلاح البسيط الذى يعمل بالتدريس كانت له قصة بطولة رائعة فى حرب فلسطين ، لم يكن يرهب الموت ، فاستطاع أن يقوم بعمليات فدائية مذهلة ، وكان آخرها معركة مصيرية خاضها هو وإخوانه . ولو لم تحسم نهاية المعركة لصالح الفدائيين لحدثت « فالوجة » أخرى ، حوصر فيها جزء آخر من الجيش المصرى ، وقد استطاعت مجموعة عويس أن تدمر الموقع ، وتضحى بعدد من الشهداء ، ونال عويس مجموعة طلقات من مدفع رشاش فى بطنه لكنها لم تخترق الجدار الخارجى للبطن ، ولقد رأيت بطن عويس خلسة وهو يغير ملابسه ، فوجدتها تشبه الغربال من أثر الإصابة ، ومن الغريب أن هذه المجموعة من الفدائيين كانت موضوعة فى معسكر الاعتقال طبقًا لأوامر رئيس الحكومة آنذاك محمود فهمى النقراشى باشا ، لكن قائد الجيش المصرى فى فلسطين اتفق معهم على أن يخرجوا من المعتقل بضمانه شخصيًا ، ثم يؤدوا مهمتهم المقدسة ، ويعودوا إلى المعتقل مرة أخرى ، وهكذا بقى عويس جريحًا يعالج حتى شفى ، وانضم إلى رهط المظلومين من المعتقلين ، ولم يكن ذلك الاعتقال إلا تحسبًا لما

قد يقدمون به من تهديد للحكم الملكى ، وهو تهديد محتمل حسبما رأى المستشارون فى السرايا وفى الوزارة .. وفى عام ١٩٥٦ أيام العدوان الثلاثى قام عويس بواجبه ، وأخذ يدرب الشباب على السلاح وحرب العصابات حتى يشتركوا مع رجال المقاومة لطرد القوات الغازية ، من منطقة القنال ..

وعلى مستوى القرية لعب عويس دورًا بارزًا بين العائلات التى يلتهم الثأر شبابها ، وكاد يفقد حياته وهو يحاول إيقاف المعارك الضارية بينهم ، كما كان سباقًا إلى بذل الجهود فى مجال حل المشاكل الاجتماعية التى تعصف بقريته ، بل والقرى المجاورة ..

وذات مساء ونحن فى ذلك العنبر بمعتقل أبو زعبل الجديد ، قدم إلينا وافد جديد . « ما اسم الأخ ؟ » .

– « زهير قداح من مدينة غزة .. أعمل هناك مدرس لغة إنجليزية .. وتخرجت من كلية الآداب جامعة القاهرة » .

– « ولماذا اعتقلوك ؟ » .

– « اعتقلونى أنا ؟ ؟ كيف ذلك ؟ لقد أخبرونى بأنى سأقضى الليلة هنا وسأرحل فى الصباح » .

– « إلى أين سترحل ؟ » .

– « لا أدرى » .

– « وماذا قالوا لك عندما أحضروك من غزة ؟ » .

– « قالوا إنى مطلوب فى الداخلية بالقاهرة لأمر بسيط ثم تعود لغزة .. إن هذا الاستدعاء كثيرًا ما يحدث » .

واضح أن زهير قداح لا يعرف شيئًا صحيحًا عما يجرى ، ولابد أنه أتى فعلًا يؤاخذ عليه من الناحية السياسية ، وكان على أن أتحاور معه لعلى أستنبط الحقيقة ، وعلى ضوء ذلك يمكن توجيه بعض الإرشادات والنصائح له حتى لا يخطئ فى التحقيق الذى سيُجرى معه . قلت له : « هل لك صلة قديمة بالإخوان ؟ » .

– « لا .. » .

– « هل تعرف سيد قطب أو أحدًا من تلامذته ؟ » .

– « لا . . . » .

– « هل تحدثت بسوء عن الرئيس أو الثورة ؟ » .

– « لم يحدث شىء من ذلك قط .. » .

– « حسنًا .. هل تعرف أحدًا من جماعة التبليغ ؟ » .

– « التبليغ ؟ ما تلك الجماعة » ؟ . « هم فئة من الناس ، يخرجون فى سبيل الله ، وينزلون فى المساجد يتحدثون مع الناس عن عقيدة التوحيد وترسيخ الإيمان الصحيح فى القلوب ، ولا يتكلمون فى السياسة أو الحكومة .

صمت زهير برهة ثم قال : « أذكر أن عددًا من الرجال الطيبين الأتقياء قدموا إلينا فى غزة ، وكانوا يتحدثون عن الدعوة إلى الله والإيمان به فى رقة ووداعة ، وليس لهم أدنى اتصال بالسياسة ، ولقد دعوتهم لشرب الشاى فى بيتى .. » .

قلت باهتمام : « هل شربوا الشاى عندك ؟ » .

– « نعم .. » .

قلت بثقة : « تلك هى قضيتك » .

لم يكن زهير مقتنعًا بما أقول ، وكان يصر على أنه ليس معتقلًا ، وأنهم سيأخذونه فى الصباح إلى وزارة الداخلية ، ثم يعود على الفور إلى غزة ليواصل عمله فى التدريس هناك ، لأنه هو الذى سافر من غزة إلى القاهرة بتذكرة فى القطار اشتراها من ماله ، ذهابًا وإيابًا ، وأخذ يذكر لى أنه يلبس بدلته كاملة تحت تلك الملابس المؤقتة التى سلمها له العسكرى عند مجيئه إلى هذا المكان ، قلت له : « إن هذه الأعداد الكبيرة فى هذا المبنى هم معتقلون من الإخوان ، وأنت واحد منهم ، ويجب أن تتأكد من ذلك ، ولا تصدم عندما يفوتك قطار غزة غدًا ، لأنك بالتأكيد ستقضى معنا هنا فترة من الزمن ، قد تطول أسابيع أو شهورًا ..» .

وبدا لى أنه غير مصدق لما أقول ، ونام زهير معنا فى العنبر ، وعند الفجر جاءوا وأخذوه ، وأخذنا ننتظر عودته طول النهار ، لكنه لم يأتِ إلا وقت العشاء ، ودخل العنبر مهرولًا يجمع حاجاته فى سرعة وارتباك ، كى ينتقل إلى عنبر آخر ، وانتهزت الفرصة واقتربت منه ، ثم قلت : « ماذا فعلوا بك ؟ » .

– « ضربونى علقة ساخنة » .

– « لماذا ؟ » .

– « جماعة التبليغ كما قلت لى ، وقد أكدت لهم أنه لا صلة لى بهذه الجماعة ، وإنى عزمتهم على شرب الشاى فى بيتى من باب إكرام الضيف .. ولا شيء غير ذلك ، لقد التزمت فى الإجابة على أسئلتهم بما نصحتنى به ..» .

– « هل تؤمن الآن بأنك معتقل ؟ » .

وخرج زهير قداح إلى عنبر قريب منا فى نفس الدور (الدور الرابع) ، وكنت أراه يرتدى معطفًا سميكًا عندما يخرج من العنبر وعلى وجهه ابتسامة استسلام ورضى بقضاء الله وقدره ، وهو يحمد الله لأنه لم يحبس على ذمة قضية من القضايا المعروضة على الساحة ، وإنما أصبح مجرد معتقل تحت التحفظ .

ومن بين المعتقلين الصعايدة فلاح طيب يهوى الميكانيكا ، وفكر ذات مرة فى أن يصنع بيديه بندقية (غدارة) وهى عبارة عن قطعة سلاح مبسطة ، وبدأ مشروعه بحماسة ، وما إن انتهى من صنعها حتى فكر فى تجربتها ، فوضع فيها بعض الطلقات ، لكن التجربة فشلت فشلًا ذريعًا ، فأمسكوا بها وبه ، وقادوه إلى المحاكمة . وعندما حاول أن يدافع عن نفسه قال لهم بثقة : « هذه ليست بندقية ..» .

– « بل هى بندقية » .

– « إذا كان الأمر كذلك ، فضعوا فيها رصاصة ، ثم أطلقوها عليّ ، فإذا أصابتنى فى مقتل ، فسيكون ذلك جزائى ، وأموت وانتهى الأمر ، وإذا لم تخرج منها الطلقة فأنا برىء » .

وأجريت التجربة ، ونجا أخونا من الاتهام ، لكنهم أحالوه إلى المعتقل .. أيضًا تحت التحفظ ..

وفى المعتقل التقيت بعدد من الشخصيات منهم العلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية ، ومحقق كتاب تفسير الطبرى ، كما التقيت بالأستاذ الناشر إسماعيل عبيد صاحب « دار التراث » وقد نشر لى قبل ذلك بعض الكتب ، والأستاذ الناشر وهبة حسن وهبة ، صاحب مكتبة « وهبة » ، وقد نشر عددًا كبيرًا من الكتب للأستاذ سيد قطب ومن أشهرها كتاب « معالم فى الطريق » الذى أثار ضجة كبرى ، كما نشر للأستاذ محمد قطب وخالد محمد خالد وفتحى عثمان ، ولى أيضًا ، وكان قد سبق سجن الحاج وهبة فى عام ١٩٥٥ بسجن بنى سويف لمدة

خمس سنوات . والتقيت بالأستاذ عطية الشيخ رئيس المكتب الإدارى للإخوان بمدينة طنطا وكان يعانى مرض الكبد والبول السكرى ، وقد تقدمت به السن ، رحمه الله ، وهو الذى أخبرنى عن موت الأخ العزيز الصديق محمود أحمد صقر من قرية « منية البندرة » من جراء التعذيب فى شهر أغسطس عام ١٩٦٥ ، وكان الشهيد شقيق صديقى الأستاذ لطفى صقر ، ورأيت فى المعتقل الشيخ كشك صاحب الخطب المؤثرة والدروس الدينية التى طار ذكرها بعد ذلك فى كل مكان ، وسجلت على أشرطة ، وكانت تسوّق فى أنحاء العالم العربى والإسلامى ، وخاصة فى عهد الرئيس السادات وما بعده .

وجاء شهر رمضان المبارك وأنا فى معتقل « أبو زعبل الجديد » وفى أثناء هذا الشهر الفضيل توقفت التحقيقات والتعذيب مؤقتًا ، وبدأت الإدارة تمدنا بطعام أجود نوعًا ما ، كما قدمت لنا كمية من الخضراوات كالفجل والجرجير ، ومن الفواكه كالبرتقال واليوسفى ، وعندما رأينا الفواكه لأول مرة بعد شهور من الحرمان كنا نأكلها بقشرها حتى نستفيد أقصى استفادة من الفيتامينات التى بها ، ومن بين الإكراميات أيضًا فى هذا الشهر أن سمحت الإدارة لأحد المعتقلين أن يرتل كل ليلة ربعًا من القرآن الكريم بصوت جميل مؤثر ، بدون مكبر صوت ، وكنا نستمع إليه فى سعادة ، وفى إحدى الليالى ، بينما كان المقرئ يقرأ ، ونحن نستمع فى خشوع ، صاح أحد الضباط قائلًا : « كفى يا أستاذ .. اختم القراءة .. صدق الله العظيم » .

كان التصرف مفاجئًا ويثير التساؤل ، لكن حيرتن لم تطل ، فقد تناهى إلى سمعنا أصوات استغاثة وضرب مبرح استمر لما يقرب من نصف ساعة ، ترى ماذا جرى ، ثم ساد الصمت والهدوء مرة أخرى وصاح الضابط نفسه قائلًا : « اقرأ يا حاج .. استأنف .. الله يفتح عليك » .

وهكذا بدأنا نستمع من جديد إلى الترتيل .

وفى صبيحة اليوم التالى علمنا أن هناك « إيرادًا جديدًا » والإيراد بمصطلح السجون يعنى دفعة جديدة من المعتقلين أو المسجونين ، ولما استفسرنا عن هويتهم علمنا – كما سبق وأشرت – أنهم أصدقاء عضو الثورة البارز الأستاذ كمال الدين حسين ، وكانوا يسهرون معه ويزورونه كأصدقاء بعد أن حدد جمال عبد الناصر إقامته ، ورأت الحكومة أن تعرف أفكاره الحالية ، وآراءه حول الحكومة وزعيمها ، وكان من المعتاد أن يُقام لمثل هؤلاء المعتقلين حفل استقبال يليق بمقامهم ، وهذا الحفل ليس فيه طقوس سوى الضرب والإهانة وألفاظ السباب البذيئة ..

وكانت صلاة التراويح تقام فى كل العنابر ، ويسمح فيها للإمام برفع صوته ، بعض المجموعات كانت تصلى بجزء كامل من القرآن (ثمانية أرباع) فى كل ركعة ربع ، والبعض الآخر وخاصة المرضى والعجزة وكبار السن يصلون فى وقت أقصر ، وبعدد من الآيات القرآنية أقل ، وهناك من كانوا يصلون التراويح عشرين ركعة ، وهناك من يصليها أقل من ذلك ، فلم يكن الإخوان ينضوون تحت لواء مذهب فقهى معين ، وإنما فيهم الشافعى ، والحنبلى ، والحنفى ، والمالكى ، ولم يحدث أى خلاف قط أثناء تأدية الشعائر ، فالجميع يصلون معًا على أى مذهب . .

وفى هذه الفترة سُمح لنا بالخروج والجلوس ساعة فى شمس الشتاء الجميلة فى الممشى الممتد أمام العنبر ، وكان هذا التصرف من قيادة المعتقل يستحق التقدير والشكر ، وأثناء جلوسنا فى الشمس ذات يوم رأيت مجموعة من المعتقلين يخلعون ملابس السجن ، ويرتدون زيهم الخاص الذى جاءوا به من بيوتهم ، بعضهم يلبس العمامة أو الطاقية أو القبعة ، والبعض الآخر عارى الرأس سألت : « من هؤلاء ؟ وإلى أين هم ذاهبون ؟ » .

أجابنى أحد المارة : « هؤلاء دفعة إفراج » . وشعرنا بالفرح ، كان من بينهم صديقى القديم العالم الأزهرى الشيخ « محمد العوضى سلام » وهو من قرية « كفر حسين » القريبة من قريتنا « شرشابة » ، وقيل أيضًا أن معظم هذه المجموعة المفرج عنها ينتمون إلى بلدة « سنفا » التى عثر فيها على قنبلة أحضرها أحد المجندين إلى القرية ، وكانت هذه القنبلة سببًا فى القبض على خلق كثير من أهل القرية ، ولم يثبت فى التحقيق الذى أجرى أن هذه القنبلة كانت ستستخدم ضد الحكومة أو أحد أفرادها .

عندما رأيت الرجال يجرون فى الممشى المواجه لنا فى الناحية الأخرى فى زيهم المدنى ، قلت من باب المرح : « إذا وصلتم سالمين .. فسلموا لنا على الحبايب » .

ورأيت رجلًا من أهل القليوبية كان يجلس إلى جوارى يشهق باكيًا ، تأثرًا بما قلته عن « الحبايب » . وجاءنى الصديق القديم الشيخ محمد العوضى سلام وقال : « إننى متألم لأننى أخرج بدونك .. لكن لكل إنسان حظ مقسوم .. وستخرج بعدنا قريبًا ، فاعتصم بالصبر وسوف أذهب إن شاء الله للوالد والوالدة والزوجة والأولاد كى أطمئنهم عليك .. ألا تريد شيئًا ؟ » عانقته .. ترقرقت الدموع فى عينى .. لم أستطع أن أنطق بكلمة .. طافت برأسى الذكريات القديمة ، والشيخ محمد هذا يعتلى المنبر ، ويخطب فى الناس ، ويشعل الحماس فى قلوبهم ، ونحن معه ووراءه نهتف « الله أكبر ولله الحمد .. الله غايتنا .. والرسول زعيمنا .. والقرآن دستورنا .. والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا » يا لها من أيام ويا لها من ذكريات .. ماتت كالحلم الجميل ، ولم تخلف وراءها غير الأسى والدموع ..

وقبيل يوم العيد انتقلت إلى عنبر آخر فى الجهة المقابلة (الطابق الرابع) ، وكنت سعيدًا بذلك ، إذ التقيت فيه برجل أحبه وأجله ، ذلكم هو الضابط الشجاع فؤاد جاسر رفيق عبد الناصر وأعضاء مجلس الثورة وأحد الضباط الأحرار الشجعان .. كان رجلًا لا يفرط فى كرامته ، وقد خرج من السجن عام ١٩٥٨ قرب نهايته ، لكنهم عادوا واعتقلوه هذه المرة أيضًا ، مع أنهم لم يعتقلوا بقية زملائه من الضباط الذين كانوا معه فى الاعتقال الأول .

وكان لفؤاد ابنان فى الكليات العسكرية أحدهما فى الكلية الحربية ، والآخر فى كلية الشرطة ، وكان يتوجس خيفة من أن رجال وزارة الداخلية قد يطردونهما من الكليات العسكرية بسبب اعتقال أبيهما كما حدث للكثيرين .

وفى يوم العيد جاءه عسكرى على قدر كبير من الوفاء له ، فقد كان ذلك العسكرى مجندًا فى منطقة الضبعة ، وكان فؤاد جاسر ضابطًا هناك قبل الثورة ، ويعامل ذلك المجند برقته المعهودة وبالاحترام الكامل لإنسانيته ، واقترب فؤاد من باب العنبر ، فصافحه العسكرى وقبل رأسه ، فى غيبة قيادة المعتقل ، وأخبره أنه ذهب إلى بيته ، وأن ولديه لم يُفصلا من الكليات العسكرية ، وأن أهله جميعًا على ما يرام ، ثم أهدى ذلك العسكرى لفؤاد « علبة سجائر » وهى هدية ثمينة بكل المقاييس ، لكن فؤاد لم يكن يدخن ، ولهذا تبرع بها لعدد من المدخنين المحرومين فى هذا اليوم العظيم يوم عيد الفطر المبارك ..

وجلس فؤاد بيننا يشرق وجهه بالفرحة الكبرى .. سألت الأخ الأستاذ فؤاد جاسر : « ماذا فعلت بعد أن خرجت من السجن عام ١٩٥٨؛ أى بعد أن قضيت فيه أربع سنوات أغلبها كان فى سجن الواحات الخارجة ؟ »

قال بابتسامته الحلوة الطاهرة : « اشتغلت مقاول مبانٍ ، لم يكن يكفينى معاشى كبكباشى » .

– « لكن زملاءك من الضباط المسجونين الذين أفرج عنهم ، عينوا فى مجالس إدارات بعض شركات القطاع العام برواتب كبيرة » .

- « لم ألق من الرئيس القبول والرضى ، ولهذا تجاهلونى ، لقد عانيت كثيرًا من أجل الحصول على لقمة العيش الشريفة ، لكننى كنت سعيدًا .. ومع ذلك ، والحق يقال فقد حدث تطور مفاجئ ..»

وأخذ فؤاد يشرح قصة جديدة جرت أحداثها بينه وبين بعض رفاقه القدامى فى تنظيم الضباط الأحرار ، فقد أتى إليه عدد منهم وأخبروه أن صلاح سالم (عضو مجلس قيادة الثورة) مريض ويسأل عنه بإلحاح ، واقترحوا أن يقوم فؤاد بزيارته ، لكن فؤاد اعتذر بحجة أن هذه الزيارة قد تُؤول تأويلًا لا يريحه ، فقد يظن ظان أنه بهذه الزيارة يريد أن يتقرب منهم لكسب يتمناه ، أو فائدة يجنيها ، وأنه فى قرارة نفسه يدعو لصلاح سالم بالشفاء ، رغم أن فؤاد لم ينسَ أن صلاح سالم هو الذى وشى بهم لدى جمال عبد الناصر ، وأخبره أن فؤاد جاسر وحسين حمودة وغيرهم من ضباط الإخوان لا يزالون مصرين على تمسكهم بعقيدتهم الإخوانية ، مما دفع جمال إلى التخلص منهم ، وطردهم من الجيش ، وتقديمهم للمحاكمة وإصدار أحكام بالسجن ضدهم أمام الدائرة العسكرية لمحكمة الشعب ، رغم علم جمال بأنهم أبلوا بلاءً حسنًا فى إنجاح الثورة ، وقد حاول الوسطاء إقناع فؤاد بأن صلاح سالم آسف عن كل ما جرى ، وأنه يعتذر عنه بشدة ، ويريد أن يكفّر عن ذلك الفعل فى حق الأصدقاء ، وفى إحدى الليالى جاء الوسطاء من أصدقاء الطرفين (وهؤلاء الوسطاء من الضباط الأحرار السابقين) وأوهموا فؤاد بأنهم ذاهبون لزيارة أحد الأصدقاء فى مكان ما ، وذهب معهم فؤاد ، وما إن وصلوا إلى المكان المنشود ، ودخلوا فيه حتى وجد فؤاد جاسر نفسه وجهًا لوجه مع رفيق الأمس صلاح سالم ، فارتج عليه ولم يدر ماذا يفعل ، وتصافح الصديقان وتعانقا ، ودعا فؤاد لصلاح بالشفاء ، وكانت الدموع تترقرق فى عينى صلاح . « أهكذا يا فؤاد لا تأتى لزيارتى إلا بحيلة ؟ » .

- « أنت تعرف ظروفى ، والله يعلم كم أدعو لك » .

وبعد فترة قال صلاح : « ماذا تفعل الآن ..» .

- « ابتسم فؤاد وقال : « مقاول » .

- « مقاول ؟ وهل هذا يوفر لك الدخل الكافى ؟ » .

عاد فؤاد للابتسام وقال باقتضاب : « الحمد لله » .

وتبادل الجلوس شتى ألوان الأحاديث ، وفجأة قام صلاح من مكانه ، ثم غادر الغرفة ، وعاد بعد قليل ليقول : « مبروك يا فؤاد ، لقد وافق جمال عبد الناصر على أن يرفع معاشك الشهرى من بكباشى إلى لواء ، لقد حادثته فى التليفون الآن » .

طأطأ فؤاد رأسه فى خجل وقال : « متشكر جدًا » .

وعمت الفرحة الحضور ، وأخذوا يهنئون فؤاد على ذلك ، وبعد فترة تبلغ حوالى النصف ساعة قال صلاح سالم : « هل تقبل العمل معى فى مؤسسة التحرير للطباعة والنشر ؟ » .

وكانت دار التحرير تصدر صحيفة الجمهورية ، وصحيفة المساء ، وعددًا من الصحف باللغات الأجنبية مثل البورصة والبرجوريه والإجبشيان جازيت .

قال فؤاد : « أنا لا خبرة لى بالصحافة » .

وغادر صلاح الغرفة مرة أخرى ، وبعد دقائق عاد ليقول : « لقد وافق جمال عبد الناصر على أن تكون مديرًا لمكتبنا بالإسكندرية ، وهذا المكتب مختص بالصحف التى تصدر باللغات الأجنبية فقط ، وسيكون معك نخبة من المعاونين الفنيين الأكفاء ، إذا أنت وافقت فاعتبر نفسك قد تسلمت العمل منذ الآن ..» .

وهكذا شاء الله أن تستقر أوضاع فؤاد ، وأن يعيش فى الإسكندرية مع أسرته يمارس عمله الجديد بقدر كبير من الرضى ، وقضى سنوات فى الثغر يذهب إلى مكتبه صباحًا ومساءً ، منهمكًا فى عمله ، وقد استطاع أن يكتسب ثقة الجميع ، ويطور الأداء ، ويحقق النجاح الذى تمناه ، وظل الأمر على هذا النحو حتى فوجئ فؤاد جاسر - دون غيره من الضباط - بالاعتقال مرة أخرى فى أوائل سبتمبر عام ١٩٦٥ ، أى بعد خروجه من السجن الأول بحوالى سبع سنوات ، وهو شىء لم يكن يخطر له على بال ، بعد أن كان قد ترك السياسة وودع الجيش إلى غير رجعة .

لم يكن فؤاد جاسر متبرمًا بهذا الاعتقال ، فقد كان رجل حرب ونزال وصبر ، يعرف كيف يصمد فى الملمات ولا يضعف أو يتهاوى أمام النكبات ، كل الذى يقلقه هو مصير ولديه فى الكلية الحربية وكلية الشرطة ، وشاء الله أن يفلت الولدان من عسف السلطة ، وكان هذا مصدر سعادة كبرى لفؤاد جاسر فى المعتقل ، وفى يوم عيد الفطر ، ولهذا خلع فؤاد ملابس السجن ، وارتدى بدلة كاملة ورباط عنق أنيق وجلس بيننا وسط العنبر كالعمدة يبادلنا الأحاديث الأخوية المرحة ، والفكاهات الطريفة ، ويذكر بعض ذكرياته عن تنظيمات الثورة فى الجيش ، وعن قيامها والوقائع التى جرت فيها ، ولم يخرج فؤاد من المعتقل هذه المرة إلا بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمسة عشر شهرًا ، وعاد بعدها إلى عمله فى الإسكندرية ، وبعد ذلك بفترة طويلة عدت فى إجازة صيفية من مدينة دبى بالإمارات العربية المتحدة ، وحينما كنت أقضى بضعة أسابيع فى الإسكندرية التقيت فى بيت خالى الأستاذ عبد الرافع الشافعى بمحرر فى جريدة الإجبشيان جازيت وسألته عن فؤاد جاسر ، فقال إنه رئيسهم ، وأستطيع أن أقابله فى الصباح إذا شئت ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى فؤاد جاسر ، وكان لقاءً عامرًا بالمحبة والوفاء ، الابتسامة النقية تضىء وجهه الأسمر ، والكلمات الحلوة تنساب من بين شفتيه ، كل شىء فيه يوحى بالثقة والأمل والإيمان ، سألته عن ولديه فقال : « الأول ضابط بالجيش الآن ، والثانى ضابط شرطة ، وهما يسيران - بحمد الله - على النهج القويم ..»

قلت : « كنت قلقًا على ولدك الضابط فى الجيش أيام حرب ٦٧» .

ضحك فى سعادة وقال : « بعد الهزيمة فوجئت به قادمًا متورم القدمين منهكًا ..» .

- « لا شك أنك تألمت من أجله » .

قال فى غضب واستنكار : « كيف هذا ؟ لقد أوقفته على الباب ، ولم أسمح له بالدخول ، وصرخت فيه أن يعود إلى وحدته العسكرية على الفور ليلتحق بها ، ويواصل عمله المقدس فى حرب الأعداء .. كانت أمه تبكى ، وإخوته يستعطفوننى ، لكننى لم أقبل شفاعة فى هذا الأمر .. وضعت فى يده مبلغًا من المال وأمرته أن يعود لوحدته .. قال لى دعنى أسترح قليلًا فأنا لم أنم ، وأريد أن آكل لقمة وأشرب ماءً .. قلت له معك النقود اشتر ما شئت .. هيا .. وأغلقت الباب فى وجهه ..» .

بعد مرور العيد بدأت التحقيقات من جديد ، وبدأ التعذيب والصراخ والأرق ، لكن بدرجة أقل من السابق .

وفى إحدى الليالى سمعت صوتًا يستغيث من العذاب : « والله ما بَعْرف .. والله ما بعرف ..» .

خيل إلىّ أننى أعرف صاحب هذا الصوت ، كما تأكد لى أنه ليس مصريًا ، وساورتنى الشكوك ، ترى من يكون ؟ خيل إلى أنه ربما يكون هو الأخ الليبى « محمد نشنوش » الذى نشر لى عددًا من الكتب ، حيث كان يملك مكتبة « النور » بمدينة طرابلس بليبيا ، ومن كتبى التى نشرها :

١- الطريق إلى اتحاد إسلامى .

٢- الإسلامية والمذاهب الأدبية .
٣- العالم الضيق وقصص أخرى .

وتوجست خيفة ، ذلك لأن الكتاب الأول (الطريق إلى اتحاد إسلامي) كان قد صودر في القاهرة ، وجمعت نسخه من المكتبات التى أخذت منه ، والكتاب فيه استشهادات من بعض كتب المودودى ، وكنت قد ألفته فى عام ١٩٥٩ - ١٩٦٠. في الوقت الذى كان الحديث فيه عن القومية العربية والوحدة العربية يحجب كل ما عداها ، وهناك أمر آخر أشد خطورة أقلقنى جدًا ، وهو أن محمد نشنوش كان قد طلب منى أن آخذه إلى الأستاذ سيد قطب للتعرف عليه ، وحققت له ما أراد على مضض ، فلو أن محمد نشنوش ذكر هذه الواقعة[1] فسوف يأخذوننى حتمًا إلى السجن الحربى حيث يوجد الأستاذ سيد قطب ، وسوف يحققون معى بالتأكيد عن مدى علاقتى به ، ومعنى ذلك أن أتعرض لأهوال لا يعلم إلا الله مداها . وبقيت - كما يقولون - جالسًا على نار ، حتى مر علينا الأخ م . عمارة ، وسألته عن ذلك الرجل الذى يعذب فى الدور الأرضى فقال : « يبدو أنه من طرابلس » .

- « طرابلس الشام أم طرابلس ليبيا ؟ » .
- « لا أدرى ..» .
- « إن كان من ليبيا فستكون كارثة » .

وأدرك عمارة قلقى فأراد أن يطمئننى فقال : « بل من طرابلس الشام » .

- « هل تعرف اسمه ؟ » .
- « لا أعرف ..» .
- « ربما يكون اسمه محمد نشنوش » .

قال كأنه يتدبر ما يقول : « بالضبط .. اسمه نشنوش » .

- « إذن هو من طرابلس ليبيا ..» .

وأصابنى هم ثقيل .

وقلت : « يا عمارة .. بالله عليك .. اذهب إليه وقل له لا يذكر اسمى على الإطلاق ، ولا يخبر المحققين بشىء عن زيارتنا للأستاذ سيد قطب ..» .

- « سأحاول إن شاء الله » .

ومرت ثلاثة أيام لا يعلم إلا الله كيف قضيتها ، وفجأة وجدت محمد نشنونش أمامى خلف الباب من الخارج ، وأخذ يصافحنى ويعانقنى . ووجدتنى أقول له : « احذر أن تذكر اسمى فى أى تحقيق يا محمد ..» .

قال بلهجته الليبية : « اتهنّا ..» .

ومعناها « كن مطمئنًا » ، واستراح بالى بعد أن سألته عن التحقيق الذى أجرى معه ، والحقيقة أن نشنوش لم يخبرنى بكل شىء ، فقد ذكر أثناء التحقيق أنه يتعامل مع بعض الناشرين فى القاهرة وخص اثنين بالذكر هما .

١- إسماعيل عبيد .

---

(١) تحدثت عن تفاصيل هذه الواقعة فى الجزء الرابع من هذا الكتاب .

٢- الحاج وهبة حسن وهبة .

وتذكرت أننى سمعت اسميهما فى مكبر الصوت أثناء التحقيق مع نشنوش ، ولم أكن أعلم أن لهما علاقة به ، إلى أن رأيت إسماعيل عبيد فى الطابور ، وحدثنى عن نشنوش ، وأخبرنى إسماعيل أنه سئل عن تعاملاته فى الكتب مع نشنوش ، ولما سألت إسماعيل : هل ذكر نشنوش اسمى فى التحقيق قال : « نعم .. لقد ذكر أنه طبع بعض مؤلفاتك ، لكن الضابط قال له : تقصد الدكتور نجيب الكيلانى الذى يعمل طبيبًا بمستشفى السكة الحديد ؟ فأجابه بالإيجاب .. ثم استطرد قائلًا لعلها بعض القصص فقال نشنوش نعم ، ولم يشر إلى كتاب « الطريق إلى اتحاد إسلامى » أو « الإسلامية والمذاهب الأدبية » .

وهكذا مرت الأزمة بسلام ، ولم تخفت حدة قلقى إلا بعد أن أخذوا محمد نشنوش بعد عشرة أيام إلى المطار مباشرة كى يسافر إلى بلده ليبيا .. والحمد لله .

كانت مشكلة تفشى « القمل » بيننا تؤرقنا بشدة ، ذلك لأننا كنا نلبس ملابس المسجونين العاديين ، وانتشار القمل يعتبر مرضًا معديًا يسمونه باللاتينية « بدكيولوزس » وأذكر أن أحد المعتقلين من بور سعيد استطاع أن يجمع خمسين قملة من ملابسه (وهو رقم قياسي) ووضعها فى قنينة صغيرة ، ثم قدمناها إلى أحد الضباط حتى يخبر قائد المعتقل لعله يبحث لنا عن حل لهذه المأساة الصحية ، وفى أحد الأيام أحضروا لنا فريقًا صحيًا للرش بالمبيدات الحشرية من الخانكة ، وأمروهم بأن يؤدوا عملهم دون أن يكلموا أحدًا منا على الإطلاق ، وفى عنبرنا كان عامل الصحة يستخدم الرشاشات المعبأة بمادة د . د . ت ، فيرش البطاطين والملابس والفراش ودورات المياه ، كان العامل يطلق دفعات المسحوق من الرشاشة ثم يتوقف لحظة وينظر إلى ساحة الدور الأرضى ليرى المتهمين النائمين على البلاط تغطيهم البطاطين من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ودهش عامل الصحة وقال : « ما هذا ؟ جثث ؟ يا ستار يا رب » .

ويرش ، ثم يعود ليطل من الدور الرابع ليرى البؤساء الراقدين ، ويستبشع المنظر .

قلنا له : « إنهم أحياء » .

- « لكنهم لا يتحركون » .
- « لأنهم نائمون » .
- « ولماذا لا ينامون فى الغرف ؟ » .
- « لأنهم تحت التحقيق ..» .
- « لا أفهم ..» .

ويعود للرش ، ويقول : « ربنا ينجيكم من شرهم » .

وكان بين المعتقلين رجل من السويس يتطوع دائمًا بخدمات المحتاجين من الضعفاء والمرضى فى العنبر ، فكان محل ثناء وشكر وتقدير من الجميع .. ولهذا الرجل خمسة من الأطفال وعندما اعتقلوه سقطت امرأته مغشيًا عليها ، لكنهم ساقوه إلى المعتقل وأوصوا بنقلها إلى المستشفى لإسعافها ، ولم يدر هذا المعتقل المسكين أن زوجته قد فاضت روحها . ولم يستطع المعتقلون من السويس الذين اعتقلوا بعده أن يخبروه بالحقيقة حتى لا يزيدوه همًّا على همّه ، ثم ماذا سيفعل لها ولأولادها إذا علم ، لقد ماتت وانتهى الأمر .

فى المعتقل رجال ينهشهم الألم ، ويستبد بهم الندم حتى يخرجهم عن التفكير السليم ، والتصرف العاقل ، وكثيرًا ما يكون لهم العذر فيما يأتون من أعمال لا تليق بهم كحملة لرسالة عظمى ، لكنهم بشر ، يتناوبهم الضعف والخوف ، ولم يكن الناس فى أى يوم من الأيام متساوين فى طاقة الصبر

والتحمل ، من هؤلاء معتقل كان يعمل ميكانيكيًا فى الكويت لحسابه الخاص ، وقد قضى هناك ما يقرب من أربعة أعوام ، وذات ليلة قال لزوجته : « أريد أن أسافر لأرى أمى وأطمئن عليها ..» .

قالت له : « أمك بخير ، ويكفى أنك ترسل إليها الراتب الشهرى والهدايا والملابس وكل ما تطلبه نوفره لها » .

- « لكنها أمى ، والمال ليس كل شىء ، وأريد أن أزورها » .
- « وتتركنى وتترك أولادك الأربعة ؟ » .
- « لن أبقى فى مصر أكثر من أسبوع » .

وأعد حقائبه ، واتجه بها إلى المطار ، عندما نزل بمطار القاهرة الدولى ، وجد رجال المباحث يأتون إليه ويعتقلونه ، ثم يسوقونه إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، لقد اعتقلوه فى عام ١٩٥٤ وأفرجوا عنه بعد أكثر من عام ، ثم نسى الأمر تمامًا وسافر بعد فترة إلى الكويت ، وعاش فيها هادئًا هانئًا مطمئنًا ، يأتيه رزقه رغدًا .. لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يعتقل مرة أخرى ، إذ لم يجد أى مبرر لذلك .. عندئذ تذكر نصيحة زوجته التى تنتظره فى الكويت ، وتذكر أولاده الأربعة ، من سيرعاهم وينفق عليهم هناك ، وإذا عادوا إلى مصر فمن أين يجدون الرزق الحلال ، كان الندم يعضه بأنيابه الحادة التى لا ترحم ، وهكذا اعتزل الجميع فى ركن من أركان العنبر لا يكلم أحدًا ولا يرد على أحد ، وخاصة بعد أن أدرك أن فترة الاعتقال لا يعرف أحد نهايتها ، عندئذ تناول حذاءه ! نعم حذاءه ! وأخذ يضرب نفسه به فى شبه جنون . « ماذا تفعل يا رجل ؟ » .

- « لا شأن لأحد بى » .
- « ثق بالله يا رجل واصبر واحتسب » .
- « كنت أعلم أن هذا البلد لم يعد وطنًا لى ، فلماذا عدت إليه بمحض إرادتى ؟! » .
- « إنها مشيئة الله ، وهو سبحانه لن ينسى عبيده » .
- « دعونى أؤدب نفسى » .
- « وماذا يفيدك ذلك ؟ » .
- « لا بد أن أتعظ وأتعلم » .

وبقى على هذا الوضع أيامًا حتى هدأت أعصابه ، وسكنت نفسه ، ثم انخرط مع الجموع يصلى ، ويقرأ القرآن ، ويذكر الله ويستغفره ، وقال : « إن خالقهم هو المسئول عنهم ، وهو الذى سيرعاهم » .

ماذا كانوا سيفعلون لو أنا مت هناك فى الكويت .. لله الأمر من قبل ومن بعد .. استغفر الله .. سامحنى يا رب » .

ومن بين الذين اعتقلوا معنا الأخ « صلاح الأنور » ، وهو ممن حكم عليهم بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة فى عام ١٩٥٥ ، ثم أفرج عنه فى أوائل الستينات ،من القرن العشرين ، قبل أن يكمل المدة لحسن السير والسلوك ، وبعد أن خرج استأنف حياته الجديدة ، وأكمل دراسته ، والتحق بعمل مناسب ، وحاول أن ينسى أيام السجن البغيضة والعمل الشاق فى قطع الصخور ، وكان كما أعتقد يعيش فى حى مصر القديمة (أو العتيقة) ، وفوجئ ذات يوم من شهر سبتمبر برجال الأمن يأتون لاعتقاله مرة أخرى ، فتذكر أيام التحقيق السوداء فى السجن الحربى منذ عشر سنوات ، وتذكر القسوة البالغة التى لم تكن تفرق بين مدان وبرىء ، فلم يستطع أن يتصور العودة مرة أخرى إلى ذلك الجحيم ، ولذلك قفز من النافذة الخلفية ، وهرب .. فماذا يفعل رجال الأمن ؟

لقد اعتقلوا أمه وأخواته البنات ، وهددوا بالفتك بهن إذا لم يأت صلاح الأنور ويسلم نفسه ..

واعتقد رجال الأمن أن صلاح ربما يكون سبب هروبه هو ضلوعه فى المؤامرة الكبرى التى تريد - كما يظنون - الإطاحة بجمال عبد الناصر ونظامه ..

وبقى صلاح هاربًا لأكثر من أسبوع ، لكنه خاف أن ينفذوا وعيدهم بالاعتداء على أخواته البنات ، فكان أن عزم على تسليم نفسه للسلطات حتى يفرجوا عن الرهائن من النساء ..

وسلم صلاح نفسه .

ثم أخذوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، وبدأ معه التحقيق الرهيب الذى لم ير له مثيلًا من قبل ، سألوه عن المؤامرة التى اشترك فيها عشرات المرات ، فنفى علمه بشىء من ذلك ، ظلوا يضربونه حتى تهاوى وكاد يلفظ أنفاسه ، قال لهم : « أريد أن أنام » .

- « لن نسمح لك قبل أن تعترف » .

وفكر صلاح ، وأخذ ينسج من خياله مؤامرة وهمية لا أساس لها ، استلهمها مما كان يقرؤه فى الصحف أثناء هربه ، وزعم أنه اتفق مع سيد قطب على اغتيال الرئيس وهو فى موكبه إلى مقر الرئاسة .. وأنه .. وأنه .. قال كلامًا كثيرًا .. وبعد استكمال التحقيق حول المؤامرة ، بعثوا بالاعترافات الهامة إلى « المخابرات » ونام صلاح بعدها نومًا عميقًا .. وأكل وشرب .. بل إنهم قدموا له كوبًا من الشاى المضبوط ... وحينما أفاق صلاح وجد أن ما قاله (وهو كذب فى كذب) قد يوصله إلى حبل المشنقة ، فضلًا عن أنه سوف يورط آخرين ممن ذكر أسماءهم ادعاء وظلمًا ، ولهذا قرر صلاح التخلص من حياته ، فقد كان فى حالة نفسية سيئة جدًا ، وقفز إلى أعلى ، وكسر زجاج النافذة الصغيرة ، وأمسك بالزجاج المكسور ليقطع شريان يده ، لكن العسكر فى الخارج سمعوا الضجة فهرولوا إليه وأمسكوا به دون أن يلحق بنفسه أذى . سألوه : « لماذا تحاول الانتحار ؟ » .

- « لأتخلص من حياتى » .
- « والسبب ؟ » .
- « المؤامرة » .
- « ماذا فيها ؟ » .
- « لا أساس لها من الصحة ..» .
- « لقد اعترفت ووقعت ..» .
- « كنت أريد أن أنام ..» .

وتم ترحيل صلاح الأنور إلى السجن الحربى متهمًا بالاشتراك فى المؤامرة الكبرى ، وهنا أنكر الجميع صلتهم به ، وأنكروا كل ما جاء فى اعترافاته ، وشرح صلاح للمخابرات كيف أنه ألف تلك المؤامرة حتى ينجو من التعذيب البشع الذى ظل يعانى منه طوال ثلاثة أيام حتى كاد يموت ..

وضحك رجل المخابرات ، وأمر ببطلان اعترافاته ، وإعادته إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، ليعيش مع المعتقلين المحجوزين تحت التحفظ ..

❁❁❁

# [٥] السجون السبعة ونهاية المطاف



عندما أعود إلى الماضى خاصة عام ١٩٥٥ أذكر أن أول سجن دخلته كان السجن الحربى ، أما السجن الثانى فقد كان سجن مصر « قره ميدان» ، وبعده فى أواخر عام ١٩٥٥ تم ترحيلى إلى سجن أسيوط وهو السجن الثالث ، وبقيت فى هذا السجن حتى أغسطس ١٩٥٧ على ما أذكر ، وبعده انتقلت إلى سجن القناطر الخيرية وهو السجن الرابع ، وعدت مرة أخرى إلى سجن القاهرة حيث تم الإفراج الأول عنى منه . وفى عام ١٩٦٥ جئت مرغمًا إلى أوردى أبو زعبل وهو السجن الخامس ، ثم إلى معتقل أبو زعبل الجديد الذى أكتب عنه الآن ، أما ذهابى إلى السجن السابع والأخير فقد كان فى عام ١٩٦٦ وهو سجن « مزرعة طرة » .

هذه هى السجون السبعة التى تقلبت فيها على أحر من الجمر ، وكان لكل سجن مذاقه الخاص وسجناؤه وإدارته ، لكن المعاملة بالطبع بالنسبة للسجين أو السجن السياسى أسوأ معاملة ، على الرغم من التصريحات الرسمية الكاذبة التى تدعى المعاملة الإنسانية للسجناء ورفضها للتقارير الصادقة التى تصدر من منظمة حقوق الإنسان العالمية ، على الرغم من أن تلك التصريحات تصدر على أعلى المستويات ، وبالنسبة لى شخصيًا فأنا لا أنكر أننى عوملت معاملة طيبة ، بعد أن نلت الجوائز الأدبية ، وتحدد وضعى بشكل عام ، لكن هذا لا ينفى ما تعرضت له فى جحيم المعتقل الحربى ، وفى أيام التكدير بالسجون المدنية التى لم تكن تستثنى أحدًا أبدًا ، هذه الحقائق واضحة من خلال السطور التى كتبتها فى الأجزاء التى صدرت من هذا الكتاب ، وسترى فيما بعد كيف أن وسائل الإرهاب البدنى والنفسى لم تكف أبدًا ..

أعود مرة أخرى إلى معتقل أبو زعبل الجديد ، فقد تدهورت حالتى الصحية ، وأصبت ببواسير نازفة ، أفقدتنى الكثير من الدم ، حتى بدا وكأنى مصاب بالأنيميا (فقر الدم) ؛ إذ لم يكن العلاج متوفرًا ، بالإضافة إلى التهاب مفاصل الركبتين ، واضطراب وظائف الكبد مما يقتضى إجراءات علاجية ووقائية لابد من اتخاذها ، ولقد ازداد خوفى من وضعى الصحى بعد أن شاهدت المعتقل « مدبولى » وهو مدرس لغة إنجليزية فى بنها ، وكان وحيد أبويه ، أصيب بنوع من الحمى طال أمدها ، وكلما عرض على الطبيب أعطاه بضعة أقراص أسبرين حتى تدهورت حالته تمامًا ، وفى اللحظات الأخيرة نقلوه إلى مستشفى سجن طرة ، ويقول الطبيب الذى استقبله هناك : « رأيت جثة تتحرك وتحمل حقيبة » .

وفعلًا مات مدبولى ، وقد أثبت تشريح الجثة أنه كان مصابًا بالتيفوئيد ، الذى سبب له ثقبًا نازفًا فى الأمعاء ، تلك حالة من الحالات التى عايشناها ، وكانت قلوبنا تتمزق أسىً أمام هذه المشاهد المحزنة .

من هنا كان لابد أن أبذل أقصى الجهود لكى أنتقل من هذا المكان الكئيب إلى معتقل آخر قد تتوفر فيه الرعاية الصحية الأفضل حفاظًا على حياتى ، وانتظرت اليوم الذى يأتى فيه الطبيب إلى معتقل

أبو زعبل الجديد ، وطلبت النزول للعرض عليه ، وشاء الله سبحانه أن يوافق الضابط ويكتب اسمى فى القائمة ، ولما قابلت الطبيب (وهو حكيمباشى مستشفى الشرطة التى سبقت الإشارة إليه) قام بفحصى بدقة ، ورقق الله قلبه ، ووعدنى بكتابة تقرير طبى للداخلية يطلب فيه نقلى إلى منطقة طرة كى بتيسر إجراء جراحة البواسير لى ، على أساس أنها عملية مستعجلة بسبب النزيف الذى يهدد حياتى ، وكان علىّ أن أنتظر الرد على التقرير ما يقرب من أسبوعين ، لدرجة أننى يئست من الموافقة على نقلى إلى طرة ، وفوجئت فى إحدى الليالى بالضابط المناوب ينادى اسمى فى الميكروفون ، فأصابنى الاضطراب المعتاد ، والقلق النفسى الذى أصبح رفيقًا لى أبد الدهر ، وليس فى السجن وحده ، لكنى هدأت حينما أخبرنى بأن أجمع حاجاتى واستعد للرحيل إلى معتقل « مزرعة طرة » ، وأخذ إخوانى يهنئوننى ويودعوننى بحرارة ، بل إن الدموع تقاطرت من أعين البعض ومن عينى أيضًا ، لكنى كنت سعيدًا بهذا الترحيل فقد قيل أن المعاملة هناك أفضل ، على الرغم من سوء المبانى ، ورداءة دورات المياه ..

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، ونزلت من العنبر فى الدور الرابع ، ووضعت الأغلال فى أيدينا ، وكنا ثلاثة على ما أذكر ، وكان من بيننا شاب فى هيئة التدريس بكلية العلوم يعانى من شلل نصفى مفاجئ فى هذه السن المبكرة ، وأعتقد أن اسمه الدكتور محمود عاصى ، ولست أعرف شيئًا عن مصيره بعد ذلك .

وركبنا سيارة السجن ، وانطلقت بنا تحت الحراسة المشددة فى الطريق المظلم ، كانت يمناى مقيدة مع يسرى أحد العسكر حتى لا نفر أو نقاوم .. هكذا تصوروا الأمر .. وأخيرًا وصلنا إلى ميدان محطة باب الحديد بالقاهرة حوالى الساعة الثالثة صباحًا .. كان الميدان فى هذا الوقت يكاد يكون خاليًا إلا من نفرين أو ثلاثة .. لكأنى اشتقت للقاهرة .. للدنيا .. للناس .. إننى أنظر إلى الأماكن فى حنان وشغف ، وأتذكر الأيام الخوالى حينما كنت أقطع هذا الميدان سيرًا على الأقدام ، كى أذهب إلى محطة قطار « كوبرى الليمون » التى ينطلق منها القطار إلى محطة أبو زعبل والمدينة السكنية وشبين القناطر ، أو اذهب إلى محطة مصر لأذهب إلى طنطا أو الإسكندرية .. وأنظر فأرى الدنيا كما هى .. الشوارع .. المبانى .. قضبان السكك الحديدية ، هناك فى طرف الميدان المقهى الذى كنت أستريح فيه أحيانًا وأشرب كوبًا من الشاى .. وعلى اليسار شارع الفجالة .. نعم فى بدايته « مكتبة مصر » التى طبعت فيها أول رواياتى الفائزة .. وهى رواية « الطريق الطويل » ، لكن مديرها الأستاذ غريب ، وصاحبها سعيد السحار لا يوجدان الآن ، فالأبواب مغلقة .. لكن كتابى ما زال كالعهد به معروضًا فى « الفترينة » فى طبعتين : طبعة خاصة بالمدارس ...طبعة عامة ..

وسمعت الحارس الذى قيدت يدى بيده يقول : « ألا تريد شيئًا ؟ » .

– « أشكرك » .

– « ألا تحب أن تبلّغ أهل بيتك بأى شىء ؟ »

وراقت لى الفكرة ، إنهم لا يعرفون شيئًا عن مكانى أو حالتى ، وأعتقد أنه من المفيد أن يعرفوا أننى فى معتقل مزرعة طرة ، حتى يكفوا عن البحث عنى فى مختلف المعتقلات المنتشرة هنا وهناك ، كما طلبت منه أن يخبرهم بأن يرسلوا إلىّ بملابس داخلية عن طريق وزارة الداخلية ، وليس عن طريق المعتقل مباشرة ، إذ المفروض ألا يعرفوا مكانى . ولا بأس من إرسال بعض الأدوية المقوية والكولونيا ، وهى أشياء مسموح بها .. وأخرج العسكرى ورقة وكتب العنوان ..

وطال الطريق ، وكنت أتمنى أن يطول ، حتى نرى مزيدًا من الدنيا ، وننهل من معين الحياة

الطبيعية ، وأخيرًا وصلنا إلى معتقل مزرعة طرة وقت الفجر ، وما إن دلفنا عبر البوابة حتى استقبلنا ضابط طيب سمح الوجه اسمه « فتحى طلبة » من مدينة بنها ، كان يبش لنا ، ويبتسم فى وجوهنا وهو شىء لم نألفه منذ شهور ، كانت معاملته تنم عن أصالة وكرم ، وسأل عنى فتقدمت إليه ، فأخبرنى أن هناك مجموعة من الإخوان طلبوا أن أنزل معم فى عنبر الملاحظة الطبية ، وذكر لى بعض الأسماء وكنت أعرفهم جمعيًا ، ففرحت واستبشرت خيرًا ، وبعد أن سجل أسماءنا وساعة وصولنا أخذنا إلى العنابر التى سننزل بها ، وفى العنبر إياه ، استقبلنى أخى الأستاذ الدكتور إبراهيم الصياد ، والحاج منصور موسى تاجر الذهب ، والحاج عبد العزيز عبد الجواد (الشهيد الحي) زميلنا السابق فى سجن أسيوط ، والبنهاوى بك أحد كبار الشخصيات العامة ، وشوقى كحلة أستاذ اللغة العربية ، وسجين الواحات السابق ، وكنت قد التقيت به قبل ذلك ، وهو مريض بتليف الكبد الآن ، ويعانى من الاستسقاء البطنى والضعف الشديد ، والدكتور عبد العزيز إسماعيل ، والساعاتى الخفيف الظل عبد المنعم قنديل (وله محل إصلاح ساعات فى الدقي) ويتميز بجمال الصوت وحب المرح والضحك ، وأخونا الذى يعانى من مرض الصرع « سالم » ، وغيرهم كثيرون .. وصلينا الفجر جماعة ، وأحضروا لنا طعامًا شهيًا ، ثم نمنا على أسرة حشاياها من القش ، لكنها كانت مريحة جدًا إذا ما قورنت بالبرش الذى كنا ننام عليه فى المعتقلات والسجون السابقة ، ولم أستيقظ إلا فى الثامنة صباحًا ، وحوالى العاشرة صباحًا نادوا على اسمى فذهبت إلى طبيب المعتقل وهو الدكتور خليل أيوب خليل ، الذى استقبلنى بترحاب ، وفهمت أن لديه فكرة كاملة عنى ، وكم كانت فرحتى عندما التقيت بعدد آخر من الأصدقاء القدامى ، منهم الدكتور ماهر حتحوت (رئيس اتحاد المسلمين الآن فى كاليفورنيا بأمريكا ، ويحمل الجنسية الأمريكية ، ويعمل أستاذًا للقلب بإحدى الجامعات هناك) كما قابلت الأخ اللواء كمال عبد الرازق زوج السيدة الأستاذة كريمان حمزة مذيعة البرامج الإسلامية الشهيرة ، والأستاذ محمد الفوال أحد زعماء الطلبة بجامعة القاهرة قديمًا ، والدكتور حسين عبد الدايم أستاذ الأشعة بالقصر العينى ، والأستاذ الداعية والكاتب المعروف د . عبد الودود شلبى ، وكثيرون غيرهم .

كان وزنى قد نقص كثيرًا ربما حوالى عشرين كيلو جرامًا ، وبدأ الطبيب العلاج الدوائى . ولم يدخر وسعًا فى توفير الراحة لى ، وذات يوم قال الدكتور خليل :

« إن لك شعبية كبيرة فى بيتنا » .

لم أفهم ماذا يقصد بهذه الكلمات ، ولهذا شكرته بكلمات مقتضبة ، لكننى عدت أسأله : « بأى مناسبة » .

قال : « لقد نشرت مجلة « الكواكب » صورة لك ، وصورة للممثلة « فاتن حمامة » واستعرضت المجلة رواية لك اسمها « الربيع العاصف » ، وقد رشح كاتب المقال الأستاذ الشاعر الصحفى « كمال النجمى » الرواية للإنتاج السينمائى ، واقترح أن تكون فاتن حمامة بطلة القصة ..» .

ودهشت لذلك ، على الرغم من أننى فرحت جدًا ، فمثل هذه الأمور تدخل البهجة على نفس المسجون ، وتمد له من حبال الأمل والرجاء ، ولعله من باب استكمال الواقعة أن أشير إلى أن أحد الصحفيين أخبر الأستاذ كمال النجمى أننى معتقل (ولم يكن يعرف ذلك) ، فأصابه شىء من الاضطراب والكدر ، وكف عن إثارة الموضوع مرة أخرى حتى لا تشوبه شبهة مجاملتى ، وقد علمت ذلك من أخى وصديقى الصحفى الكبير الأستاذ مصطفى نبيل عبد الخالق رئيس تحرير مجلة « الهلال » الشهيرة والعريقة الآن ، وذلك بعد أن خرجت من المعتقل .

وصرفت النظر مؤقتًا عن إجراء الجراحة العاجلة بعد أن نجحت العلاجات المبدئية فى وقف النزيف المتكرر .

فى هذه الفترة التقيت بالعلامة الكبير والمفكر المعروف الأستاذ محمود شاكر - مد الله فى عمره - وبقيت إلى جواره طول فترة اعتقالى فى مزرعة طرة ، وربطتنا علاقة وطيدة مفيدة . فكان إذا فتح باب العنبر أرى وجهه يطل علينا كأول وجه بعد وجه السجان ، ويهتف بصوته المميز القوى : « نجيب .. نجيب » .

فأقفز من فوق السرير ، وأذهب إليه لنبدأ رحلة اليوم فى الأحاديث الجميلة ، والمعلومات الوثيقة ، كان بمثابة مدرسة تتحرك ، لديه قناعاته الراسخة التى لا تتزعزع ، وهو محقق تفسير الطبرى الهام الذى أصدرته دار المعارف ، وله كتاب متميز عن المتنبى نال عليه جائزة الملك فيصل الكبرى ، ومن أشهر كتبه « أباطيل وأسمار » الذى رد به على ترهات وأكاذيب الدكتور لويس عوض ، كما حقق كتاب « جمهرة نسب قريش » وديوان « ابن الدمينة » وغيره من الكتب الثمينة ، ولقد كان بيته فى شارع الأسود بمصر الجديدة أشبه ما يكون بجامعة كبرى ، تتلمذ على يديه فيه أعداد كبيرة من طلبة الدكتوراه والماجستير فى العالم العربى كله ، وكان صديقًا بل أستاذًا للكثيرين من قمم الأدب والفكر فى مصر وخارجها ، وعلى الرغم من أنه اعتقل ضمن الإخوان المسلمين ، إلا أنه لم يكن عضوًا فى الجماعة ، ولقد اعتقل مرتين الأولى - كما علمت - بسبب صداقته للشيخ الباقورى وزير الأوقاف ، وكانا يسهران معًا ، وكان الأستاذ شاكر يروى بعض « النكات » والتعليقات التى تمس الثورة وشخصية جمال عبد الناصر ، وقد بلغت هذه الأحاديث مسامع الكبار ، فاعتقل الأستاذ محمود شاكر وعدد من الرجال معه منهم الكاتب الإسلامى المعروف الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، والأستاذ محمد عطا ، أما الأستاذ الباقورى فقد أعفى من منصب الوزارة ، وحددت إقامته فى بيته ، وخرج الأستاذ شاكر من المعتقل ، وتصدى لكتابات « لويس عوض » ، مما ساهم فى إعادة اعتقاله مرة أخرى فى عام ١٩٦٥ .

أقول إن محمود شاكر كان موسوعة علمية متحركة ، ولقد روى لى الكثير عن قصة حياته مما لا يتسع المقام له هنا .

وفى أوقات الفراغ كنت أجلس معه لنلعب الطاولة (النرد) ، وهى مصنوعة من لباب الخبز ، وكان يحتشد حولنا مجموعة من المشجعين له ولى ، وكان من أكبر المتحمسين له الأخ المعتقل « مصطفى كمال » شقيق الإخوانى الشهير الشاب « على صديق » ، وكان مصطفى حليق الرأس مثل « يول براينر) الممثل العالمى ، ومن شدة غيظى منه كنت أسميه « المأجور الأقرع » وكان الأستاذ شاكر يضحك من أعماقه عند احتدام معركة الطاولة بينى وبينه ، ويلعب دون اكتراث ويقول « دوسى » فيأتى الزهر بالدوسى ، فأتضايق وأهتف فى عصبية : « أنت يا أستاذ شاكر « تقرص » الزهر .. أنت غشاش » .

فيكاد يستلقى على ظهره من الضحك ..

وذات مرة كشف الأستاذ شاكر عن صدره وظهره فوجدته مصابًا بمرض جلدى اسمه « التينيا » ، وكان لابد من إحضار علاج لندهن به جسده ، وكان لدورة المياه « حوش » أو فناء مشمس ، فأخذت الأستاذ شاكر إلى هناك ، ولبس « مايوه » وخلع ملابسه ، ووقف عملاقًا تحت الشمس ببشرته السوداء ، كتمثال من النحاس ، وأحضرت قنينة الدواء ، وكان بغطائها فرشاة صغيرة لا تتناسب مع حجمه وطوله الفارع ، فكنت أغمس الفرشاة فى الدواء ، ثم أدهن بها جسده قطعة قطعة ، والمارون بنا من المعتقلين يبتسمون ، ويكتمون ضحكاتهم .

كان الأستاذ شاكرًا مشهورًا بنقده الشديد اللاذع للإخوان المسلمين، وكثيرًا ما يستعمل بعض الألفاظ النابية الجارحة (وهذا هو عيبه الأساسي)، وعلى الرغم من مكانته كأستاذ كبير، ووضعي كواحد من أبنائه، فهو فى مثل سن أبى تقريبًا، إلا أنى كنت أكيل له الصاع صاعين، ولم يكن يغضب منى أو يخاصمنى بل كان يضحك، ويتهمنى بالغفلة وحسن النية ..

قال له أحد الإخوان: «أنت يا أستاذ شاكر تسب الإخوان وتشتمهم، ولهذا كان عقاب الله لك أن تسجن معهم ..».

فيرد شاكر: «أمثالك هم سبب المصائب ،ولن أغير رأيى».

ومع ذلك فقد كنت أجلّ الرجل وأحبه وأحترمه، ونقضى معظم الوقت – ومعنا مجموعة من الإخوة الأفاضل – فى الحديث وتبادل الآراء والأفكار، بروح ودية طيبة.

اقترب عيد ميلادى الخامس والثلاثين (أول يونيو)، وهو أمر عادى جدًا لا أتوقف عنده طويلًا، لكنى فوجئت باسمى يتردد من خلال مكبر الصوت «المعتقل نجيب الكيلانى» وأنا أخاف مكبر الصوت، ولا أريد أن يتردد اسمى فيه.

وجاء العسكرى، وصحبنى إلى «المكاتب» فى الإدارة خارج العنبر، وأنا أضرب أخماسًا فى أسداس، وأتساءل بينى وبين نفسى: لماذا يريدوننى فى هذا الوقت بالذات؟ هل جد جديد؟ هل انكشف مستور يستدعى التحقيق معى؟ أنا واثق أننى لم أرتكب أمرًا يعاقب عليه القانون .. حتى القوانين الاستثنائية أو العسكرية لا يمكن أن تديننى بشىء، ومع ذلك فإنى أشعر بالخوف .. ذلك الخوف المزمن الذى استشرى فى كيانى وحياتى ومجتمعى منذ سنوات، والذى يبدو وكأنه مقيم معنا حتى نلقى الله ..

وجدت قائد المعتقل، والضابط الطيب أيضًا فتحى طلبة، وعدد آخر من الضباط وضباط الصف.

قال أحد الضباط ساخرًا: «مبروك عيد ميلادك».

لم أكن أتذكره، ولا فكرت فيه، وبدت الحيرة على وجهى، قال فتحى طلبة بابتسامته المعهودة: «زوجتك أرسلت عن طريق الداخلى علبة من حلويات «التوفى»، وصندوقًا صغيرًا من الملبن، هدية لك بمناسبة عيد ميلادك، ومعهما بطاقة تهنئة .. لكنك تعلم أن مثل هذه الأشياء ممنوعة ..».

وعرضوا على الأشياء المرسلة إليّ، ثم قال الضابط فتحى: «سوف نحتفظ بها فى المخزن، وسنعطيها لك عند خروجك، أو فى الوقت الذى تأذن فيه «المباحث العامة»..

وشكرتهم وعدت إلى العنبر مسرعًا، وأنا فى قرارة نفسى أشعر بشىء من الغضب والضجر، ذلك لأن زوجتى ما كان لها أن تفعل ذلك، فى هذه الأوقات العصيبة التى تجرى فيها المحاكمات على قدم وساق، والأمور تبدو فى غاية السوء، وتذكرت قول المتنبى:

عيد بأية حال عدت يا عيدُ
بما مضى أم بأمر فيك تجديدُ

أما الأحبة فالبيداء دونهم
فليت دونك بيدًا دونها بيدُ

عندما عدت إلى الإخوة فى العنابر، أخذوا يضحكون، وكذلك فعل الأستاذ شاكر الذى أخذ يضرب كفًا بكف، ويعلق بعبارات يقصد من ورائها التخفيف عنى، ولم أكن أعلم أن هدية عيد الميلاد

هذه سوف تجر عليّ متاعب تستمر أكثر من شهر ، وبالتأكيد لو أن زوجتي كانت على دراية تامة بما يجرى خلف الأسوار لما فعلت ذلك ، فهى طيبة القلب ، حسنة النية ، لا تستطيع أن تتصور وجود إنسان مهذب محترم يعتدى على حقوق زوجها الذى تعرفه جيدًا . وتعرف أنه لا يستحق إلا التكريم والمعاملة الطيبة ، هذا هو تصورها ..

بعد أسبوع من هذه الواقعة تردد اسمى مرة أخرى فى مكبر الصوت .. يا إلهى ! ! ماذا هناك . أصبحت لا أطيق سماع هذا الصوت ..

أثناء سيرى مع العسكرى إلى المكاتب قال : « سيحققون معك » .

– « يا خبر أسود ! ! لماذا ؟ » .

– « لا أعلم .. لكنى سمعتهم يقولون ذلك » .

أصابنى ما يشبه الدوار ، لكنى تحاملت ومضيت فى طريقى كأنى أسير فى حلم .. أعنى فى كابوس من كوابيس الطفولة المرعبة التى ظلت تلازمنى حتى اليوم .. ما هذا العناء يا ربى ؟ أليس له من نهاية ؟ لقد ضاق صدرى ولم أعد احتمل أكثر من ذلك ، لكنى تذكرت إخوة لنا يعانون الأهوال ، ولا يجدون فرصة للنوم الكافى ، ولا الطعام الكافى ، وينتظرون حكم القضاء فيهم ، عندئذ استعذت بالله من الشيطان الرجيم ، واستغفرت الله ، ودعوته من كل قلبى أن يكون إلى جوارى ولا يتخلى عنى أبدًا ، رحمة بى ورأفة .. ووصلت إلى المكاتب .

قابلنى ضابط نحيف نسيت اسمه ، كان يجلس خلف مكتبه ومعه قلم وأوراق ..

سألنى : « اسمك .. سنك .. وظيفتك ..» .

– « . . . . » .

– « كيف عرفت زوجتك أنك فى معتقل مزرعة طرة ؟ » .

– « لا أعرف » .

– « ألم ترسل إليها خطابًا » ؟ . « كلا ، وكيف يكون ذلك ؟ » .

– « أليس لك أقرباء فى إدارة المعتقل ؟ » .

– « كلا ..» .

– « ولا فى كتبة الحراسة ؟ » .

– « أبدًا ..» .

- فكيف إذن عرفت أنك فى معتقل مزرعة طرة ، بدليل أنها كتبت على طرد هدية عيد الميلاد عنوان المعتقل ؟ إن رجال المباحث فى الداخلية طلبوا التحقيق فى هذا الموضوع ...

إذا لم تجب على سؤالى ، فسوف يستدعون زوجتك ويحققون معها فى الداخلية .. وأنت تعرف أن ذلك أمر غير مريح لك ولها ..» .

ووقفت حائرًا لا أدرى بماذا أجيب ، وبرقت فى ذهنى فكرة .. سوف يكون فيها النجاة لى ، إذا واقتنع بها المحقق واقتنع ضباط المباحث فى مقر وزارة الداخلية .

قلت للضابط : « ربما تكون زوجتى قد قابلت أحد المفرج عنهم ، وأخبرها عن المعتقل الذى أنزل فيه » .

– « حسنًا ، فمن يكون ذلك الشخص ؟ » .

– « لا أدرى » .

- « أذكر لى من تعرف من المفرج عنهم » .
- « هم كثيرون ، ولا أعرف أحدًا منهم » .
- « فكيف إذن لا تعرفهم ثم يخبرون زوجتك بمكان وجودك ؟ » .
- « الأمر بسيط .. أنا رجل مؤلف .. أكتب فى الصحف والمجلات ، ونشرت عددًا من الكتب ، وأغلب الإخوان يعرفوننى ، وأنا لا أعرف إلا قلة منهم » .

وانصرفت إلى عنبرى ، والضيق يستبد بى ، أما لهذا القرف من نهاية ؟ هل هى جريمة أن يعرف أهلى أين أسجن ؟ أليس من حقى أن أراسل أهلى ؟ أليس من حقهم أن يزوروننى وأستقبلهم ؟ ولا يمكن لأى إنسان عاقل أن يجد مبررًا لهذا التعنت من قبل السلطة .

وبعد أسبوع آخر ، سمعت مكبر الصوت يقول : « المعتقل نجيب الكيلانى » هتفت دون وعى ، وبصوت عالٍ يسمعه إخوانى :

- « يادى الداهية السودا » .

وجاء العسكرى ، وصحبنى إلى المكاتب الكريهة ، الضابط وبيده قلمه والأوراق وسين وجيم كالعادة ، شد انتباهى قول الضابط : « بسؤال زوجتك قالت إن رجلًا أتى إلى المنزل وأخبرهم أنك فى معتقل مزرعة طرة ، فمن يكون ذلك الرجل ؟ » .

يا إلهى ، لقد وقع المحظور وتعرضت زوجتى - كان الله معها - للتحقيق وهذا ما كنت أخشاه ، لقد تألمت لذلك بشدة ، لأنها ليست ذات خبرة بألاعيب المحققين وحيلهم ، فقد تفلت منها كلمة دون قصد وتسبب لى ولها مشاكل لا يعلم إلا الله مداها ، قلت للمحقق : « لا أعرف شيئًا عن ذلك » .

رد المحقق بجفاف :

- « إذا لم تعترف ، فسيتم ترحيلك إلى سجن القلعة ، وأنت طبعًا تعرف ماذا فى سجن القلعة » .
- « نعم أعرف ، وأقسم لك أننى لا أعرف أحدًا ذهب إليها فى عنوانها .. وما زلت أرجح أن أحدًا من الذين أفرج عنهم ربما تطوع بذلك » .
- « هل كان لك أقارب ضمن المعتقلين » .
- « نعم » .
- « من ؟ » .
- « الشيخ محمد كامل ، خال زوجتى ، وهو مدرس بالمعهد الثانوى الدينى بطنطا ، ويعانى الشلل النصفى منذ عامين ، وقد تخطى الستين من عمره ، وهناك أيضًا أحد أخوالى واسمه الحاج محمد محمد الشافعى فى سن الستين أيضًا ، ولم ألتق بهم فى المعتقل ، وقد أفرج عنهما بعد شهرين من اعتقالهما ، وكانا يعلمان أنى معتقل مثلهما ..» .

وطلب منى التوقيع على المحضر ، ثم انصرفت ، وأنا أدعو الله من أعماق قلبى أن يصرف عنى هذه المضايقات السخيفة التى تؤرقنى ، والتى لا معنى لها سوى تعنت المسئولين .

وفى كل مرة ينطلق اسمى من مكبر الصوت ، تصيح مجموعة من إخوانى فى العنبر وتقول معى « يا دى الداهية السودا » وينفجرون ضاحكين ، بينما أكاد أنفجر غضبًا ، لقد أصبح الأمر مادة للضحك والسخرية من إخوانى ، ومع ذلك فقد بقيت مهمومًا طوال شهر كامل ، وكلما استدعونى أعادوا نفس الأسئلة ، وأنا أكرر نفس الأجوبة ، حتى نفد صبرى ، إلى أن جاء يوم وسمعت اسمى فى مكبر الصوت ، وذهبت مع العسكرى إلى المكاتب ، لكننى هذه المرة لم أجد محققًا أو تحقيقًا ، بل وجدت

الضابط الطيب فتحى طلبة يستقبلنى بابتسامته قائلًا : « لقد وافقت المباحث أخيرًا على أن نسلمك هدية عيد الميلاد بعد تفتيشها بدقة » .

وفعلًا أحضروا علبة « التوفى » وفتحوها واحدة واحدة ، ولمَّا تأكدوا خلوها من أى رسائل مخبأة فيها ، سلموها لى ، كما سلمونى علبة « الملبن » ، وعدت بهديتى إلى العنبر ، واستقبلنى إخوانى بالتهنئة ، وزفونى من باب المبنى إلى العنبر الذى أقيم فيه ، وكان من الواجب أن أوزع التوفى بواقع اثنتين لكل معتقل ، أما الملبن – نظرًا لقلة كميته – فقد تم توزيعه على عدد قليل من الإخوة القريبين منى ، ولذلك فإن الإخوة بعد ذلك كانوا يمزحون قائلين : « إيوه يا عمّ .. ناس لها ملبن ، ناس لها « توفى » ..» .

---

من الأمور المؤلمة ، أن زوجتى بعد أن علمت بوجودى فى معتقل مزرعة طرة انتهزت فرصة مجىء عيد الأضحى المبارك ، فقررت أن تقوم بزيارتى ، فأعدت لى وجبة غذائية دسمة من النوع الذى أحبه ، مكونة من الحمام المحشو بالفريك ، ومحشي ورق العنب ولحم البوفتيك ، وهى تعلم أننى حرمت من هذه الأطعمة منذ اعتقلت ، ولقد أخبرتنى أنها أخذت أولادى الثلاثة وقصدت المنطقة التى يكون بها المعتقل ، وفوجئت بعدد كبير من الجنود المسلحين يحرسون المكان ، واقترب منها ضابط كبير وقال : « إلى أين ؟ » .

– « جئت لأزور زوجى المعتقل » .

– « ارجعى فورًا ، لأنك لو تقدمت أكثر من ذلك فسيطلق عليك الرصاص » .

– « لماذا ؟ » .

– « تلك هى الأوامر ، وأنت – على ما يظهر – سيدة مثقفة ، والمسألة خطيرة » .

– « خطيرة ؟ » .

– « نعم ، ويجب أن تنصرفى فى الحال ، ويجب أن تنسى أيضًا أن لك زوجًا ..» .

– « يا مصيبتى ! ! » .

– « تلك هى الحقيقة المرة .. انصرفى بسرعة » .

وعادت زوجتى بأطفالها وطعامها إلى بيت أبيها فى حى « السيدة عائشة » ثم ألقت ما معها من أوانٍ ، وشهقت باكية ، إن كل ما آلمها ، هو كلمة الضابط لها : (« يجب أن تنسى أن لك زوجًا) ما معنى ذلك ؟

كنت أعلم مدى المخاطرة التى أنا مقدم عليها ، لقد كنت قلقًا على زوجتى وأولادى ، وسمعت أن هناك سجانًا يستطيع أن يأخذ منى خطابًا ، ويسلمه لزوجتى ثم يأتى بالرد ، وذلك مقابل خمسة جنيهات ، وقررت أن أبعث بالرسالة لأطمئن عليها وعلى الأولاد ، وعلى وضعهم المالى والأمنى ، وحاولت أن أكف عن هذه المحاولة ، لكن دافعًا قويًا كان يهتف بى أن أستمر فى طريقى ، وليكن ما يكون ، وتمت المغامرة ، أو قل المقامرة ، وتسلمت الرد ، وكنت به سعيدًا لأن الأخبار التى وردت فى الخطاب كانت مطمئنة للغاية ، الشىء الوحيد الذى أخفته عنى زوجتى هو وفاة أبيها ، رحمه الله ، فى مستشفى العجوزة ، بعد أن تدهورت حالته الصحية عقب اعتقالى .. جاءنى طرد ملابس داخلية ، وبضع قطع الصابون ، وعدد من المناديل ، وأثناء التفتيش عثر العسكرى على خطاب من زوجتى

ملفوفٌ حول قطعة صابون ، ومن حظى الطيب أن المشرف على التفتيش كان فتحى بك طلبة ، الذى انتظر حتى خرج العسكرى ، ثم سلم لى الخطاب لكى أقرأه بسرعة ، كى يأخذه بعد ذلك ، ثم يمزقه فى حضور العسكرى مخافة أن يشى به العسكرى .

وفى يوم مشئوم طلبت الإدارة من جميع المعتقلين الخروج إلى فناء المعتقل الواسع كى نستمتع بالشمس ، ونجرى ونلعب حتى ننشط ، ويزول الصدأ الذى ران على مفاصلنا ، وكان الأمر ملفتًا للنظر ، ولم يطل بنا التفكير ، فقد علمنا أنه تم تنفيذ حكم الإعدام فى الأستاذ سيد قطب وزميليه محمد يوسف هواش ، وعبد الفتاح إسماعيل ، والتزمنا الصمت وأخذنا نجرى ونتحرك كالدمى ، كان الأمر محزنًا ، وكان بيننا ابن أخت الأستاذ سيد رحمه الله ، وظل صامتًا مثلنا لا يعلق بشىء ، وعلى فمه ارتسمت ابتسامة غريبة يصعب تصويرها أو تفسيرها .

فى اليوم التالى دخل المعتقل وافد جديد اسمه سيد كيلانى وهو لا يمت لى بصلة قربى ، ولم يكن من الإخوان المسلمين ولا من الشيوعيين ، ولا من الوفديين (وكان بالمعتقل عدد من الوفديين الذين اعتقلوا أثناء جنازة النحاس باشا ، كان الرجل يبدو مذهولاً مأخوذًا بما يراه ، سألناه لماذا اعتقلوك ؟ .

قال : « لقد ألفت كتابًا أدافع فيه عن الوفد ، وعن معاهدة ١٩٣٦ ، وقلت فيه لولا هذه المعاهدة لما دخل جمال عبد الناصر الكلية الحربية ، ولكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة .. طبعت من الكتاب ألفين فقط .. على نفقتى الخاصة .. استولوا على الكتاب ، ومنعونى من توزيعه ، واستدعونى للتحقيق . ثم قالوا لى سوف نأخذك معنا خمس دقائق فقط .. ثم أتوا بى إلى هذا المكان ، وتركونى وذهبوا .. خلعت بدلتى ، ثم ألبسونى هذه « الهلاهيل » الكالحة .. حتى لكأنى مجرم .. » .

ثم ضحك فى شىء من السذاجة وقال : « جعلونى مجرمًا .. أظن أن هذا اسم فيلم سينمائى .. » .

ثم التفت وقال : « ومن أنتم ؟ » .

– « معتقلون على ذمة قضية الإخوان المسلمين » .

– « الله أكبر .. إذن اعتبرونى أنا أيضًا « مرابطًا فى سبيل الله » .. كانت حياتى فارغة .. لا زوجة ولا أولاد ولا وظيفة .. أعيش فى كفالة أخى تاجر الأقمشة .. نلت ليسانس الآداب ، وعينت فى دار الكتب ، لكن توفيق الحكيم الكاتب الكبير كان مديرًا للدار بعد الثورة وقد عاملنى معاملة سيئة .. ثم فصلونى .. تلك قصة حياتى باختصار .. أنا لست حزينًا لوجودى فى هذا المكان .. أنا مرابط فى سبيل الله » .

وأخذ يضحك ، وينثر الطرائف ، ونحن نشاركه الضحك ، كان فى الحقيقة شخصية بسيطة مرحة ، يأخذ الأمور أخذًا هينًا ، ولا يندم من أجل فقدان شىء ، ولا يكترث لما يأتى به المستقبل ، ومن آن لآخر يقول : « إن معاهدة ١٩٣٦ هى التى فتحت الطريق أمام جمال عبد الناصر ليدخل الكلية الحربية ، ولولا ذلك لكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة ، ألا تصدقوننى ؟ هذه حقيقة ، لم يكن باستطاعته أن يقوم بانقلاب عسكرى وهو موظف مدنى ، ثم لماذا يغضبون منى حينما أقول ذلك ؟ » .

وسرعان ما تأقلم سيد كيلانى معنا ، لقد بدأ يتعود على الصلاة ، ويتقبل الطعام الذى نأكل منه ، ويشارك فى أحاديثنا المختلفة حتى أصبح واحدًا منا ، وكان الأستاذ محمود شاكر يسعد لوجوده ، ويحب أن يستمع إلى أحاديثه وأفكاره البريئة الجريئة ..

وفى إحدى الليالى دخل شاب إلى أحد العنابر ، كانت تبدو عليه آثار النعمة والنظافة الزائدة ، شعره أسود لامع منسق ، عيناه سوداوان واسعتان ، لكنهما قلقتان ، وعلى وجهه الحليق مسحة من

وسامة ، أخذ ينظر إلى العنبر المزدحم بشيء من الدهشة والاستغراب ، كان سكان العنبر يجلسون صامتين تحت ضوء المصباح الكهربائي الخافت ، وخطا بضع خطوات حتى أفسحوا له مكانًا يجلس فيه ، وجلس وهو يلتقط أنفاسه ، وبعد أن هدأ قليلًا سأل : « من أنتم ؟ » .

رد جاره قائلًا : « معتقلون من الإخوان المسلمين ..» .

هز رأسه وقال : « لقد ظننت في البداية أني نزلت مستشفى للأمراض العقلية ..» .

ضحك الرجال القريبون منه ، فاستطرد : « والله العظيم حسبتكم مجانين في البداية ، لأني رأيتكم تجلسون وكأن على رءوسكم الطير ، وترتدون زيًا موحدًا كالحًا ، وتنظرون إليّ نظرات غريبة ..» .

سأله أحدهم قائلًا : « من أنت ؟ » .

– « دكتور ح . م . ع » .

– « ومن أين أتيت ؟ » .

– « من ألمانيا رأسًا ، كنت في بعثة علمية هناك ، أنا خريج كلية الزراعة ، ونلت درجة الدكتوراه من ألمانيا ، وبعدها حزمت حقائبي ، واشتريت سيارة « مرسيدس » من مدخراتي ، وأخذت زوجتي وركبنا سيارتنا حتى إيطاليا ، ثم ركبنا البحر من إيطاليا إلى الإسكندرية ، وما إن أنهينا إجراءاتنا في الميناء حتى قدم رجال الأمن وقبضوا علي » .

سأل أحد المعتقلين : « وهل أنت من الإخوان » .

– « لا ، ولا أعرف عنهم شيئًا يذكر » .

– « فلماذا اعتقلوك إذن ؟ » .

– « إنا لا أهتم إلا بالعلم ، وفي إحدى إجازاتي السنوية عزمت على الزواج ، وكان لابد أن يتم ذلك خلال شهر ، حتى يمكنني العودة وأنا متزوج .. وفعلًا أخذنا نبحث عن عروس مناسبة ، وأخيرًا وجدتها ، وتزوجنا ثم سافرنا سعداء .. لم أكن أعلم أن عروسي هي إحدى حفيدات الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين ، وحتى لو عرفت ذلك ، فماذا يهم ؟ ..» .

والآن هل عرفتم سبب اعتقالي ؟

هزوا رءوسهم ، ولم يعلق أحد .

وعاد الدكتور « ح » يقول : « شرحت لرجال الأمن موقفي ، أكدت لهم أني لا أعرف شيئًا عن الإخوان ، ولا عن مرشدهم ، وكوني تزوجت من إحدى حفيداته لا يعني أني متهم .. أتدرون ما قال لي الضابط ؟ لقد أخذ يقهقه ويقول لي : تصوّر أنك تسير في الطريق ، ثم يسقط فوق رأسك حجر من أحد البيوت دون قصد ، فماذا ستقول ويقول الناس ؟ سيقولون : هذا قضاء وقدر ، وعليك أن تصبر .. فكيف أصبر وأنا غير مقتنع بما يجري ويحدث ، إن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث في ألمانيا .. هناك يحترمون حقوق الإنسان وحريته ، لقد حاولوا إغرائي بأن أبقى معهم وأحصل على الجنسية ، لكن حبي لوطني منعني من أن أتنكر له ، وهذه هي النتيجة ..» .

كان موضوع الدكتور « ح » محزنًا مخزيًا . وبقي المسكين بين المعتقلين حزينًا كابيًا ، لا يستطيع أن يتكيف مع الجو القاتم الذي ألقي به فيه ، وكثيرًا ما يعزف عن الطعام والكلام ، حتى ساءت حالته الصحية ، وضعفت بنيته ، ونقص وزنه ، وحاولنا قدر الإمكان أن نقنع طبيب السجن الدكتور « خليل » أن يضعه في الملاحظة الطبية ، حتى يقدم له الطعام الأفضل ، والعلاج المناسب ، ومن المحزن أيضًا أن مرور الأيام الكئيبة على (ح) في المعتقل قد أثر كثيرًا على نفسيته ، مما انعكس على تصرفاته وسلوكه .

ولم يقتنع قط بمعقولية الإجراءات التى اتخذت ضده ، وربما لو كان له أدنى علاقة بالإخوان ، أو أقدم على بعض التصرفات التى تجلب الشبهة ، لوجد الأسباب أو المبررات لما يحدث له ، ولشعر بقدر من العزاء ، لكن حياته العلمية وانهماكه فيها ، لم يفتح له بابًا تدخل إليه منه المعرفة الحقَّة بأعاجيب السياسة وبلائها وعجائبها ، وفى ألمانيا لم ير سوى الوجه المشرق للحياة وحقوق الإنسان التى يحترمها الجميع ، ولم ير إلا معاهد العلم الجادة ، ومختبراتها المتطورة ، وأساتذتها الأجلاء ، رآهم هناك يقدسون العلم وحرية البحث ، ولا يقدسون السلطة ، ولكن يحترمونها ما دامت تحترم حقوقهم ، وتعمل على خدمتهم .. أية صدمة أصابت (ح) فى هذه الأيام الحرجة من حياته ، وفكر هل يطلق زوجته ؟ إن كل شىء يوحى باليأس وخيبة الأمل ، أليس الموت أهون من ذلك العذاب كله ؟

ولم يخف ذلك عن إخوانه ، ولم يدخروا وسعًا فى التخفيف عنه ، وتقديم المسكنات الإرشادية له ، لكن خيبة أمله كانت أقوى من أية نصائح تقدم له ، وكثيرًا ما كنت أجلس إليه ، وأحكى له عشرات القصص والحكايات عن المظلومين ، والمثل الشعبى يقول « يا ما فى السجن مظاليم » ، وكان يرتاح لحديثى ، ومما يخفف عنه أن يرى ويسمع وقائع وأحداثًا تشابه إلى حد كبير ما وقع له ، وأخذ ينطبق عليه قول الشاعرة الخنساء :

يذكرنى طلوعُ الشمس صخرًا وأذكره لكل غروب شمسِ

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يبكون مثل أخى ولكن أعزّى النفس عنه بالتأسّي

لقد كان « ح » أنموذجًا من النماذج العديدة التى لا تخفى دلالاتها على أى مراقب للأحداث فى تلك الأيام السوداء التى امتلأت بالغرائب والأعاجيب .

كنت أذهب إلى الأستاذ محمود شاكر أحيانًا فى غرفته حيث كان ينام على حشية من القش ، موضوعة على الأرض ، ولم يكن له سرير مثلنا ، وكلما ذهبت إليه أجد قبالته رجلًا يجلس صامتًا فى وضع الجلوس للصلاة ، كان هذا الرجل جامد النظرات ، يتطلع إلى أفق بعيد ، والبؤس على وجهه ، لا يرد على أحد ، ولا يكلم أحدًا ، ولاحظت أن جيرانه فى الغرفة الكبيرة يقدمون له الطعام فيأكل ، وكذلك الشراب فيشرب ، لكنه أحيانًا يرفض الطعام والشراب .

قلت لعالمنا الكبير الأستاذ محمود شاكر : « من هذا الرجل ؟ » .

قال فى اقتضاب : « مجنون » .

– « غير معقول » .

نظر إلى فى سخرية وقال : « ألا تصدقنى ؟ لقد أتوا به من مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة » .

– « حتى المجانين يعتقلونهم ؟ » .

قهقه قائلًا دون أن تفارقه رنة السخرية : « كلهم مجانين » .

وعجبت أشد العجب لهذا التصرف من رجال الأمن ، بالأمس القريب استغربت وجود مرضى الجذام بيننا ، لكنهم بعد ذلك أعادوهم إلى مستعمرة الجذام مرة أخرى تحت الحراسة ، فلماذا لم يفعلوا نفس الشىء مع هذا المريض ؟ وأخذت أتقصّى سيرة هذا المسكين ، فعلمت أنه كان يشغل وظيفة « صول » فى الجيش ، ثم لحقت به شبهة الانتماء للإخوان المسلمين فاعتقل فى عام ١٩٥٤ ، وقضى فى المعتقل حوالى عامين ، ثم أفرج عنه فى عام ١٩٥٦ وطرد من الجيش ، وفجأة وجد نفسه فى الشارع

لا يستطيع أن يكفل الحياة الشريفة لزوجته وأولاده ، وسقط فريسة الهموم النفسية الرهيبة التى عجز عن تحملها ، لقد عاف النوم والطعام ، وأصبحت حياته مريرة المذاق ، وتدهورت حالته حتى أخذ يهذى ويتخبط ويرتكب بعض التصرفات العدوانية الخطرة ، لقد أصبح مجنونًا بالفعل ، وهكذا أدخلوه مستشفى الأمراض العقلية ، حيث قضى عددًا قليلًا من السنوات ، وجاء عام ١٩٦٥ ، والاعتقالات الواسعة ، فبحثوا عنه ووجدوه فى مستشفى الأمراض العقلية ، فذهبوا إليه واعتقلوه ، وأجلسوه قبالة الأستاذ محمود شاكر مباشرة ، وكان الأستاذ متبرمًا بهذا الوضع غاية التبرم ، ولذلك فإنه يغادر غرفته منذ الصباح ، ولا يعود إليها إلا فى وقت « التمام » أى عند إغلاق الغرف على المعتقلين ، وبينما كنت جالسًا ذات يوم مع الأستاذ شاكر نتحدث عن الشعر الجاهلى ، اخترقت آذاننا صرخات عالية ، واتجهنا بأبصارنا إلى مصدر الصوت ، كان ذلك المريض المجنون يصرخ ويضرب الأرض بكفيه فى ثورة عارمة مجنونة ، والدموع تتدفق من عينيه ، وسرعان ما عاد إلى صمته ، ووضع كفيه على ركبتيه كما كان فى البداية ، واستعاد وضعه السابق ونظراته الجامدة ، وكأن لم يحدث شىء ، لكن الدموع ما زالت فى عينيه وعلى خده ، وسألنا عن السبب قال جاره : « إنه يفعل ذلك أحيانًا دون سبب معروف ، لعل هناك ما يضايقه ونحن نجهله » .

وهم الأستاذ محمود شاكر بالوقوف ، وقال : « هيا بنا نخرج .. إنى أكاد أختنق » .

وفى أحد الأيام فى النصف الأخير من عام ١٩٦٦ جاء إلى المعتقل شاب قصير القامة ، حليق الرأس ، مرتعش اليدين ، قلق النظرات ، مهتز الرأس ، ينظر إلى الجميع فى خوف وتوجس ، ومن آن لآخر يقول فى توسل « والنبى ما عملت حاجة .. والله العظيم ما عملت حاجة .. » .

قصة أخرى من قصص اللا معقول التى نرى أشباهًا لها كل يوم ، وكان بالمعتقل بعض الإخوة الذين يعيشون فى الحى الذى يعيش فيه هذا الشاب بالقاهرة ، فتعرفوا عليه وأخذوا يحاولون بث الطمأنينة فى نفسه ، حتى ارتاح لهم ، وأنس إليهم ووثق فيهم ، وأخذ يستعيد هدوءه تدريجيًا حتى بدا أنه قد تخلت عنه وساوسه ومخاوفه ، ثم قص حكايته ، فروى لنا كيف أنه دخل خطأ فى الشارع الذى يقيم فيه الرئيس ، وكان يقود سيارته ، فأوقفوه فى عنف ثم قبضوا عليه ، وأخذوه إلى مكان ما للتحقيق معه عن سبب دخوله هذا الشارع ،واتهموه بأنه ضالع فى مؤامرة للاعتداء على الرئيس ، فنفى ذلك نفيًا قاطعًا ، وأكد لهم أن دخوله الشارع بسيارته خطأ غير مقصود يمكن أن يقع فيه أى إنسان حسن النية ، فلم يصدقوه ، ثم أخذوا يوقعون عليه شتى ألوان التعذيب .. وطال تعذيبهم له أيامًا حتى فقد القدرة على التحمل ، فتداخلت أمام عينه الصور ، واختلطت فى رأسه الأفكار ، ولم يعد قادرًا على التمييز أو الإجابة على أية أسئلة توجه إليه ، وقرر طبيب الشرطة ضرورة إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وخاصة أن التحريات قد أثبتت أن أباه من تجار الأقمشة المرموقين ، وأن أسرته تعيش فى بحبوحة من العيش ، وأن ذلك الشاب متزوج ، وليس لهم جميعًا أية انتماءات سياسية ، كما لا يمتون بصلة قرابة أو صداقة مع أحد العاملين فى الحركة الإسلامية أو غيرها ، وقضى المسكين فترة من الزمن فى مستشفى الأمراض العقلية ، وما إن تحسنت حالته ، وثبتت براءته حتى أحضروه إلى معتقل مزرعة طرة ، لينضم إلى نزلائه فى انتظار المجهول .

القاعدة عند السلطة أن البرىء متهم حتى تثبت براءته ، وحتى بعد أن يتأكد ذلك ، يظل سيف الشك مصلتًا على رءوس الجميع .

وليس سرًا أن أقول أنه بطول المدة ابتدأت تظهر حالات مرضية نفسية كالهستيريا والهوس

والصرع ، وبعض الأمراض المزمنة الأخرى كأمراض الكبد والقلب وارتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة وغيرها ، ولقد كان معنا معتقل أصيب بالشلل الهستيرى ، كان حاد الذكاء طموحًا ، يستبد به الضيق لوجوده فى السجن ، وكثيرًا ما يقول « إننى كالعصفور الحبيس فى القفص » ، هذا الرجل الآن (١٩٩٤) قد أصبح من كبار رجال الأعمال ، ويمتلك الملايين رغم أنه بدأ من الصفر ، ولم يكن يحمل أية مؤهلات علمية تذكر ، ومثله كثيرون ..

إن الناس يختلفون فى القدرة على التحمل ، وإذا ما طالت مدة الابتلاء فقد يأتون بعض التصرفات الغريبة المحزنة مثال ذلك أن أحد المعتقلين وقف ذات مساء فى وسط الغرفة وقال لهم بصراحة : « إن مشكلتنا مع الحكومة لا حل لها حسبما أرى ، وما حدث فى أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ و ١٩٥٥ و ١٩٦٥ يؤكد أن الظلم قائم ولن نستطيع الخلاص منه ، وقد قضيت ليالى أفكر فى حل لهذه المأساة المرعبة ، ووصلت فى النهاية إلى نتيجة حتمية لا فكاك منها » .

رد عليه أحدهم : « ما هذه النتيجة ؟ » .

قال : « لن يرفعوا يدهم عنى ما دمت مسلمًا » .

قال قائل : « ماذا تعنى ؟ » .

– « كلامى واضح ، سوف أذهب غدًا إلى قائد المعتقل ، وأطلب منه أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بتغيير دينى » .

هاج المعتقلون فى العنبر وماجوا ، بعضهم اتهمه بالجنون ، والبعض الآخر بالخيانة ، وثالث جرده من رجولته ، والبعض الآخر هم بالفتك به ، وتدخل رجل صالح من المعتقلين يتسم بالهيبة والصلاح وكبر السن ، وقال : « أتركوه وشأنه ، إنها نوبة من نوبات اليأس » .

وأخذ ينصح أخاه الجانح ، وذكره بأن الدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، وذكره بقوله الله ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ وأن العمر مهما طال قصير ، وأن الإيمان الراسخ بالله من أعظم نعم الله علينا ، وأن الأزمة ستمر ، وسننال عليها أعظم الثواب ..

وصاح رجل فى آخر الغرفة : « إن المرتد عقوبته القتل ..» .

وساد الضجيج حتى جاء خفر الليل ، ودقوا على الباب وتوعدوا الجميع بالعقوبة الصارمة إذا لم يخلدوا إلى النوم ، ويكفوا عن إثارة الفوضى .

فى الصباح أمسك المعتقل المتمرد بيد العسكرى ، وطلب منه أن يأخذه إلى قائد المعتقل ، وحينما عرض أخونا مطلبه على أحد الضباط (وكان مسيحيًا) رد عليه ببرود : « ونحن لن نقبلك فى ديننا » .

وغمره عرق الخجل ، وقال الضابط : « وحتى لو تركت دينك ، فستظل فى المعتقل .. إن الحكومة تتعامل معك من الناحية السياسية ، وليس الناحية الدينية ، الملايين فى الخارج متمسكون بدينهم ، ولا يعترضهم أحد ، لكن الذين يتحركون سياسيًا ضد الحكومة هم الذين تتخذ ضدهم الإجراءات القمعية . . فى سجون مصر ومعتقلاتها يهود .. ومسيحيون .. وشيوعيون وكفرة .. وفيها مسلمون ، ولا يجمعهم سوى شيء واحد هو العداء السياسى للحكومة .. هل فهمت يا أخ ؟ اذهب إلى غرفتك يا أخ .. فنحن لن تنطلى علينا هذه الألاعيب ، وسأكتب تقريرًا عنك وأرفعه إلى المسئولين .. من يدرى ؟ قد يلقنونك درسًا قاسيًا فى الأدب ..» .

وعاد المتمرد إلى غرفته ، كانوا يجلسون فى صمت وهم ينظرون إليه فى حسرة ، عندما أذن الظهر ، وجدوه يذهب إلى دورة المياه ليتوضأ .. أشرقت الفرحة على وجوههم وقلوبهم ، وعندما أمّ أحد الشيوخ الصلاة كان صاحبنا يقف فى الصف الأول ، وما إن انتهت الصلاة حتى وقف صائحًا يقول :

– « أستغفر الله .. تبت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصى أبدًا ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام ، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » .

ثم انفجر باكيًا .

قال الشيخ الإمام : « رددها ثلاثًا .. بل سبعًا » .

وما إن انتهى من ترديدها ، حتى تجمهروا حوله ، وأخذوا يعانقونه ويقبلونه ، والدموع فى أعينهم ، كان يقول : « لقد غلبنى الشيطان ، لكنى أعود الآن إلى رحمة الله ، إن قوة شريرة سكنتنى بعض الوقت .. أنتم لا تعرفون ظروفى الخاصة .. لكن الله قادر على أن يحفظنا من كل مكروه .. » .

هذا الشاب الأسمر الممتلئ .. فى بداية الثلاثينات من عمره ما زلت أذكره .. إن صورته وملامحه الدقيقة مرتسمة حتى الآن فى خيالى .. وفى إحدى المرات ، ونحن نجلس فى فناء المعتقل مال أحد الإخوة هامسًا ، وقال : « ألا ترى ذلك الشاب الذى يسير وحده واضعًا منديلًا أبيض فوق رأسه ؟ » .

– « من يكون ؟ » .

قال أخى : – « سبحان الله .. كان أبوه من العلماء الذين تستعين بهم الحكومة فى توعية الإخوان فى السجن الحربى فى عام ١٩٥٦ ، وكان والده يُبَصِّرنا بما يجب أن نلتزم به فى الإسلام ، على الوجه الصحيح ، ويأخذ علينا التصرفات الجامحة – من وجهة نظره – ويعتبرها عصيانًا وخروجًا على ديننا الحنيف » . ثم شرح لى الأخ كيف أن الأيام قد مرت ، ودارت الدائرة ، وأصبح ابنه بالذات واحدًا منا ، وتعرض لما يتعرض له المعتقلون من معاناة ومتاعب ، هل كان يتصور ذلك العالم الطيب أن ولده سينضم إلى الذين كان بالأمس يعظهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح ، مع أن هذا الابن لم تسجل ضده أية أعمال تمس أمن الحكم والحكومة .

إن ما يجهله الناس هو أن الأمر ليس أمر جماعة شاذة تحترف المعارضة ، وتعمل على إثارة الفتنة ، وتريد أن تستولى على السلطة بالقوة الجبرية ، وتقود الناس جبرًا إلى مهاوى الخطر والفساد ، إن الأمر فى حقيقته هو المنع التام لأى نشاط تشم منه رائحة الإسلام .. الإسلام بصورته الشاملة الصحيحة ، الإسلام الذى يتخلل نسيج المجتمع كله ، ويدخل فى صميم حياته ، ويلهمه القول السليم ، والفعل الصحيح ، والحركة المتزنة المحسوبة ، حتى يتحرر ذلك المجتمع من نوازع الجشع والأنانية ، ويتخلص من مظاهر الاستبداد والظلم والقمع والاستغلال ، وإهدار كرامة الإنسان ..

وذهبت ذات يوم إلى المبنى الآخر لزيارة بعض الأصدقاء القدامى هناك ، وعندما اقتربت من العنبر وقعت عينى على صديقى الأستاذ محمد العوضى سلام .. يا إلهى .. ماذا جرى ؟ لقد تركنا ونحن فى معتقل أبو زعبل الجديد على أساس أنه قد أفرج عنه ، وحمّلناه التحيات والسلامات للأهل والأحباب فى الخارج .. كان وداعنا يومذاك وداعًا مشحونًا بالعواطف والدموع .. ولكننى أراه الآن ، هل أفرجوا عنه ثم اعتقلوه مرة أخرى ؟ ولم تطل حيرتى ، فقد رآنى وقدم نحوى فى اشتياق ، وتعانقنا وتصافحنا ، ولعله أدرك ما يعتمل فى نفسى من تساؤلات فقال على الفور : « ضحكوا علينا ، أوهمونا بالإفراج ، وإذا بنا نجد أنفسنا ، وقد انتقلنا من معتقل إلى آخر ، لقد سعدنا ساعة أو بعض ساعة ، وسرعان ما ذهبت الفرحة ، وحل مكانها العذاب المقيم .. » .

ولاحظت أن الشيخ محمد العوضى سلام قد شحب وجهه ، ونحل جسده ، وبدا أنه يعانى من مرض ما ، وهو الذى عهدناه صلبًا كالصخرة قبل ذلك ، رغم قصر قامته ، وكنا نعهد إليه بالأعمال التى تحتاج إلى قوة ، كما كنا نطلب منه أن يخطب فى الناس بعباراته الملتهبة ، ومنطقه القوى ، وتأثيره الجماهيرى الفعال .. ماذا جرى له ؟ ؟ إنه يكاد يتهاوى من شدة الضعف والوهن ، وحاولت أن أوجه إليه بعض الأسئلة الصحية ، ثم فحصته فحصًا عابرًا ، وتبين لى أنه مصاب بمرض فى كبده ، وحاولت جاهدًا لدى أصدقائى الأطباء المعتقلين أن يقنعوا الدكتور خليل - طبيب السجن - بوضعه فى الملاحظة الطبية .

وبقى محمد فى المعتقل ، وقد ازدادت حالته سوءًا ، ولما أفرج عنه بعد شهور ، وعاد إلى بيته لم يمهله القدر طويلًا ، فلبى نداء ربه .

لقد كان محمد العوضى معارًا للعمل فى الجزائر ، وكان يغشى المحافل الفكرية والدينية هناك ، فهو طاقة من نشاط لا تكل ولا تمل ، وقد أصدر هناك كتيبًا يتحدث فيه عن شرع الله وضرورة أن يسود فى المجتمعات الإسلامية حتى تتخلص من مظالمها وهزائمها وتأخرها ، ويبدو أن أحد المصريين العاملين هناك قد كتب تقريرًا سريًا عنه ، وبعث به إلى الجهات المسئولة ، وكان ذلك يحدث فى معظم البلاد التى يعمل بها المصريون ، بل وفى داخل مصر نفسها ، وكان من جراء هذا السلوك أن طرد بعض العاملين المصريين فى دول عربية أو إسلامية بسبب ثبوت تهمة التجسس عليهم ، بل إن بعض الدول قد طردت جميع العاملين بها بسبب الخلافات السياسية الكثيرة التى كثيرًا ما كانت تحدث فى عهد عبد الناصر ، وهى أحداث مشهورة يعرفها الجميع ..

المهم أن الشيخ محمد العوضى الذى كان سلاحه الخطابة والقلم ، وهما من الأمور العلنية ، قد فوجئ ذات يوم بأمر ترحيله من الجزائر ، وتسليمه للسلطات المصرية ، وما إن وطئت قدمه أرض مصر ، حتى دفعوا به إلى المعتقل ضمن الآلاف الذين يعيشون وراء الشمس ، وبالتحقيق معه ، لم يعثر المحققون - رغم قسوتهم عليه - على أى دليل يدينه ، وعاش بين المتحفظ عليهم ، وكانت التحقيقات التى تعرّض لها ، والتعذيب الذى لقيه ، مليئًا بالطرائف المضحكة المبكية على حد سواء ، والتى لا يستطيع الإنسان أن يسجلها لأن بعضها يخدش الحياء ، ولا يصح أن يكتب على الورق .

وكان له من الأولاد ستة ، والمعاش الشهرى قليل لا يكفى الأولاد وأمهم .. ولهذا لجأت الزوجة إلى فتح محل صغير للبقالة .. وكلما سألها أحد عن حالها قالت : «أهى ماشية والحمد لله» ... رحمه الله ...

استيقظنا ذات صباح ، وأخبرنا أحد الزملاء بأن الحكومة قد اعتقلت عددًا من الشيوعيين ، والغريب أن عددًا منهم كان يعمل فى منظمة الشباب الحكومية ، والتى يرأسها الدكتور حسين بهاء الدين ، وقد لوحظ أن بينهم عددًا من الكتاب والأدباء ، وقد أحضروهم من سجن القلعة مساء أمس ، ووضعوهم فى مكان مستقل بهم فى عنبر من العنابر ، وعلمت أن من بين هؤلاء المعتقلين المتهمين بالشيوعية بعض الأصدقاء القدامى الذين يكتبون فى الصحف ، ويغشون المنتديات الأدبية ، ومن بين هؤلاء المعتقلين الجدد :

- الشاعر عبد الرحمن الأبنودى .
- الكاتب الناقد غالى شكرى .
- الناقد الدكتور صبرى حافظ .

- أمين مساعد منظمة الشباب جمال حمزة [وأظن أن هذا اسمه] وقد قيل أن خاله هو شعراوى جمعة - أحد وزراء عبد الناصر . « والشاعر الشعبى « سيد حجاب » .؟

- والأديب الصحفى الأردنى غالب هلسا ... وغيرهم ، وأخذنا نتساءل كيف تعتقل الحكومة الشيوعيين بعد أن أفرجت عنهم عندما زار خروشوف مصر عام ١٩٦٤ لافتتاح السد العالى ، وكان شرطه أن يفرج عن جميع المعتقلين ، لأنه - أى خروشوف - لا يزور بلدًا فيها سجين شيوعى .

ولم يطل بنا التخمين ، فقد سمعت وأنا فى حجرتى من ينادينى فعلمت أن أحد المعتقلين الشيوعيين قد أتى من عنبرهم ويريد مقابلتى ، فهرولت إلى الخارج فإذا بى وجهًا لوجه مع الناقد الأديب « صبرى حافظ » ، واستقبلته بالترحاب الواجب ، والكرم المعهود ، وقبل أن أستفسر منه عن شىء أخبرنى بأنهم جوعى منذ الأمس ، ولم يصرف لهم أى طعام ، ولهذا يطلب منى كمية من الأكل تكفيهم ، ثم قال هامسًا : « ولا مؤاخذة .. لى طلب سخيف .. أعنى بضع سجائر لأن الجماعة « خرمانين » وبعضهم يكاد يجن » .

لم أضيع الوقت فأحضرت كيسًا من القماش ، ومشيت بين الغرف أقول فى مرح : « يا إخوان ... زملاؤنا الشيوعيون يكادون يموتون من الجوع .. فجودوا عليهم بما تبقى عندكم من أرغفة أو جبن أو خلافه .. وأستسمح إخواننا المدخنين الذين يستطيعون تهريب السجائر أن يتنازلوا عن عدد قليل منها رحمة بأمزجتهم .. ومن قدم شيئًا بيديه التقاه .. هنيئًا لك يا فاعل الخير ..»

جمعت كمية من الطعام وثلاث سجائر ، وقدمتها للأخ صبرى حافظ ، الذى سعد بها أيما سعادة ، وسارع بأخذها والذهاب إليهم ، وللشيوعيين مقولة شائعة يرددونها وهى « أعطنى خبزًا وحدثنى عن الله » قال لنا زميلنا الأستاذ شوقى كحلة : « هل حدثتهم عن الله ؟ » .

- « لا .. أعطيتهم الخبز دون مقابل » .
- « لوجه الله ؟ » .
- « نعم » .
- « وهم لا يؤمنون بالله ..» .

وأشار شوقى إلى أن التصدق بالسجائر لا يجوز شرعًا ، وأنهم يمجدون الصداقة إذا كان فيها نفع مادى لهم ، ولكنهم يدوسونها إذا لم يكن لها جدوى ، وذكرنى شوقى بتلك الواقعة القديمة حينما كرمونى فى سجن مصر بعد فوزى بالجائزة ، وصدور رواية « الطريق الطويل » فى طبعتها الأولى ، ثم قاموا بعد ذلك بتقديم شكوى ضدى ، كى يحرمونى من الخروج للعلاج فى القصر العينين أيام سجنى الأول ، لكن وجهة نظرى فى هذا الأمر تختلف عن وجهة نظر أخى شوقى ، فقد كنت أميل إلى مقابلة الإساءة بالإحسان ، وأرى أنه من الواجب أن أقدم ما أستطيع من خدمات لخصومنا السياسيين إذا ما جمعتنا الظروف التعسة فى صعيد واحد ، ولقد كنت متأثرًا بالصداقة القديمة ، ثم إنى رأيت بعض الكدمات على وجوه البعض وعلى الأجزاء المكشوفة من أجسادهم ، ومن الغريب أن بعض الشيوعيين كانوا أعوانًا مخلصين للحكومة ، ويشغلون مناصب هامة للغاية ، خاصة فى وسائل الإعلام ، وشركات القطاع العام ، وقد حققوا من وراء ذلك ثراءً فاحشًا يتنافى مع الاشتراكية التى يدعون إليها ليل نهار ، وفى الوقت نفسه يُقبض على عدد منهم ويوضعون فى المعتقلات ، ويستطيع أى مراقب أن يستنتج أن الحركة الشيوعية فى مصر منقسمة على نفسها ، لكن غالبية الشيوعيين يؤازرون الحكومة مؤازرة كاملة ، وذلك كى يحققوا أهدافهم فى الوصول إلى سلطة القرار ، ولينتقموا من أعدائهم التاريخيين وخاصة

الإخوان المسلمين ، والواقع أن تجربتى مع الشيوعيين مريرة ، فقد كنت أحاورهم فى أدب ، واستقبلهم مرحبًا ، وأقدم لهم ما أستطيع من خدمات داخل السجن وخارجه ، ومن خلال عملى كطبيب ، وفى المجالات الأخرى التى أستطيع أن أقدم العون فيها للآخرين ، ومع ذلك فقد كانوا لا يجدون فرصة لتعويق مسيرتى ، وتعطيل آمالى ، والنيل منى ، إلا انتهزوها ، وكأنهم يقدمون إيذائى قربانًا لصنمهم الكبير المقام على قواعد من الكراهية والحقد والحسد والجحود ، لكن هل كان ذلك قادرًا على أن يوقف قدر الله ، أو يمنع مشيئته من التحقق ؟ لا .. وألف لا ، إن سخافات البشر وأحقادهم الصغيرة ما هى إلا فقاعات صغيرة سرعان ما تنفجر ، ويكتسحها الهواء ..

إننى أعتقد أن الفساد الأكبر الذى حاق بمصر فى العهد الناصرى نجم أساسًا عن وصول أبالسة الشيوعيين إلى صانعى القرار ، والمشاركة فى صنع السياسة الاقتصادية والتعليمية والحزبية . وسيطرتهم شبه الكاملة على وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات ومسارح وإذاعة وتليفزيون ، واستيلائهم على مناصب حيوية فى مجلس الوزراء والمجلس التشريعى ، وتكوين حزب « الاتحاد الاشتراكى » ، والسلك الدبلوماسى ، ومناحى الأنشطة الفنية المختلفة ، وقد طال بقاء هذه العناصر المدمرة فى مواقعها الحساسة ، فأفسدت كل شىء فى مصر « المحروسة » ولعل من أخطر الأمور التى نجمت عن تدخلهم فى كل صغيرة وكبيرة ، سيادة نمط من القيم والأخلاق الفاسدة ، والتهجم على قيم الإسلام وعقيدته ومثله الرفيعة . وحاولوا – من خلال أجهزة الأمن والمخابرات – أن يتصدوا للعناصر النظيفة ، ويبعدوها عن الالتحاق بهيئات التدريس بالجامعات ، ورفض موضوعات معينة لإعداد رسالات الماجستير والدكتوراه ، وفرض موضوعات أخرى مضادة على الدارسين ، وقد أشرت فى الجزء السابق من هذه اللمحات إلى ما حدث بالنسبة لروايتى « اليوم الموعود » الحائزة على جائزة « المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب » والتى تم التعاقد عليها مع مؤسسة الإنتاج السينمائى العربى ، فقام أحد الشيوعيين (ب . ش) بكتابة مذكرة للإطاحة بها ، وتعطيل تنفيذها وكانت إحدى الحجج هى أن البطولة فى الرواية بطولة « فردية » وليست بطولة « جماعية » ، هكذا قيل .. وقيل أيضًا أنها – كرواية تاريخية – تحتاج إلى ميزانية ضخمة .. ولست أدرى كيف تكون البطولة فردية فى رواية عن الحروب الصليبية ، يحتشد فيها أبناء الأمة للدفاع عن إسلامهم وعروبتهم ووطنهم ، لكنها السفسطة الشيوعية التى تلعب بالألفاظ ، وتقلب الحقائق ، وتزيف التاريخ ، وترفع الشعارات الرنانة ، والعبارات الجوفاء ، حتى انحدرت الثقافة ، وفسد الفن ، وضاعت حرية التعبير والإبداع ، ولم يكن يهم السلطة القائمة سوى الاطمئنان على بقائها وحمايتها من أعدائها ، وليذهب كل شىء بعد ذلك إلى الجحيم ، إن المخلوقات المشوهة نفسيًا وعقليًا وأخلاقيًا ، لا يمكن أن تعيش إلا فى الأجواء الموبوءة العفنة ..

كان بالمعتقل جناح معين كنا نطلق عليه جناح « المعتقلون العرب » والسبب فى هذه التسمية هو أن هؤلاء المعتقلين كانوا يعملون كموظفين فى شركة « المقاولون العرب » التى يديرها رجل الأعمال الناجح الكبير عثمان أحمد عثمان ، ولقد كان عثمان صديقًا مرضيًا عنه من جمال عبد الناصر ، لأن الشركة كانت تحقق لمصر دخلًا لا بأس به من العملة الصعبة ؛ إذ كانت لها أعمال كثيرة فى الخارج ، ولقد كان بهذه الشركة عدد كبير من الإخوان المسلمين كانوا وراء النجاح الكبير الذى تحققه يومًا بعد يوم ، ولهذا أراد عثمان الاحتفاظ بهؤلاء الإخوان فى أعمالهم واستأذن عبد الناصر فى ذلك ، وتعهد بأن يسلم للحكومة أى فرد من الإخوان العاملين معه عند طلبهم للتحقيق أو الاعتقال ، ووافق عبد الناصر على مضض بعد أن أدرك أهمية هؤلاء العاملين فى الشركة التى تحظى برعايته ، وعندما حدثت أزمة ١٩٦٥

بين عبد الناصر والإخوان طلبت الحكومة عددًا منهم للاعتقال باعتبار أن سبق اعتقالهم أو طالتهم الشبهة ، ووفى عثمان أحمد بوعده لعبد الناصر ، فأحضر المطلوبين من كل مكان سواء داخل مصر أو خارجها ، ومنهم من كان فى ليبيا أو السعودية أو غيرهما ، ثم وضعوا فى أحد أجنحة معتقل طرة ، ولهذا أطلقنا عليهم « المعتقلون العرب » وكان الأمر مثارًا للضحك والتعليقات المرحة ، وكان الذى يفرج عنه منهم يعود إلى موقعه فى « شركة المقاولين العرب » مرة أخرى دون حرج أو حساسية ، كما استمر صرف رواتبهم أثناء الاعتقال شأنهم فى ذلك شأن موظفى الحكومة المعتقلين ، وبعض هؤلاء المعتقلين استطاع بعد ذلك الصعود إلى مناصب مرموقة فى الشركة حتى يومنا هذا ، والبعض الآخر استقال من الشركة ، وأسس شركة مقاولات مستقلة ، ونجح نجاحًا كبيرًا ، وأصبح من كبار رجال المال والأعمال ، أى أصبحوا مليونيرات باجتهادهم وإخلاصهم وعرقهم .

ولقد كان هناك رجال أعمال آخرون غير العاملين أو المنتسبين لشركة المقاولين العرب ، بدءوا حياتهم عصاميين معتمدين على كفاءتهم وموهبتهم أذكر منهم الأخ الأستاذ محمود شعراوى وشريكه الأخ الأستاذ جودة المحلاوى ، وكان الأخ جودة يروى تفاصيل وأسرار العمل مع شركات القطاع العام والحكومة ، وكيف يحصلون على حصصهم من الأسمنت والحديد والزجاج والخشب ومختلف متطلبات البناء ، وتبين لنا للأسف أن الأمور لا تسير إلا بطرق ملتوية ، وأن رجال الحكومة فى هذه القطاعات يرتشون وينهبون ويختلسون ، فى الوقت الذى يكثرون فيه من الحديث عن نزاهة رجال الثورة وإخلاصهم ، ونقائهم الثورى ، وما إلى ذلك من العبارات الجوفاء ، والشعارات الطنانة ، حتى أصبحوا - كما قيل - حيتانًا فى عالم المال والأعمال ، وفتحوا حسابات بالعملة الصعبة فى البنوك الأجنبية الخارجية ، ولم يكن عجبًا أن يتحدث الناس ، ويعقدون المقارنات بين باشاوات ما قبل الثورة ، وسوبر باشاوات ما بعد الثورة ، ومن هنا كان حرصهم الشديد على بقاء الأوضاع على ما هى عليه ، والتمسك بمناصبهم ومكاسبهم ومشاركتهم الضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أن ينتقد أو يعارض أو يكشف المستور . ذلك أن أنصار الثورة الكبار من رجال الجيش أو المدنيين الذين لم يحملوا حقائب وزارية ، كانوا يلحقون بقطاعات الصناعة والتجارة الخاضعة لإشراف الحكومة كأعضاء أو رؤساء فى مجالس إدارة الشركات ، أو يتولون العمل كمديرين تنفيذيين ويكون تحت أيديهم الأموال الطائلة ، ولهم سلطة اتخاذ القرار دون أن يعترض طريقهم أحد ، وفى حالة ما إذا ظهر معترض له سلطة أو نفوذ ، فمن السهل إسكاته بقدر مناسب من الغنيمة الحرام ، أو بالتآمر عليه لإبعاده قهرًا عن الطريق ، حتى تمضى الأمور فى نطاقها المرسوم .

ولقد راجت شائعات تقول أن هناك دفعة إفراج فى عيد الأضحى المبارك أو فى عيد الثورة (لا أذكر) ، وتفاءل الجميع خيرًا وخاصة بعد أن انتهت المحاكمات ، وصدرت الأحكام ضد البعض ولم يعد هناك مبرر للاعتقال التحفظى ، لأن إغلاق ملف المحاكمات يعنى أنه لم يعد هناك أحد ممن حامت حولهم الشبهات مطلوبًا للتحقيق أو المحاكمة ، وجلسنا ننتظر ، ولكن تبخرت الآمال ، بعد مرور تلك المناسبة ، ولم يفرج عن أحد ، وقيل فى حينها أن السيارات التى كانت ستنقل المفرج عنهم كانت جاهزة ، لكن الرئيس جمال عبد الناصر لم يعتمد قوائم الإفراج المعدة لذلك حسبما أخبرنا الدكتور خليل طبيب المعتقل ، وكان من المعروف أنه يستحيل الإفراج عن أى فرد إلا بموافقة رئاسة الجمهورية فى تلك الفترة .. وشعر الجميع بخيبة الأمل ، ولكن ما الحيلة ..

فى هذه الفترة سمعنا أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل سوف يأتى إلى المعتقل ليلقى محاضرة

عنوانها «أعمال الثورة من أجل الإسلام»، والدكتور عبد العزيز كامل هو أستاذ الجغرافيا فى كلية الآداب جامعة القاهرة، والخبير المختص بالتسلل الإسرائيلى فى أفريقيا، كما أنه كان عضوًا فى مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين (أعلى سلطة فى الجماعة)، وكان قد التزم الحياد فى الصراع بين الثورة والإخوان، كما كان يحسن الظن بنوايا الثورة، وعندما جاء إلى المعتقل خرجنا إلى فناء السجن الواسع، وجلسنا القرفصاء، أما هو فقد جلس على مقعده خلف مكتب خشبى متواضع وأخذ يتحدث عما قدمته الثورة من أعمال مجيدة تهدف إلى رفع راية الإسلام ونشر مبادئه، والعمل على الالتزام به، وذلك بهدف تخفيف حدة العداء وسوء الظن بين الطرفين؛ الإخوان والثورة، وكان الدكتور طوال محاضرته لا يرفع عينيه عن الأوراق التى أمامه، ويتكلم بصوت خفيض دون حماسة تذكر، وقد كان يجلس أمامه عدد من شباب الإخوان كانوا قد تتلمذوا على يديه فى الماضى، كانوا لا يرفعون أعينهم عنه، وهم فى الصف الأول، وما إن أنهى المحاضرة حتى هبوا واقفين وصافحوه، فكان يصافحهم فى حرارة، دون أن تفارق شفتيه ابتسامة لها معنى لا يخفى على أحد، وكأنه يقول إننى لم أفعل ذلك إلا من أجلكم، أملًا فى إيجاد حل للمشكلة المزمنة التى طال عليها الأمد.

ولقد علمت بعد أن خرجت أنه قدم إلى المعتقل عدد من المحاضرين الآخرين للتوعية منهم كمال رفعت أحد كبار رجال الثورة (والوزير أيضًا)، وقد كان ممن شارك مع الإخوان فى حرب القناة ضد الإنجليز قبل الثورة، وقد أثنى على جهاد الإخوان القديم ثناء طيبًا، وجاملهم بأكبر ما يستطيع كما جاء للمحاضرة بعد ذلك عدد من علماء الأزهر منهم الشيخ فتح الله بدران وغيره.

ولقد رأى رجال الأمن فى تلك الفترة، أن يقوم الإخوان المعتقلون أنفسهم - إثباتًا لحسن النية - بدور ما فى التوعية وسط صفوف الإخوان المعتقلين، على أن يذكر فيها منجزات الثورة، وأن يتناول الحديث أيضًا - كشرط أساسى - الأخطاء التى وقعت فيها الجماعة، وخاصة محاولة اغتيال عبد الناصر، وتكفير الناس، وما اقترفه الجهاز السرى (النظام الخاص) من أخطاء فادحة تتنافى مع الإسلام، ومع القوانين السارية فى الدولة، والواقع أن هذا الأمر كان قضية شائكة للغاية، إذ أسفر عنها انشقاقات فى صفوف الجماعة، ذلك لأن من شارك فيها كان عددًا من القيادات التى تولت مواقع حساسة فى الجماعة قبل ذلك، ومهما قيل فى هذا الأمر، فإنه تم بغير قليل من الضغط والإكراه، كما وأن البعض شارك فيها كتكتيك سياسى مرحلى لا يعنى سوى الخلاص من المأزق بأقل الخسائر الممكنة، ومن جانب آخر فقد كان لذلك رد فعل سيء فى البعض، فقد رفضوا الإذعان لذلك، واتهموا إخوانهم بالخيانة، كما اتهموا الحكومة بالإجرام والكفر، وهكذا نشأت «جماعة التكفير والهجرة» فيما بعد والتى أنشأها شكرى مصطفى وغيره، ورأى الأستاذ الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين - وكان سجينًا فى تلك الفترة التالية - أن يشكل لجنة لدراسة الوضع، وفى النهاية صدر كتاب فضيلة المرشد وهو كتاب «دعاة لا قضاة» أنحى باللائمة على من يكفّرون المجتمع، ودعا جماهير الجماعة إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونبذ العنف وغير ذلك من الأمور التى أسندها الكتاب إلى الأدلة الشرعية الناصعة التى ليس فيها شك..

لكن آثار هذه الفتنة - إن صح التعبير - قد خفت حدتها، وتكاد تكون قد تلاشت مع الزمن، والدليل على ذلك، أن الجماعة فى عهدها الجديد، أيام المرحوم الأستاذ عمر التلمسانى المرشد الثالث، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع قد اتخذت خط الاعتدال، ونبذ العنف، وشاركت فى العمل السياسى الشرعى تحت مظلة «حزب الوفد» فى المرحلة الأولى، ثم بالاشتراك مع حزب العمل

فى المرحلة الأخيرة ، هذا وقد حققت الجماعة فى عهدها الجديد قدرًا لا بأس به من النجاح حينما دخلت الانتخابات النيابية تحت شعار «الإسلام هو الحل» ، ولولا ما شاب عملية التصويت فى الانتخابات من تزييف وتزوير وتهديد وألاعيب لكانت نسبة النجاح أكبر وأكبر ، كما استطاع أنصار الجماعة الفوز بالأغلبية المطلقة فى عدد من النقابات المهنية والاتحادات وعلى رأسها نقابة الأطباء ، ونقابة المهندسين ، ونقابة المحامين ، واتحادات الطلبة .

إن الحياة تجارب ، والعمل السياسى محفوف بكثير من المشاكل والمعوقات وقلما توجد جماعة من الجماعات ، أو حزب من الأحزاب إلا وتواجهه العديد من المحاذير والمنغصات ، واحتمالات الخطأ واردة كاحتمالات النجاح ، المهم أن تتمخض مثل هذه الأحداث عن رؤية جديدة أكثر إصابة ووضوحًا وصدقًا ، ولا يصح أن تتحول تلك الأحداث إلى ضربة قاصمة تبعثر الجهود ، وتمزق الصفوف ، وتزرع اليأس فى النفوس ، وتقضى على الآمال الكبيرة التى تخفق فى قلوب الملايين .

***

# [٦] زوجتى تقابل عبد الناصر

**بلغتنى** أنباء هزتنى هزًا عنيفًا ..
لقد أرسلت إلى زوجتى - وأنا فى مزرعة طرة - رسالة مخبوءة فى طرد جديد به صابون وملابس وأدوية وكولونيا ، وأخبرتنى فيها أنها قررت أن تذهب إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًا وتقدم إليه التماسًا للإفراج عنى ، مستندة إلى أنى لم يرد اسمى فى القضايا الجديدة ، والتى نشرتها الصحف ، وأنها قد اتفقت مع شقيقتها الأصغر سنًا منها الأستاذة نفيسة التى تعمل كمذيعة بإذاعة القاهرة ، واتفقتا على أن تقوم زوجتى بهذه « المغامرة » دون أن يخبروا أحدًا بها ، وفعلًا بدأ التخطيط لذلك ، ثم ذهبت فى اليوم المتفق عليه إلى بيت عبد الناصر فى « منشية البكرى » فى سيارة « تاكسى » ، لكن قائد الحرس أخبرها أن الرئيس ليس موجودًا ، ويمكن أن تذهب إليه فى « قصر القبة » يوم ( ... ) ، وتكرر ذهابها إلى قصر القبة ، فمرة يكون مشغولًا باستقبال بعض الضيوف الأجانب ، ومرة أخرى لم يحضر ، وأخيرًا حدد لها مدير المكتب موعدًا (ولعله الأستاذ سامى شرف وهو معروف جدًا) .

وفى اليوم المتفق عليه كتبت التماسًا ، وذكرت فيه بعض الأمور منها - كما قلت - أن زوجى لم يرد ذكره فى المحاكمات الجارية ، ومنها أيضًا أن زوجى له كتب تدرس لطلبة المدارس ، وهذه شهادة له لا عليه ، ومنها أيضًا أن سيادة الرئيس قد سلم زوجى جائزة القصة ١٩٥٩ وجائزة المجلس لأعلى لرعاية الفنون والآداب بالمنصورة ، وأن رجلًا هذا شأنه لم تلحقه شبهة إدانة ، من العدل أن يفرج عنه ليرعى أبناءه ويستكمل رسالته فى الحياة ، وأخبرتنى زوجتى أن الرئيس استقبلها وناقشها فى النقط التى ذكرت فى الالتماس نقطة نقطة ، وقالت أيضًا أنها سوف تشرح لى تفصيل المقابلة فيما بعد ، وكانت مهتمة جدًا بقول الرئيس لها بأنه سوف يفرج عنى مستقبلًا » ..

لقد اعتبرت أن ما أقدمت عليه زوجتى عملًا مقلقًا للغاية ، فهى ليست على دراية بدهاليز السياسة وأمور الأمن المعقدة ، فقد تصدر منها كلمة ، أو تقوم بعمل ما يفتح أمامها بابًا جديدًا للمتاعب ، فضلًا عن أن هذه المقابلة سوف يتبعها مراقبة دقيقة لها فى البيت أو الشارع ، أو معهد الخدمة الاجتماعية الذى تواصل الدراسة فيه ، وقد يجند لها بعض زميلاتها أو صديقاتها ، ولا يسلم الأمر من كلمة غضب تقولها ، أو نقد يصدر منها للحكومة ، عندئذ تقع الواقعة ، وتحدث الكارثة ، فمن الممكن أن تؤخذ من بين أطفالها ، وتوضع فى معتقل النساء .. الحقيقة أن الأمر أزعجنى غاية الإزعاج ، ولم أشعر بالارتياح إلا بعد أن بعثت إليها برسالة (سرية) أطلب فيها بإصرار عدم مقابلة أى مسئول ، والاعتكاف مع أطفالها فى المنزل ، وأخذ الحيطة والحذر من أية زميلة أو صديقة أو قريبة ، وأخذ رأى والدها شخصيًا من أى إجراء تتخذه ، كما أكدت لها أن الله وحده قد حدد التاريخ الذى سوف يفرج عنى فيه ، ولا داعى لأن

تقلق أو تتعجل الأمور على هذا النحو ، لأن العجلة كما يقولون فيها الندامة ، ونحن نعيش فترة حرجة من الزمن ، ولابد أن نحتاط ونتصرف بحكمة ولباقة تجنبًا لأية مضاعفات نحن فى غنى عنها ..

وعلمت أيضًا من رسالتها المشار إليها سابقًا ، أن أبى رحمه الله يسافر من بلد إلى بلد ، كما كان يفعل فى اعتقالى الأول ، ويتصل ببعض الشخصيات ذات النفوذ أملًا فى أن يستطيع أحدهم المساعدة فى الإفراج عنى ، كما أخبرتنى أن أمى رحمها الله عادت مرة أخرى إلى الحزن والبكاء ، وأنها تستغرق فى البكاء كلما سمعت الأغنية التى يرددها فريد الأطرش والتى تعلم أننى كنت أحب سماعها والتى يقول فيها :

بتبكى يا عين على الغايبين
ودمعك على الخدود سطرين
بسطر تقولى راحوا فين
وسطر تقولى ليه ناسيين
كفاية يا عين
كفاية يا عين ..

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، لماذا يا أمى توجعين قلبى وقلبك ، لماذا تزيدين من آلامى وهمومى ، بالله عليك أيتها الأم الطيبة المعذبة أن تصبرى وتحتسبى ، حتى تمر المحنة ، وتزول الغمة ، عندئذ تبتسم لنا الحياة من جديد ، ونجلس معًا فى الأمسيات ، ونتبادل الأحاديث والذكريات والطرائف ، وعند ذاك تضحكين فى سعادة ، ويشرف وجهك بالفرج ، وتحمدين الله على ما أسبغه علينا من النعم الكثيرة ..

هذا ما كنت أحدث به نفسى ، لكم أتمنى أن يطول عمر أمى وأبى ويطول عمرى أنا الآخر ، حتى أستطيع أن أرد لهما جزءًا من ألف من الديون التى فى عنقى لهما ، لقد كنت سببًا من الأسباب الرئيسية بخصوص ما تعرضا له من معاناة ومقاساة فى هذه السن المتقدمة من العمر ، لكن ما حيلتى ، إنها إرادة الله الحى الباقى ، الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومن لنا فى هذا العالم نلجأ إليه سواه ؟

---

كنت أفكر كثيرًا فيما تجىء به الأيام ، وماذا سأفعل عندما يأتى فرج الله ، ونغادر المعتقل ، لقد فكرت طويلًا وخرجت بنتيجة ارتحت لها ، وهى أننى لابد أن أهاجر ، وأترك وطنى الحبيب وأهلى وأحبابى ، وقريتنا الصغيرة التى فتنت بها ، لقد اتضح بما لا يدع مجالًا للشك أنه ما دام جمال عبد الناصر موجودًا ، فلن يكون هناك ضمان لعدم تكرار المأساة ، إن التجربة أثبتت ذلك ، ومنهج الرئيس لن يتغير ، وأذكر أننى كنت أقرأ فى جريدة « الجمهورية » فقرأت تصريحًا نقلته وكالات الأنباء عن معلق إنجليزى جاء فيه أن عبد الناصر قد حقق إنجازات كبيرة ، وأنه إذا افترضنا أن أمامه حوالى ربع قرن فى الحكم ، فإن ذلك سوف يتيح له الفرصة لكى يحقق إنجازات أكثر وأكثر ، عند ذاك صحت بأعلى صوتى فى العنبر قائلًا : « ربنا يطول عمره » ودهش الإخوان وسألونى : « من تقصد ؟ »

- « قلت : « جمال عبد الناصر » فتعجبوا ، وقال أحدهم : « ولم هذا الكلام بالذات ، وفى هذا الوقت بالذات ؟ » قدمت لهم الجريدة ليقرءوا الخبر ، فوجموا ولم يعلقوا .

وكنت أدرس إلى أى البلاد أهاجر ، لم أكن أريد العيش فى بلد أجنبى ، فأنا لا أميل إلى الذهاب إلى أوروبا أو أمريكا ، واستقر رأيى أن أسافر - إذا قدر الله - إلى إحدى الدول العربية ، كالسعودية أو الكويت أو قطر أو ليبيا مثلًا ، وبهذا أستطيع أن أعيش فى جو عربى إسلامى أنا وأولادى ، فضلًا عن أن اسمى أصبح معروفًا لحد ما فى الأوساط الأدبية ، مما يعوضنى عن تركى لمصر وأصدقائى فيها .

وفى إحدى الليالى رأيت فيما يرى النائم أننى سافرت فعلًا إلى إحدى الدول العربية ، ووجدت نفسى فى مكان صحراوى عند الحدود ، به أحجار بيضاء مزروعة فى خطوط متصلة وأثناء الرؤيا أدخل فى روعى أن هذه الأرض ليس أرض السعودية ، ولا هى أرض الكويت ، فماذا تكون ، ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد عامين تقريبًا حينما سافرت إلى الكويت للعمل بها فى آخر مارس ١٩٦٨ ، ومن الطريف أنه بعد أن تقدمت بأوراقى قيل لى أن العمل سيكون فى مدينة دبى بالإمارات العربية المتصالحة (أى الإمارات العربية الآن) ، ضمن أفراد البعثة الطبية الكويتية التى كانت تعمل بصفة دائمة هناك ..

وهكذا بقيت أحلم بالهجرة إلى الخارج طوال أيام الاعتقال ، على أساس أنها ربما تكون الحل للخلاص من مشاكل السياسة والاعتقالات التى لا يعرف أحد متى تبدأ ومتى تنتهى ، ولقد كنت واثقًا أن الاستقرار ضرورة حتى أستطيع أن أرعى أولادى بأسلوب صحيح ، وأن أضمن الحياة الطيبة لهم ولأمهم ، وسيكون أسلوبى الجديد للعمل فى خدمة الدعوة الإسلامية هو الكتابة ، وتطوير هذا الجانب فى حياتى وحياة الآخرين من حملة الأقلام ، بعد أن قطعت شوطًا فى دراسة موضوع الأدب الإسلامى وكيف يكون ، وأهميته بالنسبة لأمتنا ، وقد يتساءل البعض هل كان ذلك تراجعًا أو وهنًا ؟ لا أعتقد ذلك ، فإنى أعتقد أن لكل ظروف متطلباتها ، وأن ما قررته هو الطريق المناسب بالنسبة لى ، وبالنسبة للأوضاع الراهنة فى الداخل والخارج ، فقد كانت الدول العربية جميعًا لها توجهاتها السياسية ، وتفضل ألا تدخل فى مشاكل مع جيرانها أو شقيقاتها ، ومن ثم فإن الأمر يحتاج إلى شىء من الحكمة والحيطة والحذر .

فى أحد أيام الثلث الأخير من شهر نوفمبر عام ١٩٦٦ كان الحاج منصور تاجر الذهب المعروف يجلس أمام قدر كبير من العدس المطبوخ ، ومعه مغرفة يوزع بها حق كل معتقل بالدور ، ومن عادة الحاج منصور ، أن يثور ويرفع صوته ، ويحتج على أولئك الذين يطلبون الزيادة على اعتبار أن هذه الزيادة قد تحرم البعض من حقوقهم ، وفجأة انطلق النداء من مكبر الصوت قائلًا : « معتقلين ... كله يسمع . . .» .

وساد الصمت ، وجاء النداء من مكبر الصوت : « منصور موسى منصور موسى ..» .

وأخذ الشيخ منصور يهز رأسه يمنة ويسرة فى حركة عصبية ويقول : « الله ... ماذا جرى ؟ ... ما هذا ؟ ..» .

ولم يطل به التساؤل ، فقد توالت الأسماء واحدًا بعد الآخر ، وزادت الأسماء على المائة عدًا ، ونحن فى حيرة من أمرنا ، هل معنى ذلك نقل بعض المعتقلين من هذا المعتقل إلى معتقل آخر مثلما يحدث عادة ؟ ولقد سمعت اسمى بعد أكثر من ثلاثين اسمًا ، وكان الأخ الدكتور إبراهيم الصياد فى المستشفى لتنظيم عملية توزيع الدواء على المرضى من زملائه المعتقلين بالاتفاق مع طبيب المعتقل ، وقال إبراهيم الصياد : « أبشروا يا إخوان .. هذه هى القائمة الأولى من المفرج عنهم وأنا معهم .. الحمد لله .. سوف أخرج وأذهب إلى بعثتى المقررة فى روسيا ..» .

وساد الهرج والمرج ، وحضر الضباط والعسكر فرحين ، يلقون بالتهانى هنا وهناك ، ولم يستطع بعض المعتقلين السيطرة على أعصابهم وأخذوا يعانقون الضباط والعسكر ، وتلاشت فى هذه اللحظات صورة العداء التقليدية بين المحبوس والسجان ، لحظات لا يمكن وصفها بدقة ، أصدق ما يقال عنها أنها نوبة من نوبات الفرح الهسيترى ، وتنهدت فى ارتياح ، أخيرًا سأعود لأولادى وزوجتى وأهلى ، سأذهب إلى قريتى وأبى وأمى ، وسألتحق بعملى الذى أحبه ، وألتقى بأصدقائى العمال ، وأبدأ حياة جديدة .. سبحان مغير الأحوال ..

ولم يكن معنى ذلك أن نخرج على الفور ، فأمامنا يومان أو ثلاثة حتى تستوفى الإجراءات الضرورية ، ولم يكن أحد من أهلينا يعرف شيئًا عن هذه الأخبار السارة الجديدة ، كما لم يكن فى الاستطاعة الاتصال بهم فى هذه الفترة القصيرة ..

وفى غمرة السعادة التى شملتنا نسينا أنّ لنا إخوة لم ترد أسماؤهم بعد فى قوائم الإفراج ، ذلك أن الإفراج يأتى كما تعودنا على دفعات متتالية ، ولهذا أخذنا نواسيهم ونؤكد لهم أنهم سوف يلحقون بنا فى وقت قريب إن شاء الله ..

فى اليوم التالى جاء إلى المعتقل كبار رجال المباحث العامة (أمن الدولة حاليًا) ، وتكلم كبيرهم فينا ونحن جلوس أمامه ، وألقى التعليمات الضرورية ، وحذر من ممارسة أى نشاط حزبى وأخبرنا بأنه يجب أن نحمد الله على أن الرئيس قد عفا عنا ، وصدّق على قوائم الإفراج ، وما إلى ذلك من الأمور الهامة التى يجب أن نلتزم بها .

فى المساء جاء أحد الإخوة وهمس فى أذنى : « هناك أمر يجب أن تعرفه » .

– « خيرًا ..» .

– « الأمر يخص الحاج منصور تاجر الذهب » .

– « ماذا عنه ؟ » .

– « أحد أطفاله سقط من الشرفة منذ شهور ومات ، وأخفينا عنه الخبر ، والآن نريد أن نطلعه على الأمر حتى لا يفاجأ به عند وصوله إلى أهله ، وأعتقد أن الوقت مناسب الآن ، لأنه سوف يخرج غدًا ..» .

كان الأمر مؤلمًا ، والحاج منصور رجل عصبى حساس إذا ما انفعل أصيب بأزمة ربوية حادة تكاد تقضى عليه ، ولهذا أعددنا العدة لذلك ، وجهزنا حقنة « الأمينوفلين » ، ثم ألقينا إليه بالخبر آسفين بعد مقدمات عن الصبر والرضي بقضاء الله وقدره ، والأجر عند الله سبحانه ، وما إن سمع الحاج منصور الخبر ، حتى احمر وجهه الأشقر ، وانهمرت الدموع من عينيه ، واختنقت أنفاسه ، فبادر أخونا الدكتور إبراهيم بحقنه بالدواء حتى هدأت أنفاسه واستكان ... ترى كم واحدًا منا سيفاجأ بأحداث عندما يعود إلى بيته بعد الليالى الطويلة التى قضاها فى المعتقل لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد ؟ .

وأخيرًا خلعنا ملابس السجن الكالحة ، وارتدينا ملابسنا التى خلعناها عند الدخول ، وركبنا السيارات المكشوفة ، فانطلقت بنا فى الطريق إلى جوار النيل ، والأغلال الحديدية فى أيدينا ، وبينما نحن سائرون رأينا سيارات النجدة والشرطة تمرق إلى جوارنا ، تحرس « شخصية كبيرة » سألنا ما هذا ؟

قال أحد العسكر : « هذا موكب « الفريق الدجوى » رئيس المحكمة العسكرية » .

فانكمشنا فى أماكننا ، فقد كان مجرد الاسم يوحى بالألم والقشعريرة ..

كل ما أتذكره بعد ذلك أننى أخذت – ومجموعة من المعتقلين المفرج عنهم معى – إلى مكتب

مباحث « شبرا الخيمة » وهو المكتب الرئيسى لمنطقتنا ، وجلسنا فى الانتظار ، وأحيانًا نوقع على بعض الأوراق ، ولم نكن نفكر فى قراءة ما فيها ، إننا نريد أن نتحرر ..

جاء أحد الضباط وقال : « أين نجيب الكيلانى ؟ » .

– « أفندم ..» .

– « يحيى بك كامل أمين رئيس مكتب مساكن أبو زعبل يطمئن عليك ، ويسألك إن كنت تريد شيئًا » .

– « أبلغه شكرى ، وأرجو أن يتصل ببيتى ويخبرهم أنى قادم إن شاء الله بعد قليل ، ولا بأس من أن يرسل لى سيارة المستشفى بدلًا من السفر فى القطار ..»

وفى أقل من ساعة وصلت السيارة البيضاء ، وهى سيارة الإسعاف ، عانقنى السائق « أنور » فى ود وحرارة ووجهه ينطلق بشرًا ، وما هى إلا لحظات حتى خطوت نحو السيارة ، وإذا بأحد ضباط المباحث يقترب منى ويقول : « يجب أن تنسى ما مضى ..» .

ابتسمت له فى رقة وقلت : « وكيف أنسى يا بك ؟ » .

وجرت بنا السيارة إلى جوار ترعة الإسماعيلية وما إن اقتربنا من الطريق الذى يتفرع جهة اليسار حتى رأيت الممرض رمضان الذى عمل معنا فى المستشفى يلوح بيده ، حاملًا طفلتى الصغيرة « عزة » على كتفيه ، وتوقفت السيارة ، والتقطت ابنتى الحبيبة ، وأخذت أقبلها فى حرارة وهى صامتة تمامًا لا تنطق ، مأخوذة بروعة المشهد ، وتتشبث بيدى ، وكأنها تخاف أن ينتزعها منى أحد .. ترقرقت الدموع فى عينى . « ماما بخير يا عزة .. إخوتك بخير يا حبيبتى ؟ » .

– « آه ..» .

وبعد أن هدأت أنفاسى اللاهثة قلت للممرض رمضان : « كيف حال الأهل والأصدقاء جميعًا يا رمضان ..» .

رد قائلًا : « كلهم بخير والحمد لله .. لكن الحاج الكبير .. تعيش أنت » .

هتفت فى رعب : « من ؟ » .

– « صهرك فضيلة الشيخ محمود شاهين والد زوجتك ..» .

– « متى ؟ » .

– « أواخر العام الماضى » .

– « ولماذا لم يخبرنى أحد ؟ » .

– « وماذا كنت ستفعل ؟ أكنا نزيدك همًا على همّ .. لقد كان من الصالحين ، ليتنا مثله ..» .

شهقت باكيًا ..

تذكرت الرجل الطيب العارف بالله ، أيام أزمة الاعتقالات وهو يستقبلنى بوجه شاحب ، وجسد مضطرب ، ولا يكف لسانه عن الدعوات والابتهالات ..،تذكرت سيرته العطرة ، وجهاده الطويل من أجل أداء رسالته ، ورعاية أسرته ، وعطفه على الآخرين ، وتذكرت أيضًا أبناءه الثمانية الذين ما زالوا فى حاجة إلى المزيد من الرعاية .. وسمعت الممرض رمضان يقول : « لقد أخطأت حينما أخبرتك ، ما كان يجب أن أفسد عليك الفرحة .. سامحنى ..» .

جففت دموعى ، ومن عجب أننى رأيت ابنتى الصغيرة عزة تبكى هى الأخرى ، فجففت لها دموعها بمنديلى وقلت : « لا تبكى يا حبيبتى لأن جدك الآن فى الجنة » .

- « عارفة يا بابا .. ماما قالت لى ..» .

وصلت إلى ( الفيلَّا ) التى أسكنها والتى لم يغيرها الزمان رأيت ولدى حسام الدين جالسا فى الشرفة يقول : « لا أستطيع الوقوف .. عندى دمل فى رجلى ..» .

وحملته على صدرى ، ومشاعرى لا توصف ..

ووجدت نفسى وسط حشد هائل من العمال والموظفين ، لقد تركوا أعمالهم فى ورش السكة الحديد ليكونوا فى استقبالى ، بل وجدتهم وقد أقاموا الزينات الكهربائية والأعلام ، والنسوة فى البيوت المجاورة يزغردن ، والمسجل يشدو بإحدى أغنيات الأفراح ، لكأنما كنت فى يوم عيد ، القلوب العامرة بالحب تحيط بى من كل جانب .. فهل هناك أروع من ذلك ؟ الحمد لله ...

لم أجد زوجتى .. سألت عنها قيل أنها علمت فى الصباح بنبأ الإفراج عنك ، فذهبت إلى القاهرة ظنًا منها أنك ستكون فى وزارة الداخلية ، لكننا أرسلنا مندوبًا منذ ساعة ونصف إلى القاهرة كى تعود بسرعة . الصغير جلال الدين تائه فى الزحام ، يسأل أخاه الأكبر قائلًا : « فين بابا الجديد ؟ » .

ضحك إخوته ، كان عمره عامين ونصفًا ..

دخل يبحث عنى وسط الرجال ، يبدو أنه نسى شكلى ، ورأيته يمضى حائرًا يتصفح الوجوه ولا يدرى أيها وجه أبيه ، فقمت إليه وحملته وأنا أقول : « أنا بابا يا حبيبى » .

فابتسم وارتاح على صدرى .

كانت أختى الصغيرة « سميرة » بالداخل ، ولم يتركها أهل المدينة وحدها فقد قدموا ومعهم « الشربات » والمشروبات الغازية ، والفواكه والأطعمة .. كيف يستطيع الإنسان أن يرد جميل هؤلاء الناس الطيبين .

والعاملون معى فى المستشفى تركوا مواقعهم رجالًا ونساءً ، الأطباء والممرضون والممرضات وفنى الأشعة وفنى المعمل ، والطباخ والفراشون ، بل وبعض المرضى ، وأطبقوا علىّ عناقًا وتقبيلًا وتهانى ..

بعد أقل من ساعة قدمت زوجتى وشقيقتها الأستاذة نفيسة المذيعة بإذاعة القاهرة ، ونهضت لاستقبالهما ، نظرت إليهما وهما تدخلان .. ومن عجب أننى لم أستطع أن أفرق بينهما ، ووقعت فى حيرة .. كانت زوجتى أكثر امتلاءً وبياضًا من شقيقتها ، لكننى الآن أكاد لا أجد فرقًا بينهما .. ورجحت أن التى اندفعت نحوى والدموع فى عينيها واحتضنتنى دون تحفظ هى زوجتى ، والثانية هى شقيقتها ..

ولم أعد أستطيع أن ألم شتات نفسى ، البيت ممتلئ بالرجال ، وهم يتكلمون فى وقت واحد ، وأنا أرد على هذا ، وابتسم لذاك ، وأشارك هؤلاء فى الحديث ، حتى شعرت بإرهاق شديد .. ولم تكن لدى أدنى رغبة فى الطعام والشراب ..

كان فى نيتى أن أسافر فورًا إلى قريتى « شرشابة » حيث الوالدان والأهل ، لكنى وجدت أنه من غير اللائق أن أترك هؤلاء الناس الطيبين فى المدينة السكنية ، وأنسل من تلك الاحتفالات التى أقاموها لى ، ومن ثم بادرت بإرسال برقية إلى والدى أقول له فيها : « تم بحمد الله الإفراج عنى اليوم ، وسوف أحضر طرفكم بعد غد - الأربعاء - إن شاء الله .. تحياتى لكم جميعًا » .

وفى صبيحة اليوم التالى ذهبت إلى المستشفى ، واستلمت العمل رسميًا ، ووقعت على دفتر الحضور والانصراف وتصادف أن جاء الصراف ليوزع الرواتب الشهرية على الموظفين ، فتسلمت مرتبى ، وقد كنا فى حاجة إليه .

فى يوم الأربعاء استأجرنا سيارة ، انطلقت بنا إلى قريتنا .. ما أسرع ما تمر الأيام !

كان بيتنا القديم يقع فى وسط القرية فى شارع طويل لا تستطيع السيارة أن تسير فيه ، وعلى باب الشارع كان يوجد خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال ، وزغاريد النساء تنطلق فى سماء القرية ، ثم ، ها هو « الريس فريد » بمزماره الشهير ، وحوله فرقته ، إنه يسدد فوهة المزمار إلى أعلى ، ويتمايل برأسه عجبًا ، وطبوله تدق بقوة ، وبقية المزامير تسانده ، وتكاثر عليّ الرجال يصافحون ويقبلون ويعانقون ، وتلفتُّ فلم تقع عينى على زوجتى وأولادى ، ولا أعرف أين ذهبوا ، لا شك أنهم غرقوا فى الزحام ، وربما تسللوا إلى بيتنا ، وتركونى أنعم بوقت من أسعد أوقات حياتى ..

وأخيرًا ، بعد جهد جهيد ، وصلت إلى بيتنا .. رأيت صيوانًا كبيرًا مقامًا فى الساحة أمام منزلنا ، وأبى يقف رافعًا هامته ، على رأسه عمامته البيضاء ، كان يبتسم والدموع فى عينيه ، والفرحة تكسو وجهه السمح ، وأمسكت يده بيديّ وأخذت أقبلها مرارًا ، ثم احتضننى ولم يقل سوى . « ولدى .. حمدًا لله على السلامة يا .. ولدى » .

أما أمى فلم أستطع الوصول إليها ، لأن بيتنا كان مليئًا بالنساء ، وفيهن عدد كبير من نساء الأسر المحافظة ...

وجلست فى الصيوان مثل المرة السابقة ، أى منذ ثمانى سنوات تقريبًا .. وأخذت أستقبل أهل القرية واقفًا ، مصافحًا ومعانقًا .. يمر بى طابور طويل يبدو بلا نهاية ...

ولم تهدأ الحركة إلا قبيل منتصف الليل ، ومن ثم دخلنا البيت ، وقصدت الغرفة التى سأنام فيها ..

قلت لأمى : « هل ألّفت أشعارًا جديدة » .

– « طول الليل أشعار ودموع وصلاة ودعاء » .

أيتها الصابرة الطيبة ، لطالما عانيت وثابرت ، ولم تيأسى أو تكليّ .. كانت ضراعاتك تطرق أبواب الليل حتى الفجر ، ولم تكفى يومًا واحدًا عن الابتهال والضراعة والاستغاثة ، يا أَمة الله الساجدة الراكعة المتذللة .. لقد استجاب الله لدعائك ، وأنقذنى من براثن الوحوش .. ليس مرة واحدة .. ولكن مرتين .. لقد كاد بصرك يكف من انهمار الدموع ، وطول السهر ، وقلة الطعام والأحزان .. لكن الله أبقاك حية صامدة ، لم تقتلعك ريح الطغيان ، أو يعصف بك طاغى الأحزان ، كنت تنتظرين لا تملين الانتظار ، وتدقين باب الرحمة بيدك الواهنة المعروفة ، وأنت واثقة أنه سوف ينفتح لك فى يوم من الأيام ، وسيأتى إليك « طفلك » الكبير .. المتزوج .. أبو أحفادك .. ليمسح لك الدموع ، ويعيد إلى قلبك الفرحة ، وإلى ثغرك البسمة .. أيتها الأم العظيمة ..

واجتمعت الأسرة بكاملها معى فى هذا الأيام ؛ أخى المرحوم أمين وزوجته وأولاده ، وأختى فوزية وزوجها وأولادها ، وكذلك أختى عايدة ، وأخى محمد الذى تخرج وأصبح معيدًا بالكلية ، وكذلك عمى عبد الفتاح وعمى أحمد وأسرتهما ، واستعدنا ذكريات الماضى وآمال المستقبل ، كان أبى يجمع أفراد الأسرة تحت معنى عظيم « صلة الرحم » ، وجميع الأفراد ملتزمون بقيم الوحدة والتعاطف والتعاون ، ولعل هذه المبادئ لم تزل قائمة حتى الآن ، على الرغم من أن الآباء قد اختارهم الله إلى جواره منذ زمن ، فأرضنا الزراعية لم تقسم ، وبيوتنا شبه مشتركة ، والتكافل الاجتماعى ينشر أجنحته على الجميع والحمد لله ...

سألنى أخى أمين قائلًا : « كم سجنًا دخلت ؟ » .

قلت له : « سبعة .. آخرها سجن مزرعة طرة .. وأدعو الله أن يكون خاتمة المطاف ..» .

قال أخى : « أدعو الله ألا يعيد هذه الأيام السوداء مرة أخرى » .

- « آمين يا أخى أمين ..» .

وضحكنا ..

وكان أبى يسمعنا ، دون أن يتكلم ، وعلى وجهه علامات الارتياح والاطمئنان ، بينما قالت أمى : « لا تنتقل قدم من مكان إلى مكان إلا بأمر الله » .

وتلونت نظرات أمى بقدر غير قليل من الأسى وقالت : « أخبرتنى زوجتك بأنك تفكر فى السفر إلى الخارج » .

قاطعها أبى قائلًا : « إنه مسافر دائمًا » وماذا فى ذلك ؟ إذا كان فى السفر مصلحة له فلا بأس ....

❁❁❁

# [٧] القافلة تسير والدائرة تدور



استأنفت عملى فى المستشفى والقسم الطبى بالمدينة السكنية بأبو زعبل كطبيب مقيم، ومعنى ذلك أننى أكون على رأس عملى بالقسم (العيادة) منذ الصباح داخل الورش، ثم أظل طوال باقى اليوم تحت الاستدعاء، وذلك لعلاج أو إسعاف الحالات الطارئة، ولم أكن متبرمًا بذلك فأنا أحب عملى والحمد لله، وبعد أن أستريح قليلًا فى الظهيرة، أذهب إلى المستشفى، وأجلس فى مكتبى انتظارًا لما يأتى من حالات مرضية، وهى حالات ليست كثيرة على أية حال، وكنت انتهز هذه الفرصة فأقرأ بعض الكتب، أو أكتب قصة قصيرة أو فصلًا فى رواية، وفى بعض الأحيان كنت أبقى فى مسكنى لأفعل نفس الشىء، أستطيع أن أقول أننى كنت أنظم عملى ووقتى بالطريقة التى تروق لى، ولم أعد أذهب كثيرًا إلى المحافل الأدبية كعهدى السابق، كما لم أعد أشارك بالكتابة فى الصحف مثلما كنت أفعل قبل ذلك، ووجدت نفسى عازفًا عن القيام بذلك ربما كردّ فعل لأيام المعتقل، وما شابها من مرارة وأسى ..

كان شغلى الشاغل هو السفر للعمل فى الخارج، وخاصة بعد أن علمت أن بعض إخوانى استطاعوا أن ينجحوا فى ذلك، ولهذا بقيت أحلم باليوم الذى أستطيع أن أرحل فيه عن بلدى الذى أحبه، ولقد قامت نقابة الأطباء أثناء الاعتقال بصرف مساعدات مالية للأطباء المعتقلين، إلا أنا، ذلك لأنى لم أكن قد اشتركت فى النقابة طوال السنوات الست السابقة، ولذلك ندمت أشد الندم، وبادرت فور خروجى من المعتقل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بقيد اسمى فى النقابة العامة للأطباء، ودفع الاشتراكات المطلوبة، واستخراج الترخيص الخاص بمزاولة المهنة، والحقيقة أننى كنت أمارس العمل قبل ذلك بصفتى طبيبًا مكلفًا، ولم يكن يطلب من الطبيب المكلف مسوغات تعيين أو ترخيص. وبطبيعة الحال فإن السفر إلى الخارج - إذا تيسر - يحتاج إلى أن يكون الطبيب مرخصًا، وكان أصدقائى يعجبون كيف أسجل عضويتى فى اتحاد الأدباء، وأنسى أن أسجلها فى نقابة الأطباء، وللأسف لم يكن اتحاد الأدباء أو نادى القصة يصرف أية معونات للأعضاء، ولم يزل هذا الاتحاد حتى الآن تعسًا لم يقم بعمل أية مشاريع تخدم حملة القلم، وهو لا شك يحتاج إلى روح جديدة نشطة تبعث فيه الروح مثلما يحدث فى نقابة الصحفيين أو المحاماة أو المهن الأخرى عامة.

ومع ذلك فقد كتبت فى هذه الفترة رواية مواكب الأحرار، وحمامة سلام، وعددًا من القصص القصيرة، كما أعدت طبعات جديدة من بعض الروايات القديمة. وبعثت فى تلك الفترة ابنى حسام الدين وابنتى عزة إلى مدرسة الروضة، وكانت زوجتى قد تخرجت فى منتصف عام ١٩٦٦ أى قبل خروجى من المعتقل من معهد الخدمة الاجتماعية، كما تخرج أخى محمد بتفوق من كلية التربية البدنية والرياضية، وعُيِّن معيدًا بها، وقد نال بعد ذلك الماجستير والدكتوراه فى المناهج وتدرج فى الوظائف الجامعية، حتى أصبح عميدًا لكلية التربية بطنطا والحمد لله، وحقق مكانة متميزة فى كليته، وفى

جامعة طنطا ، وفى نفس الوقت اختار الله إلى جواره زوج أختى السيدة عايدة ، وهى فى عامها التاسع والعشرين ، وترك لها من الأطفال ثلاثة : بنتين وولدًا ، ومعاشًا شهريًا ضئيلًا ، وقطعة صغيرة من الأرض الزراعية .

كنت قد أشرت إلى ضعف صحة زوجتى ، ولقد أدركت السبب وراء ذلك ، إذ إنها أصيبت بنزيف مستمر طوال الفترة السابقة ، وشخص أطباء النساء والولادة ، بأن النزيف راجع إلى أسباب نفسية ، وفشلت جميع الجهود العلاجية لوقفه ، ولم أدخر وسعًا بعد خروجى من المعتقل فى علاج حالتها لدى أفضل الأطباء المتخصصين فى هذا المجال ، وتكللت جهودهم والحمد لله بالنجاح ، وبعد بضع شهور قليلة حملت لكن الله أراد أن يحدث لها إجهاض ، ورأى الطبيب المعالج أن يجرى لها جراحة صغيرة ذلك لأن تشخيصه كان « إجهاض غير كامل » مما يستدعى عملية يسمونها « كحت وتفريغ » ، حدث ذلك وأنا أعد العدة للسفر ، وأدخلناها مستشفى كلية الطب بجامعة عين شمس تحت رعاية أحد الأطباء الأصدقاء ، وخرجت من غرفة العمليات بسلام ، وأخذت تصحو من آثار التخدير (البنج) رويدًا رويدًا ، وهناك فى إحدى مراحل الإفاقة يحدث لدى بعض المرضى أن يبيحوا بأفكار وأسرار مكبوتة ، وذهلت إذ سمعت زوجتى تصرخ بأعلى صوتها فى حضور الطبيب والحكيمات وتسب جمال عبد الناصر سبًا صريحًا متتاليًا ، وحرت فى أمرى ماذا أفعل ، ووجدتنى أقترب منها وأحاول جاهدًا أن أضع يدى على فمها إذ لو تسرب هذا الأمر إلى رجال الأمن لتعطلت عن السفر ، ولربما أعادونى إلى المعتقل ، وسجنوها هى الأخرى ، وضحكت إحدى الحكيمات وقالت : « نحن نشاركك نفس الشعور » .

وابتسم الطبيب وقال : « دعها ، وستفرغ ما فى داخلها ثم تهدأ ..» .

ويبدو أنها بعد ذلك تذكرت موت أبيها ، فعادت للصياح مرة أخرى وهى ما زالت تحت تأثير التخدير باكية منتحبة على أبيها ، وكأنه قد مات الساعة ولم يمت منذ أكثر من عام ، وأخيرًا زالت آثار التخدير ، وهدأت زوجتى ، وفتحت عينيها ، فحمدت الله على أن مر الأمر بسلام .

وعدنا إلى مسكننا ، ثم أخذت أشرح لها ما جرى منها ، فلم تكن تصدق ما أقوله ، وكانت تستغرب كيف يحدث ذلك منها دون أن تدرى ، وتأسفت إذ سببت لى حرجًا كنا فى غنى عنه .

وأخبرتنى أن أباها فى أيامه الأخيرة طلب بإلحاح أن يرانى قبل أن يلقى الله ، وكنت أنا فى المعتقل ، فانتهزوا فرصة ما كان ينتابه من شرود ونعاس وأحضروا شقيقى محمد وأوهموه أنه أنا ، فأمسك بيده مغمض العين ، وتحسسها ، ثم تركها فى هدوء ، ويبدو أنه أدرك أن فى الأمر خديعة ، ودمعت عيناه ..

وقبيل وفاته قال لابنته (زوجتي) : « لقد حصنتكم بقراءة القرآن ، وباسم الله الأعظم ، وبالدعوات الصادقة الواردة عن رسول الله .. ولدى يقين بأن الله سيستجيب لدعائى .. فسيروا فى طريقكم مؤمنين واثقين ، والله يرعاكم ..» .

وكانت زوجتى قد مرت ببعض الأزمات المالية مما اضطرها إلى بيع حليها الذهبية ، وأمسك أبوها بيدها العاطلة من أية حلية أو مجوهرات متألمًا وقال ووجهه إلى السماء : « اللهم ألبسها الذهب والفضة ، وجد عليها برزقك الذى ما له من نفاد » .

كان رجلًا صالحًا ، يثق فيما بيد الله أكثر مما يثق بما فى يده ، ولم ييأس قط من رحمة الله وعطفه وفرجه ، قالت له ابنته ذات يوم : « رأيت يا أبى فيما يرى النائم ، أننى أشرب عصير المانجو الذى أحبه كثيرًا ..» .

قال لها مبتسمًا : « مانجو ؟ الله الله .. خير إن شاء الله سوف ينجو زوجك بفضل الله من الأسر ..» .

لم يكن له فى الدنيا مآرب سوى أن يربى أولاده الثمانية ويعلمهم ، ولم يطمع قط فى الحصول على مال كثير ، وكان بذلك سعيدًا راضيًا ، يقضى يومه بين مذاكرة العلم وإمامة الناس فى المسجد ، وإلقاء الدروس الدينية عليهم ، ويحاول جاهدًا إحياء السنن التى انصرف عنها كثير من الناس .

وحاولت فى النصف الأول من عام ١٩٦٧ السفر إلى الخارج ، لكنى لم أجد استجابة من رجال الأمن ، ونصحنى يحيى بك كامل أمين ، رئيس مكتب المباحث فى منطقتنا بالتريث بعض الوقت لأن الأمر يحتاج إلى شيء من البحث والدراسة ، ولابد من وجود من يضمننى ، وخاصة أن بعض من سمح لهم بالسفر ، أخذوا يهاجمون الرئيس والحكومة فى الصحف المعادية فى الدول العربية والإسلامية ، بل وفى الصحف الأوروبية والأمريكية ، وهناك منهم من يشاركون فى تدبير المؤامرات ، ثم إن الموقف مع إسرائيل وحلفائها متأزم ، ولا أحد يدرى متى يحدث الانفجار الكبير فى الشرق الأوسط ..

كان يعمل معى بالمستشفى الجراح الدكتور رياض الشنوانى وهو المدير ، وهو رجل طيب ليس لديه أية اهتمامات سوى عمله ، وكان معنا أيضًا الدكتور عبد الخالق والى أخصائى أطفال ، وهو شقيق الدكتور جميل والى أستاذ الأطفال بالقصر العينى (مستشفى أبو الريش) ، وكنا نحن الثلاثة نعمل فى وئام تام ، وعلاقات طيبة حميمة ، وفى أحد الأيام نقل المدير إلى القاهرة ، وحل محله الزميل الدكتور عصام الدين مختار للعمل كجراح فى المستشفى ، وكان يقيم فى القاهرة ، ويأتى للعمل يوميًا ، ثم يعود إلى القاهرة بعد ذلك ، وعرض عليّ بعض الأصدقاء أن أنتقل إلى مسكن الدكتور الشنوانى الذى خلا ، وكان المسكن فى ڤيلًا عتيقة مبنية من دورين على الطراز الإنجليزى ، ويحيط بها حديقة واسعة أستطيع أن استفيد منها فى زراعة الفواكه والخضراوات ، فضلًا عن أن إيجارها نصف إيجار الڤيلًا التى أقيم فيها ، ولاقت الفكرة قبولًا لديّ ولدى زوجتى ، وتم الأمر بأسرع ما يمكن ، وبعدها حضر الوالدان وأختى الصغيرة سميرة ليقضوا معنا فترة من الزمن ، وكنت أرتاح لوجودهم وكذلك زوجتى ، والحقيقة أن وجود أبى كان يريحنى تمامًا ، ويجعلنى أتفرغ تفرغًا تامًا لأعمالى ، لأنه حكيم وذو خبرة طويلة فى تنظيم أمور حياتنا ، ذلك أنه كان على علاقة طيبة مع الجزار والبقال وبائع الخضراوات والفواكه والمخبز وأصحاب الحرف المختلفة ، وكانوا يحبونه جدًا ، ويعتبرونه واحدًا من المقيمين فى المدينة ، ثم إن وجوده يوفر عليّ كثرة الأسفار إلى القرية للاطمئنان على الأسرة .

ومن الطريف أن أحد عمال الورش كان يتقن عملية الزراعة ، وعرض عليّ أن يتولى شأن الزراعة فى الحديقة الكبيرة ، مقابل خمسين قرشًا فقط شهريًا ، وبلمساته السحرية أحال الأرض حولنا إلى خضرة وزهور وخيرات توحى بالجمال والسعادة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اقتنى عنزة ولدت ثلاثة ، كما اهتم بتربية عدد من الدجاج والبط ، حتى أصبحنا وكأننا نعيش لحد ما فى القرية ، وكنت أجد فى ذلك متعة وسعادة ..

وذات يوم دق جرس الباب ، ونظرت من الشرفة فإذا بى أرى الضابط « ع . س » قلت فى نفسى : « يا إلهى ! ! ما الذى أتى به ؟ هل عاد مرة ثانية ؟ » .

نزلت إليه ، وقدته إلى غرفة الضيوف ، كان معه طفل فى الثالثة من عمره يشبهه تمامًا ، وكان « ع . س » أزرق العينين أشقر الشعر والوجه ، يبدو وسيمًا ممتلئًا ، وكنت أعرفه جيدًا ، وله مع الإخوان تاريخ طويل ، كان ضابطًا فى سجن طرة ، ومشرفًا على عنبر الإخوان هناك حيث كانوا يقومون

بالأشغال الشاقة (تكسير صخور الجبل) وفى وجوده وقعت أحداث سجن طرة المؤلمة فى عام ١٩٥٧ حيث قتل بالرصاص واحد وعشرون وجرح مثلهم، ثم نقل الأحياء بعد تعذيبهم إلى سجن القناطر، وكانوا تحت إشراف (ع. س) الذى أخذ يخطط ويدبر للإيقاع بينهم، ونجح فى زرع الشقاق والخلاف بينهم، حتى انقسموا على أنفسهم، ووعد المنشقين بالعمل على الإفراج عنهم، واستطاع من خلال الضعفاء والموتورين أن يتسلل إلى أسرارهم، وحقق فى ذلك نجاحًا كبيرًا، وبعد أن أدى مهمته نقل إلى عمل آخر فى الشرطة بمنطقة القناة، وبعد فترة من الزمن تربو على العام أى فى عام ١٩٦٦ تذكروه، فنقلوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، ليبدأ فى تنفيذ مخططاته القديمة مرة أخرى، وقدموا له مسكنًا فى المدينة السكنية لعمال وموظفى السكة الحديد بأبو زعبل، وكانت الشقة التى يسكن فيها على مقربة من الڤيلاَّ التى تخصنى.

لم أسأله عن سر مجيئه إليّ، فقد أخذ يبلغنى تحيات إخوانى وأصدقائى الذين ما زالوا قيد الاعتقال بمعتقل أبو زعبل الجديد، وفى مقدمتهم أخى الكريم محمود الجندى أخصائى الجراحة رحمه الله، وكان من الطبيعى أن يلمح إلى أن الحكومة أرادت أن تستفيد من خبراته القيمة، ولهذا نقلته ليتولى أمر الإخوان فى المعتقل، وكان بذلك فخورًا جدًا، كنت أكره أسلوبه وتوجهاته وبروده وقسوته، لكنى لم أستطع أن أفصح له عما يدور فى نفسى، بل كنت ابتسم مجاملاً وأنا أقدم له الشاى، وأتذكر تلك الكلمات الصادقة «إننا نبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»، وكان منظره رغم وسامته الواضحة يرتبط فى ذهنى بمنظر الثعبان..

قال: «أختى الأصغر منى مريضة، فهل لديك وقت لزيارتنا وفحصها؟».

- «بكل تأكيد ..».

مررت بالمستشفى وأخذت معى الحكيمة وأدوات الفحص الضرورية، وقصدنا بيتهم، كان البيت - أعنى الشقة - يتسم بالكآبة، والصمت يهيمن عليه، ليس فيه صوت مذياع أو تلفاز، ولا غمغمات أطفال، خيل إليّ أن السجن فيه حياة وحيوية أكثر منه، أديت مهمتى على وجه السرعة، خاصة أن الفتاة ليس بها سوى التهاب حاد بالحلق واللوزتين وارتفاع فى درجة الحرارة، وسعال جاف، وكان الصدر سليمًا إكلينيكيًا، وكذلك القلب.

كان واضحًا أن مملكة «ع. س» الحقيقية هى السجن وليس البيت، وكانت كل أحاديثه تنصب على أعماله وذكرياته، بين السجناء والمعتقلين، فى السجن يجد ذاته، إنه سعادة البك، إنه يأمر فيطاع، العساكر يؤدون له التحية، والمعتقلون والسجناء يحنون رءوسهم أمامه، يستطيع أن يقول أى شىء ولو كان بذيئًا أو ظالمًا أو كاذبًا، والجميع له مصدقون أو هكذا يتظاهرون بالتصديق، حياة الزيف تسكره وترضى غروره، واستخدام العنف والقسوة تشعره بالقدرة والقوة والانتصار.

وتمر السنوات، وينهى «ع. س» مهمته فى معتقل السياسيين، ويخرجون إلى عالم الحرية، ويعود هو إلى عالم الشرطة فى عمله الأصلى، ويتجرد من سلطات الطوارئ التى كانت تطربه وتغريه وتسعد قلبه، ثم بدأ يشعر ببعض الأعراض المرضية المحيرة، وبتوالى الفحص الطبى والتحليلات وصور الأشعة اتضح أنه مصاب بداء خطير عضال لا يرجى شفاؤه، وصارحه الأطباء بالأمر فى سفره إلى الخارج للعلاج، وأخذت الوردة النضرة الجميلة تذوى وتذبل، وحطم العجز إرادته وآماله وطموحه، وهد قواه، حتى جاءه الموت .. ترى هل كان يفكر فى الموت وهو يتفجر حيوية ونشاطًا، أم أن أوهام الخلود كانت لا تدع له فرصة لذلك؟ اللهم لا شماتة!!

عندما قرأت نعيه فى الصحف ، تذكرت ما فعله بأحد العلماء الأجلاء الشيخ « ح .أ » ، كان « ع . س » يضربه دون سبب محدد ، ويسخر من شيبته ولحيته ، ويقول له : « قل أنا عائشة . يقصد امرأة » .

فيرد الشيخ الجليل رافضًا ذلك ، ومذكرًا إياه بأنه رجل علم ودين ، ولا يصح أن يصل الاحتقار لشأنه إلى هذا الحد ، فيصر « ع . س » على طلبه ويواصل الضرب ، ولم يجد الشيخ بدًا من أن يستغفر الله ويحوقل ويقول : « أنا عائشة رضى الله عنها » .

ثم يتمتم الشيخ بينه وبين نفسه قائلًا : « ... إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان » وها قد مضى على وفاة ذلك الضباط سنوات طويلة ، لكن الشيخ الجليل خرج ذات يوم من السجن ، وساح فى أنحاء العالم الإسلامى والعربى يدعو إلى الله وإلى منهج الحق ، وطبقت شهرته الآفاق ، وهو حتّى كتابة هذه السطور (١٩٩٤) يحيا فى صحة جيدة رغم أنه فى العقد التاسع من عمره ، وقد عانى الشيخ من مرض فى ركبتيه كاد يقعده عن الحركة والعمل لكنه سافر إلى ألمانيا للعلاج ، وعاد بركبتين صناعيتين ، وعاد يمارس حياته الطبيعية دون مشقة ، ويبتسم وهو يحمد الله ويقول : « عاد الشباب إلى ركبتى » .

وعندما يتذكر ما كان يفعله « ع . س » يقول : « غفر الله لنا وله .. البقاء لله وحده ..» .

---

فى أحد الأيام كنت أجلس فى العيادة الطبية داخل الورش ، ودق جرس التليفون ، ورفعت السماعة : « نجيب ؟ » .

– « نعم ..» .

قال بصوته القوى الواثق : « ألا تعرفنى يا . ..؟ » .

قلت على الفور : « لا يجرؤ على مثل هذه الألفاظ إلا واحد فقط » .

– « من هو ؟ » .

– « الأستاذ محمود شاكر » .

وانطلقت ضحكاته الرنانة عبر التليفون ، وكانت نبراته توحى بالسعادة القصوى ، قلت : « كيف خرجت ؟ » .

– « عندما تأتى لزيارتى ستعرف ، سأنتظرك فى بيتى غدًا .. ولابد أن تكون معك زوجتك ..» .

– « والعنوان ؟ » .

– « ألا تعرفه ؟ هل هناك من يجهل شارع الأُسود بمصر الجديدة ؟ » .

عندما ذهبنا إليه فى الموعد ، وجدت نخبة من أصدقائه وتلامذته ، منهم الأستاذ جمعة حسين الكويتى وهو من رجال التربية والتعليم ، كما وجدت صديقه الشاعر الكبير « محمود حسن إسماعيل » وهو فى طليعة شعراء مصر ، بل والعالم العربى فى تلك الفترة ، كما رأيت لأول مرة الطفل « فهر محمود شاكر » وهو فى الثالثة من عمره ، كما التقيت بالأستاذ الدكتور عبد السلام هارون وهو أحد أقرباء الأستاذ محمود شاكر ، والحقيقة أن بيته كان أشبه بجامعة تضم عددًا من خيرة الأصدقاء والتلامذة ، وكان الأستاذ محمود معجبًا بشعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، ويقول أنه أدخل « بحرًا » جديدًا فى الشعر العربى ، ويقول أيضًا إنه كان يكتب الشعر ، لكنه عندما قرأ شعر محمود حسن إسماعيل توقف عن ذلك ، فترك الساحة لهذا الشاعر الفحل ، لأنه أجدر وأحق بها .

وحينما حانت ساعة تناول الغداء ، جلس جميع الحضور دون استثناء على المائدة يأكلون ، وكنت

أسأل نفسي من أين يأتي هذا العالم الكبير المتفرغ بالمال الذى يكفى لهذا كله ؟ ويبدو أنه كان لديه دخل لا بأس به من مصنفاته ، ومن المكتبة التى يشارك فيها آنذاك وهى مكتبة دار العروبة ، كما علمت أيضًا أن هناك هبات ترد إليه من بعض تلامذته وأصدقائه القادرين ، المهم فى الأمر أنه يعيش فى سعة من الرزق ، ولا يحمل للغد همًّا .

كما علمت أيضًا أن المحجوب رئيس وزراء السودان فى تلك الفترة – وهو أحد تلامذته – قد توسط له لدى رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر ، فأفرج عنه ، وكان عبد الناصر يطلق عليه « الرجل أبو دقن » ، ولم يكن يحبه .

وتحدثت بعد الغداء مع الأخ الكويتى الأستاذ جمعة حسين عن طبيعة عمل الأطباء فى الكويت ، وعن موسم التعيينات وما إلى ذلك ، وأخبرته بأن أخى وصديقى الأستاذ محيى الدين عطية قد أرسل إليّ برقية يقول فيها « احضر للتعاقد مع وزارة الصحة بالكويت » وشرحت له صعوبة الخروج من مصر فى تلك الفترة بسبب الإجراءات المتعنتة ، ووجود اسمى فى قائمة الممنوعين من السفر (القائمة السوداء كما كانوا يسمونها) ...

وهكذا قضينا يومًا ممتعًا فى ضيافة هذا العالم الكبير ، وكانت زوجته السيدة المتواضعة الكريمة تبذل أقصى جهودها لتحقق لزوجها ولزواره أقصى درجات الراحة ..

وكان شهر مايو عام ١٩٦٧ شهرًا عاصفًا مليئًا بالأحداث الخطيرة ، وكان جمال عبد الناصر فى عنفوانه وشعبيته على المستوى المحلى والإقليمى ، لقد حشد الكثير من السلاح والرجال وأخذ يهدد ويتوعد إسرائيل بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وطرد القوات الدولية عند الممرات فى سيناء ، وحشد قواته هناك ، فاهتز المجتمع الدولى بأسره لما طرأ من أحداث في الشرق الأوسط ، كما أصبحت المنطقة كلها على شفا الهاوية ، وتوترت الأوضاع أيضًا على الحدود بين سوريا وإسرائيل ، وكذلك حدود الأردن مع العدو .

كان الشعور السائد بأننا قادرون على سحق إسرائيل وتحرير فلسطين ، وهو شعور الغالبية العظمى الذي يتجلى فى خطابات جمال عبد الناصر الملتهبة ، وفى حماسة الجماهير التى تشتعل تشوقًا إلى المعركة ، وفى عناوين الصحف الكبرى فى مصر وعلى رأسها جريدة « الأهرام » ، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحريرها يدبج المقالات ، ويطلق الشعارات ، ويبرز صور قواتنا المسلحة فى صدر صحيفته ، فمثلًا يضع لقطة لطائرات الميج ، ويكتب بالمانشيت العريض فوقها :

« طائراتنا تحمى سماء الشرق الأوسط » .

ولقد علمت أن الحماسة انتقلت أيضًا إلى بقية الإخوان المعتقلين الذين لم يفرج عنهم بعد ، وأبدوا رسميًا استعدادهم للتطوع إلى جانب القوات المسلحة لمحاربة إسرائيل باعتبار ذلك جهادًا فى سبيل الله ، وكان ذلك شعور الكثيرين منهم ، وإن كانوا على يقين بأن الحكومة لن تستجيب لرغبتهم ..

لم نكن نعلم أننا نعيش فى وهم كبير ، صنعته الأقلام والألسنة المخدوعة المغرورة ، وعقد عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًا عالميًا كبيرًا أظهر فيه إيمانه المطلق بالنصر ، وثقته الكاملة فى قواته المسلحة ، وهاجم أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول التى تدعم إسرائيل ، كما أشار إلى أنه لم يزل صغير السن لحد ما ، وأنه باق لليهود وأذنابهم المستعمرين لفترة طويلة قادمة ، وأنه لهم بالمرصاد ، وقال عبارته التى حيرت المترجمين « أنا مش « خرع » زى مستر إيدن » الذى فشل فى اشتراكه بالعدوان الثلاثى على مصر عام .. ١٩٥٦.

الحقيقة أن الشعب المصرى والشعب العربى أيضًا كان على ثقة تامة بالنصر ، ولم يدر بخلدهم أن تحدث هزيمة لقواتنا التى أنفقنا عليها « دم قلوبنا » كما يقول المثل الشعبى .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشير مرة أخرى إلى أن جمال عبد الناصر قد أصبح – كما يقولون – معبود الجماهير – لدرجة مذهلة ، حتى لينطبق عليه قول الشاعر القديم الفاسق الفاسد والعياذ بالله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهارُ

وأستغفر الله لذنبى ولذنوب المؤمنين أجمعين ، لكنها الحقيقة المرة التى يجب أن تسجل ، والتى يجب أن يعرفها الجميع ، ولم لا يصيبه الزهو والغرور وهو الذى يستطيع أن يفعل أى شىء دون أن يعترضه أحد ، أو يفكر فى مجرد مناقشته ، لكن الناس ينسون دائمًا .

لو فكر أحد فى العودة إلى صحف القاهرة فى تلك الفترة وأخذ يتجول بين صفحاتها ويتمعن فيما كتب بأقلام الكتاب والشعراء والفنانين . ولو استمع أحد لما حفظه أرشيف الإذاعة والتليفزيون من أغانى وتمثيليات وشعارات ، لو فعل أحد ذلك الآن لهاله ما رأى وما سمع ، وسيجد الباحث عن الحقيقة فى تلك السجلات القديمة العجب العجاب .. نعم سيجد أقلامًا تسبح بمجد عبد الناصر وعدالته وبطولته وقيادته الملهمة .. فإذا توالت السنون .. سيجد نفس الكتاب يكيلون الذم والنقد والتجريح للزعيم الملهم ، ناصر الملايين ، وحبيب الفقراء والمساكين والمستضعفين ، وقاهر الرجعيين ، ومؤدب الخونة والمتاجرين بالدين .. ومن بين هؤلاء الكتاب الناكصين وزراء وحكماء وفلاسفة وأعضاء سابقون فى مجلس قيادة الثورة ، وشعراء وصحافيون ، وعلماء مؤمنون ، وفلاسفة اشتراكيون ، كان يمكن أن نسمى تلك الأيام « عصر الفتنة » ، لكن كيف والفتنة قائمة منذ أن أيقظها الجاهليون ، وأخذت تطل على الحقب المتتالية من زمن بعيد ..

ولا أريد أن أخوض فى تفاصيل هزيمتنا المنكرة فى شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٦٧ ، فقد صدرت عنها آلاف الكتب والمنشورات والدراسات ..

فى يوم بدء المعركة قال ضابط صغير بالأمن « ف » بصوت أجش ممتلئ بالثقة والغرور : « أعتقد أننا سندخل « تل أبيب » فى أربع وعشرين ساعة » .

وكان يحيى بك يجلس فى مكتبه وأنا معهما ، قلت هامسًا فى تردد . « يا « ف » بك .. نحن لا نحارب ماعزًا ولا خرافًا ، ولكننا نحارب جيشًا قويًا ذا عقيدة ، ومن الطبيعى أن المعركة لابد وأن تكون قاسية ..» .

وصمت برهة لكننى استدركت قائلًا : « سننتصر بإذن الله ..» .

كان لابد أن أستدرك بهذه العبارة ، فربما ظنوا كلامى عن قوة العدو مثبطًا للهمم ، ومفرقًا للصفوف ، ولابد أن يحذر الإنسان فى هذه الأيام حتى ولو كان بين أسرته وأصدقائه ، فما بالك بى وأنا أجلس مع رجال الأمن الرسميين الذين اعتقلونى منذ زمن ليس بالبعيد ..

عدت إلى منزلى قبل بدء المعركة ، وأشرت على زوجتى أن تأخذ الأطفال وتسافر معهم لتقيم فى قريتنا « شرشابة » نظرًا لأن المنطقة التى أعمل بها من المناطق الخطرة المعرضة لغارات الطائرات الإسرائيلية حيث يوجد بها عدد من المصانع والصناعات الهامة كمؤسسة الطاقة الذرية وبعض الأسلحة ، ومحطة إرسال الإذاعة ، ولكن زوجتى فضلت أن نعيش معًا ، ويجرى علينا ما يجرى على بقية خلق الله .

فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ كنت أمارس عملى بالمستشفى وسمعت أصواتًا هائلة لطائرات

حربية تطير على مستوى منخفض وتحدث ضجة لم أسمع مثلها من قبل، وتوقفنا عن العمل لأنه أمر غير عادى .. وأصابنا الذهول ها هى الحرب قد بدأت، وأخذ الناس يتابعون المذياع والبيانات العسكرية المتتالية، وخاصة عدد طائرات العدو التى أسقطتها قواتنا، وظننا أننا بدأنا خطوات النصر الأولى، ساعات قلقة رهيبة .. إنه مصير شعب بأسره .. مصير أكبر دولة عربية .. ثم استمعنا إلى الإذاعات الأجنبية .. الأخبار متناقضة .. بدأ الشك يغزو النفوس ..

عدت فورًا إلى البيت، وجدت أطفالى يجلسون تحت منضدة الطعام لعلها تحميهم، قلت لطفلى الأول حسام الدين: « أخرج يا بطل .. ألم تقل بالأمس: كيف تقوم الحرب وأنا صغير؟ يجب أن أكبر وأصبح ضابطًا حتى أحارب اليهود .» . وضحكت وأنا أقول: « هأنت تهرب تحت المنضدة » .

فخرج، ثم وقف إلى جوارى، وهو يرسل الأسئلة المتتالية عن الحرب، ومن المنتصر، وإلى متى ستستمر هذه الحرب، لم يكن لدى الوقت لأجيب، ولكنى أمرت زوجتى بالاستعداد للسفر إلى القرية على الفور، فقد أعددت لهم حافلة تنقلهم إلى القاهرة، ثم ينتقلون إلى القطار المسافر إلى طنطا، ومن طنطا يكون من السهل السفر إلى بيت أبى فى شرشابة وتم الأمر على النحو الذى أردته فى وقت قصير، وبقيت أنا فى المستشفى عازمًا على أن أقضى فيها أيام الطوارئ حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا ..

أيام ثلاثة مضت، تأكد لنا بعدها أن الكارثة قد وقعت، وأن الهزيمة الماحقة قد حلت بنا، إن معظم طائراتنا قد ضربت وهى جاثمة على الأرض، وأن قوات جيشنا البائسة تتراجع فى فوضى، وعشرات الألوف منهم قتلوا أو جرحوا أو أسروا، واستولى العدو على كميات ضخمة من أسلحتنا الحديثة، وأصبحت فضيحتنا على كل لسان فى أنحاء العالم، ولحق بنا عار أبدى ليس له مثيل فى تاريخنا القديم والحديث، سمعنا أن مدافعنا المضادة للطائرات قد أسقطت طائرة إسرائيلية ففرحنا وجرينا إلى هناك، والتقطت قطعة من الطائرة المحترقة، وعدت بها فخورًا آملًا أن أحفظها للذكرى، لكن يحيى بك أمين ابتسم فى مرارة وقال: « إنها ليست طائرة إسرائيلية بل طائراتنا نحن » .

أصابنا الهم والكمد، حزن لم نر مثله طول حياتنا، وتذكرت التصريحات الرسمية منذ أيام عن قواتنا التى لا تُقهر، وطائراتنا التى تحمى سماء الشرق الأوسط، وأسلحتنا الروسية الحديثة التى ستحقق النصر الأكبر، ثم جاء اليوم الذى أعلن فيه جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة، وهاجت الدنيا وماجت، وشعر الناس باليأس والضياع، ومن يستطيع فى هذا الوقت العصيب أن يتحمل تلك المسئولية الكبرى لشعب تحطمت آماله، وذاق مرارة الخيبة التى أوقعه فيها قادته، شعب لم يشارك فى اتخاذ قرار، أو يعرف شيئًا عن حقائق الأمور، وليست لديه الصورة الصحيحة عما كان يجرى، شعب وثق فى قائده البطل عندما قال بملء صوته فى خطاب رسمى « سيبونا نشتغل »، شعب جاع ليشترى السلاح، ويحارب فى اليمن معركة خاسرة لا ناقة له فيها ولا جمل، شعب محاصر لا يستطيع أن يعترض أو يناقش أو يعبر عن رأيه بصدق وحرية، وهكذا حدث ما لم يكن يتوقعه أغلب الناس فى مصر والعالم العربى، وأخيرًا خرجت منظمات الشباب وعلى رأسها زعيمها حسين كامل بهاء الدين تهتف وتطالب بعودة الرئيس إلى موقعه، وخرج خلق كثير يطلبون نفس الشىء، ورفض زكريا محيى الدين أن يبقى فى مكان عبد الناصر القيادى، وسادت الفوضى الشارع المصرى، وتناثرت الاتهامات، وقبض على قيادات الجيش، وعزل المشير عبد الحكيم عامر قائد الجيش، وصديق عبد الناصر الحميم، بعد أن أعلن عبد الناصر موافقته على الاستمرار فى عمله كرئيس للجمهورية وقائد للثورة .

ووصلت قوات إسرائيل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بعد أن احتلت سيناء بالكامل، أفراح من

إسرائيل واحة الديموقراطية فى الشرق الأوسط ، وأحزان فى مصر ضحية الدكتاتورية والحكم المطلق ، وضحية المخابرات ورجال أمن الدولة القساة غلاظ الأكباد ، وها نحن ندفع الثمن الغالى من كرامتنا ودماء أبنائنا وإخوتنا وسمعتنا ، وأخذ الشعراء والكتاب يغوصون فى متاهات الضياع والحرمان واليأس الأسود ، ويكتب نزار قبانى عن « السلطان » وكلاب السلطان التى مزقت حذاءه ، وأخذت تعد حركاته وسكناته ، كما أخذ خطباء المنابر يحثون الناس على العودة إلى الله ، والإكثار من الاستغفار والتوبة ، واللجوء إلى ساحة الإيمان حتى يخلصنا الله مما نحن فيه من كرب ، ويأخذ بيدنا لننهض من جديد ، وندفع عن بلادنا وبلاد المسلمين الأذى والعدوان ..

كنت أعيش بصفة دائمة فى تلك الفترة داخل المستشفى أنا ورفاق العمل من أطباء وممرضين وممرضات وفنيين وعمال ، وكان معنا رجل يعمل كفنى أشعة ، يقال أنه حشاش ، وهو سعيد جدًا لأن المستشفى يجهز لنا وجبات الغذاء الشهى ، فكان « ع . م » هذا يذهب إلى غسل يديه بعد الأكل ويقول : « يا رب احفظ لنا هذه النعمة ، وأدم علينا أيام الطوارئ » .

ونضحك بمرارة ، فنراه يستطرد قائلًا : « ألم يقل ربنا فى كتابه : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ » ؟ « بلى يا عم « ع . م » .

– « خلاص .. انتهى .. وقد نصر الله المؤمنين » . كان كلامه ذا معنى لا يخفى على السامعين ، لكنه كان مؤلمًا . وكنت أقول له : « المعركة لم تنته بعد » .

– « يا ترى من يعيش ..» .

وفى المستشفى كان يفد إلينا أعداد من الجنود بأقدام متورمة ، ووجوه شاحبة كالحة ، وملابس متسخة ، لأنهم ساروا على أقدامهم مسافات طويلة دون طعام وهم يتراجعون فرارًا بجلودهم ، وأخذوا يتحدثون عن المآسى التى رأوها ، وعن الجنود الذين دفع بهم إلى ميدان القتال دون أن يتدربوا على استعمال سلاحهم ، فقد استدعوا – كاحتياط – على عجل ، وسط فوضى ضاربة ، وحشود مبعثرة ، لا تعرف لها خطة ، ولا تدرى ماذا تفعل .

وقامت مظاهرات فى أوروبا وأمريكا تؤيد إسرائيل ، وقاد الفيلسوف والأديب الوجودى جان بول سارتر مظاهرة فى باريس لتأييد إسرائيل وقال «إننى معجب بتلك الدولة العظيمة (إسرائيل) التى استطاعت أن تفلت من الفناء ببراعة ، وتحقق نصرًا أسطوريًا » .

وملأ « موشيه ديان » وزير الحرب الإسرائيلى الصحف العالمية بتصريحاته عن عبقرية إسرائيل ، وعظمة جيشها الذى لا يقهر ، وانهيار مصر والعرب تحت وقع ضرباته العاصفة ، كما كتبت ابنته مذكرات عن الحرب ..

وكان لابد أن يكون هناك « كبش فداء » يقدم لتبرير الهزيمة المحزنة ، والتى أطلقوا عليها اسم « النكسة » ، وهكذا بدأ الإعداد لمحاكمة قادة الأسلحة فى الجيش ، ومدير المخابرات صلاح نصر ، وحمزة البسيونى قائد السجن الحربى ، وغيرهم من الأسماء اللامعة الكبيرة ، وتوالت الأحداث ، وأعلنت الحكومة عن مؤامرة لقلب نظام الحكم فى صفوف القيادات الحاكمة أنفسهم ، ثم أعلن عن انتحار المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثانى بعد عبد الناصر ، وقيل أنه قتل ، واختفت وجوه ، وبقيت وجوه ، وطفت على السطح وجوه جديدة ، وأعلن عبد الناصر عن كثير من الأخطاء التى وقعت فيها السلطة ، ووعد بإصلاح الأمور ، والقضاء على المظالم والسلبيات والمهازل ، استعدادًا لمعركة جديدة لابد منها فى المستقبل ..

ويبدو أن جمال عبد الناصر قد تذكر التعساء القابعين خلف الأسوار كمعتقلين منذ ما يقرب من عامين، فأمر بالإفراج عن بعضهم، أما البعض الآخر فقد بقى ما يقرب من خمس سنوات، ولم يطلق سراحهم إلا فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات..

لم أشعر بأدنى قدر من الشماتة فى حكامنا الذين أذاقونا الأمرين، بل كان بداخلى إحساس عميق بالحزن والألم، إن جيلنا - جيل النكسة أو الهزيمة النكراء - تعس الحظ، قد رأى وسمع ما لم يحدث لأحد قبله، لكنه جيل معذور لم تتح له فرصة المشاركة بالرأى الحر، والتفكير فى صنع القرارات المصيرية للبلاد، كما أصيب الشباب المؤمنون بعبد الناصر فى العالم العربى بصدمة نفسية وفكرية شديدة، أخبرنى صديقى الدكتور على محمد موسى وهو من سلطنة عمان ويعمل حاليًا وزيرًا للصحة فى السلطنة، قال: «لقد فجعت بعد الهزيمة فى ١٩٦٧، وقررت ألا أقرأ أية صحيفة أو مجلة عربية، وأنا الآن لا أقرأ سوى الصحف الأجنبية، ذلك لأنى فقدت الثقة فى أخبار وتعليقات وتحقيقات كل الصحف والمجلات ..».

بل قال صديقنا الدكتور على أيضًا (وكان ذلك فى السبعينات، من القرن العشرين، أى قبل توليه وزارة الصحة): «لقد تركت العمل السياسى العربى، بعد أن كنت متحمسًا له لدرجة كبيرة منذ أن كنت أدرس فى القاهرة، لكن الهزيمة قد بعثت اليأس فى قلوبنا».

ومن عجب أن الناس رغم كل ما حدث بدءوا يعزفون على أوتار الأمل، ويحلمون بمعركة جديدة، ونصر أكيد، واثقين أن الله لن يتخلى عنهم، وإن تخلى عنهم الحكام وأعوانهم من الطغاة والمستغلين، ومن الطريف أنه أثناء محاكمة النخبة الحاكمة السابقة، قال حمزة البسيونى قائد السجن الحربى، ورائد التعذيب فى عصرنا: «أخبرنى (س) أن ما أصابنا من هزيمة كان بسبب تعذيب الإخوان المسلمين وظلمهم، وأنت يا حمزة فعلت الكثير والكثير فى إيذائهم ..».

وأصبح «حمزة البسيونى» خارج السلطة بلا عمل ولا زوجة ولا أبناء، وكانت نهايته فى حادث سيارة بشع فى الطريق العام بالقرب من مدينة «قويسنا» على طريق مصر إسكندرية، وقتل معه عدد من أقربائه، وعندما شاع الخبر، خرج الناس فى قويسنا والبلاد المجاورة ليروا «مصرع الجلاد» بأعينهم، ويأخذوا منه العبرة، ولم يبق من حمزة البسيونى سوى صفحة سوداء ملعونة فى سجل الثورة المصرية، وكنت قد نذرت لله نذرًا أن أثأر من هذا الطاغية حيًا وميتًا بطريقتى الخاصة التى تناسبنى، فكان أن كتبت رواية «رحلة إلى الله» عن ذلك الإنسان الشاذ، وإن كنت قد غيرت اسمه وجعلته «عطوة الملوانى» تجنبًا لمشاكل التقاضى وطلب التعويضات. هذا وقد كان لصديقنا وأخينا العالم والأديب الدكتور «يوسف القرضاوى» ملحمة من الشعر الجميل، تناول فيها حمزة البسيونى، وليالى التعذيب المهولة الطويلة فى السجن الحربى يقول فيها:

فى ليلة ليلاء من نوفمبر ... فزّعت من نومى بصوت رنين
وإذا كلاب الصيد تهجم فجأةً ... وتحوطنى عن شمألٍ ويمين

إلى أن يقول:

متبلدون عقولهم بأكفهم ... وأكفهم للشر ذات حنين

وهى قصيدة فريدة فى نوعها، شاع ذكرها فى كل مكان بالعالم العربى والإسلامى، وطبعت

أكثر من مرة ، وكان السجناء والمعتقلون ينشدونها طوال الأربعين سنة الماضية ، بالإضافة إلى كثير من القصائد التى صاغها إخوة آخرون ، لكنها لم تشتهر كما اشتهرت قصيدة القرضاوى ، والواقع أن هذا التراث الشعرى الذى يتحدث عن المحنة الكبرى جدير بأن يُجمع ، ويُتناول بالدراسة ...

عادت زوجتى وأبنائى من القرية بعد أن انتهت المعركة ، واستأنفنا حياتنا من جديد ، لكنى لاحظت أن قبضة السلطة على السياسيين أخذت فى التراخى قليلًا ، ومن ثم فكرت فى استئناف الجهود لكى يُسمح لى بالسفر إلى الخارج ، وخاصة أنى أعتقد أن السنوات القادمة ستكون مليئة بالاحتمالات الأسوأ ، ولا يضمن أحد تقلبات المناخ السياسى فهو عرضة دائمًا لمختلف التأثيرات الخارجية والداخلية ، فما إن وصلتنى برقية أخى الأستاذ محيى الدين عطية الذى أمكنه السفر إلى الكويت ، حتى بادرت بتقديم طلب رسمى لوزارة الداخلية ، مرفقًا به صورة من التلغراف (البرقية) طالبًا فيه السماح لى بالسفر للعمل فى الكويت ، كما تقدمت بطلب آخر إلى رئاستى فى الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية بالقاهرة ، أطلب فيه الموافقة على إعارتى إلى حكومة الكويت ، أو إعطائى إجازة بدون راتب ، واستمر السعى المتواصل بضعة شهور ، وفى كل فترة أجد وعودًا بالموافقة القريبة ، لكن الوعود لم تتحول إلى حقائق ، ولم يكن أمامى سوى أن أتجمل بالصبر ، وأستمر فى المحاولات ، وخاصة بعد أن علمت أن عددًا من إخوانى قد نجحوا فى مساعيهم ، وسافروا بالفعل ، منهم أخى محيى الدين عطية ، وفكرت فى أمر هام ، وهو كيف أدبر ثمن تذاكر السفر لى ولزوجتى وأطفالى ؟ وأخيرًا اهتديت إلى حل وهو أن أبيع أثاث بيتى ، لأنى لابد ،أن أخلى المسكن الحكومى الذى أعيش فيه تلك الفترة ، وليس هناك مكان آخر أنقل إليه ذلك الأثاث ، فضلًا عن أننى لن آخذه معى إذا سافرت ، وكان الأثاث به بعض الأدوات الكهربائية كالثلاجة والغسالة والتليفزيون وغيره ، وسوف أستطيع أن أجنى مبلغًا لا بأس به من المال إذا أنا بعتها ، وهكذا استطعت العثور على حل لا بأس به كى أحصل على تذاكر السفر بالطائرة ..

وقامت بعض المظاهرات فى الجامعات احتجاجًا على الأحكام الهزيلة التى صدرت ضد قيادات الجيش ، والتصرفات الخاطئة لحزب الحكومة ، ومظاهر الاستغلال والفساد هنا وهناك ، واستطاعت الحكومة أن تمتص غضب الجماهير باتخاذ بعض الإجراءات العلنية ، وكان منها إعادة محاكمة قيادات الجيش مرة أخرى ، وصدور أحكام أخرى قاسية عليهم ، لكنها كانت دون الإعدام ، ولا شك أن الحديث كان يدور همسًا حول مأساة المشير عبد الحكيم عامر الذى انتحر منذ فترة ، وكانت هناك شائعات قوية تؤكد أنه قتل ولم ينتحر ، وأن تقرير الطب الشرعى عن موته إنما هو ملفق ، وفى الوقت نفسه سقطت هيبة كثير من رجال السلطة الذين لم يكن أحد بمستطيع أن يتناولهم قبل ذلك بالنقد ، وكتب الأستاذ د . عبد العزيز كامل ، وهو من قيادات الإخوان البارزة ، دراسة حول « دروس من غزوة أحد » ، ونشر الكتاب فى دار المعارف ضمن سلسلة « إقرأ » وأعجب به الرئيس جمال عبد الناصر ، وبعد فترة عين الدكتور عبد العزيز كامل وزيرًا للأوقاف ، وكان الأمر مثار جدل أيضًا فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين المنحلة ، وفى الوقت نفسه صعد نجم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد وهو من الإخوان أيضًا ، وظل نجمه يصعد حتى عين فيما بعد وزيرًا للشباب ، ثم تولى بعد ذلك وزارة الإعلام وبعدها اختلف مع الرئيس السادات بعد موت عبد الناصر ، فقدم استقالته .

ويلاحظ أن هناك ما يقرب من خمسين مسجونًا من الإخوان بقوا رهن السجن منذ عام ١٩٥٤ وعام ١٩٥٥، لأنهم أصروا على موقفهم المعادى للحكومة ، وبالإضافة إلى بعض المعتقلين الذين اتخذوا نفس الموقف ، وظل هؤلاء وأولائك سجناء حتى جاء عهد الرئيس أنور السادات الذى أفرج

عنهم جميعًا ، وكان من بين المسجونين الذين طال سجنهم الأستاذ عمر التلمسانى ثالث مرشد للإخوان بعد ذلك ، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع للإخوان ، والأستاذ مصطفى مشهور وكيل الإخوان حاليًا ، وكذلك صديقى ورئيس مجموعتى السابق الأستاذ عبد المنعم سليم وغيرهم .

وبدأت مرة أخرى محاولات مستميتة كى أستطيع السفر إلى الكويت ، وتلقيت وعدًا شفويًا بالموافقة من وزارة الداخلية ، وذهبت إلى مبنى المجمع بميدان التحرير بالقاهرة لكى أعرف هل وصلت تأشيرة الخروج أم لا ، لكنى علمت أنها لم تصل ، فعدت مرة أخرى إلى الداخلية التى قالت أنها بعثت بها ، لكنى فى الأيام التالية ترددت على مبنى المجمع ، فلم أجدها واستمر هذا الوضع شهرين حتى كدت أيأس . وكان هناك مكان للانتظار فى إدارة الجوازات ، طالت جلساتى فيه ، وفى يوم من الأيام سألت بعض الجالسين ، فاكتشفت أنهم جميعًا مثلى من السياسيين ، وينتظرون على أحر من الجمر تأشيرة الخروج ، وأخيرًا وبعد شهرين من بداية عام ١٩٦٨ نجح مسعاى بعون الله ، وحصلت على تأشيرة الخروج ، وأخذت أعد العدة للسفر ، فبعت بعض الأثاث فى البيت ، واشتريت تذكرة طائرة ذهابًا وإيابًا حسب القانون على شركة مصر للطيران ، وقبل أن أسافر ذهبت إلى قريتى شرشابة لكى أودع أهلى ، إذ من المحتمل ألا أعود إلى مصر مرة أخرى فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

كنا قد بعنا بيتنا القديم في وسط القرية ، واشترى أبى فدانًا من الأراضى الزراعية فى أطراف القرية تصلح أرضًا للبناء ، وبدأنا فعلًا فى إقامة بيت جديد من الطوب الأحمر ، كما بدأنا إدخال الماء وبعده الكهرباء ، ونظرًا لأن البيت لم يكن قد اكتمل بناؤه والمشترى يريد أن يتسلم بيتنا الذى بعناه ، فقد انتقلنا بصفة مؤقتة إلى بيت أحد أبناء العمومة ، فأكرم ضيافتنا وهو الأخ إبراهيم بن محمد بن أحمد عبد اللطيف ، ويعمل بالشرطة .

حانت لحظة الوداع ، وكانت أمى تبكى بحرارة وتتشبث بى . وأبى يهدئ من انفعالها ويقول لها إن هذه ليست المرة الأولى التى اغترب فيها ، وأن حياتى كلها غربة ، ومع ذلك فقد كانت عيناه هو الآخر مبللتين بالدموع ، وأمى تقول له إن هذه هى المرة الثانية التى يذهب فيها إلى بلاد أخرى خارج القطر المصرى ، وكانت الأولى رحلة لمدة شهر ، أما هذه فقد تطول الغيبة إلى سنين ، ولا تكف عن القول : « منه لله اللى كان منه السبب » .

وهى تقصد بذلك الحكومة التى تطاردنا وتضيق علينا الخناق ، وتجرنا إلى السجون والمعتقلات من آن لآخر ، لكنى كنت أهدئ من روعها ، وأؤكد لها أننا ذاهبون إلى بلاد جميلة مليئة بالخيرات والآمان والرزق الواسع ، وليس فيها سجون لنا أو معتقلات ، فكانت تقول أن الوطن غال وعزيز وتردد الحكمة الشعبية التى تقول : « عزّك تلّك .. » .

فأضحك وأقول لها : « سيكون لنا تل جديد هناك نعزّ فيه » .

احتضنتنى بقوة وهى تقول : « الله معك .. » .

ثم أردفت بدعائها المأثور الذى كانت تقوله جدتى دائمًا : « يجعل فى وشّك جوهرة ، وفى حنكك سكرة ، ويحبب فيك خلقه .. ويردك لنا سالمًا .. » .

وأبى يقف صامتًا محتقن العينين .

وقبلت يد أمى .

ثم قبّلت يد أبى .

وانتزعت نفسى انتزاعًا ، وهرولت خارجًا ، وبعد أن ركبت السيارة تنفست الصعداء .

كان الوداع مهمة شاقة ..
ولم أكن أعرف متى سأعود .
ويتردد فى أرجاء نفسى تلك الأشعار التى كتبتها ذات يوم :

قد طال ترحالى فهل لمسافرٍ يومًا مآبْ ؟
أترى أعود لقريتى وتعود أحلام الشبابْ ؟
وأرى أبى والحاملين فئوسهم عبر الشعابْ ؟
العائدين من الحقول يلفّهم ليل السرابْ ؟
الكادحين
هم يا حبيبة أهلنا ، فى ظلهم ذقنا الحياة
حيث الأوز جوارنا يخطو وتصطرع الشياه
كل يخط على الثرى حقلًا بأوسطه قناه
يمضى على سنن الجدود مقلدًا فيها أباه
يا للحنين
هم يا حبيبة صانعو التاريخ آمال الغدِ
قنعوا بما دون القليل قناعة لم توجد
أعطوا ، وما أخذوا سوى ذاك القديد الأسود
الله يعلم أنهم سر الكفاح السرمدي
الصابرون

وكنت أتطلع عبر نافذة السيارة إلى البيوت فى القرية ، وإلى وجوه الفلاحين السمراء ، والصبايا يحملن الجرار على رءوسهن ، وأشجار السرو والتوت والجميز ، وكأنى ألقى تحية الوداع لكل ما تقع عليه عينى .

فى الواحد والثلاثين من شهر مارس عام ١٩٦٨ ، أى فى اليوم التالى لبيان ٣٠ مارس الشهير الذى أعلنه عبد الناصر ، كخطة جديدة للعمل السياسى وتحرير الأرض ، أقول فى اليوم الأخير من هذا الشهر ، توجهت أنا وأخى الأستاذ محمد على حسن إلى مطار القاهرة الدولى متجهين إلى مدينة الكويت التى بدت فى خيالى وكأنها حلم جميل ..

صادفتنا بعض المشاكل فى إجراءات السفر بالمطار ، ويبدو أن رجال الأمن أرادوا أن يشعرونا بأننا مسافرون وهم على علم بسفرنا ، وأنهم هم الذين يسروا لنا هذا السفر ، عندما حلقت بنا الطائرة فى الجو قال صديقى وأخى محمد على حسن ووجهه يشرق بالسعادة القصوى : « لقد نجونا » .

قلت له : « إن القاهرة لم تغادر الحدود المصرية بعد » .

قال : « لكأننى فى حلم ، لا أكاد أصدق ، هل استطعنا فعلًا الخروج من مصر ، بعد أن منعنا من ذلك سنوات طويلة ؟ ؟ »

تنهدت ، وأغمضت عينى لأجول بخيالى فى دنيا الماضى المزدحم بالذكريات ، الغاص بالآلام ، وأتذكر محطات حياتى الحافلة والحاسمة ، ثم تذكرت زوجتى .. آه أيتها المسكينة كم تعانين معي شقاء السنين العاصفة .. قالت لى وأنا أودعها هى والأطفال : « عندما تصل سالمًا بإذن الله فلا تنسنى أو تنس أولادك ، نحن لا نستطيع العَيش هنا بدونك .. أرجو ألا يطول انتظارى ، وبعد أن تحصل على عمل

أسرع بإرسال فيزة الدخول لنا حتى نلحق بك .. هذا أول شيء تفكر فيه .. سأعيش معك هناك على الحلوة والمرة ، ولن أضيق بالحياة هناك أبدًا مهما كانت صعبة .. أنا على استعداد لأن أعيش فى كوخ على شاطئ الخليج العربى وآكل خبزًا وملحًا .. المهم أن نكون معًا .. أنا واثقة أن الحياة ستحلو لنا .. وسنكون أكثر سعادة وأمنًا ، وسنجد الاستقرار الذى طالما حلمنا به ..» .

ودمعت عيناها وهى تقول : « لا أقول وداعًا .. ولكن إلى اللقاء .. لا إله إلا الله » .

قلت لها : « محمد رسول الله » .

قبلت الأطفال الثلاثة ، وقلبى ينوح بصوت مكتوم ..

إن صورة الأحباب تتجلى فى مخيلتى أبى .. أمى .. زوجتى .. أطفالى ..إخوتى وأخواتى .. أعمامى وأقاربى .. زملاء العمل .. حتى الأماكن التى ألفتها .. ورأسى يثقل وأكاد أنام وأنا أتملى تلك المشاهد والصور .. وأنظر عبر نافذة الطائرة ، فأرى السماء الزرقاء الصافية توحى بالسلام والأمان ..

وتقدم إلينا المضيفة الجميلة ، وتقول وهى باسمة : « ماذا تطلب من الشراب ..»

قلت وأنا أتذكر الرؤيا التى رأتها زوجتى فى منامها ذات مساء : - « عصير مانجو » .

وغدًا يوم جديد ، وفجر جديد

والأيام تمضي... والقافلة تسير

الدكتور نجيب الكيلاني

١٤١٤هـ

١٩٩٤م

❁❁❁

# فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة



❁❁❁